

الجزالاول

جعفر السبحانی التبریزی


بسم الله الرحمن الرحیم

بحوث فی الملل و النحل

کاتب:

جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعهٔ:

موسسهٔ النشر الاسلامی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

بحوث فی الملل و النحل – الجزء الأول (الحنابلة)

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی جعفر، - ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : بحوث فی الملل و النحل : دراسه موضوعیه مقارنه للمذاهب الاسلامیه تالیف جعفر السبحانی مشخصات نشر : قم اداره الحوزه العلمیه بقم الجماعه المدرسین فی الحوزه العلمیه بقم موسسه النشر الاسلامی ۱۴۱۴ق = - ۱۳۷۲.

فروست : (موسسه النشر الاسلامی جامعه المدرسین بقم ۷۲۰، ۷۲۱، ۷۲۲، ۷۲۳، ۷۲۵: مرکز مدیریت حوزه علمیه قم ۱، ۲۶)

شابک : بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : ج ۱ (چاپ دوم ۱۳۷۱)؛ بها: ۱۸۰۰ ریال یادداشت : جلد اول و چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳؛ بها: ۴۰۰۰ ریال‌جلد پنجم (چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳)؛ بها: ۵۵۰۰ ریال (موسسه النشر الاسلامی جامعه مدرسین بقم)۷۲۴

یادداشت : جلد اول (چاپ چهارم ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴؛ بها: ۶۵۰۰ ریال یادداشت : ج ۴(چاپ پنجم ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵)؛ ۷۶۰۰ ریال یادداشت : ج ۷(چاپ اول ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۸(چاپ اول موسسه الامام الصادق ۱۴۱۸ق = ۱۳۷۶)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۱۴۱۲ ق = ۲۵۰۰ :۱۳۷۱ ریال یادداشت : ج ۶ (چاپ چهارم ۱۴۲۴ق = ۱۳۸۲): ۳۴۰۰۰ ریال یادداشت : کتابنامه مندرجات : ج ۱. تاریخ عقائد اهل الحدیث و الحنابله و السلفیه .-- ج ۲. تاریخ الامام الاشعری و انصاره و عقائدهم .-- ج ۳. و یتناول تاریخ و عقائد الماتریدیه و المرجئه .-- ج ۴. حیاه ابن‌تیمیه و ابن‌عبدالوهاب و عقائدهما .-- ج ۶. تاریخ الشیعه نشاتهم عقائدهم و شخصیاتهم .-- ج ۷. یتناول شخصیه و حیاه الامام الثائر زیدبن علی و تاریخ الزیدیه و عقائدهه -- ج ۸. الاسماعیلیه و فرق الفطیحه ...--

موضوع : اسلام -- فرقه‌ها

شناسه افزوده : جامعه مدرسین حوزه علمیه قم دفتر انتشارات اسلامی شناسه افزوده : حوزه علمیه قم مرکز مدیریت رده بندی کنگره : BP۲۳۶/س۲ب۳ ۱۳۷۲

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۵

شماره کتابشناسی ملی : م۷۳-۲۱۵۵

مقدّمة الطبعة الأُولى

مقدّمة الطبعة الأُولى دراسة العقائد للأخذ بالموقف الحقّ

إنّ الوقوف على آراء وعقائد المذاهب المختلفة وتحليلها، ومعرفة أدلّتها من أفضل أنواع الدراسة والتحقيق، فهو السبيل الأفضل لمعرفة الرأی الأصوب، والموقف الأحقّ بالأخذ والاتّباع، وهو الأسلوب الذی سلكه القرآن الكريم فی مواجهاته العقائدية مع أصحاب المذاهب والاتّجاهات الفكرية المضادة وقد حثّ عليه إذ قال تعالى: (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ) (۱) أو قال: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه) .(۲) وقد كان المسلمون هم السبّاقين إلى هذا المنهج وهذا الأسلوب من الدراسة والتحقيق، ولهذا نرى فی المكتبات والدراسات الإسلامية كتباً فی الفقه المقارن، والعقائد المقارنة، وغير ذلك من حقول المعرفة والثقافة. ونظراً لأهمية هذا الأسلوب فی عصرنا الحاضر طلبت منی«لجنة إدارة الحوزة العلمية» فی قم المقدسة، إلقاء سلسلة محاضرات فی آراء ومعتقدات الطوائف المختلفة التی شهدتها الساحة الفكرية الإسلامية فی العصور اللاحقة لوفاة النبی الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، وذلك فی إطار من

التحليل، والمقارنة والدراسة والتقييم، فلبّيت هذا الطلب وتم بتوفيق اللّه تعالى إلقاء مجموعة من المحاضرات فى هذا المجال، ليكون مقدّمة للمرحلة التخصّصية. ثمّ حبذت لجنة الإدارة طبع ونشر هذه المحاضرات حتى يستفيد منه عامة ______________

١ . البقرة: ١١١.

٢ . الزّمر: ١٨. (۶)

طلاّب الدراسات الإسلامية، فأخرجتها فى عدة أجزاء، وهذا هو الجزء الأوّل الذى يقدّم للقرّاء. فشكراً لهذه اللجنة على اهتمامها بهذه العلوم، ووفّقها اللّه للمزيد من تقديم الخدمات الثقافية المفيدة إنّه سميع مجيب الدعاء. هذا، والرجاء من القرّاء الكرام تزويدنا بنقدهم البنّاء حتى تكتمل هذه المباحث بإذنه تعالى. جعفر السبحانى

قم ـ الحوزة العلمية

يوم ميلاد فاطمة الزهراء ـ عليها السَّلام ـ

٢٠ جمادى الأُولى/١۴٠٨هـ (٧)

مقدّمة الطبعة الثانية

مقدّمة الطبعة الثانية مؤرّخ العقائد ومسؤوليته الخطيرة

التاريخ من العلوم الإنسانية التى اهتم بها البشر منذ فجر الحضارة، وقد قام إنسان كلّ عصر وجيل بضبط الحوادث التى عاصرها وعايشها أو تقدّمت عليه، بمختلف الوسائل من أبسطها إلى أعقدها حيث كان يسجل الحوادث، يوماً بالنقش على الأحجار والجدران، ويوماً بالكتابة على الجلود والعظام وجريد النخل، ويوماً بالتحرير على القراطيس والأوراق حتى وصل إلى ما وصل إليه فى العصر الحاضر من وسائل الإعلام والنشر. وقد قدّم بعمله هذا إلى الأجيال المتأخّرة كنزاً ثميناً، ورصيداً فكرياً غالياً وغنياً وتجارب ملؤها العبر والدروس، والمواعظ والنصائح التى لا يوجد نظيرها فى أىّ مختبر من مختبرات العالم سوى فى هذا المختبر(التاريخ). (لَقَدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولى الأَلْباب) .(١)

وربما يتصوّر متصوّر أنّ تسجيل التاريخ وضبط الحوادث أمر سهل لا يستدعى سوى الشعور بالوقائع، ومعرفة اللغة والكتابة، ولكنّنى أعتقد ـ ككثير ممّن لهم إلمام بالمسائل التاريخية ـ أنّ كتابة التاريخ الحقيقى الصحيح الذى يمكن أن يكون مساقط العبر والاعتبار، ومهابط الوعظ والنصح، أمر مشكل جداً، لأنّ الهدف من تسجيل الحوادث، هو: إراءتها للأجيال المتأخّرة على ما هى عليه سواء أكانت الحوادث بعامّة خصوصياتها موافقة مع ميوله ______________

١ . يوسف: ١١١. (٨)

ونزعاته أم لا، وسواء أكانت لصالح المؤرّخ وقومه أم لا ;ومن المعلوم أنّ القيام بذلك، يتوقّف على كون المؤرّخ رجلاً موضوعياً متبنّياً للحقيقة، ومحباً لها أكثر من حبه لنفسه ونفيسه و مصالحه، و لكن هذا النمط نادر بين المؤرّخين و لا يقوم به منهم إلاّ الأمثل فالأمثل ولا يأتى بمثله الزمان إلاّ فى الفينة بعد الأُخرى ;ولأجل ذلك قلّ المؤرّخون الموضوعيون المنصفون، فإنّ أكثرهم يركّزون على ما يروقهم وما يلائم أهواءهم والمذهب الذى يعتنقونه،ويتركون ما سوى ذلك، وليس هذا شيئاً محتاجاً إلى البرهنة والاستدلال، بل يتّضح بالرجوع إلى ما أُلّف من التواريخ أيّام الدولتين: الأموية والعباسية، فكلّ يخدم الحكومة التى كانت تعاصره وتدر عليه الرزق، ومن ثمّ صارت التواريخ علبة المتناقضات، وما ذاك إلاّ لأنّ الكاتب لم يراع واجبه الأخلاقى والاجتماعى وقبل كلّ شىء مسؤوليته الدينية. تاريخ العقائد وتسجيل الفرق

هذا فيما يرجع إلى مطلق التاريخ والوقائع التى يواجهها المؤرّخ فى كلّ عصر ومصر سواء أكانت راجعة إلى الملوك والساسة، أو السوقة والشعوب، وأمّا تبيين عقائد الأُمم ومذاهبها التى كانت تدين أو تتمذهب بها على ما هى عليه، فذاك أمر صعب مستصعب،

وأشكل من القيام بالرسالة المتقدّمة فى مجال تسجيل الحوادث وضبط الوقائع، وما هذا إلّا لأنّ المؤلّف فى هاتيك المجالات ـ إلّا ما شذّ ـ مشدود إلى نزعات دينية وعقائد قومية ترسّخت فى ذهنه ونفسه وروحه،والفكرة الدينية صحيحة كانت أو باطلة من أحبّ الأشياء عند الإنسان وربما يضحّى فى سبيلها بأثمن الأشياء وأغلاها. هذا من جهة ومن جهة أُخرى: إنّ القيام بهذه المهمة فى مجال تاريخ العقائد يتوقّف على تحلّى المؤرّخ بالشجاعة الأدبية والعلمية حتى يتمكّن بهما من البحث الموضوعى حول عقائد الشعوب وعرضها على ما هى عليه، والقيام بهذا الواجب عند فقدان هذين العاملين مشكل جدّاً، ومن ثمّ يتحمّل مؤرّخ العقائد مسؤولية جسيمة أمام اللّه أوّلاً، وأمام وجدانه ثانياً، وأمام الأجيال القادمة والتاريخ ثالثاً. (۹)

ومن المؤسف أنّ أكثر من قام بتدوين عقائد الملل لم يتجرّد عن أهوائه وميوله ومصالحه الشخصية وغلبت نزعاته وعواطفه الدينية وتعصّباته الباطلة على تبنّى الواقع وإراءة الحقيقة، فترى أنّ أكثرهم يكتب عقيدة نحلته بشكل مرغوب منمّق ويحاول أن يصحّح ما لا يصحّ ولو بتحريف التاريخ وإنكار المسلّمات، وأمّا إذا أراد الكتابة عن عقائد الآخرين فلا يستطيع أن يكن عداءه لها، ولهذا يحاول أن يعرضها بصورة مشوّهة، فيأتى فى غضون كلامه بنسب مفتعلة وآراء مختلقة وأكاذيب جمّة نزولاً على حكم العاطفة الدينية الكاذبة، أو اعتماداً على الكتب التى لا يصحّ الاعتماد عليها، أو تساهلاً فى ضبط العقائد والمذاهب، إلى غير ذلك من العوامل التى صارت سبباً لحيرة الأجيال المتأخّرة فى مجال التعرّف على عقائد الأقوام والملل، وضلالها وإساءة الظن فيها. وأخصّ من بين تلك العوامل، الاكتفاء فى تبيين عقائد قوم بالرجوع إلى كتب خصومهم وأعدائهم، وهذا داء عمّ أكثر مؤرّخى العقائد والنحل، نظير من ألّف من الأشاعرة فى ضبط عقائد المعتزلة، فهم يكتبون عن المعتزلة فى ضوء ما وجدوه فى كتاب إمام الحنابلة (أحمد بن حنبل) أو إمامهم(أبو الحسن الأشعرى) فينسبون إليهم أُموراً لا ـ تجد لها أثراً فى كتبهم، بل تجد نقيضه فيها، ولأجل ذلك صارت المعتزلة مهضومة الحق. وليست المعتزلة هى الفرقة الوحيدة التى تعرّضت لمثل هذا الهضم، بل قد تحمّلت الشيعة الإمامية القسط الأوفر من الاضطهاد والهضم، وكأنّ أصحاب المقالات والفرق اتّفقت كلمتهم على الكتابة عنهم من دون مراجعة ـولو عابرة ـ إلى مصادرهم ومؤلّفاتهم، وكأنّ عرض الشيعة حلال ينهبه كلّ من استولى عليه بقلمه وبيانه، والقوم يكتبون عن الشيعة كلّ شىء وليس عندهم من الشيعة شىء سوى كتب أعدائهم وخصمائهم ومن لا يحتج به فى باب القضاء والحجاج. وها نحن نقدّم نموذجاً فى هذا الباب ونشير إلى كتابين أحدهما لبعض المتقدمين والآخر لبعض المعاصرين، فنرى كيف أنّهما تساهلا فى عرض عقائد الشيعة ونزلا على حكم العاطفة، ورمياها بكلّ فرية، وكأنّ الصدور مملوءة بالحقد والعداء، وإليك البيان: (۱۰) الشهرستانى وكتابه «الملل والنحل»

إنّ كتاب «الملل والنحل» للمتكلّم الأشعرى «أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى»(المتوفّى سنة ۵۴۸هـ) من الكتب المشهورة فى هذا الباب وأكثرها تداولاً بين أترابه، ولعلّ كثيراً من أهل العلم لا يعرفون كتاباً فى هذا الموضوع سواه. ومع هذه الشهرة ترى فى طيّات الكتاب نسباً مفتعلة وآراء مختلقة عندما يعرّف الشيعة، ممّا يندى له الجبين،ويخجل القلم من تحريره وتسطيره، وإليك بعض ما نسبه إليهم: ۱. من خصائص الشيعة القول بالتناسخ والحلول والتشبيه.(۱) ۲. إنّ الإمام الهادى ـ عليه السَّلام ـ ـ عاشر الأئمّة الاثنى عشر ـ توفّى بقم ومشهده هناك.(۲) ۳. إنّ هشام بن الحكم كان يقول: إنّ للّه جسماً ذا أبعاض فى سبعة أشبار بشبر نفسه فى مكان مخصوص وجهة مخصوصة.(۳) ۴. إنّ علياً إله واجب الطاعة(۴)!! إلى غير ذلك من النسب الكاذبة التى نسبها إلى متكلّم الشيعة ربيب بيت الإمام جعفر الصادق ـ عليه السَّلام ـ «هشام بن الحكم» وإلى نظرائه كهشام بن سالم وزرارة ابن أعين ومحمد بن النعمان ويونس بن عبدالرحمن. هذا مع العلم بأنّ هؤلاء ـ أعاظم الشيعة ـ كانوا يقتفون أثر أئمتهم ولم يكونوا يعتنقون مبدأ إلّا بعد عرضه عليهم، ومن المعلوم أنّ أئمّة أهل البيت ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . الملل و النحل:۱/۱۶۶.

۲ . نفس المصدر.

۳ . الملل والنحل:۱/۱۸۴، وهو فى هذا الافتعال تبع عبد القاهر البغدادى فى «الفَرْق بين الفِرَق» ص ۶۵، والشيخ الأشعرى فى «مقالات

الإسلاميين»:۱/۱۰۲ و... والأخير هو الأساس لأكثر من كتب فى الملل والنحل.

۴ . الملل والنحل:۱/۱۸۵. (۱۱)

وهم دعاة التنزيه كانوا يكافحون البدع اليهودية والمسيحية والمجوسية التى كانت تدور بين أندية أهل الحديث حتى قيل: «التوحيد والعدل علويان والتجسيم والجبر أمويان». فمن راجع كتب الشيعة وأحاديث أئمّتهم يجد أنّهم حكموا بكفر القائلين بالتناسخ والحلول والتشبيه و أُلوهية غيره سبحانه، فكيف ينسب هذا الكاتب ـ بصلف ووقاحة ـ هذه الأُمور إلى تلاميذ قرناء الكتاب وأعداله؟!! وأعجب من ذلك أنّه يختلق للشيعة فرقاً لم تسمع بها أذن الدهر وإنّما توجد فى كتب أعدائهم، فمن هشامية إلى زرارية إلى يونسية إلى... من الفرق التى لا ـ توجد لا ـ فى كتب القصّاصين المحترفين للكذب، ولا فى علب العطّارين. والشيعة وعلماؤهم ـ و فى مقدّمتهم السيد الشريف المرتضى ـ يكذّبون هذه الفرق، وقد شطبوا على وجودها بقلم عريض وهم لا يعرفونها وإنّما اختلقتها الأوهام لإسقاط الشيعة من عيون الناس. هذا بعض ما يوجد فى هذا الكتاب وأعجب منه أنّه يعرف الإمام الهادي ـ عليه السَّلام ـ ـ الإمام العاشر للشيعة ـ بأنّه مدفون بقم مع أنّه دفن بسامراء يزوره القريب والبعيد، وقد دفن إلى جنبه ولده الزكى «الحسن بن على»، والتواريخ والمعاجم طافحة بذكرهما وموضع قبرهما.(۱) هذا نموذج من زلّات هذا المؤرّخ وهو من القدماء. وهلمّ معى إلى نموذج آخر و هو من متأخّرى القوم ومتنوّريهم، العائشين فى عصر النور والأمانة التاريخية والعلمية. النشار وكتابه «نشأة الفكر الفلسفى»

الكتاب للدكتور «على سامى النشار» يقع فى ثلاثة أجزاء أو أزيد، وقد ــــــــــــــــــــ

۱ . راجع وفيات الأعيان لابن خلّكان:۳/۲۷۲ـ ۲۷۳ وغيره. (۱۲)

خص الجزء الثانى من كتابه ببيان عقائد الشيعة وهو يحاول فى مقدّمته أن يكتب عن عقائد الفرق بصورة محايدة، وهو يقول فى مقدمة الطبعة السادسة: ولكنّى ما زلت أرى أنّ التفسير الموضوعى المحايد هو أهمّ تفسير فى دراسة الفكر عامة والفكر الإسلامى خاصة.(۱) وربما يتصوّر الإنسان أنّ لما ذكره مسحة من الحق أو لمسة من الصدق، ولكنّه عندما يسبر الكتاب ويلاحظ ما فى غضونه من النسب إلى الشيعة يقف على أنّ ما ذكره فى المقدّمة واجهة ستر بها كلّ ما فى الكتاب من العداء المستكن وأنّه لا يريد إلّا إبطال عقائد الشيعة ولو بالنسب الباطلة، والحقّ أنّ الدكتور النشار وضع منشاره على حياة الشيعة تاريخاً وعقيدة، ولا يرسم عن تلك الطائفة إلّا أُموراً مشوّهة وعقائد باطلة، والكتاب يحتاج جداً إلى نظارة التنقيب، وإليك نموذجاً من نسبه المفتعلة: ۱. يقول عند البحث عن الإيمان: ونلحظ أنّ فى رأى «جهم» عنصراً شيعياً، فالإيمان عند الشيعة هو معرفة بالقلب فقط.(۲) ۲. إنّ الرجل يصر على إنكار كون على ـ عليه السَّلام ـ رائد الفكر الفلسفى فى الإسلام حتى جر عداؤه لعلى ـ عليه السَّلام ـ إلى إنكار النص الذى صدر عنه فى منصرفه عن «صفين» حول القضاء والقدر وذهب إلى أنّ النص موضوع، قائلاً بأنّ الذين أرادوا أن يحاربوا أهل السنّة فى الروايات التى رووها عن على ـ عليه السَّلام ـ حول القدر، التجأوا إلى وضع هذا النص، وقد زعم أنّ جاعل هذا النص هو المعتزلة.(۳) أمّا كون على ـ عليه السَّلام ـ رائد الفكر العقلى فنترك البحث فيه إلى آونة أُخرى ويكفينا فى ذلك تراثه الوحيد: «نهج البلاغة» وأمّا كون النص مجعولاً من جانب المعتزلة فهذا ناجم من جهله بمصادر نهج البلاغة فقد رواها علماء الشيعة ــــــــــــــــــــ

۱ . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام:۱/۱۷.

۲ . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام:۱/۳۴۵ الطبعة السابعة، وستوافيك عقيدة الشيعة فى حقيقة الإيمان عند البحث عن عقائد المرجئة، فلاحظ الجزء الثالث.

۳ . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام:۱/۴۱۲. (۱۳)

أنفسهم بلا توسيط أحد من المعتزلة، وسيوافيك بيانه فى هذا الجزء عند البحث عن الرسائل الثلاث حول القدر. والذى أوقعه فى هذا الخبط والخلط لدى عرض تاريخ الشيعة وعقائدهم هو أنّه اعتمد فى دراسته على كتب خصمائهم وأعدائهم من دون أن يعتمد على مصادر الشيعة المتوفرة، إلّا قليلاً لا يكفى. فاعتمد أوّلاً على كتاب «أبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى»(المتوفّى عام

٣٧٧هـ) باسم «التنبيه والردّعلى أهل الأهواء والبدع» نشر عام ١٣٩٩هـ والكاتب حنبلى حشوى قد حشد فى كتابه شيئاً كثيراً من الأكاذيب ونسب أُصولاً إلى الصحابة والتابعين بسند مزوّر كما سيوافيك بيانه فى هذا الجزء. أفيصحّ فى ميزان النصفة الكتابة عن أُمّة كبيرة يعدّون ربع المسلمين بالنقل عن كاتب حشوى وكتاب حشو؟! والعجب أنّ الدكتور عرفه بأنّه أوّل من كتب حول الشيعة من أهل السنّة مع أنّ الإمام الأشعرى أسبق منه، فقد كتب عن الشيعة فى «مقالات الإسلاميين» شيئاً كثيراً، وقد توفّى الإمام عام ٣٢٤هـ وعلى احتمال ضعيف ٣٣٠هـ فكيف يكون الملطى أوّل من كتب حول الشيعة من أهل السنة؟!! واعتمد ثانياً على كتاب «الفرق بين الفرق» لأبى منصور عبد القاهر البغدادى(المتوفّى عام ٤٢٩هـ) ومن راجع هذا الكتاب لمس منه ـ مضافاً إلى البذاءة فى اللسان ـ تعصّباً فى بيان عقائد الفرق ونوقفك على نموذج من هذا، فقد قال فى خلال بيان أصناف فرق السنّة والجماعة: ولم يكن بحمد اللّه ومنّه فى الروافض و... إمام فى الفقه ولا إمام فى رواية الحديث ولا إمام فى اللغة والنحو، ولا موثوق به فى نقل المغازى والسير والتواريخ ولا إمام فى الوعظ والتذكير ولا إمام فى التأويل والتفسير، وإنّما كان أئمّة هذه العلوم على الخصوص والعموم من أهل السنّة والجماعة.(١) وقال فى موضع آخر: ـــــــــــــــــ

١ . الفرق بين الفرق للبغدادى:ص ٢٣٢ طبع دار المعرفة، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. (١٤)

يا أيّها الرافضة المبطلة * دعواكم من أصلها مبطلة(١) هذا أدب الرجل وسيرته فى الكتاب كلّه، ونحن نمر عليه مرور الكرام ونقول: الدعوى الأُولى دعوى بلا بيّنة وبرهان وإنكار وجود الأئمّة فى مجالات هذه العلوم بين الشيعة كإنكار البديهيات، ولا نطيل الكلام فى ردّه بذكر أسماء أئمتهم فى مختلف المجالات والأُمور، وكفانا فى ذلك كتاب «تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام» تأليف السيد حسن الصدر(المتوفّى عام ١٣٥٤هـ). غير أنّى أتعجب من هذه الفرية القارصة، وكيف نفى وجود شخصيات علمية عند الشيعة مع أنّه كان معاصراً للشيخ المفيد(المتوفّى عام ٤١٣هـ) الذى يقول فى حقّه اليافعى: كان عالم الشيعة وإمام الرافضة صاحب التصانيف الكثيرة، شيخهم المعروف بالمفيد وبابن المعلم أيضاً، البارع فى الكلام والجدل والفقه، وكان يناظر أهل كلّ عقيدة مع الجلالة والعظمة فى الدولة البويهية.(٢) ويعرّفه ابن كثير فى تاريخه بقوله: كان مجلسه يحضره كثير من العلماء من سائر الطوائف.(٣) كيف يقول ذلك وبيئة بغداد تجمع بينه و بين الشريف المرتضى(المتوفّى عام ٤٣٦هـ) الذى يعرّفه ابن خلّكان فى تاريخه ويقول: كان إماماً فى علم الكلام والأدب والشعر.(٤) وقال الثعالبى: قد انتهت الرئاسة اليوم ببغداد إلى المرتضى فى المجد والشرف والعلم والأدب والفضل.(٥) واعتمد ثالثاً على كتاب «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» تأليف «ابن حزم» الأندلسى الظاهرى (المتوفّى ٤٥٦هـ) وكفى فى التعرّف على نفسية ـــــــــــــــــ

١ . نفس المصدر: ٧١.

٢ . مرآة الجنان:٣/٢٨.

٣ . تاريخ ابن كثير:١٢/١٥.

٤ . وفيات الأعيان:٣/٣١٣.

٥ . تتميم يتيمة الدهر:١/٥٣. (١٥)

هذا الرجل وشذوذه أنّه صوب فعل قاتل الإمام أمير المؤمنين بحجّة أنّه كان مجتهداً متأوّلاً مثاباً فى عمله هذا، وإليك نصّ عبارته: «إنّ عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل علياً(رضى اللّه عنه) إلاّ متأوّلاً مجتهداً مقدراً أنّه على صواب، وفى ذلك يقول«عمران بن حطان» شاعر الصفرية: يا ضربة من تقىّ ما أراد بها * إلاّليبلغ من ذى العرش رضواناً»(١) والقارئ الكريم جد عليم بأنّه لا قيمة لهذا الاجتهاد الذى يؤدّى إلى قتل الإمام المفترض طاعته بالنصّ أوّلاً، وبإجماع الأُمّة ثانياً، ولنعم ما أجاب به معاصره القاضى أبو الطيب طاهر بن عبد اللّه الشافعى فقال: يا ضربة من شقى ما أراد بها * إلاّ ليهدم للإسلام أركاناً(٢) فإذا كان هذا حال المؤلّف ونفسيته ونزعاته، فكيف يكون حال من استند إلى مثله غير أنّ الجنس إلى الجنس يميل؟!! منهجنا فى دراسة المذاهب

فلأجل هذا الخبط والتخليط فی أكثر كتب الملل والنحل خصوصاً فی كتاب إمام الأشاعرة«مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين» ولا سيما فی ما يرجع إلی المعتزلة والشيعة فإنّه الأساس لكلّ من كتب بعده، كـ«الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادی و «الملل والنحل» للشهرستانی وغيرهما من المتأخّرين،فقد توخّينا أن لا نعزو إلی مذهب شيئاً إلاّ بعد الوقوف عليه فی كتبهم المؤلّفة بأيدی أساطينهم وأقلام علمائهم، ولا- نكتب عن طائفة إلاّ- بعد توفير المصادر واستحضار المنابع والرجوع إليها بدقة وإمعان. إنّ منهجنا فی دراسة المذاهب وعقائد الفرق يبتنی على دعامتين: الأُولی: تبنّی الواقع فی عزو مقال إلی قوم، وذلك لما عرفت. ________

۱ . المحلی :۱/۴۸۵.

۲ . مروج الذهب:۲/۴۳،ولنا مع ابن حزم بحث ضاف سيوافيك فی الجزء الثالث عندالبحث عن الحركات الرجعية فی القرون الأُولی. (۱۶)

الثانية: العناية بتحليل عقائد الأُمم ونقدها، فإنّ الغالب على كتاب «الملل والنحل» هو سرد العقائد من دون نقد أو تحليل، وكأنّهم زعموا أنّ واجب المؤرّخ لا- يتعدّى بيان الحوادث فی التاريخ، وعرض العقائد فی مجال الملل والنحل، وكأنّ إحقاق الحقّ واجب المتكلّم فقط، ونحن ضربنا عن هذا صفحاً وتوخّينا بيان الحقّ على وجه يناسب كتاب «الملل والنحل»، وهذا هو المنهج الذی مشينا عليه فی أجزاء الكتاب كلّها، وهو تحقيق الموضوع الذی طرح للبحث من جانب كلّ فرقة وملة. ولأجل ذلك أصبح الكتاب: كتاباً كلامياً أوّلاً، وتاريخياً للعقائد والمذاهب ثانياً، وموسوعة لبيان حالات رجالهم وشخصياتهم وتاريخ نشوئهم ثالثاً. وأرجو منه سبحانه أن يوفّقنا لما فيه رضاه وأن يصوننا من الزلّة فی الرأی والقول والفعل والعمل. وأمّا الفرق التی دار حولها البحث والنقد فهی على سبيل الفهرس: ۱. «أهل الحديث والحنابلة» الذين يعبّر عنهم فی عصرنا هذا بـ«السلفية» حتی صارت هذه الكلمة شعاراً لهم، وكأنّ «السلف» معصوم من الزلة متحرّر من الخطأ. ۲. «الأشاعرة» آراؤهم وأفكارهم وترجمة مفكّريهم ومحقّقيهم ،وإنّما قدمنا هذه الفرقة على «المعتزلة» مع أنّ الشيخ الأشعری مؤسس هذا المذهب كان معتزلياً ثمّ تاب عن الاعتزال ورجع إلی مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» وأسّس مذهباً معتدلاً بين المذهبين ـ و إنّما قدمناه ـ لأجل الصلة القويمة بين المذهبين: «أهل الحديث» و «الأشاعرة». ۳. الحركات الرجعية فی القرون الأُولی كالمرجئة والجهمية والكرامية والظاهرية، وسيوافيك أنّ آراءهم وأفكارهم فی هذه القرون كانت رجعية بحتة تخالف منطق العقل الذی تعتمد عليه المعتزلة، ومنطق الكتاب والسنّة الذی يعرج عليهما الحنابلة، وأمّا الذی تولی كبرها فسوف يظهر لك فی ذلك الفصل. (۱۷)

۴. «القدرية» أسلاف المعتزلة كمعبد بن عبد اللّه الجهنی(المتوفّی عام ۸۰هـ) وغيلان الدمشقی المقتول بدمشق بأمر الخليفة الأموی هشام بن عبد الملك عام ۱۰۵، وقد اتّهم هؤلاء بنفی القدر الوارد فی الكتاب والسنّة، وقد قلنا إنّ الاتّهام فی غير محله، وهؤلاء كانوا دعاة الحرية والاختيار لا- نفاة القدر الذی جاء فی الآثار الصحيحة. نعم كانوا يرفضون القدر السالب للاختيار الحاكم على حرية الإنسان و اختياره، بل حتی على اللّه سبحانه، وكأنّ القدر إله ثان مسلّط على كلّ شیء حتّی إرادة اللّه وفی الوقت نفسه حنق على الإنسان، فهو يدخل من يشاء الجنة، ويدخل من يشاء الجحيم بلا ملاك ولا مبرر. ۵. «الماتريدية» آراؤهم ورجالهم، وهؤلاء والأشاعرة صنوان أو رضيعان يرتضعان من ثدی واحد، ولكن «الماتريدية» أقرب إلی المعتزلة من الأشاعرة، وقد وافقوا فی كثير من المسائل، المعتزلة. ۶. «المعتزلة» منهجهم وآراؤهم ورجالهم. ۷. «الخوارج» تاريخهم وعقائدهم. ۸. «الوهابية» نشوؤها ومؤسسها ومعتقداتها. ۹. «الشيعة الزيدية والإسماعيلية»، ونبحث عن الباطنية فی هذا الفصل. ۱۰. «الشيعة الإمامية» الاثنا عشرية. تلك عشرة كاملة. و أُقدّم كتابی هذا لكلّ طالب للحقّ والحقيقة، ولكلّ متعطش للتعرّف على الواقع بين منعرجات الأهواء النفسية والانتماءات الجاهلية والتعصّبات الباطلة، ولا- أشك فی أنّ لفيفاً من الأُمّة سيقدّرون عملی هذا غير أنّ المتطرّفين من الطوائف الإسلامية يعدّونه تفريقاً للأُمّة وشقاً لعصاها، وكأنّهم يرون التقارب الظاهری والتصفيق فی المجامع والمجالس هو روح الوحدة وسنادها، وهم فی غفلة عن أنّ التعرف على المذاهب على ما هی عليه، من عوامل التقريب (۱۸)

وتوحيد الكلمة وعود الأخوة الإسلامية إلى المجتمع الدينى، وعلى كلّ تقدير فلا أطلب رضا هؤلاء، ولا أعتمد عليه ولا أخشى سخط الآخرين ولا ـ أخافه، ورائدى هو رضوانه تعالى لا غير. (قُلْ إنّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَة أنْ تَقُومُوا للّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) .(۱) جعفر السبحانى قم المقدسة ـ الحوزة العلمية ۱۴۱۰هـ ــــــــــــــــ

۱ . سبأ:۴۶. (۱۹)

الملل والنحل فى المؤلّفات الإسلامية

الملل والنحل فى المؤلّفات الإسلامية

لقد قام ثلّة من علماء المسلمين بتدوين كتب مفصّلة أو مختصرة فى هذا المضمار، فكشفوا عن مصادر الآراء ومواردها، وجمعوا واردها وشاردها، وما ألّفوه حول تبيين العقائد والنحل على أصناف نشير إليها: أ. ما يتناول جميع الشرائع والمذاهب العالمية، إسلامية كانت أو غيرها، ومن هذا القسم: ۱. «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» لإمام المذهب الظاهرى، أبى محمد على بن حزم الظاهرى (المتوفّى ۴۵۶هـ). ۲. «الملل والنحل» لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (۴۷۹ـ ۵۴۸هـ). ب. ما يتناول خصوص الفرق الإسلامية، ومن هذا القسم: ۱. «مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين» تأليف شيخ الأشاعرة أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى(المتوفّى عام ۳۲۴هـ). ۲. «التنبيه والرد» لأبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعى (المتوفّى سنة ۳۷۷هـ). ۳. «الفرق بين الفرق» تأليف الشيخ عبد القاهر بن طاهر بن محمد (۲۰)

البغدادى الإسفرائينى التميمى(المتوفّى ۴۲۹هـ). ۴. «التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة» لطاهر بن محمد الإسفرائينى(المتوفّى ۴۷۱هـ) المطبوع بمصر عام ۱۳۷۴هـ. ۵. «الفرق الإسلامية» ذيل كتاب «شرح المواقف» للكرمانى(المتوفّى ۷۸۶هـ) وقد طبع فى بغداد عام ۱۹۷۳م. ج. ما يتناول خصوص مذهب من المذاهب الإسلامية، ومن هذا القسم: ۱. «فرق الشيعة»، تأليف أبى محمد الحسن بن موسى النوبختى من أعلام القرن الثالث للهجرة، وقد بيّن فيه فرق أهل الإمامة. ۲. «فرق الشيعة»(۱) للشيخ أبى القاسم سعد بن عبد اللّه بن أبى خلف الأشعرى القمى (المتوفّى ۲۹۹ أو ۳۰۱هـ). وقد طبعت هذه الكتب و وزعت فى العالم، وهى متاحة لكلّ من أراد معرفة هذه المذاهب والمقالات والآراء والأفكار، ولنقدّم قبل الورود فى البحث أُموراً تفيد القرّاء الكرام وطلاب هذه المعرفة:

۱. الملة والنحلة فى اللغة

الملّة بمعنى الطريقة، والمراد هنا السنن المأخوذة والمقتبسة من الآخرين، ولأجل ذلك يضيفها القرآن إلى الرسل والأقوام إذ يقول مثلاً: (بَلْ مِلَّةَ إِبْراهيمَ حَنيفاً)(۲)، و قوله: (إِنّى تَرَكْتُ مِلّةَ قَوم لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ) (۳) ولا تستعمل مضافة إلى اللّه ولا إلى آحاد أُمّة نبى بل إلى نفس النبى، ويقال ملّة إبراهيم وملّة محمّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ولا يقال: ملّة اللّه. وأمّا النحلة فهى على ما فى «لسان العرب» بمعنى الدعوى، والنسبة بينها وبين الدين أنّها تستعمل فى الباطل كثيراً، مثل كلمة «انتحال المبطلين». ــــــــــــــــ

۱ . كما عبر عنه النجاشى فى ترجمته وربما يعبر عنه بالمقالات والفرق.

۲ . البقرة:۱۳۵.

۳ . يوسف: ۳۷. (۲۱)

والمقصود من الكلمتين فى هذا العلم هو الطرق والمناهج العقائدية سواء أكانت حقّاً أم باطلاً. ۲. الصلة بين علم العقائد وعلم الملل والنحل

وهناك اتّصال وثيق بين علم الكلام وعلم الملل والنحل، ووزان علم الملل والنحل بالنسبة إلى علم العقائد والكلام، وزان تاريخ العلم بالنسبة إلى العلم نفسه، نظير الفلسفة وتاريخها، فالفلسفة تطرح الموضوعات الفلسفية على بساط البحث، فتقيم برهاناً على ما تتبنّاه بينما يشرح تاريخ الفلسفة المناهج الفكرية التى نجمت فى فترات مختلفة، من دون تركيز على رأى أو تبنى عقيدة خاصة فى كثير من

الأحيان. ومثله علم الكلام بالنسبة إلى الملل والنحل، فالأوّل يبحث عن المسائل العقائدية التى ترجع إلى المبدأ والمعاد وما يلحقهما من المباحث ويوجه عنايته إلى إثبات فكرة خاصة فى موضوع معين ونقد الآراء المضادة له، ولكن الثانى يطرح المناهج الكلامية المؤسسة طيلة قرون من دون أن يتحيز إلى منهج دون منهج غالباً، وهمّه هو عرض هذه الأسّس الفكرية على روّاد الفكر والمعرفة. وإن شئت قلت: إنّ علم الملل والنحل يتعرّض للموضوعات الكلامية المبحوث عنها فى علم الكلام ويشرحها ويعرض الآراء المختلفة حولها من دون القضاء بينها، و أمّا علم الكلام فهو يتّخذ موضوعات خاصة للبحث ويبدى المؤلّف نظره الخاص فيها ويركز على رأيه بإقامة البرهان. ۳. قيمة الكتب المؤلّفة فى هذا المضمار

لا شكّ أنّ للكتب المؤلّفة فى هذا المضمار، مكانة فى الأوساط العلمية وأنّ المؤلّفين فى الملل والنحل قد تحمّلوا جهوداً كثيرة فى الإحاطة بالمناهج الفكرية الرائجة فى الملأ العلمى خصوصاً الأوائل منهم، غير أنّه لا يمكن الاعتماد على هذه الكتب بصورة مطلقة، وذلك لأنّا نرى أنّهم يذكرون فرقاً للشيعة الإمامية لم يسمع الدهر بأسمائها كما لم يسمع ب آراء أصحابها قط. (۲۲)

فهذا إمام الأشاعرة يذكر للشيعة الغالية خمس عشرة فرقة، وللشيعة الإماميّة أربعاً وعشرين فرقة، وينسب إليهم القول بالتجسيم، وغير ذلك من الآراء والعقائد السخيفة، ويقسّم الزيدية إلى ست فرق، وقد أخذ عنه من جاء بعده ممّن ألّف فى هذا المجال. فإذا كان حاله وحال من نسج على منواله ـ كالبغدادى فى «الفرق بين الفرق» والشهرستانى فى «الملل النحل» فى تلك المواضع التى نحن أعرف منهم بها ـ بهذا المنوال، فكيف حالهم فيما ينقلونه عن سائر أصحاب الشرائع من اليهود والنصارى والمجوس والبراهمة والبوذيين وغيرهم؟! ولأجل ذلك يجب أن تكون نسبة القول إلى أصحابها مقرونة بالاحتياط والتثبّت والرجوع إلى مؤلّفات نفس الفرق. يقول المحقّق المعاصر الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى تقديمه لكتاب «التبصير فى الدين»: والعالم المحتاط لدينه لا ينسب إلى فرقة من الفرق ما لم يره فى الكتب المردودة عليهم، الثابتة عنهم أو فى كتب الثقات من أهل العلم المتثبتين فى عزو الأقاويل، ولا يلزمهم إلّا ما هو لازم قولهم لزوماً بيّناً لم يصرح قائله بالتبرّى من ذلك اللازم .(۱) وقد تصفّحنا أكثر ما كتبه أحمد بن تيمية فى «المسائل الكبرى» عن الشيعة وغيرهم وفى كتابه «منهاج السنّة» عن خصوص الشيعة، فوجدناهما مليئين بالأخطاء، لو لم نقل بالكذب والوضع. إذا عرفت ذلك، فاعلم أنّه يقع الكلام فى فصول: ________________

۱ . التبصير فى الدين: ۷. (۲۳)

الفصل الأوّل افتراق الأُمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة

الفصل الأوّل افتراق الأُمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة

روى أصحاب الصحاح والمسانيد ومؤلّفو الملل والنحل عن النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إنّ أُمّتى تفترق على ثلاث وسبعين فرقة» وقد اشتهر هذا الحديث بين المتكلّمين وغيرهم حتى الشعراء والأُدباء. وتحقيق الحديث يتوقّف على البحث فى جهات أربع: ۱. هل الحديث نقل بسند صحيح قابل للاحتجاج به، أو لا؟ ۲. ما هو النصّ الصادر عن النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى هذا المجال، فإنّ نصوص الحديث فى ذلك المجال مختلفة؟ ۳. ما هى الفرقة الناجية من هذه الفرق المختلفة، فإنّ النبى قد نصّ على نجاة فرقة واحدة، كما سيأتيك نصه؟ ۴. ما هى الفرق الاثنتان والسبعون التى أخبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بنشوئها من بعده؟ وهل بلغ عدد الفرق والطوائف الإسلامية إلى هذا الحدّ؟ فإليك البحث فى هذه الجهات الأربع: أ. سند الحديث

روى الحديث المذكور فى الصحاح والمسانيد بأسانيد مختلفة، و قد قام (۲۴)

الحافظ «عبد اللّه بن يوسف بن محمد الزيلقى المصرى»(المتوفّى ۷۶۲هـ) بجمع أسانيده ومتونه فى كتابه: «تخريج أحاديث الكشّاف» وقد اهتم فيه بهذا الحديث سنداً ومتناً، إهتماماً بالغاً، لم يسبقه إليه غيره.... غير أنّ القضاء فيما جمعه من الأسانيد خارج عن مجال هذه الرسالة، ولأجل ذلك نبحث فيه على وجه الإجمال، فنقول: إنّ هاهنا من لا يعتقد بصحّة الحديث منهم: ابن حزم، فى كتابه: «الفصل

فى الأهواء والملل» قال: ذكروا حديثاً عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ «أنّ القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة» وحديث آخر «تفترق هذه الأُمّة على بضع وسبعين فرقة كلّها فى النار حاشا واحدة فهى فى الجنة» (ثم قال:) هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الأسناد، وما كان هكذا فليس حجّة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به.(۱) وهناك من يعتقد بصحّة الاستدلال لأجل تضافر أسناده، يقول محمد محيى الدين محقّق كتاب «الفرق بين الفرق»: اعلم أنّ العلماء يختلفون فى صحّة هذا الحديث، فمنهم من يقول إنّه لا ـ يصحّ من جهة الأسناد أصلاً، لأنّه ما من إسناد روى به إلاّ ـ وفيه ضعف، وكلّ حديث هذا شأنه لا يجوز الاستدلال به ;ومنهم من اكتفى بتعدّد طرقه، و تعدد الصحابة الذين رووا هذا المعنى عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ....(۲) وقد قام الحاكم النيشابورى برواية الحديث عن سند صحيح يرتضيه الشيخان قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن سلمة العنزى (ثنا) عثمان بن سعيد الدارمى (ثنا) عمرو بن عون ووهب بن بقية الواسطيان (ثنا) خالد بن عبد اللّه، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وافترقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أُمّتى ـــــــــــــــــــــــ

۱ . الفصل فى الأهواء والملل:۱/۲۴۸.

۲ . الفرق بين الفرق: ۷ـ ۸ التعليقة. (۲۵)

على ثلاث وسبعين فرقة» .وهذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.(۱) وقد استدرك عليه الذهبى بأنّ فى سنده «محمّد بن عمرو» ولا ـ يحتج به منفرداً ولكن مقروناً بغيره.(۲) فإذا كان هذا حال السند الذى بذل الحاكم جهده لتصحيحه، فكيف حال سائر الأسانيد؟! وقد رواه الحاكم بأسانيد مختلفة، وقال: قد روى هذا الحديث عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، و عمرو بن عوف المزنى بإسنادين تفرّد بأحدهما عبد الرحمن بن زياد الأفريقى، والآخر كثير بن عبد اللّه المزنى، ولا تقوم بهما الحجّة.(۳) هذا حال ما نقله الحاكم فى مستدركه. وأمّا ما رواه أبو داود فى سننه والترمذى فى سننه، وابن ماجة فى صحيحه فقد قال فى حقّه الشيخ محمد زاهد الكوثرى: أمّا ما ورد بمعناه فى صحيح ابن ماجة، وسنن البيهقى، وغيرهما ففى بعض أسانيده«عبد الرحمن بن زياد بن أنعم» وفى بعضها «كثير بن عبد اللّه» وفى بعضها «عباد بن يوسف» و «راشد بن سعد» و فى بعضها «الوليد بن مسلم» و فى بعضها مجاهيل كما يظهر من كتب الحديث و من تخريج الحافظ الزيلقى لأحاديث الكشاف، وهو أوسع من تكلّم فى طرق هذا الحديث فيما أعلم.(۴) هذا بعض ما قيل حول سند الحديث، والذى يجبر ضعف السند هو تضافر نقله واستفاضة روايته فى كتب الفريقين: الشيعة والسنّة بأسانيد مختلفة، ربما تجلب الاعتماد، وتوجب ثقة الإنسان به. ـــــــــــــــــــــــ

۱ . المستدرك على الصحيحين:۱/۱۲۸، وقد رواه بسند آخر أيضاً يشتمل على محمد بن عمرو الذى لا يحتج بمفرداته، وبسند آخر أيضاً مشتمل على ضعف، وقد جعلهما الحاكم شاهدين لما صحّح من السند.

۲ . التبصير فى الدين: ۹، المقدمة.

۳ . المستدرك على الصحيحين:۱/۱۲۸، كتاب العلم.

۴ . التبصير: ۹، المقدمة . (۲۶)

وقد رواه من الشيعة، الصدوق فى خصاله فى باب السبعين وما فوق.(۱) والعلاّمة المجلسى فى بحاره(۲)، ولعلّ هذا المقدار من النقل يكفى فى صحّة الاحتجاج بالحديث. ب. اختلاف نصوص الحديث

هذه هى الجهة الثانية التى أشرنا إليها فى مطلع البحث، فنقول: إنّ مشكلة اختلاف نصوص الحديث لا تقل إعضالاً عن مشكلة سنده، فقد تطرّق إليه الاختلاف من جهات شتى، لا ـ يمكن معه الاعتماد على واحد منها، وإليك الإشارة إلى الاختلافات المذكورة: ۱. الاختلاف فى عدد الفرق

روى الحاكم عدد فرق اليهود والنصارى مردّداً بين إحدى وسبعين واثنتين وسبعين، بينما رواه عبد القاهر البغدادى بأسانيده عن أبى

هريرة على وجه الجزم والقطع، وأنّ اليهود افترقت إلى إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة. وفى الوقت نفسه روى بسند آخر افتراق بنى إسرائيل على اثنتين وسبعين ملّةوقال: «ليأتين على أُمّتى ما أتى على بنى إسرائيل، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملّة، وستفترق أُمّتى على ثلاث وسبعين ملّة». ونقل بعده بسند آخر افتراق بنى إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة.(۳) ويمكن الجمع بين النقلين الأخيرين بأنّ المراد من بنى إسرائيل هو الأعم من اليهود والنصارى فيصحّ عدّ الفرق اثنتين وسبعين. ______________

۱ . الخصال:۲/۵۸۴، أبواب السبعين ومافوق، الحديث العاشر والحادى عشر.

۲ . البحار:۲/۲۸ـ۳۶.

۳ . الفرق بين الفرق: ۵. (۲۷)

نعم يحمل الأخير على خصوص اليهود من بنى إسرائيل. ۲. الاختلاف فى عدد الهالكين والناجين

إنّ أكثر الروايات تصرّح بنجاة واحدة وهلاك الباقين. فعن البغدادى بسنده عن رسول اللّه أنّه قال: كلّهم فى النار إلاّ ملّة واحدة.(۱) وروى الترمذى وابن ماجة مثل ذلك.(۲) بينما رواه شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر البشارى السياح المعروف (المتوفّى ۳۸۰هـ) فى كتابه«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» بصورة تضاده إذ قال: إنّ حديث «اثنتان وسبعون فى الجنة وواحدة فى النار» أصحّ إسناداً، وحديث «اثنتان وسبعون فى النار وواحدة ناجية» أشهر.(۳) ۳. الاختلاف فى تعيين الفرقة الناجية

فقد اختلف النقل فى تعيين سمة الفرقة الناجية أخذاً بما يقول بأنّ جميعها فى النار إلاّ واحدة. روى الحاكم(۴) و عبد القاهر البغدادى (۵) وأبو داود(۶) و ابن ماجة(۷) بأنّ النبى قال: إلاّ ـ واحدة وهى الجماعة، أو قال: الإسلام وجماعتهم. وروى الترمذى(۸) والشهرستاني(۹) أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ عرف الفرقة الناجية بقوله: ما أنا عليه اليوم وأصحابى. ______________

۱ . المصدر نفسه: ۷۶.

۲ . سنن الترمذى:۵/۲۶، كتاب الإيمان، الحديث ۲۶۴۱;سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۳ . طبع الكتاب فى ليدن، عام ۱۳۲۴ هـ الموافق لـ۱۹۰۶م.

۴ . المستدرك على الصحيحين:۱/۱۲۸.

۵ . الفرق بين الفرق: ۷.

۶ . سنن أبى داود:۴/۱۹۸، كتاب السنّة.

۷ . سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۸ . سنن الترمذى:۵/۲۶، كتاب الإيمان، الحديث ۲۶۴۱.

۹ . الملل والنحل : ۱۳. (۲۸)

وروى الحاكم أيضاً أنّ النبى حدّد أعظم الفرق هلاكاً بقوله: «ستفترق أُمّتى على بضع وسبعين فرقة أعظمها فرقة، قوم يقيسون الأُمور برأيهم، فيحرّمون الحلال ويحلّلون الحرام» وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.(۱) وروى صاحب روضات الجنات عن كتاب «الجمع بين التفاسير» أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ عرف الفرقة الناجية بقوله:«هم أنا وشيعتى».(۲) هذه الوجوه تعكس مدى الاختلاف فى تحديد ملامح الفرقة الناجية. وأمّا تحقيق القول فى ذلك فسيوافيك عند البحث عن الجهة الثالثة، وهى التالية: ج. مَن هى الفرقة الناجية؟

هذه هى الجهة الثالثة التى ينبغى الاهتمام بها حتى يستطيع الباحث من تعيين الفرقة الناجية، بها. قال الشيخ محمد عبده: أمّا تعيين أى فرقة هى الناجية، أى التى تكون على ما كان النبى عليه وأصحابه، فلم يتعيّن إلى الآن، فإنّ كلّ طائفة ممّن يذعن لنبينا بالرسالة تجعل نفسها على ما كان عليه النبى وأصحابه.(إلى أن قال:) وممّا يسرنى ما جاء فى حديث آخر أنّ الهالك منهم واحدة.(۳) أقول: ما ورد

من السمات فی تحدید الفرقة الناجیة لا یتجاوز أهمّها عن سمتین: أولاها: «الجماعة» وهی تارة جاءت رمزاً للنجاة، وأُخری للهلاک، فلا یمکن الاعتماد علیها، وإلیک بیان ذلک: ــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . المستدرک علی الصحیحین: ۴/۴۳۰.

۲ . روضات الجنات: ۵۰۸، الطبعة القدیمة.

۳ . تفسیر المنار : ۸/۲۲۱ـ۲۲۲. (۲۹)

روی ابن ماجة عن عوف بن مالک قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : افترقت الیهود... والذی نفس محمد بیده لتفترقن أُمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة، فواحدة فی الجنة، وثنتان وسبعون فی النار. قیل: یا رسول اللّه من هم؟ قال: الجماعة.(۱) بینما نقل أنّه قال: «وإنّ هذه الملة ستفترق علی ثلاث وسبعین: ثنتان وسبعون فی النار وواحدة فی الجنة، وهی الجماعة»(۲)، فإنّ الإتیان بضمیر الجمع فی الحدیث الأوّل، وبضمیر المفرد فی الحدیث الثانی یؤید رجوع الضمیر فی الأوّل إلی: «اثنتان وسبعون»، ورجوع الضمیر المفرد إلی «الواحدة» فتکون الجماعة تارة آیة الهلاک وأُخری آیة النجاة. أضف إلی ذلک أنّ قسماً کبیراً من النصوص لا یشتمل علی هذه اللفظة، ولا یصحّ أن یقال إنّ الراوی ترک نقلها، أو نسیها، وذلک لأنّ ذکر سمة الناجی أو الهالک من الأُمور الجوهریة فی هذا الحدیث، فلا یمکن أن یتجاهله أو ینساه. ومن ذلک تعلم حال ما اشتمل علی لفظ«الإسلام» مع الجماعة، فإنّه لا یزید فی مقام التعریف شیئاً علی المجرد منه، لوضوح أنّ الإسلام حقّ إنّما المهم معرفة المسلم الواقعی عن غیره. ثانیتها: «ما أنا علیه وأصحابی»، أو «ما أنا علیه الیوم وأصحابی»، کون هذا آیة النجاة لا یخلو عن خفاء. أوّلاً: إنّ هذه الزیادة غیر موجودة فی بعض نصوص الروایة، ولا یصحّ أن یقال إنّ الراوی ترک نقلها لعدم الأهمیة. وثانیاً: إنّ المعیار الوحید للهلاک والنجاة هو شخص النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وأمّا أصحابه فلا یمکن أن یکونوا معیاراً للهدایة والنجاة إلاّ بقدر اهتدائهم ــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۲ . سنن أبی داود:۴/۱۹۸ ،کتاب السنّة ;المستدرک علی الصحیحین:۱/۱۲۸. (۳۰)

واقتدائهم برسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، وإلاّ فلو تخلّفوا عنه قلیلاً أو کثیراً فلا یکون الاقتداء بهم موجباً للنجاة. وعلی ذلک فعطف (وأصحابی) علی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ لا یخلو من غرابة. وثالثاً: إنّ المراد إمّا صحابته کلّهم، أو الأکثریة الساحقة. فالأوّل: مفروض العدم لاختلاف الصحابة فی مسالکهم ومشاربهم السیاسیة والدینیة بعد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، وأدلّ دلیل علی ذلک ما وقع من الخلاف فی السقیفة وبعدها. والثانی: ممّا لا یلتزم به أهل السنّة، فإنّ الأکثریة الساحقة من الصحابة خالفوا الخلیفة الثالث، وقد قتله المصریون والکوفیون فی مرأی ومسمع من بقیة الصحابة، الذین کانوا بین مؤلّب، أو مهاجم، أو ساکت. علی أنّ حمل أصحابی علی الأکثریة خلاف الظاهر، ویظن أنّ هذه الزیادة من رواة الحدیث لدعم موقف الصحابة، وجعلهم المحور الوحید الذی یدور علیه فلک الهدایة بعد النبی الأعظم، والمتوقع من رسول الهدایة هو أن یحدد الفرقة الناجیة بسمات واضحة تستفید منها الأجیال الآتیة، فإنّ کلّ الفرق یدّعون أنّهم علی ما علیه النبی بل علی ما علیه أصحابه أیضاً: وکلّ یدّعی وصلاً بلیلی * ولیلی لا تقر لهم بذاکا وأخیراً نقلنا عن الحاکم أنّه روی عن النبی قوله: «أعظمها فرقة قوم یقیسون الأُمور برأیهم» و یظن أنّ هذه الزیادة طرأت علی الحدیث من بعض الطوائف الإسلامیة بین أهل السنّة، طعناً فی أصحاب القیاس، علی حین أنّ القیاس بمفهومه الأُصولی لم یکن أمراً معهوداً لأصحاب النبیّ حتی یکتفی النبی فی تعیین الفرقة الهالکة بهذا الوصف غیر المعروف فی عصر صدور حدیث الافتراق.

أحادیث حول مستقبل الصحابة

إنّ الأحادیث المتضافرة عن النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ عن مستقبل الصحابة (۳۱)

تصدّنا عن الأخذ بمسالکهم ومشاربهم وتمنعنا عن تصحیح ما ورد فی ذیل بعض الروایات الماضیة، أعنی قوله: «ما أنا علیه وأصحابی» وذلک لأنّ النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ یخبر عن أحوالهم بعد رحلته، وأنّهم سیحدثون فی الدین أُموراً منکرة، وبدعاً

محرمة وأنّهم يرتدون عن الدين ولأجل ذلك يحلأون عن الحوض ويذادون عنه، و قد روى هذه الأحاديث الشيخان(البخارى ومسلم) وغيرهما. وجمعها ابن الأثير فى «جامع الأُصول» فى الفصل الرابع عند البحث عن الحوض والصراط والميزان. وإليك بعض تلك الأحاديث: ۱. أخرج الشيخان عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دونى، فأقول: أى رب، أصحابى ؛فيقال: إنّك لا تدرى ماذا أحدثوا بعدك». ۲. أخرج الشيخان أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابى، أو قال من أُمّتى، فيحلأون عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابى، فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى». إلى غير ذلك من الروايات البالغ عددها إلى عشرة أحاديث وفى ضوء هذه الروايات لا يمكن الحكم بعدالة كلّ صحابى لمجرّد الصحبة، للعلم بوجود الفسق والارتداد وإحداث البدع فيهم، وهذا العلم الإجمالى يصدّنا عن تعديل كلّ صحابى وتصديقه. كما يصدنا عن القول بأنّ الأكثرية الساحقة من الصحابة إذا اتفقت على شىء يكون دليلًا على صدقه وصحته، على أنّ هذا لا يدلّ على أنّ جميع الصحابة كانوا على هذا المنوال بل كان فى الصحابة الثقات العدول، والأخيار المتقون. وقد أشبعنا الكلام حول الصحابة من حيث العدالة.(۱) ________________

۱ . سيوافيك البحث عن عدالة الصحابة عند تحليل عقائد أهل الحديث فى هذا الجزء. الفرقة الناجية فى ضوء النصوص الأُخر

لو أنّ شيخ الأزهر رجع إلى النصوص الأُخر للنبى الأكرم لتبيّن له الفرقة الناجية فى كلام النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، فإنّ لنبى الرحمة كلمات فى مواضع أُخر يشد بعضها بعضاً، ويفسر بعضها البعض الآخر، وإليك ما أثر عنه فى تلك المجالات ممّا تعد قرائن منفصلة موضحة للحديث الحاضر. ۱. حديث الثقلين

قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «يا أيّها الناس إنّى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى».(۱) روى إمام الحنابلة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إنّى تارك فيكم خليفتين: كتاب اللّه، حبل ممدود ما بين السماء والأرض ؛وعترتى أهل بيتى، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».(۲) روى الحاكم فى مستدركه عن النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إنّى أوشك أن أُدعى فأُجيب، وإنّى تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه عزّ وجلّ، وعترتى ؛كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، فإنّ اللطيف الخبير أخبرنى أنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلّفونى فيهما».(۳) والاختلاف الموجود بين نصوص الحديث غير مضر أبداً، لأنّ النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نطق بهذا الحديث فى مواضع مختلفة، إذ فى بعض الطرق أنّه قال ذلك فى حجّة الوداع بعرفة، وفى أُخرى أنّه قاله بالمدينة فى مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفى ثالثة أنّه قال ذلك بغدير خم، وفى رابعة أنّه ________________

۱ . رواه الترمذى والنسائى فى صحيحهما راجع كنز العمال:۱/۴۴ باب الاعتصام بالكتاب والسنّة.

۲ . مسند أحمد بن حنبل: ۵/۱۸۲ـ ۱۸۹.

۳ . مستدرك الحاكم:۳/۱۴۸، وقال هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (۳۳)

قال ذلك لمّا قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف، فقد كرر ذلك فى تلك المواطن اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة.(۱) والإمعان فى هذا الحديث الذى بلغ من التواتر حدّاً لا يدانيه حديث، إلّا حديث الغدير، يقود الإنسان إلى الحكم بضلال من لم يستمسك بهما معاً، فالمتمسّكون بهما هم الفرقة الناجية، والمتخلّفون عنهما، أو المتقدّمون عليهما هم الهالكة. وقد نقل الطبرانى قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى ذيل الحديث: «فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم».(۲)

۲. حديث السفينة

وهذا الحديث كالحديث السابق يعين على رفع الإبهام عن حديث «الافتراق». روى الحاكم بسنده عن أبى ذر رضى اللّه عنه يقول، وهو آخذ بباب الكعبة: «من عرفنى فأنا من عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبوذر، سمعت النبى يقول: ألا إنّ مثل أهل بيتى فيكم، مثل سفينة

نوح فی قومه، من رکبها نجا ومن تخلّف عنها غرق».(۳) والمراد بتشبیههم ـ علیهم السَّلام ـ بسفینة نوح هو أنّ من لجأ إلیهم فی الدین فأخذ فروعه وأُصوله عن أئمّتهم، نجا من عذاب النار، ومن تخلّف عنهم کمن آوی یوم الطوفان إلی جبل لیعصمه من أمر اللّه، غیر أنّ هذا غرق فی الماء، وهذا فی الحمیم. قال ابن حجر: و وجه تشبیههم بالسفینة أنّ من أحبهم وعظّمهم شکراً لنعمة مشرّفهم، وأخذ بهدی علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلّف عن ذلک غرق فی بحر کفر النعم، وهلک فی مفاوز الطغیان.(۴)

---

۱ . راجع المراجعات، المراجعة ۸ فقد نقله عن مواضع مختلفة.

۲ . الصواعق المحرقة: ۱۳۵ باب وصیة النبی بهم.

۳ . المستدرک علی الصحیحین:۳/۱۵۱.

۴ . لقد علّق السید شرف الدین فی مراجعاته علی هذه العبارة تعلیقاً لطیفاً وهو: قل لی لماذا لم یأخذ بهدی أئمتهم فی شیء من فروع الدین وعقائده ـ إلی أن قال:ـ ولماذا تخلّف عنهم فأغرق نفسه فی بحار کفر النعم وأهلکها فی مفاوز الطغیان؟! (۳۴) ۳. حدیث أهل بیتی أمان لأُمّتی

روی الحاکم عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بیتی أمان لأُمّتی من الاختلاف، فإذا خالفتها قبیلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبلیس»(ثمّ قال): هذا حدیث صحیح الإسناد،ولم یخرجاه.(۱) هذه الأحادیث تلقی الضوء علی حدیث الافتراق، وتحدد الفرقة الناجیة وتعیّنها. وهناک حدیث آخر ورد فی ذیل حدیث الافتراق نقله أحد علماء أهل السنّة وهو الإمام الحافظ حسن بن محمد الصغانی (المتوفّی ۶۵۰هـ) فی کتابه «الشمس المنیرة» عن النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ :«افترقت أُمّة أخی عیسی علی اثنتین وسبعین فرقة، وستفترق أُمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة، کلّها هالکة إلاّ فرقة واحدة». فلمّا سمع ذلک منه ضاق المسلمون ذرعاً وضجّوا بالبکاء، وأقبلوا علیه، وقالوا: یا رسول اللّه کیف لنا بعدک بطریق النجاة؟ وکیف لنا بمعرفة الفرقة الناجیة حتی نعتمد علیها؟ فقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «إنّی تارک فیکم ما إن تمسکتم به لن تضلوا من بعدی أبداً: کتاب اللّه، وعترتی أهل بیتی ;إن اللطیف الخبیر نبّأنی أنّهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض».(۲) ولا أظن المنصف إذا رجع إلی ما ورد حول العترة من الأحادیث الحاثّة علی الرجوع إلیهم، یخفی علیه مراد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ من الفرقة الناجیة فی حدیث الافتراق، مضافاً إلی أنّ آیة التطهیر دالّة علی عصمتهم، فالمتمسک بالمعصوم مصون وبالخاطئ غیر مصون بل یقع عرضة للانحراف والهلاک، و للشافعی أبیات تعرب عن عرفانه الفرقة الناجیة ذکرها الشریف الحضرمی فی

---

۱ . المستدرک علی الصحیحین:۳/۱۴۹.

۲ . الشمس المنیرة، النسخة المخطوطة فی مکتبة المشهد الرضوی بالرقم ۱۷۰۶. (۳۵)

«رشفة الصادی».(۱) د. الفرق التی أخبر النبی بنشوئها

هذه هی الجهة الرابعة التی یلیق البحث عنها، فإنّ النبی قد أخبر عن أنّ الأُمّة الإسلامیة ستبلغ فی تفرّقها إلی هذا العدد الهائل، ولکن المشکلة عدم بلوغ رؤوس الفرق الإسلامیة إلی هذا العدد، فإنّ کبار فرقها لا تتجاوز الأربع: الأوّل: القدریة(المعتزلة وأسلافهم). الثانی: الصفاتیة(أهل الحدیث والأشاعرة). الثالث: الخوارج. الرابع: الشیعة. وهذه الفرق الأصلیة، وإن تشعبت إلی شعب وفروع من مرجئة وکرامیة بفرقها ،ولکن لا یبلغ المجموع إلی هذا الحد، وإن أصرّ الشهرستانی علی تصحیح البلوغ إلیه، فقال: ثمّ یترکب بعضها مع بعض، ویتشعب عن کلّ فرقة أصناف، فتصل إلی ثلاث وسبعین فرقة.(۲) یلاحظ علیه: أنّ المراد من أُمّتی هی الفرق الإسلامیة المؤمنة برسالة النبی الأعظم، وکتاب اللّه سبحانه، وبلوغ تلک الأُمة بهذه الصفة إلی هذا الحد الهائل أوّل الکلام، لأنّ المراد هو الاختلاف فی العقیدة التی یدور علیها فلک الهلاک والنجاة. وأمّا الاختلاف فی الأُصول والمعارف التی لیست مداراً للهدایة والضلالة، بل لا تعد

من صـميم العقائـد الإسـلامية، فهـو خـارج عـن إطـار الحـديث، فاختلاف الأشـاعرة والمعتزلـة، فی وجـود الواسـطة بيـن الوجـود

---

۱ . رشفة الصادی: ۲۵.

۲ . الملل والنحل:۱/۱۵. (۳۶)

والعـدم، وحقيقة الجسم والأكوان والألوان، والجزء الذی لا يتجزأ، والطفرة، الذی أوجد فرقاً كلامية، فلا يوجب دخول النار، وإن كان الحقّ واحداً، ولا يصحّ عدّ المعتقدين بها من الفرق المنصوص عليها فی كلام النبی ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ . وبعبارة واضحة: إنّ الفرق المذمومـة فی الإسـلام هی أصـحاب الأهواء الضالـة الـذين خالفوا الفرقـة الناجيـة، فی مواضع تعـد من صـميم الـدين كالتوحيد بأقسامه والعدل والقضاء والقدر، والتجسـيم والتنزيه، والجبر والاختيار، والهداية والضـلالة و رؤية اللّه سبحانه وإدراك البشر له تعالى، والإمامـة والخلافـة، ونظائرهـا. وأمّـا الاختلاف فی سائر المسائل التی لا تمت إلى الـدين بصـلة ولا تمثل العقيـدة الإسـلامية فلا يكون المخـالف والموافق فيهـا داخلاًـ فی الحـديث، والحال أنّ كثيراً من الفرق الإسـلامية يرجع اختلافهم إلى أُمور عقليـة أو كونيـة، ممّا لا يرتبط بالدين أو ما لا يسأل عنه الإنسان فی حياته وبعدها ولا يجب الاعتقاد به. محاولات لتصحيح العدد

إنّ هناك محاولات لتصـحيح مفاد الحـديث من حيث العدد المذكور فيه، نشـير إليها فيما يلی: ۱. هـذا العدد الهائل كناية عن المبالغة فی الكثرة، كما فی قوله سبحانه وتعالى: (إِنْ تَسْتَغْفِر لَهُمْ سَبْعينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُم) .(۱) يلاحظ عليه: أنّ هذه المحاولة فاشلة، لأنّها إنّمـا تصـحّ إذا ورد الحـديث بصورة السـبعين أو غيرهـا من العقود العدديـة، فـإنّ هـذا هو المتعارف فی مقام الكنايـة ولكن الوارد فی الحديث هو غير ذلك.

---

۱ . التوبة:۸۰. (۳۷)

ترى أنّ النبی يركز فی حقّ المجوس على عـدد السـبعين، وفی حقّ اليهود على عـدد الإحـدى والسـبعين وفی حقّ النصارى على اثنتين وسـبعين، وفی حقّ الأُمّة الإسـلامية على ثلاث وسـبعين. وهذاالتدرّج يعرب بسهولة عن أنّ المراد هو بلوغ الفرق إلى هذا الحدّ، بشكل حقيقی لا بشـكل مبالغی. ۲. إنّ أُصول الفرق وإن كـانت لا تصل إلى هـذا العـدد بل لا تبلغ نصـفه ولا ربعه، وإنّ فروع الفرق يختلف العلمـاء فی تفريعهـا، وإنّ الإنسـان فی حيرة حين يأخـذ فی العـد، بـأن يعتبر ـ فی عـدّ الفرق ـ أُصولها أو فروعها، وإذا اسـتقر رأيه على اعتبار الفروع، فعلى أیّ حـدّ من التفريع يأخـذه مقياساً، إلاّ أنّ الحـديث لا يختص بالعصور الماضـية، فإنّ حديث الترمذی يتحدث عن افتراق أُمّة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وأُمّته مستمرة إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فيجب أن يتحدث فی كلّ عصـر عن الفرق التی نجمت فی هـذه الأُمّـة من أوّل أمرها إلى الوقت الـذی يتحدث فيه المتحدث، ولا عليه إن كان العدد قد بلغ مـا جاء فی الحـديث أو لم يبلغ، فمن الممكن بل المقطوع ـ لو صـحّ الحـديث ـ وقوع الأمر فی واقع الناس على وفق ما أخبر به.(۱) وهناك محاولـة ثالثة غير صـحيحة جدّاً وهی الاهتمام بتكثير الفرق، فترى أنّ الإمام الأشـعری يجعل للشـيعة الغالية خمس عشـرة فرقة، وللشـيعة الإماميـة أربعاً وعشـرين فرقـة، كما أنّ الشهرسـتانی يعـدّ للمعتزلـة اثنتی عشـرة فرقـة، ويعـدّ للخوارج الفرق التاليـة: المحكمة، الأزارقة، النجدات، البيهسـية، العجاردة، الثعالبة، الأباضـية، الصـفرية. وذلك لأنّ الجميع من أصناف الشيعة والمعتزلة والخوارج يلتقون تحت أُصول خاصة معلومة فی محلها، مثلاً أصـناف الخوارج يجتمعون تحت أُصول أشهرها تخطئة عثمان والإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ فی مسألـة التحكيم، وتكفير صاحب الكبيرة وتخليـده فی النار. فلا يصـحّ عدّ كلّ صـنف فرقة، وإن اختلف كلّ مع شـقيقه فی أمر جزئی، ومثل ذلك أصناف الآخرين.

---

۱ . مقدّمة الفرق بين الفرق: ۷. (۳۸)

ثمّ إنّ الكاتب المعاصـر عبـد الرحمن بـدوی، ذهب إلى عـدم صـحّة الحـديث للأسـباب التاليـة: أوّلًا: إنّ ذكر هـذه الأعـداد المحددة المتوالية: ۷۱، ۷۲، ۷۳ أمر مفتعل لا يمكن تصديقه فضـلًا عن أن يصدر مثله عن النبی ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ . ثانياً: إنّه ليس فی

وسع النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أن یتنبأ مقدماً بعدد الفرق التی سیفترق إلیها المسلمون. ثالثاً: لا نجد لهذا الحدیث ذکراً فیما ورد لنا من مؤلفات من القرن الثانی بل ولا ـ الثالث الهجری ولو کان صحیحاً لورد فی عهد متقدّم. رابعاً: أعطت کلّ فرقة لختام الحدیث، الروایة التی تناسبها، فأهل السنّة جعلوا الفرقة الناجیة هی أهل السنّة، والمعتزلة جعلوها فرقة المعتزلة، وهکذا وقال: وقد ظهر التعسّف البالغ لدی مؤرّخی الفرق فی وضعهم فروقاً وأصنافاً داخل التیارات الرئیسیة حتی یستطیعوا الوصول إلی ۷۳ فرقة، وفاتهم أنّ افتراق المسلمین لم ینته عند عصرهم، وأنّه لا بدّ ستنشأ فرق جدیدة باستمرار ممّا یجعل حصرهم هذا خطأ تماماً، إذ لا یحسب حساباً لما سینشأ بعد ذلک من فرق إسلامیة جدیدة.(۱) ولا یخفی أنّ ما ذکره من الأسباب غیر صحیح عدا ما ذکره من السبب الرابع وما ذیله به. أمّا دلیله الأوّل، فلأنّ ما جاء فیه هو نفس المدّعی ولم یبیّن وجهاً لافتعال الحدیث. وأمّا دلیله الثانی، فلأنّ المتبادر منه أنّه لیس فی وسع النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ التنبّؤ بالأحداث الآتیة، ولکنّه باطل بشهادة الصحاح والسنن علی تنبّؤه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ بإذن اللّه عن کثیر من الحوادث الواقعة فی أُمّته، وقد جمعنا ______________

۱ . مذاهب الإسلامیین:۱/۳۴. (۳۹)

عدّة من تنبّوئه فی موسوعتنا: مفاهیم القرآن.(۱) وربما یرید الکاتب من عبارته معنی آخر، وهو أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ لا یصح له أن یقدم علی مثل هذا التنبّؤ، لأنّه إقدام غیر مرغوب فیه، لما یحتوی علی الإضرار بالأُمّة، ولکن هذا الرأی منقوض أیضاً بتنبّؤات أُخری تضاهی المورد هذا، فهذا هو النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ یتنبّأ بالمستقبل المظلم الذی یواجهه ذو الخویصرة من وجوه الخوارج الذی أتی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ و هو یقسمالغنائم بعد منصرفهم من حنین فقال للنبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: یا رسولاللّه اعدل، فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «ویلک من یعدل إن لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أعدل»، فقال عمر بن الخطاب: یا رسول اللّه ائذن لی فیه أن أضرب عنقه؟ قال: «دعه فإنّ له أصحاباً یحقّر أحدکم صلاته مع صلاتهم وصیامه مع صیامهم، یقرأون القرآن لا یجاوز تراقیهم، یمرقون من الإسلام کما یرمق السهم من الرمیّة، ینظر إلی نصله فلا یوجد فیه شیء».(۲) فأی فرق بین هذا التنبّؤ ونظائره الواردة فی أحادیث النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ، والتنبّؤ بافتراق أُمّته إلی الفرق المعدودة؟ وأمّا دلیله الثالث، فعجیب جداً، فقد رواه أبو داود(۲۰۲ـ ۲۷۵هـ) فی سننه، والترمذی (۲۰۹ـ ۲۷۹هـ) فی صحیحه، وابن ماجة(۲۱۸ـ ۲۷۶هـ) فی سننه، وأحمد بن حنبل(۲۴۱هـ) فی مسنده، والجمیع من أعیان أصحاب الحدیث فی القرن الثالث، فکیف یقول هذا الکاتب: «بل ولا الثالث الهجری»؟! وإلیک بعض ما أسندوه: ۱. روی أبو داود فی کتاب السنة، عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه: افترقت الیهود علی إحدی أو اثنتین وسبعین فرقة، وتفرّقت النصاری علی إحدی أو اثنتین وسبعین فرقة، وتفترق أُمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة». ثمّ روی عن معاویة بن أبی سفیان أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قام فینا فقال: «ألا إنّ من قبلکم من أهل الکتاب افترقوا علی ثنتین وسبعین ملة، ______________

۱ . مفاهیم القرآن:۳/۵۰۳ـ ۵۰۸.

۲ . التاج:۵/۲۸۶، کتاب الفتن. (۴۰)

وإنّ هذه الملة ستفترق علی ثلاث وسبعین: ثنتان وسبعون فی النار وواحدة فی الجنة وهی الجماعة».(۱) ۲. روی الترمذی فی باب ما جاء فی افتراق هذه الأُمّة مثله، عن أبی هریرة. و روی عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: «لیأتین علی أُمّتی ما أتی علی بنی إسرائیل حذو النعل بالنعل حتی إن کان منهم من أتی أُمّه علانیة، لکان فی أُمّتی من یصنع ذلک، وإنّ بنی إسرائیل تفرّقت علی ثنتین وسبعین ملة، وتفترق أُمّتی علی ثلاث وسبعین ملّة کلّهم فی النار إلاّ ملّة واحدة» قالوا: ومن هی یا رسول اللّه؟ قال: «ما أنا علیه وأصحابی».(۲) ۳. روی ابن ماجة فی باب افتراق الأُمم عن أبی هریرة قال: «قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: تفرّقت الیهود علی إحدی وسبعین فرقة، وتفترق أُمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة». وروی عن عوف بن مالک قال: قال رسول اللّه: «افترقت الیهود علی إحدی وسبعین فرقة، فواحدة فی الجنةو سبعون فی النار ;وافترقت النصاری علی ثنتین وسبعین فرقة، فإحدی

وسبعون فی النار وواحدة فی الجنة ;والذی نفس محمد بیده لتفترقنّ أمّتی علی ثلاث وسبعین فرقة، فواحدة فی الجنة وثنتان وسبعون فی النار» قیل: یا رسول اللّه: من هم؟ قال: «الجماعة». وروی عن أنس بن مالک ما یقرب من ذلک.(۳) ۴. وروی أحمد بن حنبل عن أبی هریرة ما نقلناه عنه آنفاً.(۴) کما روی أیضاً عن أنس بن مالک ما رویناه عنه سابقاً.(۵) وعلی کلّ تقدیر فلا یهمنا البحث حول عدد الفرق وکثرتها و قلّتها، بل ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . سنن أبی داود:۴/۱۹۸، کتاب السنّة.

۲ . سنن الترمذی:۵/۲۶، کتاب الإیمان، الحدیث ۲۶۴۱.

۳ . سنن ابن ماجة:۲/۴۷۹، باب افتراق الأُمم.

۴ . مسند أحمد:۲/۳۳۲.

۵ . مسند أحمد:۳/۱۲۰. (۴۱)

الذی نتوخّاه فی هذه الصحائف هو البحث عن الفرق الموجودة فی الأوساط الإسلامیة و هی عبارة عن هذه الفرق: أهل السنّة(۱) بأصنافهم: أهل الحدیث والأشاعرة والمعتزلة والخوارج، والشیعة بفرقها الثلاث: الإمامیة الاثنی عشریة، الزیدیة، الإسماعیلیة. وأمّا الفرق التی بادت واندثرت، وقد أکل الدهر علیها و شرب، فهی غیر مطروحة لنا بل البحث عنها مفصلاً ضیاع للوقت إلاّ علی وجه الإشارة. *** (قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلی أنْ یَبْعَثَ عَلَیْکُمْ عَذاباً مِنْ فَوقِکُمْ أوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلکُمْ أوْ یَلْبِسکُمْ شِیَعاً وَیُذیقَ بَعْضکُمْ بَأْسَ بَعْض انْظُر کَیْفَ نُصَرِّفُ الآیاتِ لَعَلَّهُمْ یَفْقَهُون).(۲) ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . أهل السنّة لا یعتبرون الخوارج منهم، بل لا یعتبرون المعتزلة منهم أیضاً، ولکن المراد من أهل السنّة هنا هو المعنی الأعم، أی غیر الشیعة، أی من یقول بکون الخلافة بالبیعة والشوری، فکلّ من یقول بکون الإمامة مقاماً تنصیصیّاً یعد من الشیعة، ومن یقول بکونها مقاماً انتخابیاً فهو معدود من أهل السنّة، فالملاک فی التقسیم هو هذا لا المصطلح المعروف بین أهل الحدیث والأشاعرة، فلو خضعنا لمصطلح الأوّلین، فهم ربما لا یعدّون الأشاعرة أیضاً منهم، هذا ابن تیمیة یکن العداوة للأشاعرة ولا یعدّهم منهم.

۲ . الأنعام: ۶۵. (۴۲) (۴۳)

الفصل الثانی بدایات الاختلاف فی عصر الرسالة

الفصل الثانی بدایات الاختلاف فی عصر الرسالة

لا شکّ فی أنّ المسلمین قد اختلفوا بعد لحوق النبی الأکرم بالرفیق الأعلی إلی فرق مختلفة، وسنبین جذور هذه الخلافات وحوافزها فی الأبحاث الآتیة. إنّما الکلام فی وضع المسلمین أیّام النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، فهل کانوا محتفظین بوحدة کلمتهم ومستسلمین لأمر نبیّهم جمیعاً کما أمر اللّه به سبحانه، أم کان هناک بعض الاختلاف بینهم فی جملة من المسائل؟ لا شکّ أنّ المسلم الحقیقی هو من یستسلم لأوامر اللّه ورسوله ولا یخالفه قید شعرة آخذاً بقوله سبحانه: (یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَی اللّهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلیم)(۱). وقد فسر المفسرون قوله سبحانه: (لا تُقَدّمُوا بَیْنَ یَدَی اللّه وَرَسُوله) بقولهم: أی لا تتقدموا علی اللّه ورسوله فی کلّ ما یأمر وینهی، ویؤیده قوله سبحانه فی نفس السورة:(وَاعْلَمُوا أَنَّ فیکُمْ رَسُولَ اللّهِ لَو یُطِیعُکُمْ فی کَثیر مِنَ الأَمْرلَعَنِتّم) .(۲) وقال عزّ من قائل: (فَلا وَرَبّکَ لا یُؤْمِنُونَ حَتّی یُحکّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِدُوا فی أَنْفُسِهِمْ حَرجاً مِمّا قَضَیْت وَیُسَلِّمُوا تَسْلیماً) .(۳) ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . الحجرات:۱.

۲ . الحجرات:۷.

۳ . النساء:۶۵. (۴۴)

ومع ذلك كلّه فقد نجمت بين الصحابة والنبى الأعظم مشاجرات ومنازعات بين آونة وأخرى قد ضبطها التاريخ وأصحاب السير. غير أنّ الشهرستانى يصر على أنّ أكثر الخلافات كان من جانب المنافقين و قال: «إنّ شبهات أُمّته فى آخر زمانه، ناشئة من شبهات خصماء أوّل زمانه من الكفّار والملحدين، وأكثرها من المنافقين، وإن خفى علينا ذلك فى الأُمم السالفة لتمادى الزمان، فلم يخف فى هذه الأُمّة أنّ شبهاتها نشأت كلّها من شبهات منافقى زمن النبى، إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى، وشرعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى وسألوا عمّا منعوا من الخوض فيه والسؤال عنه، وجادلوا بالباطل فى ما لا يجوز الجدال فيه». ثمّ ذكر الشهرستانى حديث ذى الخويصرة التميمى فى تقسيم الغنائم إذ قال: اعدل يا محمد، فإنّك لم تعدل، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إن لم أعدل فمن يعدل».(۱) إنّ ما ذكره الشهرستانى صحيح لا غبار عليه غير أنّ الاعتراض والخلاف لم يكن منحصراً بالكفار و المنافقين بل كان هناك رجال من المهاجرين والأنصار، يعترضون على النبى فى بعض الأُمور التى لا تروقهم، وكأنّ الشهرستانى نسى قصة الحديبية حيث آثر رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ الصلح يوم الحديبية على الحرب وأمر به، عملاً بما أوصى اللّه إليه، وكانت المصلحة فى الواقع وفى نفس الأمر توجبه لكنّها خفيت على أصحابه فطفق بعضهم ينكره والآخر يعارضه علانية بكلّ ما لديه من قوة. هذا هو عمر بن الخطاب فإنّه بعد ما تقرر الصلح بين الفريقين على الشروط الخاصة وقد أدركته الحمية، فأتى أبا بكر و قد استشاط غضباً فقال: يا أبا بكر أليس برسول اللّه ؟ قال: بلى. قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا... الحديث.(۲) وكأنّ الشهرستانى غفل أيضاً عن الجدال الشديد بين النبى وبعض ________________

۱ . الملل والنحل:۱/۲۱.

۲ . السيرة النبوية لابن هشام:۳/۳۱۷. (۴۵)

أصحابه فى متعة الحج. قال الإمام القرطبى: «لا خلاف بين العلماء أنّ التمتع المراد بقوله تعالى: (فَإذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدى) (۱) هو الاعتمار فى أشهر الحجّ قبل الحجّ، قلت: وهو فرض من نأى عن مكة بثمانية وأربعين ميلاً من كلّ جانب على الأصح، وإنّما أضيف الحجّ بهذه الكيفية إلى التمتع أو قيل عنه: التمتع بالحج، لما فيه من المتعة، أى اللذة بإباحة محظورات الإحرام فى المدة المتخلّلة بين الإحرامين، وهذا ما كرهه عمر وبعض أتباعه فقال قائلهم: أننطلق و ذكورنا تقطر؟! وفى «مجمع البيان» أنّ رجلاً قال: أنخرج حجاجاً ورؤوسنا تقطر؟ وأنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال له: «إنّك لن تؤمن بها أبداً».(۲) ولأجل هذه المكافحة التى نجمت فى حياة النبى خطب عمر بن الخطاب فى خلافته وقال: متعتان كانتا على عهد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما .(۳) وهذه الأُمور تسهل لنا التصديق بما رواه البخارى فى إسناد عن عبيد اللّه بن عبد اللّه، عن ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وجعه قال: ايتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده». قال عمر: إنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ غلبه الوجع، وعندنا كتاب اللّه حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط. قال: «قوموا عنّى، ولا ينبغى عندى التنازع». فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وبين كتابه».(۴) كما تسهل لنا التصديق بخلافهم فى حال حياته عندما أمرهم بقوله:«جهزوا جيش أُسامة لعن اللّه من تخلّف عنه»، فقال قوم: يجب علينا امتثال ________________

۱ . البقرة:۱۹۶.

۲ . النص والاجتهاد: ۱۲۰، وقد نقل مصادر كلامه.

۳ . مفاتيح الغيب للرازى:۳/۲۰۱ فى تفسير آية ۲۴من سورة النساء ;شرح التجريد للفاضل القوشجى: ۴۸۴.

۴ . صحيح البخارى:۱/۳۰. (۴۶)

أمره، وأُسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: قد اشتد مرض النبى عليه الصلاة والسلام فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه، فنصبر حتى نبصر أى شيء يكون من أمره.(۱) نعم كانت هناك هنابث ومشاجرات فى أُمور لا تروق سليقة بعض النفوس وميولهم، غير أنّ هذه

الخلافات لم تکن على حدّتنشق بها عصا الوحدة وتنفصم بها عرى الأخوة، وأعظم خلاف بین الأمّة هو الخلاف الذی نجم بعد لحوقه بالرفیق الأعلى، وهو الخلاف فی الإمامة وقد لمست الأُمة ضرره وخسارته حتى أنّ الشهرستانی أعرب عن عظم هذه الخسارة بقوله: «ما سل سیف فی الإسلام على قاعدة دینیة مثل ما سل على الإمامة فی کلّ زمان».(۲) وإلیک بیان أساس هذا الاختلاف: لما التحق النبی الأکرم ـ صلَّى الله علیه وآله وسلَّم ـ بالرفیق الأعلى صارت الأُمّة فرقتین باقیتین إلى الآن: الأُولى: القائلون بأنّ منصب الإمامة منصب إلهی وأنّ الإمام یقوم بالوظائف التی کانت قد أُلقیت على عاتق النبی من تبیین الأحکام الشرعیة وتفسیر کتاباللّه وصیانة الدین عن النقص والزیادة والإجابة على الأسئلة الواردة والاعتراضات المتوجهة إلى الدین مضافاً إلى إدارة المجتمع البشری وسیاسته التی یعبر عنها بالحکومة الإسلامیة. الثانیة: القائلون بأنّ منصب الإمامة منصب عادی یجب أن یقوم بها واحد من آحاد الأُمّة لتبریر أمر المجتمع سیاسة واجتماعاً واقتصاداً وغیر ذلک، وأنّه لم یرد فی أمر الخلافة نص على شخص ما وهؤلاء هم الموسومون بأهل السنّة. *** (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّه جَمیعاً ولا تَفَرَّقُوا). (۳) ______________

۱ . الملل والنحل:۱/۲۳ ـ ۲۴.

۲ . الملل والنحل:۱/۲۳ ـ ۲۴.

۳ . آل عمران: ۱۰۳. (۴۷)

الفصل الثالث علل تکوّن الفرق الإسلامیة

الفصل الثالث علل تکوّن الفرق الإسلامیة

إنّ الوقوف على تاریخ الفرق الإسلامیة، وکیفیة تکوّنها والعلل الباعثة على نشأتها، من الأبحاث المهمة التی تعین الباحث فی تقییم المذاهب الإسلامیة ومدى إخلاص أصحابها فی نشرها وبثها بین الأُمّة، و هذه النقطة الحسّاسة من علم الملل والنحل، قد أهملت فی کثیر من کتب الفرق والنحل إلاّ شیئاً قلیلاً لا یشبع نهمة الطالب، ونحن نأتی فی هذه العجالة بإجمال ما وقفنا علیه فی تاریخ تکوّنها والبواعث الموجدة لها، وأمّا الإسهاب فی البحث فموکول إلى آونة أُخرى. لبّى النبی الأکرم ـ صلَّى الله علیه وآله وسلَّم ـ دعوة ربّه وانتقل إلى جواره وترک لأُمّته دیناً قیماً علیه سمات من أبرزها «بساطة العقیدة ویسر التکلیف» وأخذ المسلمون یفتحون البلاد بقوة المنطق أوّلاً وحدّالسلاح ثانیاً، وأخذت قوى الکفر والشر تنسحب أمام دعاة الإسلام وجنوده البواسل، وتنصاع لهداه البلاد إثر البلاد. ارتحل الرسول الصادع بالحق، وترک بین أُمّته کتاب اللّه العزیز الذی فیه تبیان کل شیء(۱)، وسنّته الوضّاءة المقتبسة من الوحی(۲) السلیم من الخطأ، ______________

۱ . (وَنَزَّلنا عَلَیْکَ الکِتاب تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْء) (النحل:۸۹).

۲ . (إِنْ هُوَ اِلاّ وَحْیٌ یُوحى) (النجم:۴). (۴۸)

المصون من الوهن وعترته الطیبین الذین هم فی لسان نبیّهم قرناء الکتاب.(۱) فالمسلمون الأوّلون فی ضوء بساطة العقیدة وسهولة التشریع و فی ظل هذه الحجج والأدلة القویمة، کانوا فی غنى عن الخوض فی أقوال المدارس العقلیة والمناهج الکلامیة التی کانت دارجة بین الأُمم المتحضّرة آنذاک، فهم بدل الغور فیها، کانوا یخوضون غمار المنایا و یرتادون میادین الحروب فی أقطار العالم وأرجاء الدنیا لنشر الدین والتوحید ومکافحة شتى ألوان الشرک والثنویة ومحو العدوان والظلم عن المجتمع البشری. نعم کان هذا وصفهم وحالهم إلاّ شذاذاً منهم من الانتهازیین، عبدة المقام وعشاق المال ممن لم تهمّهم إلاّأنفسهم وإلاّعلفهم وماؤهم، وقد قلنا إنّ بساطة التکلیف کانت إحدى العوامل التی صرفت المسلمین عن التوجه والتعرض للمناهج الفلسفیة الدارجة فی الحضارات القائمة آنذاک، فلأجل ذلک کانوا یکتفون مثلاً فی معرفة اللّه سبحانه بقوله عزّمن قائل: (أَفِی اللّه شَکٌّ فاطِرِ السَّمواتِ والأَرضِ) (۲)، وقوله عزّجلّ:(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَیْرِ شَیْء أَمْ هُمُ الْخالِقُون).(۳) وفی نفی الشرک والثنویة کانوا یکتفون بقوله سبحانه: (لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللّهُ

لَفَسَدتا).(۴) وفى التعرّف على صفاته وأفعاله بقوله سبحانه: (هُوَ اللّهُ الَّذى لاإِلهَ إِلاّهُوَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحيم) (۵)، إلى آخر سورة الحشر. وفى تنزيهه عن التشبيه والتجسيم بقوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّميعُ الْبَصير)(۶)،

---

۱ . لقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : إنّى تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتى، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدى أبداً، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض. والتثليث فى كلامنا لا يعارض التثنية فى كلام الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، لأنّ مرجع كلام العترة إلى سنّة الرسول التى أودعها فى قلوبهم بإذن اللّه عزّ وجلّ.

۲ . إبراهيم:۱۰.

۳ . الطور:۳۵.

۴ . الأنبياء:۲۲.

۵ . الحشر:۲۲.

۶ . الشورى:۱۱. (۴۹)

وبقوله: (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصار). (۱) وفى سعة قدرته: (وَما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .(۲) إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول المبدأ والمعاد وما يرجع إليهما من الأبحاث الكلامية الغامضة، فلكلّ واحدة من هذه المسائل نصوص فى الكتاب والسنّة وهى أغنتهم عن الرجوع إلى غيرهم. نعم إنّ مفاهيم هذه الآيات على بساطتها تهدف إلى معان بعيدة الأغوار، عالية المضامين، فالكلّ يستفيد منها حسب مقدرته واستعداده فهى هادية لكلّ البشر ومفيدة لجميع الطبقات من ساذجها إلى متعلّمها، إلى معلمها.... وهذه الميزة يختصّ بها القرآن الكريم ويتميّز فيها عن غيره، فهو مع كونه هدى للناس عامة، خير دليل للمفكّرين صغارهم وكبارهم. هذا هو الكتاب، وأمّا السنّة فهى عبارة عمّا ينسب إلى النبى من قول أو فعل أو تقرير، نازلة منزلة التفسير والتبيين لمعانى الكتاب الحكيم، مبينة لمجمله، شارحة لمعانيه كما يعرب عنه قوله سبحانه: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (۳)، أى لا لتقرأ فقط، بل لتبيّن وتشرح ما نزل، بقولك وفعلك وتقريرك. وأمّا العترة فيكفى فى عصمتهم وحجية أقوالهم، حديث الثقلين الذى تواتر نقله، وقام بنقله أكابر المحدّثين فى العصور الإسلامية كلّها. وكان اللائق بالمسلمين والواجب عليهم مع الحجج الإلهية، التمسّك بالعروة الوثقى ورفض الاختلاف، ولكن يا للأسف تفرقوا إلى فرق وفرق لعلل نشير إليها. إنّ لتكوّن المذاهب الإسلامية ـ أُصولاً وفروعاً ـ عللاً وأسباباً ومعدات وممهدات ولا يقوم بحقّ بيانها الباحث إلاّ بإفراد كتاب خاص فى هذا الموضوع، ________

۱ . الأنعام:۱۰۳.

۲ . الأنعام:۹۱.

۳ . النحل:۴۴. (۵۰)

ولكن نشير فى هذه العجالة إلى العوامل الرئيسية فى تكوّن الفرق ونشوئها فى المجتمع الإسلامى وهى أُمور: ۱. الاتجاهات الحزبية والتعصبات القبلية. ۲. سوء الفهم واعوجاجه فى تحديد الحقائق الدينية. ۳. المنع عن كتابة حديث رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ونقله والتحدّث به كما سيجىء. ۴. فسح المجال للأحبار والرهبان للتحدّث عن قصص الأوّلين والآخرين. ۵. الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى بين المسلمين وغيرهم من الفرس والروم والهنود. ۶. الاجتهاد فى مقابل النصّ. وإليك البحث فى كلّ واحد من هذه العوامل حسب ما يقتضيه المجال. *** (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعظُونَ بِهِ لَكانَ خَيراً لَهُمْ وَأَشدَّ تَثْبيتاً) (۱).

*** ________

۱ . النساء: ۶۶ . (۵۱)

العامل الأوّل الاتجاهات الحزبيةُ والتعصّبات القبليةُ

العامل الأوّل الاتجاهات الحزبيةُ والتعصّبات القبلية

إنّ أعظم خلاف بين الأُمّة هو الخلاف فى قضـية الإمامة، إذ ما سل سيف قطّ فى الإسلام وفى كلّ الأزمنة على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامـة، وقـد كـان الشـقاق بين المسـلمين فى تلـك المسألـة أوّل شـقاق نجم بينهم وجعلهم فرقاً أو فرقتين. فمن جانب نرى علياً صلوات اللّه عليه ورجـال البيت الهاشـمى ركنوا إلى النص وقـالوا: إنّ الإمامـة شأنهـا شأنـالنبوة لا تكون إلّا بالنصّ. وإنّ هـذا النصّ قد صدر عن النبى فى مواطن شتى، آخرها واقعة الغدير المشـهورة بين كافّة الناس حينما قام النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فى محتشد عظيم وقـال: «من كنت مولاه فهـذا علىّ مولاه...».(۱) ومن جـانب آخر نرى الأنصـار تجتمع فى سـقيفة بنى ساعـدة قبـل تجهيز النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ومواراته، يبحثون عن قضـية الإمامة أو الخلافة، فيرى سـيدهم أنّ القيادة حقّ للأنصار رافعاً عقيرته بقوله: يا معشـر الأنصار لكم سابقة فى الدين وفضـيلة فى الإسلام ليست فى العرب، إنّ محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وقلع الأنداد ـــــــــــــــــــــــ

۱ . راجع فى تواتره وكثرة رواته فى جميع العصور الإسـلامية من عصـر الصـحابة إلى عصـرنا هـذا، ودلالته على الولايـة الكبرى للإمام أمير المؤمنين، كتاب الغدير: الجزء الأوّل، ولأجل ذلك طوينا الكلام عن نقل مصادره. (۵۲)

والأوثان، فما آمن به من قومه إلّا رجال قليل ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ولا أن يعزوا دينه ولا أن يـدفعوا عن أنفسـهم ضـيماً عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضـيلة ساق إليكم الكرامـة وخصّـكم بالنعمـة، فرزقكم اللّه الإيمان به ورسوله والمنع له ولأصـحابه، والإعزاز له ولـدينه، والجهاد لأعـدائه، فكنتم أشـدّ الناس على عدّوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم، حتى اسـتقامت العرب لأمر اللّه طوعاً وكرهاً ـ إلى أن قال ـ : اسـتبدوا بهـذا الأمر دون الناس. فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ولن نعـدو مـا رأيت، نولّيـك هـذا الأـمر فإنّك فينا مقنع ولصالـح المؤمنين رضـى.(۱) هـذا منطق الأنصـار ورئيس جبهتهم ترى أنّه يجر النار إلى قرصه وحزبه بحجّة أنّهم آمنوا بمحمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ونصروه وآووه، إلى غير ذلك من الحجـج التى ذكرها سعد بن عبادة، رئيس الخزرج فى جبهـة الأنصار. ومن جهة ثالثة نرى بعض المهاجرين الذين اطّلعوا على اجتماع الأنصـار فى السـقيفة، يـتركون تجهيز النـبى ـ صـلّى الله عليـه وآلـه وسـلّم ـ ومـواراته ويسرعون إلى السـقيفة ويحضـرون فى جمعهم ويناشدونهم ويعارضون منطقهم بقولهم: إنّ المهاجرين أوّل من عبد اللّه فى الأرض وآمن باللّه وبرسوله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم فى ذلك إلّاظالم ـ إلى أن قال ـ من ذا ينازعهم فى سلطان محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وإمـارته وهم أوليـاؤه وعشـيرته، إلّا مـدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكـة.(۲) وهـذا منطق بعض المهاجرين لا يقصـر فى الصـلابة أو الوهن عن منطق الأنصار، والكلّ يدّعى أنّ الحقّ له ولحزبه، من دون أن يتفكّروا فى مصالح الإسلام والمسلمين، ومن دون أن يتفكّروا فى اللياقـة والكفـاءة فى القائـد، ومن دون أن يرجعوا إلى الكتـاب والسـنّة وإحراز المعـايير التى يجب وجودها فى القائـد، فيشـبه منطق هؤلاـء المرشـحين مـن سـرد الثنـاء على أنفسـهم وحزبهـم لرئاسـة الجمهوريـة أو عضويـة المجلس الـوطنى.

---

۱ . تاريخ الطبرى:۲/۴۵۶، حوادث سنة ۱۱هـ

۲ . تاريخ الطبرى:۲/۴۵۷، حوادث سنة ۱۱هـ (۵۳)

وكلّ يـدّعى وصـلًا بليلى * وليلى لا تقر لهم بـذاكـا نعم كان هذاالتشاجر قائماً بينهم على قدم وساق إلى أن تغلب جناح هذا الصـنف من المهاجرين على جبهة الأنصار بإعانة بعض الأنصار وهو«بشـير بن سعد» و هو ابن عم«سعد بن عبادة»، فبايع أبا بكر حتى يكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا أمرهم، ولما رأت الأوس ما صـنع بشـير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سـعد بن عبادة، قال بعضـهم لبعض ـ و فيهم أسـيد بن حضير وكان أحد النقباء ـ واللّه لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت

لهم علیکم بـذلک الفضـیلة ولا ـ جعلوا لکم معهم فیها نصـیباً، فقوموا فبایعوا أبا بکر، فقاموا إلیه وبایعوه.(۱) وهناک کلمـة قیمة للإمام أمیر المؤمنین فی تقییم احتجاج الأنصار والمهاجرین نقلها الشریف الرضـی فی نهـج البلاغـة، قال: لمّا انتهت إلی أمیر المؤمنین ـ علیه السّلام ـ أنباء السقیفة،بعـد وفـاة رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، قـال علیه السّلام ـ :«ما قالت الأنصار؟» قالوا: قالت: منّا أمیر ومنکم أمیر. قـال ـ علیه السّلام ـ : «فهلا احتججتم علیهم بأنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وصـی بأن یحسن إلی محسـنهم، ویتجاوز عن مسیئهم»! قالوا: وما فی هـذا من الحجّة علیهم؟ . فقال ـ علیه السّلام ـ : «لو کانت الإمارة فیهم، لم تکن الوصیة بهم». ثمّ قـال ـ علیه السّلام ـ : «فمـاذا قـالت قریش؟». قـالوا: احتجت بأنّهـا شـجرة الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ . فقال ـ علیه السّلام ـ : «احتجّوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة».(۲) ________________

۱ . تاریخ الطبری:۲/۴۵۸، حوادث سنة ۱۱هـ

۲ . نهج البلاغة: الخطبة۶۴. (۵۴)

وفی کلمـة قصـیرة عن الإمام ـ علیه السّلام ـ ، قال: «واعجباه تکون الخلافة بالصحابة، ولا تکون بالصحابة والقرابة». قال الرضـی، وقد روی له شعر قریب من هـذا المعنی وهو: فـإن کنت بـالشوری ملکتأُمورهم فکیف بهـذا والمشیرون غُیّبُ وإن کنت بالقربی حججت خصیمهم فغیرک أولی بالنبی وأقرب(۱) وبتلک المعاییر و المبررات تمت البیعـة للخلیفة، والکلّ أشبه بالمکافحات الحزبیة أو القبلیة التی لا تمت إلی الإسلام وأهله بصلة. فعند ذلک أخذ هؤلاء المهاجرون بزمام الحکم واحداً بعد واحد إلی أن تربّع ثالث القوم عثمان بن عفان علی منصـة الحکم فحـدثت فی زمانه حوادث مؤلمة وبدع کثیرة أدّت إلی الفتک به والإجهاز علیه. غیر أنّ علیّاً صـلوات اللّه علیه وبنی هاشم وعدّة من المهاجرین والبدریین وعدّة من أکابر الأنصار تمسّکوا بالنصّ النبوی وبقوا علی ما فارقهم رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ علیه، کما أنّ رئیس الأنصار الخزرجیین وداعمیه لم یبایعوا أبا بکر ولا علیّاً. هـذا تحلیل تکوّن أوّل تفرّق حـدث فی الإسـلام ;فجعـل الأُمّـة فرقتین: فرقـة تشـایع الخلفاء، وفرقـة تشایع علیّاً ـ علیه السّلام ـ إلی الیوم الحاضـر. والـذین شایعوا علیّاً ـ علیه السّلام ـ وتابعوه لم یکن ذلک منهم إلاّتمسکاً بالدین مذعنین بأنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قد نصّ علیه من دون أن یکون هناک انـدفاع حزبی أو علاقـة شخصـیة أو قبلیـة، بل تسـلیماً لقوله سـبحانه: (وَما کانَ لِمُؤمِن وَلا مُؤْمِنَة إِذا قَضـی اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الخِیَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ).(۲) وأمّا غیرهم فقـد عرفت المعاییر التی اسـتندوا إلیها فی تقـدیمهم علی غیرهم، فالکلّ معاییر قبلیـة أو شخصیة. ________________

۱ . نهج البلاغة، طبعة عبده، قسم الحکم، الرقم ۱۹۰. وفی المطبوع تحریف، والصحیح ما أثبتناه فی المتن.

۲ . الأحزاب:۳۶. (۵۵)

العامل الثانی سوء الفهم واللجاج فی تحدید

العامل الثانی سوء الفهم واللجاج فی تحدید الحقائق

إذا کانت الـدعایات الحزبیة أوّل عامل لتکوّن الفرق، فهناک عامل ثان لتفریق المسـلمین وتبدیدهم إلی فرق متباعدة، وهو سوء الفهم ـعن تقصـیر ـ فی تحدیـد العقائـد الدینیـة من بعضـهم، وقلة العقل وخفّته فی بعض آخر منهم، وقد کان هذا عاملاً قویّاً لتکوّن الخوارج التی کانت من أخطر الفرق علی الإسـلام والمسلمین، لولا أنّ الإمام علیّاً ـ علیه السّلام ـ استأصلهم وبدد شملهم، ومع ذلک بقیت منهم حشاشـات تنجم تـارة وتخفق أُخری فی الأجیـال والقرون، وإلیـک شـرحه: لقـد ثـار أهـل العراق والحجـاز ومصـر علی عثمـان نـتیجة الأحداث المؤلمة التی ارتکبها عماله فی هذه البلاد وانتهی الأمر إلی قتله وتنصیب علی ـ علیه السّلام ـ مکانه لما عرفت الأُمّة من علمه وفضـله وسـابقته وجهـاده المنقطع النظیر، وقـام علی ـ علیه السّلام ـ بعزل الولاة والعمـال الـذین نصـبهم عثمان علی رقاب الناس، وقد انتهت أعمـالهم الإضـراریة من جـانب، وإصـرار الخلیفـة علی إبقـائهم من جـانب آخر، إلی قتله. قـام علی ـ علیه السّلام ـ بعزل الولاة

آنـذاک، ونصب العمال الأتقیاء الزهّاد الکفاة مکانهم، وعند ذلک طمع الزبیر بن العوام وطلحة بن عبید اللّه فی العراقین، وطلبا منه أن یولی أحـدهما علی الکوفة والآخر علی البصـرة، والمألوف من طریقة علیـعلیه السَّلام ـفی تنصیب العمال اشتراط شـروط، تخالف ما کان علیه (۵۶)

الرجلان وقـد قال فی حقّهما کلمـة: «وإنّی أخاف شـرهما علی الأُمّة وهما معی، فکیف إذا فرقتهم فی البلاد».(۱) فعند ذلک ثارا علی الإمـام علی ـعلیه السَّلام ـوخرجا علیه واتّهماه ـلتبریر موقفهما ـبقتل عثمان أو إیواء قتلته، وکانت نتیجـة ذلک اشـتعال نار الحرب بین الإمام والرجلین فی نواحی البصـرة«حرب الجمل» وقتل الرجلین بعد أن أُریقت دماء الأبریاء. ثمّ إنّ معاویة قد عرف موقف علی ـعلیه السَّلام ـبالنسبة إلی عمال الخلیفـة «عثمان»، و مع هذا طلب من الإمام إبقاءه والیاً علی الشام، فرفض الإمام ذلک لما یعرف من نفسیة معاویـة وانحرافه، ونشبت من ذلک«حرب صـفین» ولما ظهرت بوادر الفتـح المبین لعلی وجیشه، التجأ معاویـة وحزبه إلی خدیعـة رفع المصـاحف والـدعوة إلی تحکیم القرآن بین الطرفین، فصـار ذلک نواة لحـدوث الاختلاف فی جبهـة علی ـعلیه السَّلام ـ. فمن قائل: نستمر فی الحرب وهـذه خدعـة ومکر، ومن قائل: نجیبهم إلی ما دعونا إلیه. وقد أمر الإمام بمواصـلة الحرب، وقام بتبیین الخدعة، غیر أنّ الظروف الحاکمة السائدة علی جیش الإمام ألجأته إلی قبول وقف الحرب وإدلاء الأمر إلی الحکمین وإعلان الهدنة، وکتب هناک کتاباً حول هـذا. ومن العجیب أنّ الـذین کانوا یصرون علی إیقاف الحرب نـدموا علی ما فعلوا فجاءوا إلی الإمام یصـرّون علی نقض العهـد، والهجوم علی جیش معاویـة من جدیـد، غیر أنّ الإمام وقف فی وجههم بصـمود لما یتضـمن من نقض العهـد (وَکانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُولًا) .(۲) وعنـد ذلک نجمت فرقة باسم الإسـلام من جیش علی ـعلیه السَّلام ـوطلع قرن الشـیطان ،فعادت تلک الجماعة خارجة عـن إطاعــة إمـامهم، رافضــة لحکـومته، ومبغضــة إیّاه کمـا أبغضـت عثمـان وعمـاله، وهــذه الفرقـة هی فرقـة الخـوارج ومـا زالـوا

---

۱ . شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید:۱۱/۱۶.

۲ . الأحزاب:۱۵. (۵۷)

مبدأ أحداث وعقائد فی التاریخ. وکان الحافز القوی علی تکوّن هذه الفرقة هو سوء الفهم واعوجاج السلیقة، وقد عرّفهم الإمام بقوله ـ عندما شـهروا سـیوفهم علیه فی النهروان ـ:«فأنا نذیرکم أن تصبحوا صرعی بأثناء هذا النهر وبأهضام هذا الغائط علی غیر بیّنة من ربّکم ولاـ سـلطان مبین معکم، قـد طوّحت بکم الـدار واحتبلکم المقـدار، وقـد کنت نهیتکم عن هـذه الحکومـة فـأبیتم علی إبـاء المخالفین المنابـذین، حتی صـرفت رأیی إلی هواکم وأنتم معاشـر أخفّاء الهام، سـفهاء الأحلام».(۱) وللإمام کلمة أُخری یشـیر فیها إلی السـبب الـذی فـارقوا به عن الحقّ قال صـلواتاللّه علیه:«لا تقتلوا الخوارج بعـدی، فلیس من طلب الحقّ فأخطأه کمن طلب الباطل فأدرکه»(یعنی معاویة وأصحابه). قال الإمام عبده: والخوارج من بعده وإن کانوا قد ضلّوا بسوء عقیدتهم فیه إلاّأنّ ضلّتهم لشبهة تمکّنت فی نفوسهم، فاعتقدوا أنّ الخروج عن طاعة الإمام ممّا یوجبه الدین علیهم، فقد طلبوا حقّاً وأرادوا تقریره شرعاً، فأخطأوا الصواب فیه.(۲) وقد زعموا أنّ مسألة التحکیم تخالف قوله سبحانه: (إِنِ الحُکْمُ إِلاّللّه).(۳) وسیوافیک مفاد الآیة ومقالة المحتجین بهاـ عند البحث عن عقائد تلک الفرقة ـ کی یظهر مدی اعوجاج فهم القوم. ظهور المرجئة

قـد کـان لظهـور الخوارج أثر بـارز فی حـدوث الفتن وظهور الحوادث الأُـخر فی المجتمع الإسـلامی، وقـد نجمت المرجئـة من تلک الناحیة حیث إنّ الإرجاء

---

۱ . نهج البلاغة شرح محمد عبده:۱/۸۲، الخطبة۳۵.

۲ . نهج البلاغة شرح محمد عبده:۱/۱۰۳ الخطبة ۵۸.

۳ . یوسف:۴۰. (۵۸)

بمعنی التأخیر قال سـبحانه: (أَرْجه وَأَخاهُ وَأَرسل فِی المدَائنِ حاشِرین) .(۱) ولهذه الفرقة (المرجئة) آراء خاصة نشـیر إلیها فی محلّها،

غير أنّ اللبنـة الأولى لظهورهـا هى اختلافهم فى أمر على وعثمان، فهؤلاء (الخوارج) كانوا يحترمون الخليفتين أبا بكر وعمر ويبغضون علياً وعثمان، على خلاف أكثرية المسلمين، ولكن المرجئة الأُولى لما لم يوفقوا لحلّ هذه المشكلة التجأوا إلى القول بالإرجاء فقالوا: نحن نقـدّم أمر أبى بكر وعمر، ونؤخّر أمر الآخرين إلى يوم القيامـة، فصارت المرجئة فرقة نابتة من خلاف الخوارج فى أمر الخليفتين، مع فوارق بينهم و بين المرجئة التى تأتى فى محلّها، والعامل لتكوّنها كأصـلها، هو سوء الفهم واعوجاج التفكير. هذا هو أصل الإرجاء، ولبنته الأُولى، ولكنّه قـد نسـى فى الآونة الأخيرة ;وأخذ الأصل الآخر مكانه، و هو كون العمل داخلاً فى الإيمان أو لا؟ وبعبارة أُخرى: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أو لا؟ ذهبت الخوارج إلى دخول العمل فى صـميم الإيمان، فصار مرتكب الكبيرة كافراً. واختارت المعتزلة كـون مرتكب الكـبيرة غير مـؤمن ولكنّه ليس بكـافر، بـل هو فى منزلـة بين المنزلـتين. وذهبت المرجئـة الأُـولى إلى خروج العمـل من الإيمان، وأنّ إيمان مرتكب الكبيرة، كإيمان الملائكـة والأنبياء بحجّـة عـدم دخالة العمل فى الإيمان. فاشـتهروا بالقول: «قدّموا الإيمان وأخّروا العمل» فصار هـذا أصـلاً وأساساً ثانوياً للمرجئـة. فكلّما أطلقت المرجئة لا يتبادر منها إلاّ هؤلاء. إنّ الاكتفاء فى تفسـير الإيمان بالشـهادة اللفظيـة أو المعرفـة القلبيـة، وأنّ عصـاة المـؤمنين لاـ يعـذبون أصـلاً، وانّ النـار للكـافرين(٢) واقتحـام الكبـائر لا يضـر أبـداً،

---

١ . الأعراف:١١١.

٢ . شرح المقاصد للتفتازانى:٢/٢٢٩، ولاحظ أيضاً ص ٢٣٨. (٥٩)

فكرة خاطئـة تسير بالمجتمع وخصوصاً الشـباب فيه إلى الخلاعة والانحلال الأخلاقى وترك القيم. وعلى كلّ تقدير إنّ نظرية الإرجاء فى كلاـ الموضـعين نظريـة باطلـة نشأت من الاعوجاج فى فهم المعارف والانحراف فى تفسـير الـذكر الحكيم، والحـديث المأثور عن النبى الأكرم ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلَّم ـ . ولما كان مـذهب الإرجاء لصالح السـلطة الأموية أخذت تروّجه وتسانده حتى لم يلبث أن فشـا فى الإرجـاء، ولم تبق كورة إلاّ وفيها مرجئى، كما سـيوافيك ذلك عنـد البحث عن عقائـد هـذه الفرقـة. وليس ظهور الخوارج أو المرجئـة وحـدهما نتـاج الإعوجـاج الفكرى، بـل هناك مـذاهب أُخرى نجمت من هـذا المنشأ. عصـمنا اللّه جميعاً من الزلل فى القول والعمل. *** (ادعُ إِلى سَبِيلِ رَبّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الحَسَنةِ وَجادِلْهُمْ بِالّتى هِىَ أَحْسَن) (١). ________________

١ . النحل: ١٢٥.

العامل الثالث المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل

العامل الثالث المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدّث عنه

إنّ هنا عاملاً ثالثاً لتكوّن الفرق ونشوء الفوضى فى العقائد والأُصول، وهو المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدّث عنه بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلى عهد المنصور العباسى. توضيحه: الحديث عبارة عمّا ينسب إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من قول أو فعل أو تقرير نازل منزلة التفسير لمعانى الكتاب الحكيم، مبيّن لمجمله، شارح لمعانيه، كما يعرب عنه قوله سبحانه: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون) .(١) أى لا لتقرأ فقط، بل تبيّن وتشرح ما نزل، بقولك وفعلك وتقريرك. إذا كانت السنّة هى فى الدرجـة الثانيـة من الـدين بعـد القرآن الكريم فى الحجيـة والاعتبار، حتى إنّك لا تجد فيها شـيئاً إلاّ وفى القرآن أُصوله وجـذوره، ولاـ إسـهاباً إلاّـ وفيه مجمله وعنـاوينه. وإذا كان الرسول ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلَّم ـ لا يصـدر فى قوله وكلامه إلاّ بإيحـاء من اللّه سـبحانه كمـا يصـرح بـذلك قـوله سـبحانه: (مـا ضَـلَّ صـاحِبُكُمْ وَمـا غَـوى* وَمـا يَنْطِـقُ عَنِ الهَـوى* إِنْ هُوَ إِلاّـ وَحْىٌ يُوحى).(٢) ________________

١ . النحل:٤٤.

٢ . النجم:٢ ـ ٤. (٦١)

فهل یصحّ للرسول أن یمنع عن تـدوینه وکتابته أو مدارسـته ومـذاکرته؟! وإذا کان الرسول منع دراسة الحدیث ونقله ونشـره وتدوینه، فمـا معنی قوله ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ فی خطبته فی منی عام حجّة الوداع: «نضـر اللّه امرأً سـمع مقالتی فوعاها وحفظها وبلّغها، فربّ حامل فقه إلی من هو أفقه منه»(۱) ؟! وما معنی قوله ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ : «نضّر اللّه امرأً سمع منا شیئاً فبلغه کما یسمع، فرب مبلّغ أوعی من سامع»(۲)؟! أو قوله ـ صـلّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «اللّهمّ ارحم خلفائی، اللّهم ارحم خلفائی، اللّهمّ ارحم خلفائی» قیـل: یـا رسول اللّه ومن خلفـاؤک؟ قال: «الـذین یأتون من بعـدی یروون حـدیثی وسـنّتی»(۳)؟! کیـف تصـحّ نسـبة المنع إلی الرسول الأعظم، مع أنّ المستفیض منه خلافه؟! وإلیک بعض ما ورد عنه ـ صلّی الله علیه وآله وسلَّم ـ . أمر الرسول بکتابة حدیثه

۱. روی البخاری عن أبی هریرة أنّ خزاعـة قتلوا رجلًا من بنی لیث عام فتـح مکة بقتیل منهم قتلوه، فأُخبر بذلک النبی ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ ، فرکب راحلته فخطب، فقال: «إنّ اللّه حبس عن مکة القتل أو الفیل (شکّ أبو عبد اللّه) وسـلّط علیهم رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ والمؤمنین. ألا ـ وإنّهـا لم تحـل لأحـد قبلی ولم تحل لأحـد بعـدی ـ إلی أن قال ـ : فجاء رجل من أهل الیمن فقال: اکتب لی یا رسول اللّه؟ فقال: «اکتبوا لأبی فلان ـ إلی أن قال ـ : کتب له هـذه الخطبة».(۴) ۲. وروی أنّ رجلًا من الأنصار کان یجلس إلی النبی ـ صـلّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فیسمع من النبی الحدیث فیعجبه ولا یحفظه، فشکا ذلک إلی النبی ـ صـلّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فقال: یا رسول اللّه إنّی أسمع منک الحدیث ________________

۱ . سنن الترمذی:۵/۳۴ ح۲۶۵۷، ۲۶۵۸.

۲ . سنن الترمذی:۵/۳۴ ح۲۶۵۸.

۳ . کنزالعمال:۱۰/۲۲۱، رقم الحدیث۲۹۱۶۷ ;و بحارالأنوار:۲/۱۴۵ ح۷.

۴ . صحیح البخاری: ۲۹ـ۳۰، باب کتابة العلم، الحدیث ۲. (۶۲)

فیعجبنی ولا أحفظه، فقال رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ : «استعن بیمینک» وأومأ بیده للخط.(۱) ۳. وعن عمرو بن شعیب، عن أبیه، عن جدّه قال: قلت: یا رسول اللّه أکتب کلّ ما أسـمع منک؟ قال: «نعم». قلت: فی الرضا والسخط؟ قال: «نعم فإنّه لا ینبغی لی أن أقول فی ذلک إلّاحقاً».(۲) ۴. وعن عبد اللّه بن عمرو قال: کنت أکتب کلّ شـیء أسمعه من رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أُریـد حفظه، فنهتنی قریش وقالوا: تکتب کلّ شـیء سـمعته من رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ ورسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ بشـر یتکلم فی الغضب والرضـا، فأمسـکت عن الکتابـة، فـذکرت ذلـک لرسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ ، فأومأ بإصـبعه إلی فیه وقال:«اکتب، فوالذی نفسـی بیده ما خرج منه إلاّ حقّ».(۳) ۵. وعن عمرو بن شـعیب عن أبیه، عن جـدّه، قال: قلت: یا رسول اللّه إنّا نسمع منک أحادیث لا نحفظها أفلا نکتبها؟ قال: «بلی فاکتبوها».(۴) أضف إلی ذلک أنّ الذکر الحکیم یحثّ المسلمین علی کتابة ما یتداینون بینهم. قال سبحانه: (یا أَیُّهَا الَّذینَ آمَنُوا إِذا تَدایَنْتُمْ بِدَیْن إِلی أَجَل مُسـمًّی فَاکْتُبُوهُ وَلْیَکْتُبْ بَیْنَکُمْ کاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاـ یَأْبَ کـاتِبٌ أَنْ یَکْتُبَ کَمـا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْیَکْتُب وَلْیُمْلِلِ الَّذی عَلَیْهِ الحَقّ...) ثمّ یعود ویؤکـد علی المؤمنین أن لا یسأموا من الکتابة فقال سبحانه:(وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَکْتُبُوهُ صَغیراً أَوْ کَبیراً إِلی أَجلِهِ...).(۵) ________________

۱ . سنن الترمذی:۵/۳۹، کتاب العلم، باب ما جاء فی الرخصة فیه، ح۲۶۶۶.

۲ . مسند أحمد:۲/۲۰۷.

۳ . سنن الدارمی:۱/۱۲۵، باب من رخّص فی کتابة العلم ;سنن أبی داود:۲/۳۱۸، باب فی کتابة العلم ;مسندأحمد:۳/۱۶۲.

۴ . مسند أحمد:۲/۲۱۵.

۵ . البقرة:۲۸۲. (۶۳)

فإذا کان المال الـذی هو زینـة الحیاة الدنیا من الأهمیة بهذه المنزلة، فکیف بأقوال النبی ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ وأفعاله وتقاریره التی تعتبر تالی القرآن الکریم حجّیـة وبرهاناً؟ وهناک کلمة قیّمة للخطیب البغدادی نأتی بها برمتها: وقد أدّب اللّه سـبحانه عباده بمثل

ذلک فی الدین، فقال عزّ وجلّ: (وَلا تَسأمُوا أَنْ تَکْتُبُوهُ صَغِیراً أَوْ کَبیراً إِلی أَجَلِهِ ذلِکَمْ أَقْسطُ عِنْدَ اللّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادةِ وَأَدنی أَلاّ تَرْتابُوا) .(۱) فلمّا أمر اللّه تعالی بکتابـة الـدین حفظاً له، واحتیاطاً علیه وإشـفاقاً من دخول الریب فیه، کان العلم الـذی حفظه أصـعب من حفظ الـدین، أحری أن تباح کتابته خوفاً من دخول الریب والشکّ فیه. بل کتابـة العلم فی هـذا الزمان، مع طول الاسـناد، واختلاف أسباب الروایة، أحج من الحفظ، ألا تری أنّ اللّه عزّوجلّ جعل کتب الشهادة فیما یتعاطاه الناس من الحقوق بینهم، عوناً عند الجحود، وتذکرة عند النسیان، وجعل فی عدمها عند المموّهین بها أوکد الحجج ببطلان ما ادّعوه فیها، فمن ذلک أنّ المشرکین لما ادّعوا بهتاً اتخاذ اللّه سبحانه بنات من الملائکـة، أمر اللّه نبینا ـ صـلای الله علیه وآله وسـلَّم ـ ّن یقول لهم: (فَأْتُوا بِکِتابِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ) .(۲) ولمّا قالت الیهود: (ما أنزلَ اللّهُ علی بشر مِنْ شَیْء) (۳)، وقد اسـتفاض عنهم قبل ذلک للإیمان بالتوراة، قال اللّه تعالی لنبیّنا ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ قل لهم: (مَنْ أَنْزلَ الکتابَ الَّذی جاءَ بِهِ مُوسی نُوراً وَهدیً لِلناسِ تَجْعَلُونهُ قَراطِیسَ تُبْدُونها وَتُخْفُونَ کَثیراً) (۴)، فلم یأتوا علی ذلک ببرهان، فأطلع اللّه علی عجزهم عن ذلک بقوله:(قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فی خَوضِهِمْ یَلْعَبُون) .(۵) ______________

۱ . البقرة:۲۸۲.

۲ . الصافات:۱۵۷.

۳ . الأنعام:۹۱.

۴ . الأنعام:۹۱.

۵ . الأنعام:۹۱. (۶۴)

وقال تعالی ـ راداً علی متّخذی الأصـنام آلهة من دونه ـ : (أَرونی ماذا خَلَقُوا مِنَ الأَرضِ أَمْ لَهُمْ شِرکٌ فِی السَّماواتِ ائتُونی بِکتاب مِنْ قَبْلِ هـذا أَو أَثارة مِنْ عِلْم إِنْ کُنْتُمْ صادِقین) .(۱) والأثـارة والأثرة، راجعان فی المعنی إلی شـیء واحـد،وهو ما أثر من کتب الأوّلین. وکـذلک سبیـل من ادّعی علمـاً أو حقـاً من حقوق الأملاـک، أن یقیم دون الإـقرار برهانـاً، إمّا شـهادة ذوی عـدل أو کتاباً غیر مموّه، وإلاّفلا ـ سبیل إلی تصـدیقه. والکتاب شاهـد عنـد التنازع... إلی آخر ما ذکره.(۲) نری أنّه سـبحانه قـد شـرح دساتیر وحیه وآی قرآنه بالأـمر بـالقراءة مبیّنـاً أهمیـة القلم فی التعلیم والتعلّم حیث قـال عزّمن قائـل: (اقرأ بِـاسْمِ رَبِّکَ الَّذی خَلَق* خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَق* اقْرَأْ وَرَبّکَ الأَکْرَم* الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَم).(۳) بل و عظّم سـبحانه القلم والکتابة تعظیماً، حتی جعلها بمرتبة اسـتحقاق القسم بها فهو جلّ وعلا یقول: (ن وَالقَلَمِ وما یَسْطُرُون) .(۴) أفهـل یعقـل معه أن ینهی رسول اللّه ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ عن کتابـة مـا هو قرین القرآن وتالیه فی الحجیة، أعنی: السنة الشریفة؟! کلاّ. أُسطورة المنع عن کتابة الحدیث

هذا إن دلّ علی شـیء فإنّما یدلّ علی أنّ ما نسب إلیه ـ صـلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ من النهی عن کتابة الحدیث، یخالف منطق الوحی والحـدیث والعقل، وما هو إلاّولیـد الأوهام والسـیاسات التی أخـذت تمنع نشر حـدیث الرسول ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلَّم ـ وتدوینه لغایات سیاسیة لا تخفی علی ذی ______________

۱ . الأحقاف:۴.

۲ . تقیید العلم:۷۰ـ۷۱.

۳ . العلق:۱ـ۴.

۴ . القلم:۱. (۶۵)

لب. فمثلاً روی مسلم فی صحیحه وأحمد فی مسنده أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «لا تکتبوا عنّی، ومن کتب عنّی غیر القرآن فلیمحه».(۱) وفی روایة: إنّهم استأذنوا النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أن یکتبوا عنه فلم یأذنهم.(۲) وفی مسند أحمد أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ نهی أن نکتب شیئاً من حدیثه(۳). وأیضاً ورد فی مسند أحمد عن أبی هریرة أنّه قال:«کنا قعوداً نکتب ما نسمع من النبی، فخرج علینا فقال: «ما هذا تکتبون»؟ فقلنا: ما نسمع منک، فقال: «أکتاب مع کتاب اللّه؟» فقلنا: ما نسمع. فقال:

«اكتبوا كتـاب اللّه، امحضوا كتـاب اللّه، أكتـاب غير كتاب اللّه، امحضوا أو خلصوه» . قال: فجعلنا ما كتبنا فى صـعيد واحـد ثمّ أحرقناه بالنار».(۴) ثمّ إنّ القوم لم يكتفوا بمـا نسبوه إلى النبى فى مجـال كتابـهٔ الحـديث، بـل ذكروا هنـاك أحـاديث موقوفـهٔ على الصـحابهٔ والتابعين تنتهى إلى الشخصـيات البارزهٔ: كأبى سـعيد الخدرى، وأبى موسـى الأشعرى، وعبد اللّه بن مسعود، وأبى هريرهٔ، وعبد اللّه بن عباس، وعبـد اللّه بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وعبيدهٔ، وإدريس بن أبى إدريس، ومغيرهٔ بن إبراهيم، إلى غير ذلك.(۵) وروى عروهٔ بن الزبير أنّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السـنن، فاسـتشار فى ذلك أصـحاب رسول اللّه ـ صـلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير اللّه فيها شهراً، ثمّ أصبح يوماً و قد عزم اللّه له، فقال: إنّى كنت أردت أن أكتب السنن، وإنّى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب اللّه، وإنّى واللّه لا ألبس كتاب اللّه بشىء ــــــــــــــــــــــ

۱ . سنن الدارمى:۱/۱۱۹ ;مسند أحمد:۳/۱۲.

۲ . سنن الدارمى:۱/۱۱۹.

۳ . مسند أحمد:۵/۱۸۲.

۴ . مسند أحمد:۳/۱۲.

۵ . جمع الخطيب فى «تقييد العلم»: ۲۹ـ ۲۸، الروايات المنسوبهٔ إلى النبى والموقوفهٔ على الصحابهٔ والتابعين. (۶۶)

أبداً.(۱) وروى ابن جرير أنّ الخليفـهٔ عمر بن الخطـاب كـان كلّما أرسل حاكماً أو والياً إلى قطر أو بلـد، يوصـيه فى جملـهٔ ما يوصـيه: جرّدوا القرآن وأقلّوا الروايهٔ عن محمّد وأنا شريككم.(۲) وكان عمر قد شيع قرظهٔ بن كعب الأنصارى ومن معه إلى «صرار» على ثلاثهٔ أميـال من المدينـهٔ، وأظهر لهم أنّ مشـايعته لهم إنّمـا كـانت لأجـل الوصـيهٔ بهـذا الأـمر، وقـال لهم ذلـك القـول. قـال قرظـهٔ بن كعب الأنصارى: أردنا الكوفهٔ، فشيّعنا عمر إلى «صرار» فتوضأ فغسل مرتين، وقال: تدرون لم شيعتكم؟ فقلنا: نعم، نحن أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، فقال: إنّكم تأتون أهل قريهٔ لهم دوىّ بالقرآن كدوىّ النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جرّدوا القرآن، وأقلّوا الروايهٔ عن رسول اللّه، وامضوا وأنا شريككم.(۳) وقد حفظ التاريخ أنّ الخليفهٔ قال لأبى ذر، وعبد اللّه بن مسعود، وأبى الدرداء:ما هذا الحديث الذى تفشون عن محمّد ؟!.(۴) وذكر الخطيب فى «تقييد العلم» عن القاسم بن محمد: أنّ عمر بن الخطاب بلغه أنّ فى أيـدى الناس كتباً، فاسـتنكرها وكرهها، وقال: أيّها الناس إنّه قـد بلغنى أنّه قد ظهرت فى أيديكم كتب، فأحبها إلى اللّه، أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحـد عنـده كتاب إلاّ أتانى به فأرى فيه رأيى. قال فظنوا أنّه يريـد ينظر فيها ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار ثمّ قال: أمنيهٔ كأمنيهٔ أهل الكتاب .(۵) ــــــــــــــــــــــ

۱ . تقييد العلم: ۴۹.

۲ . تاريخ الطبرى:۳/۲۷۳، طبعهٔ الأعلمى بالأُفست.

۳ . طبقات ابن سعد:۶/۷ ;المستدرك للحاكم:۱/۱۰۲.

۴ . كنز العمال:۱۰/۲۹۳ ح۲۹۴۷۹.

۵ . تقييد العلم: ۵۲. (۶۷)

وقد صار عمل الخليفتين سـنّهٔ، فمشـى عثمان مشيهما، ولكن بصورهٔ محدودهٔ وقال على المنبر: لا يحل لأحد يروى حديثاً لم يسـمع به فى عهـد أبى بكر ولا عهد عمر .(۱) كما أنّ معاويـهٔ اتبع طريقـهٔ الخلفاء الثلاث فخطب وقال: يا ناس أقلّوا الروايـهٔ عن رسول اللّه وإن كنتم تتحـدّثون فتحدّثوا بما كان يتحدّث به فى عهد عمر.(۲) حتى أنّ عبيـد اللّه بن زياد عامل يزيـد بن معاويهٔ على الكوفهٔ، نهى زيد بن أرقم الصـحابى عن التحدّث بأحاديث رسول اللّه .(۳) وبذلك أصـبح ترك كتابهٔ الحديث سنّهٔ إسلاميهٔ، وعدّت الكتابهٔ شيئاً منكراً مخالفـاً لهـا. هـذه هى بعض الأقاويـل التى رواهـا أصـحاب الصـحاح والسـنن، وفى نفس الوقت نقلوا أحـاديث تناقضـها وتـأمر بكتابهٔ الحديث والسنّهٔ كما ستوافيك. العقل والمنع عن كتابهٔ الحديث

كيف يسمح العقل والمنطق أن يحكم بصحّة الأحاديث الناهية عن الكتابة، مع أنّ الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أمر فى أَخريات حياته أن يحضروا له قلماً ودواة ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً! وما كان المكتوب (على فرض كتابته) إلّا حديثاً من أحاديثه، فقد روى البخارى عن ابن عباس أنّه قال:لمّا اشتدّ بالنبى وجعه قال: ائتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، قال عمر: إنّ النبىّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ غلبه الوجع وعندنا كتاب اللّه حسبنا. فاختلفوا وكثر اللغط قال: «قوموا عنّى ولا ينبغى عندى التنازع» فخرج ابن عباس يقول: الرزية كلّ الرزية ماحال بين رسول اللّه وبين كتابه.(۴) ـــــــــــــــــــ

۱ . كنز العمال:۱۰/۲۹۵، ح ۲۹۴۹۰.

۲ . كنز العمال:۱۰/۲۹۱، ح ۲۹۴۷۳.

۳ . فرقة السلفية، ص ۱۴، نقلاً عن مسند الإمام أحمد.

۴ . صحيح البخارى :۱/۳۰ كتاب العلم، باب كتابة العلم. (۶۸)

أفهل يجتمع هذا الأمر مع النهى عن تدوينه؟! ثمّ إنّنا نرى أنّ الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بعث كتب إلى الملوك والساسة والأُمراء والسلاطين وشيوخ القبائل ورؤسائها ناهز عددها ثلاثمائة كتاب فى طريق الدعوة والتبليغ أو حول العهود والمواثيق وقد حفظ التاريخ متون هذه الرسائل التى جمع بعضها نخبة مع المحقّقين فى كتب خاصة.(۱) والتاريخ يصرح بأنّ الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كان يملى والكاتب يكتب، فلما ازدادت الحاجة وكثرت العلاقات الاجتماعية أصبحت الحاجة إلى كتّاب يمارسون عملهم، فأدّى ذلك إلى كثرة الكتّاب فجعل لكلّ عمل كاتباً، ولكلّ كاتب راتباً معيناً. وقد كان أكثرهم كتابة، على بن أبى طالب صلوات وسلامه عليه، فقد كان يكتب الوحى وغيره من العهود والمصالحات ،وقد أنهى المؤرخون كتّابه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلى سبعة عشر كاتباً. فهل يجوز أن يكتب الرسول الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ هذه المكاتبات والعهود والمصالحات إلى بطون القبائل ورؤساء العشائر وهو يعلم أنّهم يحتفظون بهذه المكاتبات بحجّة أنّها من أوثق الوثائق السياسية والدينية، ثمّ ينهى عن تسطير كلامه وحديثه؟! فما هذان إلّانقيضان لا يجتمعان. الغايات السياسة والأهداف الدينية

ومع ذلك كلّه فقد غلبت الغايات السياسية على الأهداف الدينية وقامت بكلّ قوة أمام حديث النبى ونشره وكتابته، حتّى إنّ الخليفة أبا بكر أحرق فى خلافته خمسمائة حديث كتبه عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ (۲). و لمّا قام عمر بعده بالخلافة نهى عن كتابة الحديث وكتب إلى الآفاق: أنّ من كتب حديثاً فليمحه.(۳) ثمّ نهى عن التحدّث، فتركت عدّة من الصحابة الحديث

ـــــــــــــــــــ

۱ . «كالوثائق السياسية» لمحمد حميد اللّه، و «مكاتيب الرسول» للعلاّمة الأحمدى.

۲ . كنز العمال:۱۰/۲۳۷و ۲۳۹.

۳ . مسند أحمد:۳/۱۲و ۱۴. (۶۹)

عن رسولاللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ (۱) فلم يكتب الحديث ولم يدوّن إلّا فى عهد المنصور عام ۱۴۳هـ كما سيوافيك بيانه. وقد بلغت جسارة قريش على ساحة النبى الأقدس أن منعوا عبد اللّه بن عمرو عن الاهتمام بحديث النبى وكتابته مدّعين بأنّه بشر يغضب(۲). أى واللّه إنّه بشر يرضى ويغضب، ولكن لا ـ يرضى ولا ـ يغضب إلّا من حقّ ولا يصدر إلّا عنه. إنّ الرزية الكبرى هى أن يمنع التحدّث بحديث رسوله وكتابته وتدوينه ويحل محله التحدّث عن العهد القديم والجديد وعن الأحاديث الإسرائيلية والمسيحية والمجوسية(۳) فتمتلئ الأذهان والصدور بالقصص الخرافية التى لا تمت إلى الإسلام بصلة ولا يصدقها العقل والمنطق كما سيمر عليك شرح تلك الفاجعة العظمى التى ألمت بالإسلام والمسلمين. فلو صحّ ما نقل عن أبى هريرة من جمع ما كتبه الصحابة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى مكان واحد وحرقه بالنار، لوجب على المسلمين كافة أن يجمعوا كلّ مصادر أحاديث الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وعلى رأسها صحيح البخارى وصحيح مسلم وحرقها فى مكان واحد وذلك اقتداء بالسلف الصالح!!، وإذا صحّ

فهل يبقى من الإسلام ما يرجع إليه فى فهم القرآن الكريم وتمييز الحلال عن الحرام؟! والذى أظنّه(وظن الألمعى صواب) أنّ الذى منع من تدوين الحديث ونشره ومدارسته وكتابته بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، هو الذى منع كتابة الصحيفة يوم الخميس عند احتضار النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، ______________

١ . مستدرك الحاكم:١/١٠٢و ١٠۴.

٢ . المصدر نفسه.

٣ . وقد أذن عمر بن الخطاب لتميم الدارى النصرانى الذى استسلم عام ٩ من الهجرة أن يقص كما فى كنز العمال:١/٢٨١، فالتحدّث بحديث رسول اللّه يكون ممنوعاً و «الدارى» وأمثاله يكونون أحراراً فى بث الأساطير والقصص المحرّفة؟! (٧٠)

فالغاية بداية ونهاية وقبل رحلته ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وبعدها واحدة لم تتغير، وأمّا حقيقة تلك الغاية فتفصيلها موكول إلى آونة أُخرى ونأتى بمجملها: كان رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ منذ أن صدع بالدعوة، وأجهر بها، ينص على فضائل على ومناقبه فى مناسبات شتّى، فقد عرّفه فى يوم الدار الذى ضم فيه أكابر بنى هاشم وشيوخهم، بقوله: «إنّ هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». وفى يوم الأحزاب بقوله: «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين». وفى اليوم الذى غادر فيه المدينة متوجهاً إلى تبوك، وقد ترك علياً خليفته على المدينة، عرّفه بقوله: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبىّ بعدى». إلى أن عرّفه فى حجّة الوداع فى غديرخم بقوله:«من كنت مولاه، فهذا علىٌّ مولاه».(١) وغير ذلك من المناقب والفضائل المتواترة، وقد سمعها كثير من الصحابة فوعوها. فكتابة حديث رسول اللّه بمعناها الحقيقى، لا تنفك عن ضبط ما أثر عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى حقّ أوّل المؤمنين به، وأخلص المناصرين له فى المواقف الحاسمة، وليس هذا شيئاً يلائم شؤون الخلافة التى تقلّدها المانع عن الكتابة. وهناك وجه آخر للمنع عنها، هو أنّ علياً كان أحد المهتمين بكتابة حديث رسول اللّه وضبطه كما كان مولعاً بضبط الوحى وكتابته. وقد كتب من أحاديث رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ما أملى عليه فصار له أُذناً واعية، وهو ـ عليه السَّلام ـ ______________

١ . سيوافيك مصادر هذه الأحاديث عند البحث عن عقيدة الشيعة، و من أراد الوقوف فليرجع إلى كتب المناقب للإمام على ـ عليه السَّلام ـ . (٧١)

بالنسبة إلى رسول اللّه كما قال هو نفسه: «إنّى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكتُّ ابتدأنى»(١) . وهو أوّل من ألّف أحاديث رسول اللّه وكتب، وهذه منقبة عالية لأمير المؤمنين دون غيره، إلاّ أقلّ القليل. فاهتم مخالفوه بإخفاء هذه الفضيلة، باختلاق حديث منع الكتابة، فروى مسلم وغيره عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «لا تكتبوا عنّى سوى القرآن، ومن كتب فليمحه»(٢) وكانت الغاية من تلك المقالة، الطمس على ما كتبه على ـ عليه السَّلام ـ من الأحاديث. على أنّهم لم يكتفوا بذلك، فرووا عن على أنّه قال: «ليس عندنا كتاب سوى ما فى قراب السيف».(٣) وروى البخارى عن أبى جحيفة، قال: قلت لعلى: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلاّ كتاب اللّه، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة، قال: قلت: فما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر.(۴) مع أنّ الكتاب الذى كتبه على بإملاء رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، كتاب كبير رآه أئمة الشيعة، وهو من مواريث النبوة وكان مشتملاً على أحاديث فقهية، وغيرها. وقد نقل عنه مشايخنا المحدّثون الأُول فى جوامعهم، ولو صحّ وجود كتاب فى قراب سيفه، فهو لا يمت إلى هذا الكتاب بصلة. وقد قام زميلنا العلاّمة الحجّة الشيخ على الأحمدى، بجمع ما روى الأئمّة عن هذا الكتاب من الأحاديث فى موسوعته، وأخرجها من الكتب الأربعة، والجامع الأخير وسائل الشيعة.(۵) إنّ الخسارات التى منى الإسلام والمسلمون بها من جراء مثل هذا المنع، ______________

١ . تاريخ الخلفاء: ١١۵.

٢ . سنن الدارمى:١/١١٩.

۳ . مسند أحمد:۱/۱۱۹.

۴ . صحيح البخارى:۱/ ۲۹، باب كتابة العلم، الحديث۱.

۵ . لاحظ مكاتيب الرسول:۱/۷۲ـ ۸۹. (۷۲)

كائناً ما كان سببه، كانت وما تزال عظيمة ووخيمة، وسنشير إلى بعضها فى محلها إن شاء اللّه تعالى. أعذار مفتعلة

إذا كان المنع من كتابة السنّة أمراً عجيباً، فتبرير هذا المنع بأنّه كان لصيانة اختلاط الحديث بالقرآن الكريم أعجب منه، وذلك لأنّ التبرير هذا أشبه بالاعتذار الأقبح من الذنب، لأنّ القرآن الكريم فى أُسلوبه وبلاغته يغاير أُسلوب الحديث وبلاغته، فلا يخاف عليه من الاختلاط بالقرآن مهما بلغ من الفصاحة، فقبول هذا التبرير يلازم إبطال إعجاز القرآن الكريم وهدم أُصوله من القواعد. ومثله، الأعذار المنحوتة الأُخرى لتبرير هذا المنع، كخوف الانكباب على دراسة غير القرآن، الذى نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب على ما مرّ، غير أنّ مرور الزمان أثبت خلاف تلك الفكرة، لأنّ كتابة الحديث من عصر المنصور لم تؤثر فى دراسة القرآن وحفظه وتعليمه وتعلّمه. وهناك أعذار منحوتة أُخرى لا تقصر فى البطلان عن سابقيها ولم تخطر ببال المانع أو المانعين أبداً، وإنّما هى وليدة «حبّ الشيء الذى يعمى ويصم» بعد لأى من الدهر، والهدف منه هو إسدال العذر على العمل السيِّء، أعاذنا اللّه منه. وقد نحت الخطيب البغدادى مثل هذه الأعذار، وقال: قد ثبت أنّ كراهة من كره الكتابة من الصدر الأوّل، إنّما هى لئلا يضاهى بكتاب اللّه تعالى غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه. ونهى عن الكتب القديمة أن تتخذ، لأنّه لا يعرف حقّها من باطلها، وصحيحها من فاسدها. مع أنّ القرآن كفى منها، وصار مهيمناً عليها، ونهى عن كتب العلم فى صدر الإسلام وجدته، لقلّة الفقهاء فى ذلك الوقت، والمميزين بين الوحى وغيره، لأنّ أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين، ولا ـ جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن. ويعتقدوا أنّ ما اشتملت عليه كلام الرحمن.(۱) ________________

۱ . تقييد العلم: ۵۷. (۷۳)

وقد استمر المنع من تدوين الحديث إلى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز(۹۹ـ۱۰۱هـ) فأحسّ بضرورة تدوين الحديث، فكتب إلى أبى بكر بن حزم فى المدينة: انظر ما كان من حديث رسول اللّه فاكتبه، فإنّى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلاّ أحاديث النبى، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لاـ يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتى يكون سراً.(۱) ومع هذا الإصرار المؤكّد من الخليفة، صارت رواسب الحظر السابق المؤكّد من قبل الخلفاء الماضين حائلة دون القيام بما أمر به الخليفة، فلم يكتب شيء من أحاديث النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بعد صدور الأمر منه، إلاّ صحائف غير منظمة ولا مرتبة، إلى أن دالت دولة الأمويّين وقامت دولة العباسيّين، وأخذ أبو جعفر المنصور بمقاليد الحكم، فقام المحدّثون فى سنة مائة وثلاثة وأربعين بتدوين الحديث، وفى ذلك قال الذهبى: وفى سنة مائة وثلاثة وأربعين شرع علماء الإسلام فى هذا العصر فى تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنّف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعى بالشام،وابن أبى عروبة، وحماد بن سلمة وغيرهما فى البصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثورى بالكوفة، وصنّف ابن إسحاق المغازى، وصنّف أبوحنيفة الفقه والرأى ـإلى أن قالـ وقبل هذا العصر كان الأئمّة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة.(۲) ومعنى هذا، أنّ العالم الإسلامى اندفع فجأة بعد مضى ۱۴۳ سنة من هجرة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نحو هذا الأمر، فاشتغل العلماء بجمع الأحاديث والفقه وتدوينهما، وأُلّفت كتب كثيرة فى هذا المجال، واستمرت تلك الحركة إلى حدود سنة ۲۵۰، فجمعت أحاديث كثيرة، و دُوّنت العقائد على طبق الأحاديث المضبوطة، فإذا كان هذا هو تاريخ الحديث وتدوينه وانتشاره، يتبيّن للقارئ بسهولة أنّ حديثاً لم يكتب طوال قرن ونصفه كيف تكون حاله مع أعدائه الذين كانوا له بالمرصاد، وكانوا يكذبون عليه بما يقدرون، وينشرون ________________

۱ . صحيح البخارى:۱/۲۷.

۲ . تاريخ الخلفاء للسيوطى:۲۶۱. (۷۴)

كل غث وسمين باسم الـدين وباسم الرسول، كما سيوافيك بيانه، وما قيمة العقائد التى دونت على أساس تلك الأحاديث؟!! نحن لا ننكر أنّ العلماء والمحدّثين قاموا بوظيفتهم وواجبهم الـدينى تجاه السنّة النبويـة، وكابدوا وتحملوا المشاق فى استخراج الصحيح من السقيم، لكن العثور على الصحيح بعد هذه الحيلولة الطويلة، من أشقّ المشاكل وأصعب الأُمور. وبسبب هذه الحيلولة كلّما بعد الناس عن عصر الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ازداد عدد الأحاديث، حتى أخرج محمد بن إسماعيل البخارى صحيحه عن ستمائة ألف (۶۰۰،۰۰۰) حديث ولأجل ذلك نرى أنّ هرم الأحاديث يتصل بزمن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ، وقاعدة ذلك الهرم تنتهى إلى القرون المتأخّرة، فكلّما قربنا من زمن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نجد الحديث قليلاً، والعكس بالعكس. وهذا يدّل على أنّ الأحاديث عالت حسب وضع الوضّاعين وكذب الكذّابين. كلمتان قيّمتان

۱. هناك كلمة للدكتور محمد حسين هيكل أماط الستر عن وجه الأحاديث المنسوبة إلى النبى الأكرم وقال: وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد فى كتب السلف، ونقده نقداً دقيقاً على الطريقة العلمية، أن أقدمها، كتب بعد وفاة النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية. كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب، فما بالك بالمتأخر ممّا كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سبباً فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه و دوّنوا ما اعتقدوه صحيحاً منه، من جهد وعنت أدى إليهما حرص هؤلاء الجامعين على الدقة فى التمحيص حرصاً لا يتطرق إليه ريب. ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع (۷۵)

الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنّه ألفى الأحاديث المتداولة تربى على ستمائة ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف. وهذا معناه أنّه لم يصح لديه من كلّ مائة وخمسين حديثاً إلّاحديث واحد. أمّا أبو داود فلم يصحّ لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة، وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث. وكثير من هذه الأحاديث التى صحت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء، انتهى بهم إلى نفى كثير منها، كما كان الشأن فى مسألة الغرانيق. فإذا كان ذلك شأن الحديث، وقد جهد فيه جامعوه الأوّلون ما جهدوا، فما بالك بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة؟ وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمى فى تمحيصه. والواقع أنّ المنازعات السياسية التى حدثت بعد الصدر الأوّل من الإسلام أدت إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها. فلم يكن الحديث قد دون إلى عهد متأخر من عصر الأمويين. وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه، ثمّ لم يجمع إلّا فى عهد المأمون، بعد أن أصبح«الحديث الصحيح فى الحديث الكذب، كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود» على قول الدارقطنى.(۱) ۲. وهناك كلمة أُخرى للعلّامة الأمينى قال: «ويعرب عن كثرة الموضوعات اختيار أئمّة الحديث أخبار تأليفهم الصحاح والمسانيد من أحاديث كثيرة هائلة، والصفح عن ذلك الهوش الهائش. قد أتى أبو داود فى سننه بأربعة آلاف وثمانمائة حديث وقال: انتخبته من خمسمائة ألف حديث.(۲) ويحتوى صحيح البخارى من الخالص بلا تكرار ألفى حديث وسبعمائة وواحداً وستين حديثاً اختارها من زهاء ستمائة ألف حديث.(۳) وفى صحيح مسلم أربعة ________________

۱ . «حياة محمد» تأليف محمد حسين هيكل : ۴۹ـ ۵۰ من الطبعة الثالثة عشر.

۲ . طبقات الحفاظ للذهبى:۲/۱۵۴ ;تاريخ بغداد:۲/۵۷ ;المنتظم لابن الجوزى:۵/۹۷.

۳ . إرشاد السارى:۱/۲۸ و صفة الصفوة:۴/۱۴۳. (۷۶)

آلاف حديث أصول، دون المكررات صنّفها من ثلاثمائة ألف.(۱) وذكر أحمد بن حنبل فى مسنده ثلاثين ألف حديث، وقد انتخبها من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث، وكان يحفظ ألف ألف حديث.(۲) وكتب أحمد بن الفرات (المتوفّى ۲۵۸هـ) ألف ألف وخمسمائة ألف حديث، فأخذ من ذلك ثلاثمائة ألف فى التفسير والأحكام والفوائد وغيرها.(۳) هذا كلام إجمالى عن الحديث، والتفصيل فى تاريخ الحديث وتطوره يترك إلى الكتب المختصة بذلك، غير أنّ الذى نركز القول عليه هو الآثار السلبية التى خلفها

هذا المنع فی المجتمع الإسلامی یوم ذاک، حتی یقف القارئ علی علل تکوّن المذاهب وتشعب الفرق، وإنّ من الآثار المهمة حرمان الأُمّة عن السنّة النبویة الصحیحة قرابة قرن ونصف، وعول الأحادیث حسب جعل الوضّاعین والکذّابین، وبالتالی تکوّن العقائد والمذاهب حسبها. ــــــــــــــ

۱ . المنتظم :۵/۳۲ ;طبقات الحفّاظ:۲/۱۵۱ـ ۱۵۷.

۲ . ترجمة أحمد المنقولة من طبقات ابن السبکی المطبوعة فی آخر الجزء الأوّل من مسنده ;طبقات الذهبی:۲/۱۷.

۳ . خلاصة التهذیب:۹، ولاحظ الغدیر:۵/۲۹۲ـ ۲۹۳. (۷۷)

العامل الرابع فسح المجال للأحبار والرهبان

العامل الرابع فسح المجال للأحبار والرهبان للتحدّث عن العهدین

لقد خسر الإسلام والمسلمون من جرّاء حظر تدوین الحدیث ونشره، خسارة عظمی لا یمکن تحدیدها بالأرقام والأعداد. کیف؟! وقد انتشرت الفوضی فی العقائد، والأعمال، والأخلاق، والآداب، وصمیم الدین، ولباب الأُصول، کنتیجة لهذا المنع، لأنّ الفراغ الذی خلفه هذا العمل، أوجد أرضیة مناسبة لظهور بدع یهودیة، وسخافات مسیحیة، وأساطیر مجوسیة، خاصة من ناحیة کهنة الیهود، ورهبان النصاری، الذین افتعلوا أحادیث کثیرة ونسبوها إلی الأنبیاء والمرسلین علیهم الصلاة والسلام کما افتعلوا علی لسان النبی الأکرم ـ صلای الله علیه وآله وسلَّم ـ ّالأساطیر، وقد وقف علی ذلک عدة من الأجلّة. ۱. یقول الشهرستانی: وضع کثیر من الیهود الذین اعتنقوا الإسلام، أحادیث متعددة فی مسائل التجسیم والتشبیه، وهی کلّها مستمدة من التوراة.(۱) ۲. ویظهر من المقدسی وجود تلک العقائد فی العرب الجاهلیین، یقول فی «البدء والتاریخ» عند الکلام عن شرائع أهل الجاهلیة: کان فیهم من کلّ ملّة ودین، وکانت الزندقة والتعطیل فی قریش والمزدکیة والمجوسیة فی تمیم ــــــــــــــ

۱ . الملل والنحل:۱/۱۱۷. (۷۸)

والیهودیة والنصرانیة فی غسان والشرک وعبادة الأوثان فی سائرهم.(۱) ۳. نعم کان للیهود المتظاهرین بالإسلام دور کبیر فی بثّ هذه العقائد، یقول الکوثری: إنّ عدّة من أحبار الیهود ورهبان النصاری ومؤابذة المجوس أظهروا الإسلام فی عهد الراشدین ثمّ أخذوا بعدهم فی بثّ ما عندهم من الأساطیر.(۲) ۴. قال ابن خلدون، عندما تکلّم عن التفسیر النقلی وأنّه کان یشتمل علی الغث والسمین والمردود: والسبب فی ذلک أنّ العرب لم یکونوا أهل کتاب ولا علم، وإنّما غلبت علیهم البداوة والأُمّیة. وإذا تشوقوا إلی معرفة شیء ممّا تتشوّق إلیه النفوس البشریة فی أسباب المکونات وبدء الخلیقة، وأسرار الوجود، فإنّما یسألون عنه أهل الکتاب قبلهم، ویستفیدونه منهم، وهم أهل التوراة من الیهود ومن تبع دینهم من النصاری، ... مثل کعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد اللّه بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسیر من المنقولات عندهم وتساهل المفسرون فی مثل ذلک، وملأوا کتب التفسیر بهذه المنقولات، وأصلها کلها کما قلنا من التوراة أو ممّـا کانوا یفترون.(۳) ۵. قال الإمام محمد عبده: قد وضع الزنادقة اللابسون لباس الإسلام غشاً ونفاقاً وقصدهم بذلک إفساد الدین، وإیقاع الخلاف والافتراق فی المسلمین. وقال حماد بن زید: وضعت الزنادقة أربعة عشر ألف حدیث وهذا بحسب ما وصل إلیه علمه واختباره فی کشف کذبها، وإلاّفقد نقل المحدّثون أنّ زندیقاً واحداً وضع هذا المقدار. قالوا: لما أخذ ابن أبی العوجاء لیضرب عنقه، قال وضعت فیکم أربعة آلاف حدیث أُحرّم فیها الحلال و أُحلّ الحرام.(۴) وابن أبی العوجاء هو ربیب حماد بن سلمة المحدّث الشهیر الذی ینقل الذهبی عن ابن الثلجی قال: سمعت عباد بن صهیب ــــــــــــــ

۱ . البدء والتاریخ:۴/۳۱.

۲ . مقدّمة تبیین کذب المفتری:۱۰.

۳ . مقدّمة ابن خلدون:۴۳۹.

۴ . تفسیر المنار:۳/۵۴۵، ونقله فی الأضواء:۱۱۵ ولعلّ فی قوله«هذا المقدار» تصحیفاً. (۷۹)

یقول: إنّ حماداً کان لا یحفظ وکانوا یقولون إنّها دسّت فی کتبه. وقد قیل: إنّ ابن أبی العوجاء کان ربیبه فکان یدسّ فی کتبه.(۱) ۶. قال السید المرتضی: لما قبض محمد بن سلیمان، وهو والی الکوفة من قبل المنصور، عبد الکریم بن أبی العوجاء وأحضره للقتل وأیقن بمفارقة الحیاة قال: لئن قتلتمونی فقد وضعت فی أحادیثکم أربعة آلاف حدیث مکذوبة.(۲) ۷. یقول ابن الجوزی: إنّ عبد الکریم کان ربیباً لحماد بن سلمة وقد دسّ فی کتب حماد بن سلمة.(۳) نری أنّ المحدّثین یروون باسنادهم عن حماد، عن قتادة، عن عکرمة، عن ابن عباس، مرفوعاً: رأیت ربی جعداً أمرد علیه حلّة خضراء. وفی روایة أُخری: إنّ محمّداً رأی ربّه فی صورة شاب أمرد، دونه ستر من لؤلؤ قدمیه أو رجلیه فی خضرة.(۴) ۸. وقال الشیخ محمد زاهد الکوثری المصری فی تقدیمه علی کتاب «الأسماء والصفات» للحافظ أبی بکر البیهقی: إنّ مرویات حماد بن سلمة فی الصفات، تجدها تحتوی علی کثیر من الأخبار التافهة تتناقلها الرواة طبقة عن طبقة، مع أنّه قد تزوج نحو مائة امرأة، من غیر أن یولد له ولد منهن، وقد فعل هذا الزواج والنکاح فعله، بحیث أصبح فی غیر حدیث «ثابت البنانی» لا یمیز بین مرویاته الأصلیّة وبین ما دسّه فی کتبه ربیبه ابن أبی العوجاء، وربیبه الآخر زید المدعو بـ«ابن حماد»، فضلّ بمرویاته الباطلة کثیر من البسطاء . ویجد المطالع الکریم نماذج شتّی من أخباره الواهیة فی باب التوحید من کتب الموضوعات المبسوطة وفی کتب الرجال، وفعلت مرویات نعیم بن ــــــــــــــ

۱ . میزان الاعتدال:۱/۵۹۳، ومات حماد عام ۱۶۷هـ

۲ . أمالی المرتضی:۱/۱۲۷ـ ۱۲۸.

۳ . الموضوعات:۳۷ طبع المدینة، ولاحظ تهذیب التهذیب:۳/۱۱ـ۱۶.

۴ . میزان الاعتدال:۱/۵۹۳ـ ۵۹۴،وهذه الأساطیر المزخرفة من مفتعلات الزنادقة نظراء: ابن أبی العوجاء دسّوها فی کتب المحدّثین الإسلامیین، تعالی اللّه عمّا یقول الظالمون. (۸۰)

حماد مثل ذلک، بل تحمّسه البالغ أدّی به إلی التجسیم، کما وقع ذلک لشیخ شیخه مقاتل بن سلیمان، وتجد آثار الضرر الوبیل فی مرویاتهما فی کتب الرواة الذین کانوا یتقلّدونها من غیر معرفة منهم لما فی هذه الکتب ککتاب «الاستقامة» لخشیش بن أصرم، والکتب التی تسمّی بـ«السنّة» لعبد اللّه (ابن أحمد بن حنبل) وللخلال، و «التوحید» لابن خزیمة وغیرهم ممّا تجد فیها ما ینبذه الشرع والعقل، ولا سیما کتاب «النقض» لعثمان بن سعید الدارمی السجزیّ المجسّم فإنّه أوّل من اجترأ بالقول «إنّ اللّه لو شاء لاستقرّ علی ظهر بعوضة فاستقلّت به بقدرته فکیف علی عرش عظیم» هذا بعض ما لعب به أعداء الإسلام فی أُصول الدین.(۱) ولا یقصر عنها کتاب «العلو» للذهبی. ۹. وقال الدکتور أحمد أمین: اتصل بعض الصحابة بوهب بن منبه، وکعب الأحبار، وعبد اللّه بن سلام، واتصل التابعون بابن جریج،وهؤلاء کانت لهم معلومات رووا عن التوراة والإنجیل وشروحها وحواشیها، فلم یر المسلمون بأساً من أن یقصوها بجانب آیات القرآن، فکانت منبعاً من منابع التضخیم.(۲) ۱۰. قال أبو ریة: لما قویت شوکة الدعوة المحمدیة، واشتد ساعدها، وتحطمت أمامها کل قوة تنازعها، لم یر من کانوا یقفون أمامها، ویصدون عن سبیلها، إلاّ أن یکیدوا لها عن طریق الحیلة والخداع، بعد أن عجزوا عن النیل منها بعدد القوة والنزاع. ولما کان أشد الناس عداوة للذین آمنوا الیهود، لم یجدوا بدّاً من أن یستعینوا بالمکر، ویتوسّلوا بالدهاء، لکی یصلوا إلی ما یبتغون، فهداهم المکر الیهودی إلی أن یتظاهروا بالإسلام، ویطووا نفوسهم علی دینهم، حتی یخفی کیدهم، ویجوز علی المسلمین مکرهم.(۳) أو لیس ذلک الاستغلال والسیطرة علی عقول المسلمین، هو نتیجة

ــــــــــــــ

۱ . نظرة فی کتاب «الأسماء والصفات» للبیهقی مقدمة الشیخ محمد زاهد الکوثری:ص ۵، وقال بمقالة السجزی ابن تیمیة فی کتابه «غوث العباد» المطبوع بمصر مطبعة الحلبی عام ۱۳۵۱هـ

۲ . ضحی الإسلام:۲/۱۳۹.

۳ . أضواء على السنّة المحمدية:۱۳۷. (۸۱)

أُمور، منهـا: المنع من التحـدّث عن الرسول، وفسح المجـال لأبنـاء أهـل الكتـاب، حتى يتمكّنوا من نشـر الكلم الباطل، ويمزقوا أُصول الإسـلام وفروعه؟ والعجب أنّ التفاسير إلى يومنا هـذا مكتظـة بأقوالهم و أحاديثهم، ولها من القيمـة عند قرّائها مكان. ۱۱. قال العلّامة الشيـخ جواد البلاغى: الرجوع فى التفسير وأسباب النزول إلى أمثال عكرمـة، ومجاهد، وعطاء، والضـحاك، كما ملئت كتب التفاسير بأقوالهم المرسلة، ممّا لا يعـذر فيه المسلم فى أمر دينه، لأنّ هؤلاء الرجال غير ثقات فى أنفسـهم، ومجتمعون على موائد أهل الكتاب من الأحبـار والرهبـان. قيـل للأعمش: ما بال تفسير مجاهـد مخالف؟ أو شـىء نحوه قال: أخـذه من أهل الكتاب ويكفى فى ذلك أنّ مجاهـداً الآخذ منهم فسر قوله تعالى: (عَسى أنْ يَبْعَثَكَ رَبّكَ مَقاماً مَحْمُوداً) قال: يجلسه معه على العرش. وأمّا عطاء، فقد قال أحمد: ليس فى المراسيل أضعف من مراسيل الحسن وعطاء، كانا يأخذان عن كلّ أحد. وقال النسائى: وأمّا مقاتل بن سليمان كان يكذب، وعن يحيى قـال: حـديثه ليس بشـىء، وقـال ابن حبـان: كـان يأخـذ من اليهود والنصـارى من علم القرآن الـذى يوافق كتبهم.(۱) وأمّا الخرافات والأساطير فى تفسير الكون وبدء الخليقة وأحوال الأُمم الماضية فحدث عنها ولا حرج، فقد ملأوا الصدور والطوامير وتأثّرت بهم طبقـات من المسلمين، ممن كتبوا حول المواضيع السالفـة. يقول الـدكتور على سـامى النشـار: إنّ الحـديث كان معتركاً متلاحماً وبحراً خضـماً لا ـ يعرف السالـك فيه موطن الأمـان ولـذلك قـام أهـل الحـديث بمجهود رائع فى محض الأحاديث وتوضـيح الصادق والكاذب منها عن طريق الرواية وفيها السند،وعن طريق الدراية وفيها النقد الباطنى للنصوص،ولذلك أنشأوا ______________

۱ . آلاء الرحمن:۱/۴۶، نقلاً عن الذهبى. (۸۲)

علم مصطلح الحديث.(۱) يلاحـظ عليه: أنّ جهـود أهـل الحـديث غير منكرة، ولكنّهـا لم تكن على وجه تقلع الموضوعـات عن كتب الحديث وموسوعاتهم لأنّ القائمين بهذا الأمر كانوا متأثرين بها، ولأجل ذلك تجد أحاديث التشبيه والتجسيم والجبر والرؤية وعصيان الأنبياء مبثوثة فى الصـحاح والمسانيد، و سيمرّ عليك بعضها فى هذا الجزء. ولعل القارئ الكريم يحسب أنّ هذه الكلمات الصادرة من أساتـذة الفن، ورجـال التحقيق فى الملل والنحل، صـدرت من غير تحقيق وتـدقيق، إلاّ أنّ المراجع للكتب الرجاليـة، يقف على صـدق المقـال، ويكتشـف أنّه كـان هنـاك رجـال يتظـاهرون بالإسـلام ـ و فى الوقت نفسه ـ يبثّون مـا لـديهم من الإسـرائيليات والمسـيحيات والمجوسيات، تحت غطاء هذا التظاهر، وإليك نزراً من تاريخ بعض هؤلاء الرجال: ۱. كعب الأحبار

هو كعب بن ماتع الحميرى، قالوا: هو من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب، أسلم فى زمن أبى بكر، وقدم من اليمن فى خلافة عمر، فأخذ عنه الصـحابة وغيرهم، وأخذ هو من الكتاب والسنّة عن الصحابة، وتوفّى فى خلافة عثمان، وروى عنه جماعة من التابعين، وله شـىء فى صـحيح البخارى وغيره. قال الذهبى: العلّامة الحبر الذى كان يهودياً فأسـلم بعد وفاة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، وقـدم المدينـة من اليمن فى أيـام عمر ، فجالس أصـحاب محمـد فكان يحـدّثهم عن الكتب الإسـرائيلية ويحفظ عجائب. إلى أن قال: حدّث عنه أبو هريرة ومعاوية وابن عباس، وذلك من قبيل ______________

۱ . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام:۱/۲۸۶، الطبعة السابعة. (۸۳)

روايـة الصـحابى عن التـابعى وهو نـادر عزيز، وحـدّث عنه أيضـاً أسـلم مولى عمر وتبيع الحميرى ابن امرأة كعب. وروى عنه عـدّة من التـابعين كعطـاء بن يسار وغيره مرسـلاً. وقع له روايـة فى سـنن أبى داود والترمـذى والنسائى.(۱) ترى الـذهبى أيضاً فى كتابه«تـذكرة الحفاظ» يعرفه بأنّه من أوعيـة العلم.(۲) ومعنى ذلك أنّ الصـحابة كانوا يعتقـدون أنّه من محال العلم والفضل، ولهذا السـبب أخذ عنه الصـحابة وغيرهم. وعندئـذ يسأل: إذا أخـذ عنه الصـحابة وغيرهم على أنّه من أوعيـة العلم، فما هو ذاك الذى أخذوه عنه؟ هل أخذوا عنه سوى الإسـرائيليات المحرّفة والكاذبة؟ فإنّه لم يكن عنده ـ على فرض كونه صادقاً ـ سوى تلك الأساطير والقصص الموهومة. فهل تسـعد أُمّة أخذت معالم دينها عن المحدّث اليهودى، المعتمد على الكتب المحرفة بنص القرآن الكريم؟! ولكن كما قلنا، هذا الفرض مبنى على كونه صادقـاً، أمّـا إذا كـان كاذباً فالخطب أفـدح وأجل، ولا يقارن بشـىء. والمطالع الكريم فى مروياته يقف على أنّه يركز

على القول بأمرين: التجسيم والرؤية، وقد اتخذهما أهل الحديث والحنابلة من الآثار الصحيحة، فبنوا عليهما العقائد الإسلامية وكفروا المخالف، وإليك كلا الأمرين: ـــــــــــــــــــ

۱ . سير أعلام النبلاء:۳/۴۸۹ ولاحظ تفسير ابن كثير :۳/۳۳۹ سورة النمل حيث قال: ـ بعد ما أورد طائفة من الأخبار فى قصة ملكة سبأ مع سليمان ـ: والأقرب فى مثل هذه السياقات أنّها متلقاة عن أهل الكتاب، ممّا وجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب، سامحهما اللّه تعالى فى ما نقلاه إلى هذه الأُمّة، من أخبار بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب ممّا كان وما لم يكن، وممّاحرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا اللّه سبحانه عن ذلك بما هو أصحّ منه وأنفع وأوضح وأبلغ.

۲ . تذكرة الحفاظ :۱/۵۲. (۸۴) الأوّل: تركيزه على التجسيم

إنّ الأحاديث المنقولة عن ذلك الحبر اليهودى، تعرب بوضوح عن أنّه نشر بين الأُمّة الإسلامية فكرة التجسيم، التى هى من عقائد اليهود. قال: إنّ اللّه تعالى نظر إلى الأرض فقال: إنّى واطئ على بعضك، فاستعلت إليه الجبال وتضعضعت له الصخرة، فشكر لها ذلك فوضع عليها قدمه، فقال: هذا مقامى، ومحشر خلقى، وهذه جنتى وهذه نارى، وهذا موضع ميزانى، وأنا ديان الدين.(۱) ففى هذه الكلمة من هذا الحبر، تصريح بتجسيمه سبحانه أوّلاً: وقد شاعت هذه النظرية بين أبناء الحديث والحشوية منهم ;وثانياً: التركيز على الصخرة التى هى مركز بيت المقدس ;وثالثاً: أنّ الجنة والنار والميزان ستكون على هذه الأرض، ومركز سلطانها سيكون على الصخرة، وهذا من صميم الدين اليهودى المحرف. الثانى: تركيزه على رؤية اللّه

ومن كلامه أيضاً: إنّ اللّه تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ .(۲) وقد صار هذا النصّ وأمثاله مصدراً لتجويز فكرة رؤية اللّه سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة، وبالأخص فى الآخرة، وقد صارت هذه العقيدة اليهودية المحضة، إحدى الأُصول التى بنى عليها مذهب أهل الحديث والأشاعرة. ومن أعظم الدواهى، أنّ الرجل خدع عقول المسلمين وخلفائهم، فاتّخذوه واعظاً ومعلماً ومفتياً يفتيهم. وهنالك شواهد على ذلك: منها: التزلف إلى الخليفة الثانى

قال ابن كثير: أسلم كعب فى الدولة العمرية، وجعل يحدّث عمر عن ـــــــــــــــــــ

۱ . حلية الأولياء:۶/۲۰.

۲ . الشرح الحديدى:۳/۲۳۷. (۸۵)

كتبه قديماً، فربما استمع له عمر، فترخّص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه غثّها وسمينها. وليس لهذه الأُمّة ـ و اللّه أعلم ـ حاجة إلى حرف و احد ممّا عنده.(۱) إنّ لهذا الرجل أساليب عجيبة فى اللعب بعقول المسلمين وخلفائهم، وإليك نماذج منها: أ. قال كعب، لعمر بن الخطاب: إنّا نجدك شهيداً وإنّا نجدك إماماً عادلاً، ونجدك لا تخاف فى اللّه لومة لائم. قال:هذا لا أخاف فى اللّه لومة لائم فأنى لى بالشهادة.(۲) ترى أنّه كيف يتزلّف إلى الخليفة، ويتنبّأ بشهادته وقتله فى سبيل اللّه. ب. نقل أبو نعيم أيضاً: أنّ كعباً مر بعمر، وهو يضرب رجلاً بالدرة. فقال كعب: على رسلك يا عمر، فوالذى نفسى بيده إنّه لمكتوب فى التوراة، ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء، ويل لحاكم الأرض من حاكم السماء ;فقال عمر: إلاّ من حاسب نفسه، فقال كعب: والذى نفسى بيده إنّها لفى كتاب اللّه المنزل، ما بينهما حرف: إلاّ من حاسب نفسه.(۳) وهذه الجملة تعرب عن أنّ كعباً كان يتزلّف إلى عمر، حتى إنّه يقرأ عليه نصّ التوراة المحرف لتصديق كلامه. ج. وروى أيضاً: أنّ عمر جلد رجلاً يوماً وعنده كعب، فقال الرجل حين وقع به السوط: سبحان اللّه، فقال عمر للجلاد: دعه فضحك كعب، فقال له: وما يضحكك، فقال: والذى نفسى بيده إنّ «سبحان اللّه» تخفيف من العذاب.(۴)

---

۱ . تفسير ابن كثير:۴/۱۷ .

۲ . حلية الأولياء:۵/۳۸۸ـ ۳۸۹.

۳ . المصدر السابق.

۴ . حلية الأولياء:۵/۳۸۹ـ ۳۹۰. (۸۶)

والكلمة هذه محاولة من الحبر اليهودى، لتوجيه عمل عمر، عندما أمر الجلّاد بترك المجلود. وهذه الأُمور صارت سبباً لجلب عطف الخليفة، ففسح له التحدّث فى عاصمة الوحى، وأوساط المسلمين. ومنها: تزلّفه إلى عثمان ومن الخطب الفادح، أنّه صار بأفانين مكره، موضع ثقة لعثمان ومفتياً له فى الأحكام، يصدر الخليفة عن فتياه، ويعمل بقوله، وإليك ما يلى: أ. ذكر المسعودى أنّه حضر أبو ذر، مجلس عثمان ذات يوم، فقال عثمان: أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره؟ فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين، فدفع أبو ذر فى صدر كعب، وقال له: كذبت يا ابن اليهودى، ثمّ تلا:(لَيسَ البِرَّ أَنْ تُولّوا وُجُوهكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِوالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ البِرّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَاليَوم الآخِرِ وَالمَلائِكةِ وَالكِتابِ والنَّبِيِّينَ وَآتى المالَ عَلى حُبّهِ ذَوى القُربى وَاليَتامى وَالمساكِينَ وَابْنَ السَّبيلِ والسائلينَ وَفِى الرِقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتىَ الزَّكاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا) .(۱) فقال عثمان: أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فى ما ينوبنا من أُمورنا ونعطيكموه؟ فقال كعب: لا بأس بذلك، فرفع أبو ذر العصا فدفع بها فى صدر كعب وقال: يابن اليهودى ما أجرأك على القول فى ديننا، فقال له عثمان: ما أكثر أذاك لى، غيّب وجهك عنّى فقد آذيتنا.(۲) ب. ونقل أيضاً: أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهرى من المال، فَنُضِدَ البدر، حتى حالت بين عثمان و بين الرجل القائل، فقال عثمان: إنّى لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنّه كان يتصدّق، ويقرى الضيف، وترك ما ترون ؛فقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال أبوذر العصا فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم، وقال: يابن اليهودى ________

۱ . البقرة:۱۷۷.

۲ . مروج الذهب:۲/۳۳۹ ـ ۳۴۰. (۸۷)

تقول لرجل مات وترك هذا المال إنّ اللّه أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على اللّه بذلك، وأنا سمعت رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يقول: «ما يسرنى أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً» فقال له عثمان: وار عنّى وجهك.(۱) ومنها: تزلّفه إلى معاوية نرى أنّ كعباً يتنبأ بمولد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وهجرته وملكه، فيقول: مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام.(۲) فماذا يريد كعب بقوله: وملكه بالشام؟ هل هو إلاّ تزلف إلى معاوية، وأنّه يريد أن يقول: إن ملك النبى لن يستقر إلاّ فيها؟ وقد كان معاوية يمهد وسائل الملك لنفسه بالشام. وقال أيضاً: إنّ أوّل هذه الأُمّة نبوة ورحمة، ثمّ خلافة ورحمة، ثمّ سلطان ورحمة، ثمّ ملك وجبرية، فإذاكان ذلك، فإنّ بطن الأرض يومئذ خير من ظهرها.(۳) فترى أنّه يتنبأ بالسلطنة ويعدّها رحمة، وهذا المضمون انتشر فى الصحاح والمسانيد بكثرة، وقد روى الترمذى، قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «الخلافة فى أُمّتى ثلاثون سنة ثمّ ملك بعد ذلك».(۴) و روى أبو داود قال: قال رسولاللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «خلافة النبوّة ثلاثون سنة ثم يؤتى اللّه الملك من يشاء».(۵) وسيوافيك أنّه أخذ منه أبو هريرة، ولأجل ذلك نرى تلك الفكرة ـ فكرة الملك ـ جاءت فى روايات أبى هريرة، قال: الخلافة بالمدينة والملك بالشام.(۶) ________

۱ . مروج الذهب:۲/۳۴۰.

۲ . سنن الدارمى:۱/۵.

۳ . حلية الأولياء:۶/۲۵.

۴ . سنن الترمذى:۴/۵۰۳، كتاب الفتن، باب ما جاء فى الخلافة، رقم ۲۲۲۶.

۵ . سنن أبى داود: ۴/۲۱۱.

۶ . كنز العمال:۶/۸۸. (۸۸)

وقد أخذ عن ذلك الحبر الماكر عدة من الصحابة كابن عباس وأبى هريرة، ومعاوية وغيرهم.(۱) قال الذهبى: توفى فى خلافة عثمان(۲). وقال أبو نعيم فى حلية الأولياء إنّه توفّى كعب قبل مقتل عثمان بسنة(۳). وعلى ذلك توفّى عام ۳۴. وقال ابن الأثير فى

حوادث سنة ۳۴: ففی هذه السنة توفّی کعب الأحبار.(۴) نعم توفّی فی ذاک العام، لکن بعد ما ملأ المجتمع الإسلامی بأساطیر، وقصص، وعقائد إسرائیلیة، حسبها السذّج من المحدّثین أنّها حقائق راهنة، فنقلوها ناسبین لها إلی کعب تارة، وإلی النبی الأعظم أُخری، وعلیها بنیت العقائد وانتظمت الأُصول، ومن تفحّص فی کتب الحدیث والتفسیر والتاریخ، یقف بوضوح علی أنّ کثیراً من المحدّثین والمفسرین والمؤرّخین، اعتمدوا علی أقواله ومرویاته من دون أی غمز وطعن أو تردد وشک، وهذا من عجائب الأُمور وغرائبها. هذا غیض من فیض، وقلیل من کثیر من روایات ذلک الرجل وتسویلاته. فمن أراد الوقوف علی أحواله وأقواله وما بثّ بین المسلمین من أساطیر وقصص إسرائیلیة، فلیرجع إلی المصادر التالیة.(۵) هذا وإنّ صاحب الثقافة المنحرفة یبثّ فکرته بین المجتمع فی ظل دعامتین مؤثرتین: ______

۱ . سیر أعلام النبلاء:۳/۴۹۰.

۲ . تذکرة الحفاظ :۱/۵۲.

۳ . حلیة الأولیاء:۶/۴۵.

۴ . الکامل فی التاریخ:۳/۷۷.

۵ . الأعلام للزرکلی:۵/۲۲۸ ;تذکرة الحفاظ:۱/۵۲ ;سیر أعلام النبلاء:۳/۴۸۹ـ ۴۹۴ ;حلیة الأولیاء:۵/۳۶۴و ۶/۱ـ۴۸ ;الإصابة:۱/۱۸۶; النجوم الزاهرة:۱/۹ ;الکامل:۳/۱۷۷ ;شرح ابن أبی الحدید فی أجزائه المختلفة:۳/۵۴و۴/۷۷ـ ۱۴۷و ۸/۲۶۵و ۱۰/۲۲و ۱۲/۸۱و ۱۹۱و ۱۸/۳۶. (۸۹)

الأُولی: یحاول الاتسام بالعلم، ویعرّف نفسه للمجتمع بأنّه عالم کبیر، ومفکّر اجتماعی بلا منازع، حتی یتّخذ لنفسه من هذا الطریق مکاناً فی القلوب تنعطف إلیه النفوس وترتاح به. الثانیة: یحاول الاتّصال بأصحاب السلطة، حتی یتخذهم سناداً وعماداً فی مقابل العواصف القارعة التی یثیرها صلحاء الأُمّة ومفکّروها الواقعیون. فإذا تهیّأت لأصحاب الفکرة المنحرفة هاتان الدعامتان، سهل لهم النفوذ فی عقول بسطاء الأُمّة، وتمکّنوا من نفث أفکارهم المسمومة فی نفوسها، ولا تمر الأیام حتی تصبح أفکارهم حقیقة راهنة لا یمکن تجاوزها، ولا الدعوة علی خلافها، بل تصیر المخالفة لها ارتداداً عن الدین، وتشبّثاً بالباطل. ومن عجائب الأُمور أنّ الأحبار والرهبان عندما تظاهروا بالإیمان ولما یدخل الإیمان فی قلوبهم، هیمنوا علی عقول المسلمین من خلال الأمرین المذکورین. فمن جانب عرفوا بأنّهم من أوعیة العلم، وأنّ عندهم علوم الأوّلین والآخرین بتفصیلاتها، وأنّهم حفظة التوراة والإنجیل والزبور وغیرها من الکتب السماویة. ومن جانب آخر استعانوا بالحکم السائد، بحیث صاروا موضع ثقة عنده، یسمع لکلامهم ویصدر عن رأیهم. عند ذلک أخذت الإسرائیلیات والمسیحیات، مکان السنّة النبویة وصار نقلتها مصادر الحکم والفتیا، فأصبحت آراؤهم وأقوالهم مدارک الفقه وسناد التاریخ، ومعیاراً للحقّ والباطل فی العقائد، فیا لها من رزیة عظمت، ویا لها من مصیبة کبرت. هذا هو کعب الأحبار فقد استعان فی بث ثقافته (الثقافة الیهودیة) بهاتین الدعامتین، فهلم معی ندرس حیاة بعض زملائه، وسوف تقف علی أنّ الخط الذی مشی علیه کعب، قد مشی علیه زملاؤه، وإلیک البیان: (۹۰) ۲.وهب بن منبه الیمانی

وقد ابتلی المسلمون بعد کعب الأحبار بکتابی آخر قد بلغ الغایة فی بثّ الإسرائیلیات بین المسلمین حول تاریخ الأنبیاء والأُمم السالفة، وهو وهب بن منبه. قال الذهبی: ولد فی آخر خلافة عثمان، کثیر النقل عن کتب الإسرائیلیات، توفّی سنة ۱۱۴هـ وقد ضعّفه الفلاس.(۱) وقال فی تذکرة الحفاظ: عالم أهل الیمن، ولد سنة أربع وثلاثین وعنده من علم أهل الکتاب شیء کثیر، فإنّه صرف عنایته إلی ذلک وبالغ، وحدیثه فی الصحیحین عن أخیه همام.(۲) وترجمه أبو نعیم فی حلیة الأولیاء ترجمة مفصلة استغرقت قرابة ستین صفحة، وبسط الکلام فی نقل أقواله وکلماته القصار.(۳) وقد خدع عقول الصحابة بأفانین المکر، حیث صار یعرّف نفسه بأنّه أعلم ممّن قبله ومن عاصره بقوله لبعض حضّار مجلسه: یقولون عبد اللّه بن سلام أعلم أهل زمانه، وکعب أعلم أهل زمانه، أفرأیت من جمع علمهما؟ یعنی نفسه.(۴) وقد تسنّم الرجل، منبر التحدّث عن الأنبیاء والأُمم السالفة یوم کان نقل الحدیث عن النبی ـ صلَّی الله

عليه وآله وسلَّم ـ ممنوعاً وأخذ بمجامع القلوب فأخذ عنه من أخذ، وكانت نتيجة ذلك التحدّث، انتشار الإسرائيليات حول حياة الأنبياء فى العواصم الإسلامية، وقد دوّن ما ألقاه فى مجلد واحد، أسماه فى كشف الظنون«قصص الأبرار وقصص الأخيار».(۵)

---

۱ . ميزان الاعتدال:۴/۳۵۲ ـ ۳۵۳.

۲ . تذكرة الحفاظ:۱/۱۰۰ـ ۱۰۱.

۳ . حلية الأولياء:۱/۲۳ـ ۸۱.

۴ . تذكرة الحفاظ:۱/۱۰۱.

۵ . كشف الظنون:۲/۲۲۳، مادة قصص. (۹۱) وهب بن منبه والتركيز على القدر

وليته اكتفى بهذا المقدار ولم يلعب بعقيدة المسلمين ولم ينشر نظرية الجبر التى لو ثبتت لما بقيت للشرائع دعامة، ويظهر من تاريخ حياته أنّه أحد المصادر لانتشار نظرية نفى الاختيار والمشيئة عن الإنسان، حتّى المشيئة الظلية التى لولاها لبطل التكليف ولغت الشريعة. روى حماد بن سلمة عن أبى سنان قال: سمعنا وهب بن منبه قال: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء فى كلّها: من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر، فتركت قولى.(۱) والمراد من القدر فى قوله: «كنت أقول بالقدر» ليس القول بتقدير اللّه سبحانه وقضائه، بل المراد هو القول بالاختيار والمشيئة للعبد كما يظهر من ذيل كلامه، وهذا النقل يعطى أنّ القول بنفى القدر والمشيئة للإنسان، قد تسرب إلى الأوساط الإسلامية، عن طريق هذه الجماعة وعن الكتب الإسرائيلية. أفيصح بعد هذا أن نعدّ القول بنفى المشيئة عقيدة جاء بها القرآن والسنة النبوية، ونكفّر من قال بالمشيئة للإنسان ولو مشيئة ظلية تابعة لمشيئته سبحانه، ونقاتل فى سبيل هذه العقيدة؟! ۳. تميم بن أوس الدارى من رواة الأساطير

الإسرائيليات المبثوثة فى كتب التفسير والحديث والتاريخ ترجع أُصولها إلى رجال الكنائس والبيع، وقد تعرّفت على اثنين منهم وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه، وثالثهم هو تميم الدارى وله دور كبير فى بثّها حيث إنّه أوّل من تولى نشر هذه الأساطير، وقد حدّث عنه علماء الرجال والتراجم وأطبقوا على أنّه كان نصرانياً قدم المدينة فأسلم فى سنة ۹ هجرية، وله من الأوّليات أمران:

---

۱ . ميزان الاعتدال:۴/۳۵۳. (۹۲)

۱.كان أوّل من أسرج فى المسجد. ۲. أوّل من قصّ بين المسلمين، واستأذن عمر أن يقصّ على الناس قائماً، فأذن له.(۱) وكان يسكن المدينة ثمّ انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان.(۲) هذا ما اتّفقت عليه الكتب الرجالية، ويستنتج منها ما يلى: إنّ الرجل كان قصّاصاً فى المدينة يوم لم يكن هناك من يعارضه ويكافئه، وبما أنّ الرجل كان قد قضى شطراً من عمره بين الأحبار والرهبان، فمن الطبيعى أن يقوم بقص كلّ ما تعلّمه من أساتذته من الإسرائيليات والأساطير المسيحية وبثّها بين المسلمين وهم يأخذونها منه زاعماً أنّها حقائق راهنة. ومن المؤسف أنّ السياسة الحاكمة سمحت لهذا الكتابى الذى أسلم فى أُخريات حياة الرسول بأن يتحدّث عن الأُمم السالفة والأنبياء السابقين. وفى الوقت نفسه منعت عن التحدّث عن رسول اللّه ونشر كلامه وتدوينه، بحجة واهية قد تعرّفت عليها. أو ليس النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» على ما رواه أبو هريرة حيث إنّه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا باللّه وما أُنزل إليكم».(۳) وإذا كان النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أمرنا بعدم تصديق هؤلاء القصّاصين من أهل الكتاب، فما فائدة نقل هذه القصص وبثها بين المسلمين وإتلاف عمر الشباب والكهول بالاستماع إليها؟!

---

۱ . كنز العمال:۱/۲۸۱ الرقم ۲۹۴۴۸.

۲ . الإصابة:۱/۱۸۹ ;الاستيعاب فى هامش الإصابة ;أُسد الغابة:۱/۲۱۵ وغيرها من المصادر.

۳ . صحیح البخاری:۹/ ۱۱۱، کتاب الاعتصام بالکتاب والسنّة. (۹۳)

ولکن ابن عباس یقول أشد مما نقله أبو هریرة: کیف تسألون أهل الکتاب عن شیء؟ وکتابکم الذی أُنزل علی رسول اللّه أحدث الکتب تقرأونه محضاً لم یشب وقد حدثکم أنّ أهل الکتاب بدّلوا کتاب اللّه وغیّروه وکتبوا بأیدیهم الکتاب وقالوا هو من عند اللّه لیشتروا به ثمناً قلیلاً؟! ألا ینهاکم ما جاءکم من العلم عن مساءلتهم؟! لا واللّه ما رأینا منهم رجلاً یسألکم عن الذی أُنزل إلیکم.(۱) إنّ ابن عباس الذی هو ولید البیت النبوی أعرف بسنّة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ من أبی هریرة، فهو ینهی عن السؤال والاستماع إلی کلماتهم بالمرة. وبذلک یعلم أنّ ما أسند إلی النبی فی المسانید من القول : «حدّثوا عن بنی إسرائیل ولا حرج».(۲) إمّا موضوع، أو مؤوّل محمول علی ما علم من صدق الکلام. طعن الشیطان لکلّ بنی آدم إلاّ عیسی

إذا کان کعب الأحبار و زمیله وهب بن منبه والمتقدّم علیهما تمیم الداری، هم القصّاصون فی المجتمع الإسلامی والمتحدّثون عن التوراة والإنجیل، وکانت الصحابة ممنوعة عن التحدث عن النبی فمن الطبیعی أن ینتشر فی العواصم الإسلامیة الأساطیر الخرافیة حتی ما یمس بکرامة الأنبیاء وکرامة النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ . وهذا البخاری ینقل فی صحیحه عن أبی هریرة، قال: قال النبی : کلّ بنی آدم یطعن الشیطان فی جنبیه باصبعه حین یولد غیر عیسی بن مریم ذهب یطعن فطعن فی الحجاب.(۳)

---

۱ . أضواء علی السنّة المحمدیة: ۱۵۴ـ ۱۵۵، نقلاً عن البخاری من حدیث الزهری.

۲ . مسند أحمد:۳/۴۶.

۳ . صحیح البخاری:۴/۱۲۵، باب صفة إبلیس وجنوده ;و ۴/۱۶۴، کتاب بدء الخلق. (۹۴)

وقد نقله أحمد فی مسنده باختلاف یسیر. ومعنی هذا الحدیث الذی ینقله عن ذلک الصحابی عن الرسول: أنّ الشیطان یطعن کلّ ابن آدم إلاّ ـ واحداً منه وهو عیسی بن مریم، وأمّا الأنبیاء کموسی ونوح وإبراهیم وحتی خاتمهم، لم یسلموا من طعن الشیطان. أو لیس ذلک الحدیث یخالف کتاباللّه حیث یقول:(إِنّ عِبادی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ، إِلاّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِین) (۱)؟! فإذن، کیف یمکن أن یقول النبی ذلک و قدأُوحی إلیه أنّه لیس للشیطان سلطان علی عباد اللّه المخلصین(۲) وخیرهم الأنبیاء والمرسلون وفی مقدّمهم نبی العظمة؟! ومن المحتمل جداً أنّ هذا الخبر وصل إلی أبی هریرة من رواة عصره، نظراء کعب الأحبار أو زمیله تمیم الداری وأضرابهما وقد نسبوه إلی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ . إنّ هذا الحدیث ونظائره أوجد مشاکل فی الدین وأعطی حججاً بأیدی المخالفین حتی یهاجموا الرسول الأکرم والأنبیاء، ویزعموا بأنّهم سقطوا فی الخطیئة واقترفوا الآثام، إلاّعیسی بن مریم فإنّه أرفع من طبقة البشر وإنّه وحده قد استحقّ العصمة والصون من الآثام. فهؤلاء المحدّثون لو فرض أنّهم صادقون فی نیّاتهم، لکنّهم کالصدیق الجاهل أضروا بالإسلام بنقل هذه القصص والأساطیر وأیّدوا العدو بها وأتعبوا المسلمین من بعدهم. تمیم الداری وقصة الجساسة

إنّ لتمیم الداری حدیثاً معروفاً باسم حدیث الجساسة، نقله مسلم فی الجزء الثامن من صحیحه تجد فیه من الغرائب ما تندهش منها العقول. روی عن فاطمة بنت قیس أخت الضحاک بن قیس ـ وکانت من المهاجرات الأُول ـ : سمعت نداء المنادی (منادی رسول اللّه) ینادی:

---

۱ . الحجر:۴۲.

۲ . النحل:۹۹ ;والحجر:۴۲. (۹۵)

الصلاة جامعة، فخرجت إلی المسجد فصلّیت مع رسول اللّه، فکنت فی صف النساء التی تلی ظهور القوم فلما قضی رسول اللّه صلاته جلس علی المنبر وهو یضحک، فقال: لیلزم کلّ إنسان مصلاّه. ثمّ قال: أتدرون لم جمعتکم؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: إنّی واللّه ما جمعتکم لرغبة ولا لرهبة، ولکن جمعتکم لأنّ تمیماً الداری کان رجلاً نصرانیاً فجاء فبایع وأسلم وحدّثنی حدیثاً وافق الذی کنت أُحدثکم عن مسیح الدجال، حدّثنی أنّه رکب فی سفینة بحریة مع ثلاثین رجلاً من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً فی البحر، ثمّ

أرفئوا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسّاسة. قالوا: وما الجسّاسة؟ قالت: أيّها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنّه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سمّت لنا رجلًا فزعنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبرى فأخبرونى ما أنتم؟ قالوا: نحن أُناس من العرب ركبنا فى سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً ثمّ أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا فى أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجسّاسة. قلنا:وما الجسّاسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنّه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبرونى عن نخل بيسان. قلنا:عن أى شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أمّا إنّه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبرونى عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أى شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا:هى كثيرة الماء. قال: أما إنّ ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبرونى عن عين زغر. قالوا: عن أى شأنهاتستخبر؟ قال: هل فى العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هى كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبرونى عن نبى الأُميّين ما فعل؟ قالوا: قد (۹۶)

خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟فأخبرناه أنّه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. أما إنّ ذاك خير لهم أن يطيعوه وإنّى مخبركم عنّى إنّى أنا المسيح وإنّى أوشك أن يؤذن لى فى الخروج، فأخرج فأسير فى الأرض، فلا أدع قرية إلّا هبطتها فى أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرّمتان علىّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلنى ملك بيده السيف صلتاً يصدنى عنها وإنّ على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: وطعن بمخصرته فى المنبر هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة، يعنى: المدينة، ألا هل كنت حدّثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، فإنّه أعجبنى حديث تميم إنّه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنّه فى بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هو. وأومأ بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ.(۱) وقد علّق المحقّق المصرى أبو رية على هذا الحديث وقال: لعل علماء الجغرافية يبحثون عن هذه الجزيرة ويعرفون أين مكانها من الأرض، ثمّ يخبروننا حتى نرى ما فيها من الغرائب التى حدثنا بها سيدنا تميم الدارى ؟!!(۲) وأعجب منه أن يحدث نبى العظمة الذى يقول سبحانه فى حقّه :(وَعَلَّمَکَ ما لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ وَکانَ فَضْلُ اللّه عَلَیْکَ عَظیماً).(۳) عن تميم الدارى ويستشهد بكلام نصرانى دخل فى الإسلام حديثاً، ونعم ما قال شاعر المعرة: فيا موت زر إنّ الحياة ذميمة.

---

۱ . صحيح مسلم:۸/۲۰۳ـ۲۰۵، باب فى الدجّال.

۲ . أضواء على السنة النبويّة:۱۷۱.

۳ . النساء:۱۱۳. (۹۷) ۴. ابن جريج الرومى ورواية الموضوعات

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومى، ولاؤه لآل خالد بن أسيد الأموى، ولد سنة ۸۰ وتوفّى عام ۱۵۰، قال أحمد بن حنبل: كان من أوعية العلم وهو وابن أبى عروبة أوّل من صنف الكتب، وقال عبد الرزاق: كان ابن جريج ثبتاً لكنّه يدس.(۱) ونقل الذهبى أيضاً عن عبد اللّه بن حنبل قال: «إنّ بعض هذه الأحاديث الذى يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة كان ابن جريج لا يبالى من أين يأخذها».(۲) نعم، روى الكلينى بسنده عن الفضل الهاشمى، قال: سألت أبا عبد اللّهـ عليه السَّلام ـ عن المتعة فقال: «الق عبد الملك ابن جريج، فسله عنها، فإنّ عنده منها علماً، فلقيته، فأملى على شيئاً كثيراً فى استحلالها، وكان فيما روى لى فيها ابن جريج أنّه ليس فيها وقت ولا عدد، وإنّما هى بمنزلة الإماء، يتزوج منهن كم شاء، وصاحب الأربع نسوة يتزوج منهن ما شاء، بغير ولى ولا شهود، فإذا

انقضى الأجل، بانت منه بغير طلاق، ويعطيها الشىء اليسير، وعدتها حيضتان، وإن كانت لا تحيض فخمسة وأربعون يوماً. قال: فأتيت بالكتاب أبا عبد اللّه ـ عليه السَّلام ـ، فقال: «صدق». وأقر به.(۳) ولعلّ إرجاع الإمام ـ عليه السَّلام ـ سائله إليه، لأجل اعترافه بالحق فى تلك المسألة، وليس هذا دليلاً على وثاقته مطلقاً. حصيلة البحث

إنّ هذه العصابة التى أتينا بأسمائهم وذكرنا عنهم شيئاً، كانوا هم الأُسس فى تسرب القصص الخرافية لليهود و المسيحيين إلى متون كتب المسلمين وصارت ________________

۱ . تذكرة الحفاظ:۱/۱۶۹ـ ۱۷۱.

۲ . ميزان الاعتدال:۲/۶۵۹.

۳ . الوسائل:۱۴، كتاب النكاح، الباب ۴ من أبواب المتعة، الحديث۸. (۹۸)

نواة لكثير من القصّاصين والوضّاعين الذين نسجوا على منوالهم ونقلوا كلّ ما سمعوه من غث وسمين باسم الدين، ولأجل ذلك نجد كثيراً من كتب التفسير والتاريخ والحديث حتى ما يسمّى بالصحاح والمسانيد، مملوءة بالإسرائيليات والمسيحيات بل والمجوسيات. يقول «جولد تسيهر» فى هذا المضمار فى كتابه «العقيدة والشريعة»: هناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال للربانيّين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود، كلّ ذلك أخذ مكانه فى الإسلام عن طريق الحديث ـ إلى أن قال ـ: ومن هذا الطريق تسرب كنز كبير من القصص الدينية حتى إذا ما نظرنا إلى الرواة المعدودة من الحديث ونظرنا إلى الأدب الدينى اليهودى، فإنّنا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الدينى الإسلامى من هذه المصادر اليهودية.(۱) نحن لا نصدق هذا المستشرق الحاقد على الإسلام فى كلّ ما يقول ويقضى، إلاّ أنّنا نوافقه فى أنّ ما يؤثر عن أمثال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وتميم الدارى، وعبد الملك بن جريج وغيرهم، من الإسرائيليات، ليس من صلب الإسلام وحديثه. والعجب أنّ هذه الجماعة لم تتمكن من إخفاء نواياها السيئة، فترى أنّ اليهودى منهم ينقل فضائل موسى ويرفعه فوق جميع الأنبياء، كما أنّ النصرانى منهم أخذ يرفع مقام المسيح ـ عليه السَّلام ـ على جميعهم ويصفه بالعصمة وحده دون غيرهم. نعم ليس كلّ ما ورد فى الشريعة الإسلامية ووافق التعاليم اليهودية والنصرانية، مأخوذاً من كتبهم لأنّ الشرائع السماوية واحدة فى جوهرها متحدة فى أُصولها، وبينها مشتركات كثيرة والاختلاف إنّما هو فى الشرعة والمنهاج لا فى الجوهر واللباب، قال سبحانه: (لِكُلّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرعَةً وَمِنْهاجاً) .(۲) ________________

۱ . العقيدة والشريعة فى الإسلام تأليف المستشرق «جولد تسيهر» ترجمة الأساتذة الثلاثة.

۲ . المائدة:۴۸. (۹۹)

فالاختلاف إنّما هو فى الطرق الموصلة إلى ماء الحياة، أعنى: الأُصول والتعاليم السماوية النازلة من مصدر الوحى. فلو كان هناك اختلاف فإنّما هو فى القشور والأثواب، لا فى الجوهر واللباب. وقد فصلنا الكلام فى ذلك فى «مفاهيم القرآن».(۱) خاتمة المطاف

وأخيراً نقول: إنّ المتظاهرين بالإسلام من الأحبار والرهبان الذين كان لهم دور كبير فى بثّ الإسرائيليات وتكوين المذاهب، ليسوا منحصرين فى من ذكرناهم، بل هناك جماعة منهم لعبوا دوراً فى هذا المضمار يجد المتتبع أسماءهم ويقف على أقوالهم فى كتب الرجال والتراجم والروايات والأحاديث، كعبد اللّه بن سلام الذى أسلم فى حياة النبى، وطاووس بن كيسان الخولانى، الحمدانى بالولاء من التابعين، ولد عام ۳۳ وتوفّى عام ۱۰۶، وغيرهم ممّن تركنا البحث عنهم اختصاراً. ولإتمام البحث نأتى بنص بعض المحقّقين فى ذاك المجال وهى كلمة للدكتور «رمزى نعناعة» حول الإسرائيليات، قال: تسرب كثير من الإسرائيليات عن طريق نفر من المسلمين أنفسهم أمثال: عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقد روى أنّه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك، فكان يحدّث الناس ببعض ما فيها اعتماداً على حديث مروى.(۲) وعن هؤلاء المفسرين الذين لا يتورّعون عن تفسير القرآن بمثل هذه الخيالات والأوهام يقول النظام: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كلّ مسألة، فإنّ كثيراً منهم يقول بغير رواية من

أساس، وليكن عندكم عكرمة والكلبى والسدى والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر ________________

۱ . مفاهيم القرآن:۳/۱۱۹ـ ۱۲۴.

۲ . وهو قوله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ : حدّثوا عنى...،وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . مسند أحمد:۳/۴۶. (۱۰۰)

الأصم فى سبيل واحدة فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم.(۱) وقال أيضاً حول قصة آدم وحواء: ونقرأ تفسير الطبرى وتفسير مقاتل بن سليمان فى هذه القصة فيتجلّى لنا بوضوح انّهما أخذا ما جاء فى التوراة وشروحها من تفصيل لهذه القصة، ووضعوه تفسيراً لآيات القرآن الكريم وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة، وعن إسرائيل عن أسباط عن السدى تارة أُخرى.(۲) ومثلاًـ نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت فى الإنجيل كقصة ولادة عيسى بن مريم ومعجزاته، فجاء المفسرون ينقلون عن مسلمة اليهود والنصارى شروحاً لهذه الآيات.(۳) وقال أيضاً: ولم يقتصر تأثير الإسرائيليات على كتب التفسير، بل تعدّاها إلى العلوم الإسلامية الأُخرى، فقد عنى بعض المسلمين بنقل تاريخ بنى إسرائيل وأنبيائهم كما فعل أبو إسحاق والطبرى فى تاريخيهما وكما فعل ابن قتيبة فى كتاب المعارف... كذلك كان لليهود أثر غير قليل فى بعض المذاهب الكلامية، فابن الأثير يروى عند الكلام على «أحمد بن أبى دؤاد» أنّه كان داعية إلى القول بخلق القرآن، وأخذ ذلك عن بشر المريسى وأخذ بشر من الجهم بن صفوان، وأخذ الجهم من الجعد بن أدهم، وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أُخت لبيد الأعصم وختنه، وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودى وكان لبيد يقول:خلق التوراة، وأوّل من صنف فى ذلك طالوت وكان زنديقاً فأفشى الزندقة.(۴) وسيوافيك أنّ القول بقدم القرآن وكونه غير مخلوق، أيضاً تسرّبت من اليهود حينما قالوا بقدم التوراة، أو من النصرانية حينما قالوا بقدم «الكلمة» التى هى المسيح. فللأحبار والرهبان دور راسخ فى خلق هذه ________________

۱ . الحيوان للجاحظ:۱/۳۴۳ـ ۳۴۶.

۲ . تفسير مقاتل:۱/۱۸ ;وتفسير الطبرى:۱/۱۸۶ ومابعده.

۳ . تفسير الطبرى:۳/۱۹۰ و ص ۱۱۲.

۴ . الكامل لابن الأثير:۵/۲۹۴ حوادث سنة ۲۴۰ ;ولاحظ الإسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير للدكتور رمزى نعناعة: ۱۱۰ـ۱۱۱. (۱۰۱)

العقائد وطرح قدم القرآن خاصة على بساط البحث مع أنّه لم يرد فى ذلك نصّ عن النبى والصحابة. قال«زهدى حسن» ـ عند البحث عن تأثير الديانات ـ فى تكون العقائد: فمن أهل تلك الأديان من تركوا أديانهم ودخلوا فى الإسلام. لكنّهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عقائدهم القديمة ولم يتسن لهم أن يتجرّدوا من سلطانها، لأنّ للمعتقدات الدينية على نفوس الناس قوة نافذة وهيمنة عظيمة فلا تزول بسهولة ولا تنسى بسرعة، ولهذا فإنّهم نقلوا إلى الإسلام ـ عن غير تعمد أو سوء قصد ـ بعض تلك المعتقدات ونشروها بين أهله. ومنهم ـ و هذا يصحّ عن الفرس كما سنرى ـ من اعتنق الإسلام لا عن إيمان به أو تحمس له وإنّما لغايات فى نفوسهم فعل بعضهم ذلك طمعاً فى مال يجنيه أو جاه يناله، وأقدم البعض الآخر عليه بدافع الحقد على المسلمين الذين هزموا دينهم وهدموا ملكهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا عداوته ودأبوا على محاربته والكيد له، فكانوا خطراً عليه كبيراً، وشراً مستطيراً، لأنّهم ما انفكوا ينفثون فيه ما فى صدورهم من الغل والغيظ، ويروجون بين أبنائه من الأفكار والآراء ما لا تقره العقيدة الإسلامية حباً فى تشويه تلك العقيدة ورغبة فى إفسادها. وكثيرون من غير المسلمين تمسكوا بأديانهم الأصلية، لأنّ الإسلام منحهم حرية العبادة، ولم يتدخل فى شؤونهم الخاصة ما داموا يدفعون الجزية، ولما توطدت أركان الدولة الإسلامية وتوسعت أعمالها فى عهد بنى أُمية، ولما لم تكن للعرب الخبرة الكافية فى أُمور الإدارة، فإنّهم اضطروا إلى أن يعتمدوا فى تصريف شؤون البلاد على أهل الأمصار المتعلمين الذين اقتبسوا مدنية الفرس وحضارة البيزنطيين، فأسندوا إليهم أعمال الدواوين. وهكذا كانوا يحيون بين ظهرانى المسلمين، ويحتكون دوماً بهم...والاحتكاك يؤدى إلى تبادل الرأى،والآراء سريعة الانتقال شديدة العدوى. وقال أيضاً: إنّ الأمويين قربوهم (المسيحيين) إليهم، واستعانوا بهم،

وأسندوا إليهم بعض المناصب العالية، فقد جعل معاوية بن أبى سفيان (۱۰۲)
«سرجون بن منصور» الرومى المسيحى كاتبه وصاحب أمره(۱) وبعد أن قضى معاوية بقيت لسرجون مكانته فكان يزيد يستشيره فى الملمّات ويسأله الرأى.(۲) ثمّ ورث تلك المكانة ولده يحيى الدمشقى(۳) الذى خدم الأمويين زمناً ثمّ اعتزل العمل سنة (۱۱۲هـ/ ۷۳۰م) والتحق بأحد الأديرة القريبة من القدس حيث قضى بقية حياته يشتغل فى الأبحاث الدينية ويصنف الكتب اللاهوتية، وليس من يجهل الأخطل الشاعر المسيحى الذى قدمه الأمويون وأغدقوا عليه العطايا وجعلوه شاعر بلاطهم. وكيف كان يزيد بن معاوية يعتمد عليه فى الرد على أعداء بنى أُمية وهجوهم.(۴) إنّ احتكاك المسلمين بأُولئك المسيحيين لا يمكن أن يكون قد مضى دون أن يترك فيهم أثراً، ولا سيما برجل ممتاز كيحيى الدمشقى الذى كان آخر علماء اللاهوت الكبار فى الكنيسة الشرقية وأعظم علماء الكلام فى الشرق المسيحى.(۵) ***

وقال أحمد أمين عندالبحث عن مصادر القصص فى العصر الأوّل: ولا بدّ أن نشير هنا إلى منبعين كبيرين لهؤلاء القصص وأمثالهم(۶)، تجد ذكرهما كثيراً فى رواية القصص وفى التاريخ وفى الحديث وفى التفسير، هما: وهب بن منبه، وكعب الأحبار. فأمّا وهب بن منبه فيمنى من أصل فارسى، وكان من أهل الكتاب الذين ________________

۱ . تاريخ الطبرى:۶/۱۸۳ ;وابن الأثير:۴/۷.

۲ . الطبرى:۶/۱۹۴ـ ۱۹۹ وابن الأثير:۴/۱۷.

۳ . هو القديس يحيى الدمشقى (۸۱ـ ۱۳۷هـ=۷۰۰ ـ ۷۵۴م) واسمه العربى منصور. كان يحيى الدمشقى عالماً كبير القدر من علماء الدين وقديساً محترماً فى الكنيستين: الشرقية والغربية .

۴ . الأغانى:۱۴/۱۱۷.

۵ . لاحظ كتاب «المعتزلة» : ۲۳ـ ۲۴تأليف زهدى حسن جار اللّه.

۶ . كذا فى المصدر. (۱۰۳)

أسلموا، وله أخبار كثيرة وقصص تتعلّق بأخبار الأول ومبدأ العالم وقصص الأنبياء، وكان يقول: قرأت من كتب اللّه اثنين وسبعين كتاباً وقد توفى حوالى سنة (۱۱۰هـ) بصنعاء. وأمّا كعب الأحبار أو كعب بن ماتع فيهودى من اليمن كذلك، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين، أسلم فى خلافة أبى بكر وعمر ـ على خلاف فى ذلك ـ و انتقل بعد إسلامه إلى المدينة ثمّ إلى الشام، وقد أخذ عنه اثنان، هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس ـ و هذا يعلل ما فى تفسيره من إسرائيليات ـ وأبو هريرة ولم يؤثر عنه أنّه ألّف كما أثر عن وهب بن منبه، ولكن كلّ تعاليمه ـ على ما وصل إلينا ـ كانت شفوية، وما نقل عنه يدلّ على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها. جاء فى «الطبقات الكبرى» حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد اللّه بن القيس جالس إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ.(۱) وقد لاحظ بعض الباحثين أنّ بعض الثقات كابن قتيبة والنووى ما رويا عنه أبداً. وابن جرير الطبرى يروى عنه قليلاً ولكن غيرهم كالثعلبى والكسائى ينقل عنه كثيراً من قصص الأنبياء كقصة يوسف والوليد بن الريان وأشباه ذلك. ويروى «ابن جرير» أنّه جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له:اعهد، فإنّك ميت فى ثلاثة أيام. قال: وما يدريك؟ قال: أجده فى كتاب اللّه عزّوجلّ فى التوراة. قال عمر:إنّك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة؟ قال: اللّهمّ لا، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنّه قد فنى أجلك. وهذه القصة إن صحت، دلّت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثمّ وضعها هو فى هذه الصبغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل. وعلى الجملة: فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم فى عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح.(۲) *** ________________

۱ . طبقات ابن سعد:۷/۷۹.

۲ . فجر الإسلام: طبع دار الكتاب العربى:۱۶۰ـ ۱۶۱. (۱۰۴) (وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَما

يَشْعُرُونَ) .(۱) ______________

۱ . آل عمران:۶۹. (۱۰۵)

العامل الخامس الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى

العامل الخامس الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضارى
مضـى النبى الأـكرم ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلَّم ـ إلى جوار ربّه وقام المسـلمون بعـده بفتـح البلاد ومكافحـة الأُمم المخالفـة للإسـلام والسيطرة على أقطارها، وكانت تلك الأُمم ذات حضارة وثقافـة فى المعارف والعلوم والآداب، وكان بين المسـلمين رجال ذوو دراية ورغبـة فى كسب العلوم وتعلم ما فى تلك الحضارات من آداب وفنون فأدّت هـذه الرغبـة إلى المذاكرة والمحاورة أوّلاً، ونقل كتبهم إلى اللغة العربية ثانياً. يقول بعض المؤرّخين فى هذا الصدد: ولم تلبث كتب أرسطو، وأنبذقليس، وهرقليوس،وسقراط، وأبيقور،وجميع أساتـذة مدرسـة الإسـكندرية من الفلاسـفة، أن ترجمت إلى اللغـة العربيـة وكان هناك ما جعل أمر تلك الترجمـة سـهلاً، فقـد كانت معارف اليونان والرومان منتشـرة فى بلاد الفرس وسوريا منـذ أن وجـد العرب فى بلاد فارس وسوريا، فلمّا اسـتولى المسـلمون على ما فيها من خزائن العلوم اليونانيـة قاموا بنقل ما هو باللغة السريانية إلى اللغة العربية. وأعان على أمر الترجمة أنّه نقل عدّة من الأسـرى إلى العواصم الإسلامية، فصار ذلك سبباً لانتقال كثيرمن آراء الرومان والفرس إلى المجتمع الإسلامى (۱۰۶)
وانتشارهـا بينهم ولاـ شكّ أنّ بين تلك المعارف ما كان يضاد مبادئ الإسـلام وأُسـسه وكان بين المسـلمين من لم يتـدرع فى مقابلها ومنهم من لم يتورع فى أخـذ الفاسـد منها. فأصـبحوا مغمورين فى هذه التيارات، نظراء: ابن أبى العوجاء، وحماد بن عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن أياس، وعبـد اللّه بن المقفع، فهؤلاء وأمثالهم بين غير متـدرع وغير متورع، اهتموا بنشـر الإلحاد بين المسـلمين وترجمة كتب الملاحدة والثنوية من الروم والفرس إلى أن عاد بعض المتفكّرين غير مسـلمين للإسلام إلّا بالقواعد الأساسية كالتوحيد والنبوة و المعاد وكانوا ينشـرون آراءهم علناً ويهاجمون بها عقائد المؤمنين. نحن نرى فى التراث اليونانى بفضل التراجم التى وصلت إلينا أبحاثاً حول علمه سبحانه وإرادته وقدرته وأفعاله حتى مسألة الجبر والاختيار، وقد كان لتلك الآراء تأثير عميق على عقول المسلمين وهم بين متـدرّع بالحضارة الإسـلامية يكافـح الشبـه ويميز الصـحيح من الفاسـد، وبين ضـعيف فى التعقّل والتفكّر ليس له من الشأن إلّا الأخـذ، فصارت تلك الآراء من مبادئ تكوّن الفرق واختلاق النحل. دور أهل البيت فى عصر الترجمة
وفى هذا الجو المشـحون بالآراء والعقائد الصحيحة وغير الصحيحة، قام أهل البيت بتربية جموع غفيرة من ذوى الاستعداد على المبادئ الأصـيلة والمفاهيم الإسـلامية وتعريفهم بالأُصول الدينية المسـتقاة من الكتاب والسنّة والعقل،وصاروا يناظرون كلّ فرقة ونحلة بما فيهم الملاحدة والثنوية بأمتن البراهين وأسلمها. وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة منهم، كهشام بن الحكم، وأبى جعفر مؤمن الطاق، وجابر بن يزيد، وأبان بن تغلب البكرى، ويونس بن (۱۰۷)
عبـد الرحمن، وفضـال بن الحسن بن فضال، ومحمـد بن خليل السـكاك، وأبى مالك الضـحاك، وآل نوبخت جميعاً، إلى غير ذلك ممن برع فى علم الكلام، وناظر الفرق، بين من تتلمـذ على الأئمـة، أو من تتلمـذ على خريجى مـذهبهم، وتواصـلت حلقات مناظراتهم حتى القرون المتـأخرة وألفت كتب فى العقائـد والكلاـم والملـل والنحـل، يقف القـارئ على تـاريخهم فى كتب الرجال والتراجم وقد حفظ الكثير من نصوص هـذه المناظرات والاحتجاجات لحدّ الآن. كما قامت المعتزلة بمقاومة هذه التيارات الإلحادية والثنوية، وبإزالة الشبه بفضـل الأُـصول القرآنيـة والعقليـة، وقـد نجحوا فى ذلـك نجاحـاً بـاهراً وإن لم يكونوا ناجحين فى كلّ ما هو الحقّ من الأُصول والفروع الإسـلامية. وبما أنّ أهل الحـديث لا يحسـنون طريقـة المعتزلـة فى الاحتجاج والبرهنـة، لذا كانوا يعادونهم، كما أنّ الملاحدة والثنويـة كانوا يعادونهم أيضاً، لما يجدون فيهم من قوّة التفكير والقدرة على الاحتجاج والمناظرة. وعلى ذلك فقد وقعت المعتزلة بين عدوين:أحدهما من الداخل، وهم أهل الحديث، والآخر من الخارج، وهم الملاحدة والثنوية. نعم كان بين المسلمين من يأبى الخوض

فى المسائل العقلية ويكتفى بما وصل إليه من الصحابة، ويقتصر على ما حصل عليه من الدين بالضرورة وهم الحشوية من أهل الحديث وأكثر الحنابلة ولما التحق الشيخ أبو الحسن الأشعرى بالحنابلة لم يجد محيصاً فى الدفاع عن عقائدهم عن الخوض فى المسائل الكلامية، فألّف رسالة أسماها «فى استحسان الخوض فى الكلام». (۱۰۸)

العامل السادس الاجتهاد فى مقابل النص

العامل السادس الاجتهاد فى مقابل النص

إذا كانت العوامل الخمسة الماضية من عوامل تكون المذاهب الكلامية فالاجتهاد فى مقابل النص ممّا يتكون به المذاهب الكلامية والفقهية. روى الفريقان أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كان مسجى على فراش الموت والحجرة غاصة بأصحابه فقال: «يا أيّها الناس يوشك أن أقبض سريعاً فينطلق بى، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا أنّى مخلف فيكم كتاب اللّه عزّ وجلّ وعترتى أهل بيتى».(۱) فجعل العترة أعدال كتاب اللّه وقرناءه كما أنّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ جعلهم أمان الأُمّة من الاختلاف وسفينتها من الهلاك، إلى غير ذلك من الأحاديث التى ستمر عليك عند البحث عن الشيعة. ومع ذلك استأثر القوم بالأمر يوم السقيفة و أوّلوا نصوصه لا ـ يلوون على شىء وقد قضوا أمرهم بينهم دون أن يؤذنوا به أحداً من بنى هاشم وأهل بيت النبوة وكأنّه عناهم الشاعر فى المثل السائر حيث قال: ويقضى الأمر حين تغيب تيم * ولا يستأذنون وهم شهود نرى أنّ الأُمّة بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ رجعوا إلى كلّ صحابى وتابعى وإلى ——————

۱ . لاحظ ص ۳۶ من كتابنا هذا. (۱۰۹)

من أدرك صحبة النبى شهراً أو أقلّ ومع ذلك أعرضوا عن أهل بيته وعترته وهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحى والتنزيل، وما هذا إلاّ اجتهاد فى مقابل النصّ. وأمّا المذاهب الفقهية التى أُسّست فى ظل هذا العامل فحدث عنها ولا حرج، ويكفى فى ذلك المراجعة إلى الكتب الفقهية فى المسائل التالية: ۱. إسقاط سهم المؤلّفة قلوبهم من الزكاة مع النص عليه فى محكم الذكر. ۲. إسقاط سهم ذوى القربى من الخمس بوفاة رسول اللّه مع النصّ عليه فى محكمات الفرقان وصحاح السنن. ۳. الحكم بعدم توريث الأنبياء مع ما فى الذكرالحكيم من النصوص الصريحة فى توريثهم. ۴. النهى عن متعة الحجّ مع النصّ الوارد عليها فى الآية (۱۹۶) من سورة البقرة. ۵. النهى عن متعة النساء مع النصّ عليه فى محكم الذكر وصحاح الروايات. ۶.إسقاط «حى على خير العمل» من الأذان والإقامة مع كونه جزءاً من كلّ منهما. إلى غير ذلك من الموارد التى جمعها العلاّمة الأكبر السيد شرف الدين العاملى (المتوفّى۱۳۷۷هـ) فى كتابه«النص والاجتهاد» وهو من الكتب الممتعة فى ذلك الموضوع وفى آخر الكتاب فصل جمع فيه نصوص الإمامة المتوالية من مبدأ أمر الرسول إلى انتهاء عمره الشريف. *** (ثُمَّ أَورَثنا الكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيْراتِ بِإِذْنِ اللّه ذلِكَ هُوَ الفَضْلُ الْكَبير) (۱). ——————

۱ . فاطر: ۳۲ . (۱۱۰) (۱۱۱)

الفصل الرابع فى معنى القدرية والمعتزلة

الفصل الرابع فى معنى القدرية والمعتزلة والرافضةوالحشوية

إنّ كتب الملل والنحل مشحونة باصطلاحات يستخدمونها فى التعبير عن الفرق ويعبرون عن أكثرهم بإدخال ياء النسبة إلى أصحاب الرأى، غير أنّ هناك اصطلاحات اختلفوا فى معناها أو وقع لهم الاشتباه فى تفسيرها، فلنذكر هاهنا القسم الأخير:

۱. القدرية قد تداول استعمال لفظ القدرية فى علمى الملل والكلام، فأصحاب الحديث كإمام الحنابلة ومتكلّمى الأشاعرة يطلقونها ويريدون منها «نفاة القدر ومنكريه» بينما تستعملها المعتزلة فى مثبتى القدر والمقرين به، وكلّ من الطائفتين ينزجر من الوصمة بها ويفر

منها فرار المزكوم من المسك ;وذلك لما رواه أبو داود فى سننه، والترمذى فى صحيحه، من روايات فى ذم القدرية والقدح فيهم. وإليك بيانها: ۱. عبد اللّه بن عمر: إنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: القدرية مجوس هذه الأُمّة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم. ۲. عبد اللّه بن عباس: إنّ النبى قال: لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم.(۱) ـــــــــــــــــــــــ

۱ . أى لا تحاكموهم وتناظروهم ولا تجادلوهم. وفى المصدر عمر بن الخطاب مكان «عبد اللّه بن عباس». (۱۱۲)

۳. عبد اللّه بن عباس قال: قال رسول اللّه: صنفان من أُمّتى ليس لهما فى الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية.(۱) ولأجل هذه الروايات يتهم كلّ من الطائفتين، الأُخرى بالقدرية لينزّه نفسه من ذلك العار والشنار. ولا يخفى أنّ متون الأحاديث تعرب عن كونها موضوعة على النبى الأكرم، خصوصاً الحديث الأخير فقد جاء فيه: المرجئة والقدرية معاً، إذ إنّ هذين المصطلحين برزا بين المسلمين فى النصف الثانى من القرن الأوّل عندما اتّهم معبد الجهنى وتلميذه غيلان الدمشقى بالقدر والإرجاء، و ذاع هذان الاصطلاحان بين المسلمين إلى الآن ومن البعيد وجودهما فى زمن الرسول الأعظم وشيوعهما فى ذلك العصر،وعند ذلك كيف يتكلّم الرسول بكلمات بعيدة عن أذهان أصحابه، وغريبة على مخاطبيه، كلّ ذلك يثير الشكّ أو سوء الظن بوضع هذه الأحاديث ودسّها بين المسلمين، حتى يتسنّى لكلّ من الطائفتين، تعيير الأُخرى بها والنيل من كرامتها،وما ذكرناه من التشكيك وإن كان لا يخرج عن دائرة الاستحسان، غير أنّ وقوع الضعاف فى أسنادها يؤيد ذلك التشكيك ويقوّيه. أمّا الحديث الأوّل، فقد رواه أبو داود فى سننه بالسند التالى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم، قال: حدثنى بمنى عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبى.(۲) ويكفى فى ضعف الحديث، أنّ أبا حازم سلمة بن دينار، لم يدرك عبد اللّه بن عمر، وقد روى عنه فى مواضع بوسائط، لا يثبت منها شىء.(۳) وأمّا الحديث الثانى، فقد رواه أيضاً بالسند التالى: ـــــــــــــــــــــــ

۱ . جامع الأُصول:۱۰/۵۲۶. راجع سنن أبى داود:۴/۲۲۲، باب فى القدر، الحديث ۶۴۹۱ و ۶۴۹۲ ;سنن الترمذى:ج۴، كتاب القدر باب ۱۳، الحديث ۲۱۴۹.

۲ . سنن أبى داود:۴/۲۲۲، الباب فى القدر، الحديث ۴۶۹۱.

۳ . جامع الأُصول :۱۰/۵۲۶ قسم التعليق ;واللآلى المصنوعة :۱/۲۵۸. (۱۱۳)

حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عبد اللّه بن يزيد المقرى أبو عبد الرحمن، قال حدثنى سعيد بن أبى أيوب، قال حدثنى عطاء بن دينار، عن حكيم بن شريك الهذلى، عن يحيى بن ميمون الحضرمى، عن ربيعة الجرشى، عن أبى هريرة، عن عمر بن الخطاب.(۱) ويكفى فى ضعف الحديث أنّ فى أسناده، حكيم بن شريك الهذلى البصرى الذى هو مجهول.(۲) وأمّا الحديث الثالث، فقد رواه الترمذى فى سننه بالسند التالى: حدثنا واصل بن عبد الأعلى الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، عن القاسم بن حبيب، وعلى بن نزار، عن نزار عن عكرمة.(۳) ويكفى فى ضعف الحديث أنّ قاسم بن حبيب ضعيف، ونزار وابنه على، من المجاهيل. أفيصح الاحتجاج بأحاديث هذه أسنادها؟ هذه حال الأحاديث الواردة فى الصحاح. غير أنّ هناك أحاديث وردت فى غيرها تختلف مع ما ورد فيها سنداً، وإن كانت تتحد لفظاً. وقد جمعها السيوطى فى كتابه «اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة».(۴) مثلاً: روى ابن عدى، بسند عن مكحول عن أبى هريرة مرفوعاً: إنّ لكلّ أُمّة مجوساً، وإنّ مجوس هذه الأُمّة القدرية، فلا تعودوهم إذامرضوا، ولا تصلّوا عليهم إذا ماتوا. وفى سنده جعفر بن الحارث، قال عنه السيوطى: ليس بشىء. ورواه خيثمة بسند عن أبى هريرة، وفى سنده غسان، قال عنه السيوطى: مجهول. ـــــــــــــــــــــــ

۱ . سنن أبى داود:۴/۲۲۸، باب فى القدر، الحديث ۴۷۱۰.

۲ . جامع الأُصول:۱/۵۲۶، قسم التعليق.

۳ . سنن الترمذى :۴/۴۵۴، باب ما جاء فى القدرية، رقم الحديث ۲۱۴۹.

۴ . لاحظ ج۱، ص ۲۵۴ ـ ۲۵۶. (۱۱۴)

ورواه الدارقطنى، بسند عن أبى هريرة، وفيه مجاهيل، حتى قال النسائى: هذا الحديث باطل كذب.(۱) ونكتفى بهذا المقدار فى البحث عن سند الروايات. هذا حال رجال الأحاديث المذكورة، ومن المعلوم أنّه لا يمكن الاحتجاج بأحاديث هذا شأنها، وعلى فرض صحتها فالصحيح تفسير القدرية بمعنى مثبتى القدر والحاكمين به، لا نفاته. فإنّ تلك الكلمة كأشباهها من العدلية وغيرها تطلق ويراد منها مثبتو مبادئها، أعنى: العدل، لا ـ نفاتها. وإطلاق تلك الكلمة وإرادة النفى منها من غرائب الاستعمالات. نعم أخرج أبو داود فى سننه(۲)، عن حذيفة بناليمان قال: «قال رسول اللّه: لكلّ أُمّة مجوس، ومجوس هذه الأُمّة الذين يقولون لا قدر». وهذا الحديث على فرض صحته يمكن أن يكون قرينة على تفسير القدرية فى هذا المورد، ويكشف عن أنّ ذلك الاستعمال البعيد عن الأذهان، كان مقروناً بالقرينة. ولكن الاحتجاج بالحديث غير تام، إذ فى سنده عمر مولى غفرة، عن رجل من الأنصار، عن حذيفة، فالراوى والمروى عنه مجهولان.(۳) فقه الحديث

وبعد ذلك كلّه، ففقه الحديث يقتضى أن نقول: إنّ المراد من القدرية هم مثبتو القدر، لا ـ نفاته، بقرينة تشبيههم بالمجوس، فإنّ المجوس معروفة بالثنوية، وإنّ خالق الخير غير خالق الشر، ومبدع النور غير مبدع الظلمة، وإنّ هناك إلهين خالقين فى عالم واحد، يستقل كلّ فى مجاله الخاص، حسب ما يناسب ذاته. والقائل بالقدر يحكّم القدر على أفعاله سبحانه وأفعال عباده، فكأنّ

---

۱ . اللآلى المصنوعة: ۱/۲۵۸.

۲ . سنن أبى داود: ۴/۲۲۲ ح ۴۶۹۲.

۳ . الجرح والتعديل:۶/۱۴۳. (۱۱۵)

التقدير إله حاكم على أفعال اللّه وأفعالهم، فإذا قدر شيئاً وقضى لا يمكن له نقض قضائه وقدره، بل يجب عليهما أن يصيرا حسب ما قدر، فالفواعل على هذا المعنى ـ سواء أكانت شاعرة عالمة بذاتها وأفعالها أو غير شاعرة وعالمة ـ مسيّرة لا مخيّرة، لأجل حكومة القدر وسيادته على اللّه وأفعاله وعلى حرية عبده، فأى إله أعلى وأسمى من القدر بهذا المعنى. فصحّ تشبيه القدرية ـ بهذا المعنى ـ بالمجوس القائلين بالثنوية وتعدد الإله. وأمّا نفاة القدر الذين يقولون لا قدر ولا قضاء بل للّه الحكم فى أوّله وآخره، وأنّ عباده مخيّرون فى أعمالهم وأفعالهم، فهم أشبه بالموحدين من القائلين بالمعنى السابق الذكر. نعم يمكن تقريب كون النفاة بحكم المجوس ببيان آخر وهو: أنّ تلك الفرقة يعتقدون بالتفويض، وأنّ الإنسان مفوض إليه فى فعله، مستقل فى عمله وكلّ ما يقوم به. فعند ذلك يكون الإنسان فاعلاً غير محتاج فى فعله إلى خالقه وبارئه،ويصير نداً له سبحانه وتعالى فكما هو مستقل فى خلقه فذاك أيضاً مستقل فى عمله. وهذا الاعتقاد يشبه قول الثنوية، من الاعتقاد بخالقين مستقلين: خالق النور وخالق الظلمة. وفى مورد البحث يعتقد نفاة القدر بخالقين: اللّه سبحانه بالنسبة إلى ما سواه غير أفعال الإنسان، والإنسان فى مجال أفعاله وأعماله، فلكلّ مجال خاص، وهذا الاعتقاد يخالف التوحيد فى الخالقية والفاعلية، وأنّه ليس هناك إلاّ خالق واحد، كما أنّه ليس هناك فاعل مستقل. فكلّ ما فى الوجود من الآثار مع استناده إلى مبادئها ومؤثراتها، مستند إلى اللّه سبحانه، وسيوافيك توضيحه عند البحث فى القضاء والقدر. ولا يخفى ما فى هذا الوجه من الوهن، لأنّ الحديث يركز على كونهم بمنزلة المجوس، لأجل كونهم نافين للقدر، لا ـ لأجل كونهم قائلين بالتفويض،وأنّ الإنسان بعد الوجود،مفوض إليه فعله وعمله،ولا صلة لفعله إلى اللّه سبحانه بوجه من الوجوه. وقولهم بالتفويض وإن كان يصحح ذلك، لكنّه (۱۱۶)

ليس مذكوراً فى الحديث فالحقّ تفسير الحديث بالقائلين بالقدر والمثبتين له على الوجه الذى عرفته، لا بنفاته. هذا، والقاضى عبد الجبار نقل حديثاً يوضح لنا مفاد هذا الحديث حيث قال: «لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً، قيل له: ومن القدرية يا رسول اللّه؟ قال: «قوم يزعمون أنّ اللّه قدّر عليهم المعاصى وعذبهم عليها. والمرجئة قوم يزعمون أنّ الإيمان بلا عمل».(۱) ونقل أيضاً قول الرسول:«لعن اللّه القدرية على لسان سبعين نبياً، قيل: من القدرية يا رسول اللّه؟قال: «الذين يعصون اللّه تعالى ويقولون كان ذلك

بقضاء اللّه وقدره... وهم خصماء الرحمن وشهود الزور وجنود إبليس».(۲) وقد رواه بعض المفسرين أيضاً، كالزمخشرى فى كشافه(۳)، والرازى فى مفاتيحه.(۴) هذا وإنّ تتبّؤ النبى الأكرم عن طائفة باسمهم دون أن يذكر وصفهم بعيد جداً. وهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهى أنّه لا شكّ أنّ للّه سبحانه قضاء وقدراً، وانّه لا يمكن للمؤمن العارف بالكتاب والسنّة إنكار ذلك،وقد قال سبحانه: (ما أَصابَ مِنْ مُصيبَة فِى الأَرْضِ وَلا فى أَنفُسِكُمْ إِلاّ فى كِتاب مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلى اللّهِ يَسير) (۵) وقال سبحانه: (إِنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَة مُبارَكة إِنّا كُنّا مُنْذِرينَ* فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْر حَكِيم).(۶) ________________

۱ . المغنى:۸/۳۲۶(المخلوق).

۲ . شرح الأُصول الخمسة: ۷۷۵، الطبعة الأُولى.

۳ . الكشاف:۱/۱۰۳.

۴ . المفاتيح:۱۳/۱۸۴.

۵ . الحديد:۲۲.

۶ . الدخان:۳ و ۴. (۱۱۷)

وهذه الآيات والأحاديث المتضافرة التى نقلها أصحاب الحديث لا تترك منتدحاً لمسلم أن ينكر القضاء والقدر، نعم الكلام فى تفسيرهما وتحديد معناهما على نحو لا يضاد ولا يخالف حاكمية اللّه واختياره أوّلاً، ولا يزاحم حرية الإنسان وإرادته ثانياً، إذ كما أنّ القدر والقضاء من الأُمور اليقينية، فكذا حاكميته سبحانه واختياره، وحرية العبد وإرادته من الأُمور اليقينية أيضاً وسوف يوافيك أنّ معنى القضاء والقدر الثابتين فى الشرع، ليس كما تصوّره أصحاب الحديث والأشاعرة: من تحكيم القدر على اختياره سبحانه، وإرادة عباده. بل تقديره وقضاؤه لا يعنى إبطال حرية الإنسان واختياره، ولأجل كون المقام من مزال الأقدام، نهى الإمام أمير المؤمنين البسطاء عن الخوض فى القضاء والقدر، فقال فى جواب من سأله عن القدر:«طريق مظلم فلاـ تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر اللّه فلا تتكلّفوه».(۱) ولكن كلامه ـ عليه السَّلام ـ متوجه إلى البسطاء من الأُمّة الذين لا يتحملون المعارف العليا، لا إلى أهل المعرفة والنظر. ولأجل ذلك وردت جمل شافية فى القضاء والقدر عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ وسيوافيك شطر منها عند عرض مذهب أهل الحديث فى هذا الموقف. ۲. الاعتزال والمعتزلة

المعتزلة طائفة من العدلية نشأت فى أوائل القرن الثانى الهجرى، ويرجع أصلها إلى «واصل بن عطاء» تلميذ الحسن البصرى، ولهم منهج كلامى خاص وأُصول معينة اتفقوا عليها، وسوف نرجع إلى دراسة مذهبهم بعد الفراغ من دراسة مذهب أهل الحديث أوّلاً، والأشاعرة ثانياً، غير أنّ الذى نركز عليه هنا هو الوقوف على وجه تسميتهم بالمعتزلة تارة، ووصف مدرستهم بالاعتزال أُخرى، وهناك آراء ستة نشير إلى بعضها: أ. دخل رجل على الحسن البصرى (المتوفّى عام ۱۱۰هـ) فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم ________________

۱ . شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده:قسم الحكم، الرقم ۲۸۷. (۱۱۸)

كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج ;وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل ليس ـ على مذهبهم ـ ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كمالا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأُمّة فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً؟ فتفكّر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء (تلميذه): أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لاـ مؤمن ولا كافر. ثمّ قام واعتزل إلى أسطوانة من اسطوانات المسجد، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل، فسمّى هو وأصحابه معتزلة.(۱) وقد كان لمسألة مرتكب الكبائر دوى عظيم فى تلك العصور، وهو أمر أحدثه الخوارج فى البيئات الإسلامية تعييراً لعلى ـ عليه السَّلام ـ حيث إنّه بزعمهم ارتكب الكبيرة لمّا حكّم الرجال فى أمر الدين، وليس للرجال شأن فى هذا المجال، فعادوا يكفّرونه حسب معاييرهم الباطلة. ولأجل ذلك انتشر السؤال

عن حكم مرتكب الكبيرة، هل هو كافر أو مؤمن فاسق؟ فالتجأ واصل بن عطاء إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين. وظاهر الرواية، أنّ واصل بن عطاء أجاب عن السؤال ارتجالاً وبلا تروّ، غير أنّا نرى أنّ المعتزلة اتّخذوه أصلاً من الأُصول الخمسة التى لا يختلف فيها أحد منهم، فيبدو أنّه انتهى إلى تلك النظرية عن تحقيق وتفكير وتبعه أصحابه طوال قرون من دون أن يكون هناك حافز سياسى أو داع غير إراءة الحقّ وإصابة الواقع. ومع ذلك كلّه نرى عبد الرحمن بدوى يعتبر تلك الفكرة منهم فكرة سياسية اتّخذوها ذريعة على ألاّ ـ ينصروا أحد الفريقين المتنازعين(أهل السنّة والخوارج) حيث قال: وإنّما اختار المعتزلة الأوّلون هذا الاسم، أو على الأقل

---

۱ . الفرق بين الفرق : ۱۱۸ ;الملل والنحل للشهرستانى:۱/۴۸. (۱۱۹)

تقبّلوه، بمعنى المحايدين أو الذين لا ينصرون أحد الفريقين المتنازعين(أهل السنة والخوارج) على الآخر فى المسألة السياسيّة الدينية الخطيرة: مسألة الفاسق ما هو حكمه؟ هل هو كافر مخلّد فى النار كما يقول الخوارج، أو هو مؤمن يعاقب على الكبيرة بقدرها كما يقول أهل السنّة، أو هو فى منزلة بين المنزلتين وهو ما يقول به المعتزلة.(۱) ب. وهناك رأى ثان فى وجه تسميتهم بها، يظهر ممّا ذكره أبو الحسين محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعى(المتوفّى عام ۳۷۷هـ) حيث يقول: وهم سمّوا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن على ـ عليه السَّلام ـ معاوية وسلم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس، وقد كانوا من أصحاب على،ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسمّوا بذلك معتزلة.(۲) وهذا الرأى قريب من جهة أنّ المعتزلة أخذوا تعاليمهم فى التوحيد والعدل، عن الإمام على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ لأنّهم يقرّون بأنّ مذهبهم يصل إلى واصل بن عطاء، وأنّ واصلاً يستند إلى محمد بن على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ المعروف بابن الحنفية بواسطة ابنه أبى هاشم وأنّ محمداً أخذ عن أبيه، وأنّ علياً أخذ عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ .(۳) وعلى ذلك فليس ببعيد أن يرجع وجه التسمية إلى زمن تصالح الإمام الحسن ـ عليه السَّلام ـ مع معاوية. والذى يبعد ذلك أنّ من الأُصول الاعتقادية للمعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى هذا الأصل خرجت أوائلهم على الوليد الفاسق بن يزيد ابن عبد الملك ونصروا يزيد الناقص بن الوليد بن عبد الملك الذى كان على خط

---

۱ . مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوى:۱/۳۷.

۲ . التنبيه والرد: ۳۶.

۳ . رسائل الجاحظ تحقيق عمر أبى النصر: ۲۲۸، وغيره ممّا كتب فى تاريخ المعتزلة كطبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار، والمنية والأمل لأحمد بن يحيى بن المرتضى. (۱۲۰)

الاعتزال، وقد فصّل الكلام فيه المسعودى فى تاريخه(۱)، وعلى ذلك فلا يصح أن يقال إنّهم لزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة. والحقّ أن يقال: إنّ هناك طائفتين سمّيتا بالمعتزلة، لا صلة بينهما سوى الاشتراك فى الاسم، ظهرت إحداهما بعد تصالح الإمام الحسن بن على ـ عليهما السَّلام ـ مع معاوية، وهؤلاء طائفة سياسية بحتة. وطلعت الأُخرى فى زمن الحسن البصرى بعد اعتزال واصل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، وهؤلاء طائفة كلامية عقائدية. هذا وإنّ المعروف فى وجه التسمية هو الوجه الأوّل دون الثانى ودون سائر الوجوه البالغة ستة أوجه. وسيوافيك بيان تلك الأوجه الستة عند بيان عقائد المعتزلة فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة. ۳. الرفض والرافضة ووجه التسمية

الرفض: بمعنى الترك. قال ابن منظور فى اللسان: «الرفض تركك الشىء تقول: رفضنى فرفضته، رفضت الشىء أرفضه رفضاً. تركته وفرقته، والرفض، الشىء المتفرق والجمع: أرفاض». هذا هو المعنى اللغوى وأمّا حسب الاصطلاح فى الأعصار المتأخرة فهو يطلق على مطلق محبى أهل البيت تارة، أو على شيعتهم جميعاً أُخرى، أو على طائفة خاصة منهم ثالثة. وعلى كلّ تقدير فهذاالاصطلاح اصطلاح سياسى أُطلق على هذه الطائفة وهو موضوع لا كلام فيه، إنّما الكلام فى وجه التسمية ومبدأ نشوئها، فإنّنا نرى ابن منظور يقول فى وجه

التسميةالروافض: جنود تركوا قائدهم وانصرفوا، فكلّ طائفة منهم رافضة، والنسبة إليهم رافضى، والروافض قوم من الشيعة سمّوا بذلک لأنّهم تركوا زيد بن على، قال الأصمعى: كانوا ـــــــــــــــــــــ

۱ . مروج الذهب:۳/۲۱۲ـ ۲۲۶. (۱۲۱)

قد بايعوا زيد بن على ثمّ قالوا له: ابرأ من الشيخين نقاتل معک فأبى وقال: كانا وزيرى جدى فلا أبرأ منهما، فرفضوه وارفضوا عنه، فسمّوا رافضة،وقالوا الروافض ولم يقولوا: الرفاض لأنّهم عنوا الجماعات.(۱) غير أنّ ابن منظور، وإن أصاب الحقّ فى صدر كلامه وجعل للّفظ معنى وسيعاً يطلق على المسلم والكافر، والمسلم شيعيّه و سنّيه لكن استشهد على وجه تسمية قسم من شيعة على ـ عليه السَّلام ـ بها بقول الأصمعى، وهو منحرف عن على وشيعته، فكيف يمكن الاعتماد على قوله، خصوصاً إذا تضمن تنقيصاً وازدراء بهم، وليس ذلک بدعاًمن ابن منظور وأضرابه، بل هو مطرد فى كلّ مورد يستشهدون بشىء فيه وقيعة للشيعة، فترى هناک أثراً من مطعون إلى منحرف إلى ناصبى إلى خارجى و«فى كلّواد أثر من ثعلبة» وعلى أى تقدير هذه الفكرة هى المعروفة بين أرباب الملل فى تسمية شيعة الإمام بالرافضة، ونداء محبيه بالرفضة. يقول البغدادى فى «الفَرْق بينالفِرَق» عند البحث عن الزيدية: وكان زيد بن على قد بايعه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة وخرج بهم على والى العراق وهو يوسف بن عمر الثقفى عامل هشام بن عبد الملک، فلمّا استمر القتال بينه و بين يوسف بن عمر الثقفى قالوا له: إنّا ننصرک على أعدائک بعد أن تخبرنا برأيک فى أبى بكر وعمر، بعد أن ظلما جدک على بن أبى طالب. فقال زيد بن على: لا أقول فيهم إلّا خيراً، وما سمعت من أبى فيهم إلّا خيراً. وإنّما خرجت على بنى أُمية الذين قتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم وقعة الحرة، ثمّ رموا بيت اللّه بالمنجنيق والنار. ففارقوه عند ذلک، حتى قال لهم رفضتمونى، ومن يومئذ سمّوا رافضة.(۲) قال البزدوى أحد المؤلفين فى الفرق عند البحث عن مذهب الروافض: «وإنّما سموا روافض، لأنّهم وقعوا فى أبى بكر وعمر فزجرهم زيد فرفضوه ـــــــــــــــــــــ

۱ . لسان العرب:۷/۱۵۷، مادة رفض.

۲ . الفرق بين الفرق: ۳۵. (۱۲۲)

وتركوه فسموا روافض».(۱) هذا ما لدى القوم من أوّلهم وآخرهم، فقد أخذوا بقول الأصمعى الناصبى فى التسمية ومن لفّ لفّه وحذا حذوه. نظرنا فى الموضوع

لا أظن الأصمعى وهو خبير فى اللغة يجهل بحقيقة الحال ولكن عداءه قد جرّه إلى هذا التفسير، فإنّ الحقّ أنّ الرافضة كلمة سياسية كانت تستعمل قبل أن يولد زيد بن على ومن بايعه من أهل الكوفة، فالكلمة تطلق على كلّ جماعة لم تقبل الحكومة القائمة، سواء أكانت حقاً أو باطلًا. هذا هو معاوية بن أبى سفيان يصف شيعة عثمان ـ الذين لم يخضعوا لحكومة على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ وسلطته ـ بالرافضة ويكتب فى كتابه إلى «عمرو بن العاص» وهو فى البيع فى فلسطين أمّا بعد: فإنّه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغک، وقد سقط إلينا(۲) مروان ابن الحكم فى رافضة أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد اللّه فى بيعة على، وقد حبست نفسى عليک حتى تأتينى، أقبل أُذاكرک أمراً.(۳) ترى أنّ معاوية يصف من جاء مع مروان بن الحكم بالرافضة وهؤلاء كانوا أعداء على ومخالفيه، وما هذا إلّا لأنّ هؤلاء الجماعة كانوا غير خاضعين للحكومة القائمة آنذاک. وعلى ذلک فتلک لفظة سياسية تطلق على القاعدين عن نصرة الحكومة والالتفاف حولها، وبما أنّه كان من واجب هذه الجماعة البيعة للحكومة والمعاملة معاملة الحكومة الحقة، ولكنّهم لم يقوموا بواجبهم فتركوه فتفرقوا عنها، فسمّوا رافضة. فقد خرجنا بهذه النتيجة: إنّ كلمة الرفض والرافضة ليستا من

---

۱ . أُصول الدين: ۲۴۸.

۲ . سقط إلينا: نزل إلينا.

۳ . وقعة صفين : ۲۹. (۱۲۳)

خصائص الشیعة، بل هی لغة عامة تستعمل فی کلّ جماعة غیر خاضعة للحکومة القائمة، وبما أنّ الشیعة منذ تکونها لم تخضع للحکومات القائمة بعد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، فکانت رافضة حسب الاصطلاح الذی عرفت، ولم یکن ذلک الاصطلاح موهوباً من زید بن علی لشیعة جدّه. کیف وقد ورد ذلک المصطلح علی لسان أخیه محمد الباقر ـ علیه السَّلام ـ الذی توفّی قبل زید بن علی وثورته بست سنوات؟! روی أبو الجارود عن أبی جعفر ـ علیه السَّلام ـ : إنّ رجلاً یقول إنّ فلاناً سمّانا باسم، قال: وما ذاک الاسم؟ قال: سمّانا الرافضة. فقال أبو جعفر ـ مشیراً بیده إلی صدره ـ: وأنا من الرافضة وهو منی، قالها ثلاثاً.(۱) وروی أبو بصیر فقال: «قلت لأبی جعفر ـ علیه السَّلام ـ : جعلت فداک اسم سمینا به، استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا، قال: «وما هو؟» قال: الرافضة، فقال أبو جعفر ـ علیه السَّلام ـ : «إنّ سبعین رجلاً من عسکر فرعون رفضوا فرعون، فأتوا موسی ـ علیه السَّلام ـ فلم یکن فی قوم موسی أحد أشدّ اجتهاداً وأشد حباً لهارون منهم، فسمّاهم قوم موسی الرافضة».(۲) وهذه التعابیر عن أبی جعفر باقر العلوم ـ علیه السَّلام ـ أصدق شاهد علی أنّ مصطلح الرفض لیس ولید فکرة زید، وأجلّه عن هذه النسبة والفکرة، بل کان مصطلحاً سائداً فی أقوام، فکلّ من لم یخضع للحاکم القائم، والحکومة السائدة وصار یعیش بلا إمام ولا حاکم سمّی رافضیاً والجماعة رافضة أو رفضة. وبهذا الملاک أطلق لفظ الرافضی علی من لم یعتقد بشرعیة حکومة الخلفاء حتی شاع وذاع قبل مقتل زید کما عرفت وبعده. فعن معاذ بن سعید الحمیری قال: «شهد السید إسماعیل بن محمد الحمیری رحمه اللّه ، عند «سوار» القاضی بشهادة فقال له: ألست

---

۱ . بحار الأنوار:۶۵/۹۷ الحدیث۲ نقلاً عن المحاسن للبرقی، المتوفّی عام ۲۷۴هـ

۲ . بحارالأنوار:۶۵/۹۷ الحدیث۳. (۱۲۴)

إسماعیل بن محمد الذی یعرف بالسید؟ فقال: نعم. فقال له: کیف أقدمت علی الشهادة عندی، وأنا أعرف عداوتک للسلف؟ فقال السید: قد أعاذنی اللّه من عداوة أولیاء اللّه، وإنّما هو شیء لزمنی. ثمّ نهض فقال له: قم یا رافضی فواللّه ما شهدت بحقّ، فخرج السید رحمه اللّه وهو یقول: أبوک ابن سارق عنز النبی * وأنت ابن بنت أبی جحدر ونحن علی زعمک الرافضو * ن لأهل الضلالة والمنکر(۱) وروی أنّه کان عبد الملک بن مروان لمّا سمع من الفرزدق قصیدته المعروفة فی مدح الإمام علی بن الحسین قال له: أو رافضی أیضاً أنت؟ فقال الفرزدق: إن کان حبّ آل محمّد رفضاً فأنا هذاک، فقال عبد الملک: قل فیّ مثل ما قلته فیه وعلیّ أن أضعف عطاءک....(۲) ۴. الحشویة

لقد کثر الکلام حول تفسیر الحشویة و ما هو المراد منها ؟ ونحن نأتی هنا بمجمل القول من أوثق المصادر.. قال الجرجانی: وسمّیت الحشویة حشویة، لأنّهم یحشون الأحادیث التی لا أصل لها فی الأحادیث المرویة عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ، وجمیع الحشویة یقولون بالجبر والتشبیه، وتوصیفه تعالی بالنفس والید والسمع والبصر، وقالوا: إنّ کلّ حدیث یأتی به الثقة من العلماء فهو حجّة أیّاً کانت الواسطة.(۳) وقد ذکر الصفدی: أنّ الغالب فی الحنفیة معتزلة. والغالب فی الشافعیة أشاعرة، والغالب فی المالکیة قدریة (لعلّه یعنی جبریة) والغالب فی الحنابلة حشویة.(۴) ونقل الشیخ محمد زاهد الکوثری فی تقدیمه علی کتاب «تبیین کذب

---

۱ . الغدیر:۲/۲۵۶ طبع بیروت.

۲ . أمالی السید المرتضی:۱/۶۸ فی التعلیق.

۳ . التعریفات: ۳۴۱ ;الحور العین: ۲۰۴ ;معرفة المذاهب: ۱۵.

۴ . الغیث المنسجم للصفدی:۲/۴۷، وراجع ضحی الإسلام لأحمد أمین:۳/۷۱. (۱۲۵)

المفتری» وجهاً آخر، وقال: وکان الحسن البصری من جلة التابعین، ومن استمر سنین ینشر العلم فی البصرة، ویلازم مجلسه نبلاء أهل العلم، وقد حضر مجلسه یوماً أُناس من رعاع الرواة، و لمّا تکلموا بالسقط عنده قال ردّوا هؤلاء إلی حشا الحلقة ـ أی جانبها ـ فسمّوا

الحشوية، ومنهم أصناف المجسمة والمشبهة.(۱) *** قال الصادق ـ عليه السَّلام ـ : «العامل على غير بصيرة كالسائر على سراب بقيعة، لا يزيده سرعة السير إلاّ بعداً».(۲) ________________

۱ . تبيين كذب المفترى:۱۱.

۲ . الوسائل:الباب ۱۸ من أبواب صفات القاضى، الحديث ۳۶.

الفصل الخامس نظرة فى كتب أهل الحديث

الفصل الخامس نظرة فى كتب أهل الحديث (الحنابلة والحشوية)

لاـ نقاش فى أنّ الحديث النبوى حجّة إلهية كالقرآن الكريم ولا يعدل المسلم المؤمن عنهما إلى غيرهما، فالكتاب معجزة خالدة واللفظ والمعنى منه سبحانه، وأمّا السنّة فلفظها للنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ والمفاد والمضمون منه سبحانه. فلا فرق بين قوله تعالى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم) (۱) وقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «الصلح جائز بين المسلمين».(۲) كما لاـ فرق بين قوله سبحانه:(فَتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيّباً) (۳) وقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «التراب أحد الطهورين يكفيك عشر سنين».(۴) فالمسلم المؤمن باللّه وكتابه ورسالة نبيه لاـ يفرّق بين كتابه تعالى وكلامه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، كما لا يفرق بين قوله وفعله، بين إشارته وتقريره، فكلّ حجّة إلهية يجب العمل على وفقه ولا يكون المسلم مسلماً إلاّ إذا استسلم فى هذه المجالات كلّها. قال سبحانه:(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا ________________

۱ . الحجرات:۱۰.

۲ . التاج الجامع للأُصول:۲/۲۰۲، رواه الترمذى وأبو داود والبخارى.

۳ . المائدة:۶.

۴ . سنن الترمذى:۱/۲۱۲ باب ما جاء فى التيمم للجنب. (۱۲۸) تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى اللّه وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَميعٌ عَليمٌ) .(۱)

إنّ للحديث النبوى من جلالة الشأن وعلو القدر مالاـ يختلف فيه اثنان، ولا يحتاج فى إثباته إلى برهان. إذ هى الدعامة الثانية ـ بعد الذكر الحكيم ـ للدين والأخلاق، والحكم والآداب، ممّا يتمتع به المسلمون فى دينهم ودنياهم. وهذه المكانة الجليلة والمنزلة الرفيعة، تقتضى مزيد العناية بها ودراستها بأحسن الأساليب العلمية والمنطقية، حتى يتميّز الصحيح من الزائف ولا ينسب إليه كلّ ما يحمل اسم الحديث والسنّة، أو كلّ ما يوجد فى بطون الكتب وضمائر الأسفار، معقولاً كان أو غير معقول، مخالفاً كان للقرآن أو لا. إنّ قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «من كذب على متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار» إخطار أكيد للواعين بأنّ أعداء الدين لبالمرصاد وسوف ينسبون إليه كلّ مغسول من البلاغة، وعار عن الفصاحة وينقلون منه كلّ معنى ثقيل على الفطرة، أو مضاد للعقل السليم، الذى به عرفناه سبحانه وعرفنا براهين رسالة رسوله. وقد دق رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بكلامه هذا جرس الإنذار للأُمّة لا سيما للوعاة منهم وحفاظ أحاديثه حتى لاـ يظنوا أنّ كلّ ما يصل إليهم باسم الحديث هو الحديث النبوى على حقيقته، بألفاظه ومعانيه، وليس قبول كلّ حديث ـ ولو كان فيه ما فيه ـ آية التسليم للّه وللرسول، وآية عدم التقدّم عليهما فى ميادين الأُصول والفروع. ويتضح ذلك أشد الوضوح إذا وقفت على ما تلوناه عليك من أنّ الحديث النبوى رزىء بالموضوعات التى تولّى كبرها أعداء الدين والإسلام أوّلاً وتجرة الحديث ثانياً، يضعون الأحاديث تزلّفاً إلى الحكام وتقرّباً منهم. هذا هو أبو هريرة أكثر الصحابة رواية عن رسول اللّه مع أنّه لم يصاحب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلاّ سنتين أو أقلّ منهما جاء بروايات فيها ________________

۱ . الحجرات:۱. (۱۲۹)

طامات وغرائب بقيت على مر الدهر، وقد أتعب شراح الصحاح والمسانيد أنفسهم الزكية لحلها وتوجيهها. غير أنّ المتحرى للحقيقة ومن يرى أنّ الحقّ أولى من الصحابة والصحابى يرى فى أحاديثه آثار الوضع والدس والاختلاق بما لا مجال فى المقام لذكرها.(۱)

وقد أتينا فى بعض الفصول السابقة بإلمامة توقفك على مأساة نقل الحديث والتحدّث به وكتابته ونشره بين الأمّة،وعرفت أنّ ترك الكتابة بل ترك التحدث كان فضيلة، وخلافه بدعة. ولكن الظروف والأحوال ألجأت المسلمين إلى الكتابة والتدوين ونشره فى أواخر النصف الأوّل من القرن الثانى. ولأجل ذلك صار العثور على الحديث الصحيح الذى حدث به رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أمراً صعباً لما مر من دس الدسّاسين ووضع الوضّاعين تزلّفاً إلى أصحاب السلطة والعروش، وغير ذلك من دواعى الجعل. غير أنّ الأحاديث والمأثورات المروية فى كتب الحديث، أخذت لنفسها بعد التدوين مقاماً عالياً، وأضيفت إليها آراء الصحابة وأقوال التابعين فصار الجميع هو الأصل الأصيل فى تنظيم العقائد وتشريع الأحكام سواء أكان موافقاً للقرآن أم مخالفاً، وسواء أكان موافقاً للعقل السليم أم مخالفاً له، وقد بلغ التحجّر بهم إلى حدّ أن قالوا: ۱. إنّ السنّة لا تنسخ بالقرآن، ولكن السنّة تنسخ القرآن وتقضى عليه، والقرآن لا ينسخ السنّة ولا يقضى عليها.(۲) ۲. إنّ القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن.(۳) ۳. إنّ القول بعرض الأحاديث على الكتاب قول وضعه الزنادقة.(۴) ________________

۱ . لاحظ فى الوقوف على قيمة أحاديث أبى هريرة كتاب «أبوهريرة شيخ المضيرة» للعلاّمة المصرى الشيخ محمود أبو رية.

۲ . مقالات الإسلاميين:۲/۲۵۱.

۳ . جامع بيان العلم:۲/۲۳۴.

۴ . عون المعبود فى شرح سنن أبى داود:۴/۴۲۹. (۱۳۰)

فبلغ بهم التقليد إلى حدّ صاروا يأخذون بظواهر كلّ ما رواه الرواة من الأخبار والآثار الموقوفة والمرفوعة، والموضوعة والمصنوعة وإن كانت شاذة أو منكرة أو غريبة المتن أو من الإسرائيليات مثل ما روى عن كعب ووهب و... أو معارضة بالقطعيات التى تعد من نصوص الشرع ومدركات الحس ويقينيات العقل ويكفّرون من أنكرها ويفسّقون من خالفها...(۱) فإذا كان هذا مصير الحديث مع كونه مصدراً للعقائد والأُصول فلا محالة تنجم عنه مناهج ومذاهب لا تفترق عن معتقدات اليهودية والنصرانية والمجوسية بكثير. فظهرت بينهم مذاهب التجسيم والتشبيه والرؤية والجبر وقدم كلام اللّه وغيره ممّا سبقهم إليه أهل الكتاب فى عهودهم القديمة والحديثة. وما هذا إلاّ لأجل أنّ الأحاديث المروية صارت حجّة فى مفادها ودليلاً فى مضامينها على إطلاقها من دون نظر فى إسنادها، أو دقة فى معانيها، ومن دون عرضها على الكتاب والعقل. فإذا كان الحديث بهذا المعنى مصدراً للأُصول والعقائد، فلا محالة تكون العقيدة الإسلامية أسيرة ما حدث عنه أصحاب الحديث فى القرون الثلاثة الأُولى، فيوجد فيها ما أوعزنا إليه من مسألة التجسيم وأخواتها. إنّ التجسيم والتشبيه والجبر وخلق الأعمال، التى ابتلى بها المسلمون فى القرون الأُولى، وبقيت آثارها إلى العصور الأخيرة، كلّها من نتائج غفلة عدّة من المحدّثين وتقصيرهم فى هذا المجال. فرووا مناكير الروايات، واغتروا بها، وبالتالى تورطوا فى جهالات متراكمة، وظلمات متكاثفة، نأتى بأسماء عدّة من هؤلاء وآثارهم الباقية، وإلاّفالمحدّثون المشبهون أكثر من هؤلاء بكثير، إلاّأنّ الدهر أكل على آثارهم وشرب: ۱. عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التميمى الدارمى السجستانى، صاحب المسند، ولد قبل المائتين بيسير، وتوفى عام ۲۸۰هـ له كتاب ________________

۱ . من كلام السيد رشيد رضا تلميذ الإمام عبده، لاحظ الأضواء:ص ۲۳. (۱۳۱)

«النقض»، يقول فيه: «اتّفق المسلمون على أنّ اللّه تعالى فوق عرشه و سماواته». و لمّا كان الذهبى، شديد الميل إلى الحنابلة، كثير الازدراء بأهل التنزيه، أخذته العصبية فحاول إصلاح عبارته، فقال: أوضح شىء فى هذا الباب قول اللّه عزّ وجلّ:(الرَّحمن عَلَى العَرْش اسْتَوى)(۱) فليُمَرّ كما جاء، كما هو معلوم من مذهب السلف، وينهى الشخص عن المراقبة والجدال وتأويلات المعتزلة.(۲) يلاحظ عليه: أنّ كتاب اللّه ليس كتاب لغز، بل هو كتاب هداية، فما معنى إثبات شىء للّه تعالى وإمراره عليه، من دون التعرف على مفهومه ومعناه، وما أحسن قول تلميذه تاج الدين عبد الوهاب السبكى (۷۲۸ـ ۷۷۸هـ) فى طبقات الشافعية الكبرى فى حقّه: «إنّ الذهبى غلب عليه مذهب الإثبات ومنافرة التأويل والغفلة عن التنزيه، حتى أثر ذلك فى طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه، وميلاً قوياً إلى أهل

الإثبات، فإذا ترجم لواحد من أهل الإثبات، يطنب فى وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ويبالغ فى حقّه، ويتغافل عن غلطاته، ويتأوّل له ما أمكن ;وأمّا إذا ترجم أحداً من الطرف الآخر، كإمام الحرمين، والغزالى ونحوهما، لا يبالغ فى وصفه، ويكثر فى قول من طعن فيه، ويعيد ذلك، ويبديه، ويعتقده ديناً، وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطافحة، فلا يستوعبها، فإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها، وكذلك فعله فى أهل عصرنا، إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول فى ترجمته: «واللّه يصلحه»، وسببه المخالفة فى العقائد.(۳) ۲. خشيش بن أصرم، مصنف كتاب «الاستقامة» يعرّفه الذهبى بأنّه يرد فيه على أهل البدع(۴)، ويريد منه أهل التنزيه الذين لا يثبتون للّه سبحانه ________________

۱ . طه:۵.

۲ . سير أعلام النبلاء:۱۳/۳۲۵.

۳ . طبقات الشافعية الكبرى:۲/۱۳.

۴ . تذكرة الحفاظ:۲/۵۵۱. (۱۳۲)

خصائص الموجود الإمكانى، وينزّهونه عن الجسم والجسمانيات. توفّى فى شهر رمضان سنة ۲۵۳هـ.(۱) ۳. أحمد بن محمد بن الأزهر بن حريث السجستانى السجزى. نقل الذهبى فى «ميزان الاعتدال» عن السلمى قال: سألت الدارقطنى عن الأزهرى، فقال هو أحمد بن محمد بن الأزهر بن حريث، سجستانى، منكر الحديث، لكن بلغنى أنّ ابن خزيمة حسن الرأى فيه وكفى بهذا فخراً. (۲)توفّى سنة ۳۱۲هـ(۳) يلاحظ عليه: أنّه كفى بهذا ضعفاً، لأنّ ابن خزيمة هذا رئيس المجسمة والمشبهة، ومنه يعلم حال السجستانى، والجنس إلى الجنس يميل ۴. محمد بن إسحاق بن خزيمة. ولد عام ۳۱۱هـ وقد ألّف «التوحيد وإثبات صفات الرب»، وكتابه هذا مصدر المشبّهة والمجسّمة فى العصور الأخيرة. وقد اهتمت به الحنابلة، وخصوصاً الوهابية، فقاموا بنشره على نطاق وسيع. وسيوافيك بعض أحاديثه. ۵. عبد اللّه بن أحمد بن حنبل، (ولد عام ۲۱۳، وتوفّى عام ۲۹۰، يروى أحاديث أبيه (الإمام أحمد بن حنبل). وكتابه «السنّة» المطبوع لأوّل مرة بالمطبعة السلفية ومكتبتهاعام ۱۳۴۹هـ مشحون بروايات التجسيم والتشبيه، يروى فيه ضحك الرب، وتكلّمه، وأصبعه، ويده، ورجله، وذراعيه، وصدره، وغير ذلك ممّا سيمر عليك بعضه. وهذه الكتب الحديثية الطافحة بالإسرائيليات والمسيحيات جرّت الويل على الأُمّة وخدع بها المغفلون من الحنابلة والحشوية وهم يظنون أنّهم يحسنون صنعاً. ________________

۱ . سير أعلام النبلاء:۲/۲۵۰ـ ۲۵۱.

۲ . ميزان الاعتدال:۱/۱۳۲.

۳ . سير أعلام النبلاء:۱۴/۳۹۶. (۱۳۳)

ولأجل أن يقف القارئ على بعض ما فى هذه الكتب من الأحاديث المزورة التى تخالف الذكر الحكيم وتناقض العقل والفطرة، نأتى بنماذج مما ورد فى الكتابين التاليين: ۱.« السنّة» لأحمد بن حنبل الذى رواه عنه ابنه عبداللّه. ۲. التوحيد لابن خزيمة. وهؤلاء وإن كانوا يتلون قوله سبحانه:(لَيسَ كَمِثْلِهِ شَىء) ولكنّهم يروون أحاديث تثبت للربّ سبحانه آلاف الأمثال و الأشباه. نعم، يقول ابن خزيمة: إنّا نثبت للّه ما أثبته اللّه لنفسه ونقر بذلك بألسنتنا ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد المخلوقين، وعز ربّنا عن أن نشبهه بالمخلوقين.(۱) لكن هذه ا لعبارة اتخذها واجهة لتبرير نقل الروايات الصريحة فى التجسيم والجهة، ولاـ تتحمل تلك الروايات هذا التأويل الذى لهج به ابن خزيمة وأبناء جلدته. و هذا كتاب السنة لإمام الحنابلة وقد رواه عنه ابنه تجد فيه أحاديث تعرب عن أنّ للّه سبحانه ضحكاً وأصبعاً ويداً وذراعين ووجهاً، التى يتبادر منها البدع اليهودية والمسيحية. و ما نذكره هنا إنّما هو نماذج ممّا ورد فى الكتابين المذكورين، والسابر فيهما يجد أضعاف أمثاله، وأكثر هذه الأحاديث قد أخرجت فى الصحاح والسنن. إنّ كتاب «التوحيد» لابن خزيمة قد وقع مورد القبول عند أهل الحديث والحنابلة، كيف، وقد جمع الأحاديث من هنا وهناك وحشاها فى كتابه من غير فحص ولا تنقيب، وهذه كانت المنية الكبرى للحنابلة فى تلك العصور. ولأجل ذلك صار الكتاب يقرأ على العلماء والفضلاء

حتی يتخذوه ميزاناً لتمييز الحقّ عن الباطل، ولا يتخلف أحد عن الاعتراف بما جاء فيه. ________

١ . التوحيد لابن خزيمة: ١١. (١٣۴)

قال ابن كثير فی حوادث سنة ۴۶۰هـ: وفی يوم النصف من جمادی الآخرة قرأ«الاعتقاد القادری» الذی فيه مذهب أهل السنّة و الإنكار علی أهل البدع. وقرأ أبو مسلم الكجی البخاری المحدّث كتاب «التوحيد»لابن خزيمة علی الجماعة الحاضرين، وذكر بمحضر من الوزير ابن جهير وجماعة الفقهاء وأهل الكلام،واعترفوا بالموافقة.(١) هذا، وبمرور الزمن وعلی أثر تفتح العقول أفلت شمس كتاب التوحيد وشطب المفكّرون من الأشاعرة علی ما فيه. يقول الرازی فی هذا الصدد عند تفسير قوله سبحانه (ليس كمثله شیء) : «واعلم أنّ محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية فی الكتاب الذی سمّاه بـ«التوحيد» وهو فی الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها. وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات، لأنّه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل.(٢) هذا، ولو أنّ الرازی وقف علی ما فی تعاليم الأشاعرة من الجبر الملتوی فی مقابل الجبر الصريح كما سيبين، والتجسيم والتشبيه الخفيين، لما اتخذ المذهب الأشعری ـ الذی هو أحد وجهی العملةوالوجه الآخر هو عقيدة أهل الحديث ـ لنفسه شعاراً، ولما حماهم بحماس. يقول الدكتور أحمد أمين: وفی رأيی لو سادت تعاليم المعتزلة إلی اليوم لكان للمسلمين موقف آخر فی التاريخ غير موقفهم الحالی وقد أعجزهم التسليم وشلّهم الجبر،وقعد بهم التواكل.(٣) والصحيح أن يقال: لو سادتهم الحرية فی البحث والاستماع واتّباع الأحسن لكان موقفهم غير هذا. ________

١ . البداية والنهاية:١٢/٩۶.

٢ . تفسير الإمام الرازی:٢٧/١۵٠.

٣ . ضحی الإسلام:٣/٧٠. (١٣۵) فی أنّ اللّه يضحك

١. روی ابن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن يعلی ابن عطاء، عن وكيع بن حدس، عن عمّه أبی رزين قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ : ضحك ربّنا من قنوط عباده وقرب غيره قال: قلت: يا رسول اللّه أو يضحك الرب؟ قال: نعم. قلت: لن نعدم من ربّ يضحك خيراً.(١) رواه ابن خزيمة لكن بدل قوله نعم، قال: إی والذی نفسی بيده إنّه ليضحك.(٢) ٢. روی عبد اللّه بن أحمد بن حنبل، عن إسماعيل بن أبی معمر، حدثنا سفيان، عن أبی الزناد، عن الأعرج، عن أبی هريرة قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ : ضحك ربّنا من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ثمّ يصيران إلی الجنة.(٣) ورواه ابن خزيمة بأسانيد مختلفة.(۴) ٣. وجاء فی خبر طويل رواه عن إسماعيل بن عبيد بن أبی كريمة الحرانی أبو أحمد قال: أملاه علينا إملاء فی دار كعب: قال حدّثنی محمد بن سلمة، عن أبی عبد الرحمن خالد بن أبی يزيد، حدّثنی زيد بن أبی أنيسة، عن المنهال بن عمرو، عن أبی عبيدة بن عبد اللّه، عن مسروق بن الأجدع، حدثنا عبد اللّه بن مسعود، عن النبی ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: ... فيقول اللّه له ـ أی لمن أدخله الجنة ثمّ لم يزل يطلب منزلة أرفع من أُخری ـ : لن ترضی أن أعطيك مثل الدنيا مذ يوم خلقتها إلی يوم أفنيتها وعشرة أضعافها؟ فيقول: أتستهزئ بی وأنت ربّ العالمين؟! ________

١ . السنّة لعبد اللّه بن حنبل:۵۴.

٢ . التوحيد وإثبات صفات الرب:٢٣۵.

٣ . السنّة:١۶۶.

۴ . التوحيد:٢٣۴. (١٣۶)

قال: فضحك الرب من قوله. قال: فرأيت ابن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن قد سمعتك تحدّث هذا الحديث مراراً كلّما بلغت هذا المكان من هذا الحديث ضحكت. فقال ابن مسعود: إنّی سمعت رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلَّم ـ يحدث بهذا الحديث مراراً، كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتی تبدو آخر أضراسه. الحديث.(١)

ورواه ابن خزیمة عن ابن مسعود(۲) وأخرجه البخاری ومسلم والترمذی. ۴. وروی ابن خزیمة بأسانید متعددة عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «یتجلّی لنا ربّنا عزّ وجلّ یوم القیامة ضاحکاً».(۳) قال ابن خزیمة فی«باب ذکر إثبات ضحک ربّنا عزّ وجلّ»: بلا صفة تصف ضحکه ـ جلّ ثناؤه ـ لا ولا یشبه ضحکه بضحک المخلوقین وضحکهم کذلک. بل نؤمن بأنّه یضحک کما أعلم النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ ونسکت عن صفة ضحکه جلّ وعلا، إذ اللّه عزّوجلّ استأثر بصفة ضحکه لم یطلعنا علی ذلک، فنحن قائلون بما قال النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ مصدقون بذلک بقلوبنا، منصتون عمّا لم یبیّن لنا، ممّا استأثر اللّه تعالی بعلمه.(۴) وقد عرفت ما فی تأویله من الوهن وأنّ هذه الأحادیث لو صحت لوجب حملها علی ظواهرها من الضحک الملازم لبدو الأسنان والفم، والقول بأنّه یضحک ولا نعلم حقیقته، تأویل سخیف، بل الأمر دائر بین القبول تماماً أو الردّ کذلک. ______________

۱ . السنّة:۲۰۶ـ ۲۰۸.

۲ . التوحید:۲۳۱.

۳ . التوحید:۲۳۶.

۴ . التوحید:۲۳۰ـ ۲۳۱. (۱۳۷) فی أنّ للّه یداً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل: قرأت علی أبی إبراهیم بن الحکم بن أبان، حدّثنی أبی، عن عکرمة قال: إنّ اللّه لم یمس بیده شیئاً إلاّثلاثاً:خلق آدم بیده،وغرس الجنة بیده، وکتب التوراة بیده.(۱) ۲. وقال: قرأت علی أبی، حدّثنا إسحاق بن سلیمان، حدّثنا أبو الجنید ـ شیخ کان عندنا ـ عن جعفر بن أبی المغیرة، عن سعید بن جبیر: أنّهم یقولون إنّ الألواح من یاقوتة لا أدری قال حمراء أو لا ؟وأنا أقول: سعید بن جبیر یقول: إنّها کانت من زمردة وکتابتها الذهب، وکتبها الرحمن بیده، ویسمع أهل السماوات صریر القلم.(۲) ۳. وقال: حدّثنی أبی، حدّثنا یزید بن هارون، أنا الجریر، عن أبی عطاف قال: کتب اللّه التوراة لموسی بیده وهو مسند ظهره إلی الصخرة فی الألواح من در، یسمع صریف القلم، لیس بینه و بینه إلاّ الحجاب.(۳) ۴. وقد أفرد ابن خزیمة لإثبات الید للّه صفحات کثیرة وممّا رواه عن أبی هریرة، عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: لمّا خلق اللّه الخلق کتب کتاباً وجعله تحت العرش: إنّ رحمتی تغلب غضبی.(۴) ۵. ومنها عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال:«إنّ اللّه یفتح أبواب السماء فی ثلث اللیل فیبسط یدیه فیقول: ألا عبد یسألنی فأعطه».(۵) ۶. ومنها: عن أبی هریرة، عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «ما تصدّق أحد بصدقة من طیب ـ و لا یقبل اللّه إلاّالطیب ـ إلاّ أخذها اللّه ______________

۱ . السنّة:۲۰۹.

۲ . السنّة:۷۶.

۳ . السنّة:۷۶.

۴ . التوحید:۵۸.

۵ . التوحید:۵۸، وروی ابن خزیمة أحادیث کثیرة جداً فی نزول اللّه إلی السماء الدنیا کل لیلة: ۱۲۵ـ ۱۳۶ ووصفها بأنّها أخبار ثابتة السند صحیحة القوام. (۱۳۸)

بیمینه، وإن کانت مثل تمرة، فتربو له من کف الرحمن».الحدیث.(۱) فی أنّ للّه عینین

استدلّ ابن خزیمة بما ورد من أنّ اللّه بصیر، علی أنّ له عینین، قال: نحن نقول: لربنا الخالق عینان یبصر بهما ما تحت الثری وتحت الأرض السابعة السفلی وما فی السماوات العلی وما بینهما من صغیر وکبیر... إلی أن قال: کما یری عرشه الذی هو مستو علیه. وبنو آدم وإن کانت لهم عیون یبصرون بها فإنّهم إنّما یرون ما قرب من أبصارهم ممّا لا حجب ولا ستر بین المرئی وبین أبصارهم... واستطرد فی ذکر نواقص عیون بنی آدم ثمّ قال: فما الذی یشبه ـ یا ذوی الحجا ـ عین اللّه الموصوفة بما ذکرنا، عیون بنی آدم التی وصفناها بعد.(۲) فی أنّ للّه أصبعاً

۱. روى عبد اللّه بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبى يقول: حدّثنا يحيى بن سعيد بحديث سفيان، عن الأعمش ومنصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد اللّه، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : إنّ اللّه يمسك السماوات على أصبع. قال أبى: وجعل يحيى يشير بأصابعه، وأرانى كيف جعل يحيى يشير بأصابعه يضع أصبعاً أصبعاً حتى أتى على آخرها.(۳) ۲. أمّا حديث سفيان المشار إليه فهو ما رواه بإسناده عن عبد اللّه: أنّ يهودياً أتى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقال: يا محمّد إنّ اللّه يمسك السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والثرى على أصبع والجبال على أصبع والخلائق على أصبع ثمّ يقول: أنّا الملك. فضحك رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حتى بدت نواجذه. ثمّ قال: «وما قدروا اللّه حقّ قدره». ________________

۱ . التوحيد: ۶۱.

۲ . التوحيد: ۵۰ـ ۵۱.

۳ . السنّة: ۶۳. (۱۳۹)

ثمّ أضاف عبد اللّه بن أحمد: قال أبى، قال يحيى، قال فضيل بن عياض، فضحك رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ تعجباً وتصديقاً له. وروى هذا الخبر وما فى معناه بأسانيد مختلفة عن ابن مسعود تارة، وعن ابن عباس أُخرى.(۱) ۳. وقال حدّثنى أحمد بن إبراهيم سمعت وكيعاً يقول: نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا، ولا لم كذا، يعنى مثل حديث ابن مسعود«إنّ اللّه يحمل السماوات على أصبع والجبال على أصبع وحديث أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن» ونحوها من الأحاديث.(۲) وأورد أخباراً مفادها أنّ اللّه تعالى حيث تجلّى للجبل فجعله دكاً إنّما تجلّى بأصبعه، ضربه على رأس الجبل فاندك. ۴. منها: حدّثنى محمد بن أبى بكر المقدمى، حدّثنا هريم، حدّثنا محمد بن سواء، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «فلمّا تجلّى ربّه للجبل» قال هكذا،وأشار بطرف الخنصر يحكيه.(۳) ۵. ومنها ما ذكره ابن خزيمة قال: حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد، قال حدّثنا حماد بن سلمة، قال: حدّثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «لمّا تجلّى ربّه للجبل» رفع خنصره وقبض على مفصل منها، فانساخ الجبل، فقال له حميد:أتحدّث بهذا؟! فقال: حدّثنا أنس عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وتقول: لا تحدّث به؟(۴) ________________

۱ . السنّة: ۶۲ـ ۶۴.

۲ . السنّة: ۶۴.

۳ . السنّة: ۶۵.

۴ . التوحيد: ۱۱۳. (۱۴۰) فى أنّ للّه كلاماً وصوتاً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد، حدّثنى أبو معمر، حدّثنا جرير، عن الأعمش، قال: وحدّثنا ابن نمير وأبو معاوية كلّهم عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد اللّه قال: إذا تكلم اللّه بالوحى، سمع أهل السماء صلصلة كصلصلة الحديدة على الصفا .(۱) وأخرج ابن خزيمة أخباراً كثيرة فى ذلك.(۲) فى أنّ للّه ذراعين وصدراً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد، حدّثنى سريج بن يونس، حدّثنا سليمان بن حيان أبوخالد الأحمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد اللّه بن عمرو قال: ليس شيء أكثر من الملائكة، إنّ اللّه خلق الملائكة من نور، فذكره وأشار سريج بيده إلى صدره، قال: وأشار خالد إلى صدره فيقول: كن ألف ألف ألفين فيكونون.(۳) ۲. وقال:حدّثنى أبى، حدّثنا أبو أُسامة حماد بن أُسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عبد اللّه بن عمرو قال: خلقت الملائكة من نور الذراعين والصدر.(۴) ۳. وقال:حدّثنيه أبو خيثمة زهر بن حرب، حدّثنا عبيد اللّه بن موسى، حدّثنا شيبان، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: إن غلظ جلد الكافر اثنان وسبعون ذراعاً بذراع الجبار وضرسه مثل ذلك.(۵) ________________

۱ . السنّة: ۷۱.

۲ . التوحيد: ۱۴۵ـ ۱۴۷.

۳ . السّنّة: ۱۹۰.

۴ . السّنّة: ۱۹۰.

۵ . السّنّة: ۱۹۰. (۱۴۱) فى أنّ للّه نفساً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد، حدّثنى أبو معمر، حدّثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن ذر، عن سعيد بن عبد الرحمن بن بزى، عن أبيه، عن أُبى بن كعب قال: لا تسبوا الريح فإنّها من نفس الرحمن.(۱) فى أنّ للّه رجلاً

۱. قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل، حدّثنى عبيد اللّه بن عمر القواريرى، حدّثنى حرمى بن عمارة، حدّثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «يلقى فى النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه أو رجله عليها فتقول قط قط».(۲) وبهذا فسروا آية (رَبّنا عَجِّل لَنا قِطَّنا قَبلَ يوم الحِسَابِ) .(۳) وأخرج ابن خزيمة نحوه، عن أبى هريرة.(۴) ۲. وروى ابن خزيمة، عن أبى هريرة، عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «وأمّا النار فلا تمتلئ حتى يضع اللّه رجله فيها فتقول قط قط، فهنالك تمتلئ». الحديث. وهو حديث اختصام الجنة والنار، وأشار إلى أنّه مستفيض(۵) والأخبار فى وضع اللّه رجله فى النار كثيرة جدّاً. ۳. روى عبد اللّه بن أحمد فى حديث طويل تقدّمت الإشارة إليه فى مسألة الضحك، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «فيتمثل الرب ـــــــــــــــ

۱ . السّنّة: ۱۹۰.

۲ . السّنّة: ۱۸۴.

۳ . ص:۱۶.

۴ . التوحيد:۹۲.

۵ . التوحيد:۹۳ـ ۹۵. (۱۴۲)

فيأتيهم، فيقول لهم ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: إنّ لنا إلهاً(ما رأيناه) فيقول: وهل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناه، فيقول: ما هى؟ فيقولون: يكشف عن ساقه، قال: فعند ذاك يكشف اللّه عن ساقه. قال: فيخر كلّ من كان نظره، ويبقى قوم ظهورهم كصياصى البقر يدعون إلى السجود فلا يستطيعون وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون».(۱) وأمّا موضع الرجلين فقد استفاضت الأخبار فى أنّه على الكرسى. ۴. فمن ذلك ما رواه عبد اللّه بن أحمد، بإسناده عن عمر قال: إذا جلس على الكرسى سمع له أطيط(۲) كأطيط الرحل الجديد.(۳) ۵. وبإسناده إلى ابن عباس قال: الكرسى موضع قدميه، والعرش لا يقدر أحد قدره.(۴) ۶. وقال: كتب إلى عباس بن عبد العظيم، حدّثنا أبو أحمد الزبيرى، حدّثنا إسرائيل، عن ابن إسحاق، عن عبد اللّه بن خليفة قال: جاءت امرأة إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقالت: ادع اللّه أن يدخلنى الجنة، قال: فعظم الرب وقال وسع كرسيه السماوات والأرض. إنّه ليقعد عليه فما يفضل منه إلاّقيد أربع أصابع، وإنّ له أطيطاً كأطيط الرحل إذ ركب.(۵) ورواه ابن خزيمة بزيادة«من ثقله» فى آخره.(۶) وقال المعلّق فى ذلك الحديث: «مسألة أطيط العرش به سبحانه كأطيط الرحل وردت فى عدة أحاديث، فمن العلماء من ينكر ذلك ويقول: إنّ الأطيط صفة للعرش لا مدخل له فى الصفات، كالحافظ الذهبى والحق الذى يجب اتّباعه فى ذلك أن نؤمن بما ـــــــــــــــ

۱ . السّنّة: ۲۰۶.

۲ . أى ليصوت باللّه كصوت الرحل ـ و هو كور الناقة ـ بالراكب الثقيل.

۳ . السّنّة: ۷۹.

۴ . السّنّة: ۷۹.

۵ . السنّة: ۸۰.

۶ . التوحید: ۱۰۶. (۱۴۳)

ورد به النص من غیر تشبیه ولا ـ تكییف، وأن نعتقد أنّ ربّنا لیس محمولاً علی العرش ولا محتاجاً إلیه بل العرش وما تحته كلّه محمول بقدرته.(۱) وذكر فی الكتابین أنّ العرش حملته أربعة ملائكة أحدهم علی صورة إنسان والثانی علی صورة ثور، والثالث علی صورة نسر، والرابع علی صورة أسد.(۲) وعلّق علیه فی الحاشیة بأنّ هذا لم یرد فی حدیث صحیح، ولعلّ الراوی أخذه من كعب الأحبار أو غیره من مسلمة أهل الكتاب.(۳) و مع ذلك ورد فی الكتابین وأخرجه ابن حنبل فی مسنده(۴) بالإسناد إلی عكرمة مولی ابن عباس: أنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أنشد قول أُمیة بن أبی الصلت الثقفی: رجل وثور تحت رجل یمینه * والنسر للأُخری ولیث مرصد(۵) ورواه فی كتاب السنّة(۶) بزیادة: فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : صدق صدق. فی أنّ للّه وجهاً

۱. روی عبد اللّه بن أحمد: حدّثنی أبی، حدّثنا یحیی بن سعید، حدّثنا ابن عجلان، حدّثنی سعید، عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : ________________

۱ . التوحید: ۱۰۶، لاحظ التناقض فی كلامه، ولاحظ أنّ الأخبار تارة فصلت بین العرش والكرسی فجعلته جالساً علی العرش واضعاً قدمیه علی الكرسی، وأُخری جعلت جلوسه علی الكرسی.

۲ . السنّة: ۱۶۱ ;التوحید: ۹۲.

۳ . التوحید: ۹۲.

۴ . مسند أحمد:۱/۲۵۶.

۵ . التوحید: ۹۰ مع أبیات أُخر. قالوا: إنّ أُمیّة تنصّر فی الجاهلیة هو وورقة بن نوفل وكان ینشد الأشعار فی تمجید اللّه، ونسبوا إلی الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أنّه قال فی حقّه: آمن شعره وكفر قلبه.

۶ . السنّة: ۱۸۷. (۱۴۴)

إذا ضرب أحدكم فلیجتنب الوجه، ولا ـ یقل قبح اللّه وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإنّ اللّه خلق آدم علی صورته.(۱) ۲. وقال حدّثنی أبو معمر، حدّثنا جریر، عن الأعمش، عن حبیب بن أبی ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «لا تقبحوا الوجه، فإنّ اللّه خلق آدم علی صورة الرحمن».(۲) ۳. نقل ابن خزیمة أخباراً كثیرة فی ذلك(۳)، ثمّ قال: هذا باب طویل لو استخرج فی هذا الكتاب أخبار النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ التی فیها ذكر وجه ربّنا عزّوجلّ لطال الكتاب، وقد خرجنا كلّ صنف من هذه الأخبار فی مواضعها فی كتب مصنّفة(۴) ثمّ استطرد فی كلام طویل محاولاً من جهة إثبات ما تقدّم للّه تعالی ومن جهة أُخری نفی التشبیه.(۵) فی أنّ اللّه یُری

لقد تضافرت الأخبار فی الكتابین علی أنّ اللّه یُری یوم القیامة كالبدر المنیر. وأنّه تعالی لا یُری فی الدنیا، غیر أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ رآه عندما عرج به إلی السماء(۶)، ونحن نكتفی بهذین الخبرین. ۱. روی ابن خزیمة، عن معاذ بن هشام، قال: حدّثنی أبی، عن قتادة، عن أبی قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن عبد اللّه بن عباس: أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: «رأیت ربی فی أحسن صورة، فقال: یا محمد! قلت: لبیك وسعدیك، قال: فیم یختصم الملأ الأعلی؟ قلت: یا ________________

۱ . السنّة : ۱۶۹ ورواه أیضاً بسند آخر فی ص ۶۴.

۲ . السنّة: ۶۴.

۳ . التوحید: ۱۰ـ ۱۸.

۴ . التوحید: ۱۸.

۵ . التوحید: ۲۱ـ ۲۴.

۶ . راجع التوحيد: ۱۶۷ـ ۲۳۰. (۱۴۵)

رب لا أدرى. قال: فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى فعلمت ما بين المشرق والمغرب». الحديث(۱). وقد رواه بأسانيد وطرق مختلفة. ۲. وقال: حدّثنا محمد بن عيسى، قال: حدّثنا سلمة بن الفضل، قال ;حدّثنى محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحرث بن عبد اللّه بن عياش بن أبى ربيعة، عن عبد اللّه بن أبى سلمة، أنّ عبد اللّه بن عمر بن الخطاب بعث إلى عبد اللّه بن عباس يسأله: هل رأى محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ربّه؟ فأرسل إليه عبد اللّه بن عباس أن نعم. فرد عليه عبد اللّه بن عمر رسوله أن كيف رآه؟ قال: فأرسل أنّه رآه فى روضة خضراء دونه فراش من ذهب على كرسى من ذهب يحمله أربعة من الملائكة: ملك فى صورة رجل، وملك فى صورة ثور، وملك فى صورة نسر، وملك فى صورة أسد.(۲) ونختم المقال بما ذكره ابن خزيمة قال: إنّا لا نصف معبودنا إلّابما وصف به نفسه، إمّا فى كتاب اللّه أو على لسان نبيه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بنقل العدل موصولاً إليه، لا نحتج بالمراسيل ولا بالأخبار الواهية ولا نحتج أيضاً فى صفات معبودنا بالآراء والمقاييس.(۳) فى الجبر والقدر

روى عبد اللّه بن أحمد، عن أبيه أحمد بن حنبل، فى كتاب «السنّة» الروايات التالية: ۱. روى عبد اللّه بن أحمد قال: حدّثنى أبى، حدّثنا زيد بن يحيى الدمشقى، حدّثنا خالد بن صبيح المرى، حدّثنا إسماعيل بن عبيد اللّه أنّه سمع أُم الدرداء تحدّث عن أبى الدرداء، أنّه قال: سمعت النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقول: «فرغ اللّه إلى كلّ عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره،

---

۱ . التوحيد: ۲۱۷.

۲ . التوحيد: ۱۹۸.

۳ . التوحيد: ۵۹. (۱۴۶)

وشقى أم سعيد».(۱) ۲. حدّثنى أبى، حدّثنا هشيم، حدّثنا على بن زيد، سمعت أبا عبيدة بن عبد اللّه يحدّث قال: قال عبد اللّه: قال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «إنّ النطفة تكون فى الرحم أربعين يوماً على حالها لا تغير، فإذا مضت الأربعون صار علقة ومضغة كذلك، ثمّ عظاماً كذلك، فإذا أراد اللّه أن يسوى خلقه بعث إليها ملكاً فيقول الملك الذى يليه: أى رب أذكر أم أُنثى؟، أشقى أم سعيد؟ قصير أم طويل؟ أناقص أم زائد، قوته وأجله؟، أصحيح أم سقيم؟، قال: فيكتب ذلك كلّه. فقال رجل من القوم: فيم العمل إذاً وقد فرغ من هذا كلّه؟ فقال: اعملوا فكلّ سيؤخذ لما خلق له».(۲) ۳. حدّثنى أبى، حدّثنا بهز بن أسد، حدّثنا بشر بن المفضل، حدّثنا داود، عن أبى نضرة، عن أسير بن جابر، قال: طلبت علياً فى منزله فلم أجده، فنظرت فإذا هو فى ناحية المسجد. قال: فقلت له: كأنّه خوفه قال: فقال: إيه ليس أحد إلّا ومعه ملك يدفع عنه ما لم ينزل القدر فإذا نزل القدر لم يغن شيئاً.(۳) ۴. حدّثنى أبى، حدّثنا معاذ بن معاذ، حدّثنا ابن عون، قال: حدّث رجل محمّداً عن رجلين اختصما فى القدر فقال أحدهما لصاحبه: أرأيت الزنى بقدر هو؟ قال الآخر: نعم، قال محمد: آى وافق رجل حياً.(۴) ۵. حدّثنى أبى، قال عبد اللّه بن الحارث المخزومى، حدّثنا شبل بن عباد ـ مولى لعبد اللّه بن عامر ـ، عن ابن نجيح، عن مجاهد قول اللّه: (إِنّى

---

۱ . السنّة: ۱۲۵.

۲ . السنّة: ۱۲۶.

۳ . السنّة: ۱۳۲.

۴ . السنّة: ۱۳۴ـ ۱۳۵. (۱۴۷) أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون) (۱) قال: علم من إبليس المعصية وخلقه لها.(۲)

۶.حدّثنى أبى، حدّثنا عصام بن خالد الحضرمى، حدّثنا العطاف بن خلد، عن شيخ من أهل البصرة، حدّثنى طلحة بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، حدّثنى أبى، عن جدّى أنّه قال لرسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: يا رسول اللّه: العمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف؟ قال: بل على أمر قد فرغ منه. قال: قلت: يا رسول اللّه ففيم العمل؟ قال: «إنّ كلّا ميسر لما خلق له».(۳) ۷.

حدّثنى أبى، حدّثنا وكيع، حدّثنا ابن أبى ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله تعالى: (يَمْحُوا اللّهُ ما يَشاءُ ويُثبِت)(۴) قال: إلاّ الشقاء والسعادة والحياة والموت.(۵) ۸. حدّثنى أبى، حدّثنا إسحاق بن عيسى، أخبرنى مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاووس اليمانى، قال: «أدركت ناساً من أصحاب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يقولون كلّ شىء بقدر، قال: وسمعت عبد اللّه بن عمر يقول: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «كلّ شىء بقدر حتى العجز والكيس».(۶) ۹. حدّثنى أبى، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن سعيد بن حيّان، عن يحيى بن يعمر، قال: «قلت لابن عمر: إنّ ناساً عندنا يقولون: الخير والشر بقدر، وناس عندنا يقولون: الخير بقدر والشر ليس بقدر. فقال ابن عمر: إذا رجعت إليهم فقل لهم: إنّ ابن عمر يقول إنّه منكم برىء وأنتم منه براء.(۷) ــــــــــــــــــــ

۱ . البقرة:۳۰.

۲ . السنّة:۱۳۴ـ ۱۳۵.

۳ . السنّة:۱۳۴ـ ۱۳۵.

۴ . الرعد:۳۹.

۵ . السنّة:۱۳۴ـ ۱۳۵.

۶ . السنّة: ۱۳۹.

۷ . السنّة: ۱۴۱. (۱۴۸)

۱۰. حدّثنى أبى، حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدّثنا سفيان، عن عمرو ابن محمد، قال: كنت عند سالم بن عبد اللّه فجاءه رجل فقال: الزنى بقدر؟ فقال: نعم. قال: كتبه علىّ؟! قال: نعم، قال: كتبه علي؟ قال: نعم .ويعذبنى عليه؟ قال: فأخذ له الحصا.(۱) ۱۱. حدّثنى أبى، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة: أما بعد، فإن استعمالك سعد بن مسعود على عمان كان من الخطايا التى قدر اللّه عليك، وقدر أن تبتلى بها.(۲) ۱۲. حدّثنى أبى، حدّثنا وكيع، حدّثنا العلاء بن عبد الكريم سمعت مجاهداً يقول:(لَهُمْ أَعمال مِنْ دُون ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ) قال: أعمال لابدّ لهم من أن يعملوها.(۳) ۱۳. حدّثنى أبى، حدّثنا وكيع، وابن بشر قالا: حدّثنا إسماعيل بن أبى خالد،عن أبى صالح:(ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَة فَمِن اللّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئة فَمِنْ نَفْسِك) (۴) وأنا قدرتها عليك.(۵) ۱۴. حدّثنى أبى، حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا حماد، حدّثنا حميد، قال قدم الحسن مكة، فقال لى فقهاء مكة: الحسن بن مسلم وعبد اللّه بن عبيد لو كلمت الحسن فأخلأنا يوماً، فكلّمت الحسن فقلت: يا أبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يوماً، قال: نعم ونعمة عين، فواعدهم يوماً فجاءوا فاجتمعوا وتكلّم الحسن وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم، فسألوه عن صحيفة طويلة فلم يخطئ فيها شيئاً إلاّ فى مسألة. فقال له رجل: يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ قال: سبحان اللّه، سبحان اللّه، وهل من خالق غير اللّه! ثمّ قال: إنّ اللّه خلق الشيطان وخلق الشر وخلق الخير، فقال ــــــــــــــــــــ

۱ . السنّة:۱۴۳.

۲ . السنّة: ۱۴۳ـ ۱۴۴.

۳ . السنّة: ۱۴۳ـ ۱۴۴.

۴ . النساء:۷۹.

۵ . السنّة: ۱۴۴. (۱۴۹)

رجل منهم: قاتلهم اللّه يكذبون على الشيخ.(۱) ۱۵. حدّثنى أبى، حدّثنا إسماعيل ـ يعنى ابن علية ـ ، حدّثنا خالد الحذّاء قال: قلت للحسن: أرأيت آدم، أللجنة خلق أم للأرض؟ قال: للأرض. قال: قلت: أرأيت لو اعتصم؟ قال: لم يكن بدّمن أن يأتى على الخطيئة.(۲)

التدرّع باللا كيفية

إنّ دلالـة الأحـاديث المتقدّمـة على التشبيه والتجسيم ممّا لا كلام فيه غير أنّ جماعـة منهم ـ لأجل الفرار عنهما ـ يتـدرعون بلفظـة «بلا كيف ولا تشبيه» أو غيرهما من العبارات المشابهـة. فيقولون تارة: إنّ للّه يـداً ورجلًا ووجهاً وقـدماً بلا كيف ولا تشبيه، وأُخرى: إنّ للّه يـداً لا ـ كالأيـدى، ووجهـاً لا ـ كـالوجوه، وقـدماً لا ـ كالأقـدام، وثالثـة: إنّ لـه يـداً تنـاسب ذاتـه وهكـذا سـائر الأعضـاء. يقـول الإمـام الخطابى:وليست اليـد عنـدنا الجارحـة وإنّما هى صـفة جاء بها التوقيف، فنحن نطلقها على ما جاء ولا نكيّفها وهـذا مذهب أهل السـنّة والجماعة.(۳) ويقول ابن عبد البر: أهل السـنّة مجمعون على الإقرار بهذه الصـفات الواردة فى الكتاب والسـنّة ولـم يكيفوا شيئاً فيها.(۴) إلى غير ذلك من الكلمات التى اتخـذتها الأشاعرة وقبلهم بعض الحنابلـة درعاً يتقون به عار التشبيه والتمثيل. وسـيوافيك عنـد البحث عن عقائد الأشاعرة أنّ هذه الألفاظ لا تفيد شيئاً، وإليك إجمال ذلك: ــــــــــــــــــ

۱ . السنّة: ۱۴۴.

۲ . السنّة: ۱۴۵.

۳ . فتح البارى:۱۳/۴۱۷.

۴ . فتح البارى:۱۳/۴۰۷. (۱۵۰)

أوّلًا: إذا كان المصدر للاعتقاد بأنّ للّه سـبحانه أعضاء هى هذه الأحـاديث ـ أو بعض الآيات على ما زعموا ـ فليس فيها شىء يدل على هـذه الكلمـة: «بلا ـ كيف»، بـل هى إضافـة منهم بلا دليل. فليس لأهل الحـديث الـذين يفرون من التأويل، وحتى يسـمّون الحمل على المجاز والكنايـة تأويلًا ، إلّا الأخـذ بحرفيـة هـذه الأحاديث بتمامها، لا التصرف فيها. وثانياً: إنّ اليـد وأضـرابها، موضوعـة حسب اللغة للأعضاء المحسوسة التى يعرفها كلّ من عرف اللغة، فإجراء هذه الصـفات عليه سـبحانه يمكن بإحدى صورتين: ۱. أن يجرى عليه بما هو المتبادر عند أهل اللغة بلا تصرف فيه. وهذا ما عليه المشبّهة والمجسّمة. ۲. أن يجرى عليه بما أنّها كناية عن معان كالبخل فى قول اليهود (يَدُ اللّهِ مَغْلُولة) (۱)والإحسان والجود فى قوله سـبحانه: (بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتان) (۲) وهـذا ما عليه أهل التنزيه، وليس ذلك تأويلًا للقرآن أبـداً ولا ـ اتّباعـاً لخلاـف الظـاهر، إذ لهـذه الألفـاظ عنـد الإـفراد ظهور تصوّرى ويراد منهـا الأعضاء، وعنـد التركيب مع سائرها والوقوع فى طى الجمـل ظهور آخر، فربمـا يتّحـد الظهوران، مثـل قولـك لولـدك:اغسـل يـدك قبـل الغـذاء. وربمـا يختلفان كما فى الجملتين المتقدّمتين، وليس هنا وجه ثالث حتى يتدرّع به أهل الحديث والحنابلة، دعاة التنزيه لفظاً لا معنى. وما يتفوّه به هؤلاء من أنّ للّه يـداً لا ـ كالأيـدى، فـإن رجع إلى أحـد هـذين المعنيين فنعم الوفـاق إمّـا مع أهـل التشبيه أو مع أهل التنزيه، وإلّافيكون أشـبه بلقلقة اللسان. وباختصار: إنّ القائل بأنّ له يـداً لا يخلو فى إجراءاللفظ عليه سـبحانه أن يريـد أحـد وجهين: إمّا أن يريـد المعنى الحقيقى وهو العضو المحسوس فيكون مجسّماً ومشبّهاً، أو يريد المعنى المجازى وهو البخل أو الجود فيكون مؤوّلًا، وهو ــــــــــــــــــ

۱ . المائدة:۶۴.

۲ . المائدة:۶۴. (۱۵۱)

يتحرز عن كلتا الطائفتين، فليس هنا وجه ثالث يلتجئ إليه أهل الحـديث والحنابلـة والأشاعرة. فظهر أنّ قولهم بأنّ للّه يـداً كالأيدى، لا مفاد صـحيح له. وبعبارة ثالثـة: إنّ لفظة اليد إمّا مشترك معنوى يطلق على جميع مصاديقه وأفراده من الواجب والممكن بوضع ومعنى واحـد. أو مشترك لفظى يجرى على كلّ من الواجب والممكن بمعنى ووضع خاص. فعلى الأوّل يجب أن يكون بين يـد الإنسان ويد الواجب وجه مشترك وهو عين القول بالتشبيه. وعلى الثانى يجب أن يكون المعنى الـذى يجرى على الإنسان مبائناً لما يجرى على اللّه سبحانه فهل هو البخل والجود؟ فهذا هو التأويل بزعمكم، أو غيرهما فبيّنوه لنا ما هو؟ الصحاح والمسانيد ومسألة التشبيه والتجسيم

ربمـا يتصوّر القارئ أنّ أمثال كتاب «السـنّة» لابن حنبل وكتاب «التوحيـد» لابن خزيمـة، تشـتمل على أحاديث التشبيه والتجسـيم، وأمّا الصـحاح فهى خاليـة عـن هـذه الأسـاطير. ولكنّه إذا سبرهـا سـرعان مـا يرجـع عن هـذه الفكرة ويرى أنّ الصـحاح كلّهـا وعلى رأسـها الصـحيحان قـد زخرت بها، حتّى مع غض النظر عن رؤيـة اللّه بهذه العيون المادية على ما رووا عن رسول اللّه من أنّه قال: «إنّكم ترون

ربّکم عیاناً کما ترون هذا القمر» فالصحاح أیضاً تزخر بأحادیث التشبیه والتجسیم والجبر وما أشبه ذلک التی ورثها الرواة المسلمون من الیهود المجسمة والمجبرة... وإلیک نماذج من ذلک: ۱. إنّ للّه مکاناً

قد احتل تحیّزاللّه سبحانه بمکان معین فی الصحاح مکانة عظیمة فتارة تری أنّ مکانه حیال المصلّی وأمام وجهه، وأُخری بأنّه فوق العرش وهو یئط (۱۵۲)

تحته أطیط الرحل بالراکب، وثالثة بین السحب الکثیفة، وإلیک بعض ما روی فی ذلک المجال: ۱. روی عبد اللّه بن عمر أنّ رسول اللّه رأی بصاقاً فی جدار القبلة فحکه بیده ثمّ أقبل علی الناس فقال: «إذا کان أحدکم یصلی لا یبصق قبل وجهه فإنّ اللّه قبل وجهه إذا صلّی».(۱) ۲. روی جبیر بن محمد عن جدّه قال: أتی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أعرابی فقال: یا رسول اللّه جهدت الأنفس، وضاعت العیال ونهکت الأموال وهلکت الأنعام فاستسق اللّه لنا، فإنّا نستشفع بک علی اللّه ونستشفع باللّه علیک. قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ: ویحک أتدری ما تقول؟ وسبح رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فمازال یسبح حتی عرف ذلک فی وجوه أصحابه، ثمّ قال: ویحک إنّه لا یستشفع باللّه علی أحد من خلقه، شأن اللّه أعظم من ذلک، ویحک أتدری ما اللّه: إنّ عرشه علی سماواته لهکذا، وقال بأصابعه مثل القبة علیه وإنّه لیئط به أطیط الرحل بالراکب. قال ابن بشار: إنّ اللّه فوق عرشه وعرشه فوق سماواته.(۲) ۳. روی أبو رزین قال: قلت: یا رسول اللّه أین کان ربنا قبل أن یخلق خلقه؟ قال: «کان فی عماء، ما تحته هواء و ما فوقه هواء و ماء ثمّ خلق عرشه علی الماء».(۳) قال ابن منظور: العماء(ممدودة): السحاب المرتفع وقیل الکثیف. قال أبو زید هو شبه الدخان یرکب رؤوس الجبال وقال ابن سیده: العماء: الغیم الکثیف الممطر. ________________

۱ . صحیح البخاری:۱، کتا ب الصلاة باب «حکّ البزاق بالید فی المسجد» ولاحظ أیضاً کتاب الصلاة باب «هل یلتفت لأمر ینزل» و صحیح مسلم:۲، باب «النهی عن البصاق فی المسجد فی الصلاة».

۲ . سنن أبی داود:۴/۲۳۲، رقم الحدیث۴۷۲۶، باب فی الجهمیة.

۳ . سنن ابن ماجة:۱/۷۸، باب فیما أنکرت الجهمیة. (۱۵۳)

وعلی هذه الأحادیث نسجت عقیدة أهل الحدیث والسلفیة، وقال ابن تیمیة محیی طریقتهم فی القرن الثامن بعد اندراسها: إنّه سبحانه فوق سماواته علی عرشه، علی علی خلقه.(۱) إنّ هذه الروایات ونظائرها التی اکتفینا بالقلیل منها أوجدت حجاباً غلیظاً أمام الحقائق، فلم یقدر أحد حتی المتحرّرون من أهل السنّة کالشیخ محمّد عبده وأتباع منهجه وتلامذة مدرسته علی رفض تلک النصوص المخالفة للعقل الذی به عرف سبحانه وصدق نبیّه وإعجاز کتابه. حتی التجأ الإمام أحمد ـ لأجل هذه الأحادیث ـ إلی تأویل الآیات الدالّة علی کونه سبحانه محیطاً بالعالم کلّه، أعنی قوله سبحانه: (وَهُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ) (۲) وقال: إنّ المراد هو إحاطة علمه سبحانه لا معیته وجوداً.(۳) نزوله سبحانه إلی السماء الدنیا

لم یقتنع أصحاب الحدیث بما وصفوا به سبحانه من نسبة التحیز والمکان إلیه حتی أثبتوا له الهبوط إلی السماء الدنیا. روی أبو هریرة أنّ رسول اللّه قال: «ینزل ربنا تبارک وتعالی کلّ لیلة إلی السماء الدنیا حین یبقی ثلث اللیل الآخر یقول: من یدعونی فاستجیب له؟ من یسألنی فأعطیه؟ من یستغفرنی فاغفر له؟».(۴) بل لم یقتنعوا بهذا وأثبتوا له الضحک. وهذا البخاری روی فی حدیث: فلمّا أصبح غدا إلی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فقال: ضحک اللّه اللیلة أو عجب من فعالکما.(۵) ________________

۱ . مجموعة الرسائل الکبری لابن تیمیة، والعقیدة الواسطیة ص ۴۰۱.

۲ . الحدید:۴.

۳ . السنّة: ۳۶ .

۴ . صحیح البخاری:۲/۵۳ با ب«الدعاء والصلاة من آخر اللیل».

۵ . صحیح البخاری:۵/۳۴ باب (وَیؤثرون علی أنفسهم ولو کان بهم خصاصة) من کتاب مناقب الأنصار. (۱۵۴)

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يضحك اللّه لرجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة». قالوا: كيف يا رسول اللّه؟ قال: «يقتل هذا فيلج الجنة ثمّ يتوب اللّه على الآخر فيهديه إلى الإسلام ثمّ يجاهد فى سبيل اللّه فيستشهد».(۱) له سبحانه أعضاء، كأعضاء الإنسان

وذهب أصحاب الصحاح فى المجال إلى أكثر من ذلك ولم يقفوا عند ما ذكرناه من الصفات حتى أخذوا يصوّرونه كإنسان له أعضاء كالوجه واليد والأصابع والحقو، والساق والقدم، والقلم يخجل من نشر هذه الأساطير التى أدرجت ـ مع الأسف ـ باسم الحديث عن النبى الخاتم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى الكتب وزخرت بها الصحاح، ونسجت على منوالها العقائد والأُصول، وعدّ من خالفها مرتداً كافراً يضرب عنقه وتقسم أمواله على الورثة. ولأجل إيقاف القارئ على صدق ما ادّعيناه فى حقّ أصحاب الصحاح نأتى من كلّ مورد بنموذج أو نموذجين: ۱. الوجه

عن أبى هريرة، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «خلق اللّه آدم على صورته طوله ستون ذراعاً...».(۲) عن أبى هريرة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإنّ اللّه خلق آدم على صورته».(۳) وقد أخذه أبو هريرة عن الأحبار و على رأسهم كعب الأحبار أُستاذه فى ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . صحيح مسلم:۶/۴۰، باب «بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر ويدخلان الجنة» من كتاب الإمارة.

۲ . صحيح البخارى:۸/۵۰ كتاب الاستئذان باب «بدو السلام».

۳ . صحيح مسلم:۸/۳۲ باب «النهى عن ضرب الوجه» من كتاب البر والصلة والآداب. (۱۵۵)

الأساطير والقصص. فهذه هى التوراة قد جاء فيها فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين: لما خلق اللّه آدم، خلقه على صورة اللّه. وكان على أبى هريرة أن يبيّن عرض وجه آدم بعد أن بين أنّ طوله كان ستين ذراعاً، واللّه يعلم طول وجهه وعرضه وهو القائل (لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ فى أَحْسَنِ تَقْويم) .(۱) ۲. له سبحانه يدان

روى أبوهريرة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال:«إنّ يمين اللّه ملأى لاتغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنّه لم ينقص ما فى يمينه، وعرشه على الماء وبيده الأُخرى الفيض أو القبض، يرفع ويخفض».(۲) ۳. له سبحانه أصابع

روى عن عبد اللّه قال:جاء حبر من الأحبار إلى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقال: يا محمد إنّ اللّه يجعل السماوات على أصبع والأرضين على اصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلائق على أصبع فيقول أنا الملك. فضحك النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثمّ قرأ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : (وَمَا قَدَروا اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَميعاً قَبضتُهُ يَومَ القِيامَةِ وَالسَّمواتُ مَطوياتٌ بيمينِهِ سُبحانهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُون).(۳) ۴. له سبحانه حقو(۴)!

عن أبى هريرة، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «خلق اللّه الخلق ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . التين:۴.

۲ . صحيح البخارى:۹/۱۲۴، باب «وكان عرشه على الماء» من كتاب التوحيد.

۳ . صحيح البخارى:۶/۱۲۶ تفسير سورة الزمر. والآية ۶۷ من سورة الزُّمر. ۴ . الحقو: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.

(۱۵۶)

فلمّا فرغ قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: ألا ترضين أنّ أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب قال: فذاك».(۱) ۵. اللّه سبحانه وساقه!

روى عن أبى سعيد قال: سمعت النبى يقول:«يكشف ربّنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً».(۲) ۶. اللّه سبحانه وقدمه!

روى عن أنس، عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يلقى فى النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول: قط قط».(۳) هذه نماذج ممّا ورد فى الصحاح من أحاديث التشبيه والتجسيم اكتفينا من كلّ مورد بحديث واحد. وقد تركت هذه الأحاديث آثاراً سلبية فى معتقدات المسلمين فمن مشبه يقول: اعفونى من الفرج واللحية وسلونى عمّا وراء ذلك(۴)، إلى متمسك بظواهرها لكن بلا تكييف، إلى مؤول يحملها على معان بعيدة عن ظاهرها ليتخلص عن مغبة التجسيم. ولو أنّهم رجعوا إلى الذكر الحكيم وعرضوا هذه الأحاديث عليه لميّزوا الصحيح عن الزائف، والمقبول عن المردود. (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيراً لَهُمْ) .(۵)

---

۱ . صحيح البخارى:۶/۱۳۴.

۲ . صحيح البخارى:۶/۱۵۹ تفسير سوره ن والقلم.

۳ . صحيح البخارى:۶/۱۳۸ تفسير سورة ق.

۴ . الملل والنحل للشهرستاني:ص ۱۰۵ فصل المشبهة.

۵ . النساء:۶۶. (۱۵۷) الجبر فى ثوب الإيمان بالقدر

ذلك بعض ما ورد فى الصحاح حول التجسيم والتشبيه وإنّا نجل النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وصحابته الأخيار عن أن ينبسوا بشيء منها ببنت شفة، وإنّما هى أساطير وأوهام أخذها الضعاف من الرواة عن الأحبار والرهبان من دون اكتراث ولا مبالاة. وأمّا أحاديث الجبر ونفى الاختيار وأنّ الإنسان فى الحياة كالريشة فى مهب الرياح فحدّث عنها ولا حرج. فالصحاح تزخر بها فى باب الإيمان بالقدر، وسيوافيك بعضها عند البحث عنه، ولو صحت هذه الأحاديث لما بقى لبعث الأنبياء وتكليف العباد بالواجبات والمحرّمات وغيرها معنى معقول. ونذكر هنا ما لا نذكره هناك: ۱. روى الترمذى عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: خرج علينا رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وفى يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا يا رسول اللّه إلاّ أن تخبرنا. فقال للذى بيده اليمنى: هذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل الجنّة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثمّ أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، وقال للذى فى شماله: هذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمّ أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. قال أصحابه: ففيم العمل يا رسول اللّه إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سدّدوا وقاربوا فإنّ صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنّة، وإن عمل أى عمل، وإنّ صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أى عمل، ثمّ قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بيده فنبذهما ثمّ قال: فرغ ربكم من عمل العباد، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.(۱)

---

۱ . جامع الأُصول:۱۰/۵۱۳، رقم الحديث ۷۵۵۵. (۱۵۸)

ولاـ يخفى أنّ السؤال الوارد فى الحديث موجه جدّاً، والجواب عنه غير مقنع، فما معنى قوله :«سددوا وقاربوا»؟ لأنّه إذا كان الأمر قد فرغ منه فما معنى التسديد والتقارب؟! وما معنى الحث على التوبة والإنابة؟! ولماذا جعل فريقاً فى الجنّةوفريقاً فى السعير مع كونه رحماناً على الكل، لا قسيّاً ولا متعنّتاً؟! ۲. روى البخارى ومسلم والترمذى عن على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ : قال: «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته، ثمّ قال: ما منكم من أحد إلاّوقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قالوا: يا رسول اللّه أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له. أمّا من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة . وأمّا من كان من أهل الشقاء، فسيصير لعمل أهل الشقاء، ثمّ قرأ(فَأَمّا مَنْ أَعْطى واتَّقى* وَصَدَّقَ بِالحُسْنى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى) (۱). أخرجه البخارى ومسلم.(۲) وفى رواية الترمذى قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقعد وقعدنا ومعه مخصرة فجعل ينكت بها ثمّ قال: ما منكم من أحد أو من نفس منفوسة، إلاّـ وقد كتب اللّه مكانها من الجنة والنار، وإلاّ وقد كتبت شقية أو سعيدة فقال رجل: يا رسول اللّه أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منّا من أهل السعادة ليكونن إلى أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى أهل

الشقاوة. فقال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: بل اعملوا فكلّ ميسر، فأمّا أهل السعادة، فييّسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثمّ قرأ(فَأَمّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى* وَصَدَّقَ بِالحُسْنى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسرى* وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى* وَكَذَّبَ بِالحُسْنى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسرى) (۳) . (۴) ______________

۱ . الليل:۵ـ۷.

۲ . جامع الأُصول:۱۰/۵۱۳، رقم الحديث۷۵۵۵.

۳ . الليل:۵ـ۱۰.

۴ . جامع الأُصول:۱۰/۵۱۵ـ ۵۱۶، رقم الحديث۷۵۵۷ وذيله. (۱۵۹)

۳. وفى أُخرى للترمذى: قال: بينما نحن مع رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وهو ينكت فى الأرض إذ رفع رأسه إلى السماء ثمّ قال: ما منكم من أحد إلاّ قد علم ـ و فى رواية إلاّقد كتب ـ مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا: أفلا نتّكل يا رسول اللّه؟ قال: لا، اعملوا، فكلّ ميسر لما خلق له. وأخرج أبو داود الرواية الأُولى من روايتى الترمذى.(۱) و هذه الروايات لا ـ تصف العبد فقط بأنّه مكتوف اليد بل تصف اللّه أيضاً مكتوف اليد ومغلولها فلا يخضع القدر لقدرته، فلا يقدر على تغييره وتبديله. وهذا بنفسه نفس عقيدة اليهود التى نقلها القرآن عنهم (وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيديهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشاء) .(۲) كلام أحمد حول القدر

السابر فى كتب أهل الحديث يرى أنّهم يهتمون بأمر التقدير أكثر من اهتمامهم بسائر المسائل العقائدية، وكأنّ الاعتقاد بالتقدير عندهم أهمّ من الاعتقاد بالمبدأ والمعاد. ولأجل ذلك لا ـ ترى تشاجراً ولا ـ بحثاً مبسوطاً حول إمكان المعاد، ورفع شبهاته وتبيين خصوصياته. ولكن التقدير قد احتل مكانة مرموقة فى مجال العقيدة. وهذا القاضى أبو الحسين محمد بن أبى يعلى قد أخرج فى كتابه ما أملاه أحمد ابن محمد بن حنبل أو كتبه باسم «عقيدة أهل السنّة» وممّا جاء فيه(۳): قال: والقدر خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه،وأوّله وآخره، من اللّه، قضاء قضاه، وقدر قدّره عليهم، لا يعدو واحد منهم مشيئة اللّه عزّوجلّ، ولا يجاوز قضاءه، بل ______________

۱ . المصدر السابق.

۲ . المائدة:۶۴.

۳ . طبقات الحنابلة:۱/۲۵ـ ۲۷. (۱۶۰)

هم كلّهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله، وهو عدل منه عزّربّنا وجل، والزنى والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك باللّه والمعاصى كلّها بقضاء وقدر، من غير أن يكون لأحد من الخلق على اللّه حجّة، بل للّه الحجّة البالغة على خلقه، (لا ـ يُسْأَلُ عَمّا يَفْعلُ وهُمْ يُسأَلُونَ)(۱) وعلم اللّه عزّ وجلّ ماض فى خلقه بمشيئة منه، قد علم من إبليس ومن غيره ممّن عصاه ـ من لدن أن عصى تبارك و تعالى إلى أن تقوم الساعة ـ المعصية، وخلقهم لها، وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها. وكلّ يعمل لما خلق له، وصائر لما قضى عليه وعلم منه، لا يعدو واحد منهم قدر اللّه ومشيئته. واللّه الفاعل لما يريد، الفعّال لما يشاء. ومن زعم أنّ اللّه شاء لعباده الذين عصوه الخير والطاعة وأنّ العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية، فعملوا على مشيئتهم، فقد زعم أنّ مشيئة العباد أغلظ من مشيئة اللّه تبارك و تعالى، فأى افتراء أكثر على اللّه عزّوجلّ من هذا؟ ومن زعم أنّ الزنى ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأة، حملت من الزنى وجاءت بولد، هل شاء اللّه عزّوجلّ أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى فى سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أنّ مع اللّه خالقاً وهذا هو الشرك صراحاً. ومن زعم أنّ السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء وقدر، فقد زعم أنّ هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره، وهذا صراح قول المجوسية. بل أكل رزقه وقضى اللّه أن يأكله من الوجه الذى أكله. ومن زعم أنّ قتل النفس ليس بقدر من اللّه عزّوجلّ، وأنّ ذلك (ليس) بمشيئته فى خلقه، فقد زعم أنّ المقتول مات بغير أجله.

وأى كفر أوضح من هـذا. بل ذلك بقضاء اللّه عزّ وجلّ وذلك بمشيئته فى خلقه، وتـدبيره فيهم، وما جرى من سابق علمه فيهم. وهو العدل الحقّ الذى يفعل ما يريد، ومن أقرّ بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة على الصغر والقماءة.(۲) ______________

۱ . الأنبياء: ۲۳.

۲ . طبقات الحنابلة للقاضى محمد بن أبى يعلى:۱/۲۵ـ۲۶. (۱۶۱)

وسيوافيك تمام الرسالة فى الفصل القادم. وممّا يوجب الأسف أنّ الوهابية أخذت تروّج عقائد التجسيم والتشبيه، وإليك قصيدة فى ذلك الباب نشرت فى عاصمة التوحيد مكة المكرمة: للّه وجه لا يحد بصورة * ولربّنا عينان ناظرتان وله يدان كما يقول إلهنا * ويمينه جلّت عن الأيمان كلتا يـديه يمين وصـفها * فهما على الثقلان منفقتان(۱) كرسـيه وسع السماوات العلى * والأرض وهو يعمه القدمان واللّه يضـحك لا كضـحك عبيـده * والكيف ممتنع على الرحمن واللّه ينزل كلّ آخر ليلـة * لسـمائه الـدنيا بلا كتمان فيقول: هل من سائل فأجيبه * فأنا القريب أجيب من نادانى من قصيدة عبد اللّه بن محمد الأندلسى المالكى نشرت فى «أربح البضاعة فى معتقد أهل السنّة والجماعة» ص ۳۲ جمع على بن سـليمان آل يوسف، منشور مكة المكرمة سنّة ۱۳۹۳هـ كما فى التمهيـد، الجزء الثالث ص ۹۰ لشيخنا الحجة محمّد هادى معرفة ـ دام ظلّه ـ ______________

۱ . هكذا ورد. (۱۶۲) (۱۶۳)

الفصل السادس عصارات مدونة من عقائد أهل

الفصل السادس عصارات مدونة من عقائد أهل الحديث

إنّ هـذه الروايات التى سبقت تمثل عقائد أهل الحديث فى العصور الأُولى الإسـلامية حيث نسـجت العقائد عليها وحيكت على نولها، وقد بلغت بشاعة الأمر إلى حدّ أوجبت سـقوط عقيدة أهل الحديث عن مقامها فى نفوس الناس بعد ما انتشرت فى أرجاء البلاد، ولولا ثورة الإمام الأشـعرى على عقيـدة أهل الحـديث لكانت البشاعـة أكثر. ونحن نأتى فى هـذا المجال ببعض الرسائل المدونة لبيان عقيدة أهل الحديث والحنابلة: ۱. عقيدة الحنابلة على لسان إمامهم

إنّ إمام الحنابلة كتب رسالة صـغيرة حول عقيدة أهل الحديث والسنّة وهى أخف وطأة ممّا ورد فى كتب الحديث، وإليك نصّ تلك الرسالـة. قال: هـذه مـذاهب أهل العلم، وأصـحاب الأثر، وأهل السـنّة، المتمسّـكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إلى يومنا هذا. وأدركت من أدركت ـ من علماء الحجاز والشام وغيرها ـ عليها. فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، (۱۶۴)

فهو مخـالف مبتـدع، وخارج عن الجماعـة، زائل عن منهـج السـنّة، وسبيل الحقّ. فكان قولهم: إنّ الإيمان قول وعمل ونيـة، و تمسّـك بالسـنّة. والإيمان يزيد وينقص. ويسـتثنى فى الإيمان، من غير أن يكون لشك. إنّما هو سـنّة ماضية عن العلماء. فإذا سئل الرجل: مؤمن أنت؟ فإنّه يقول: أنا مؤمن إن شاء اللّه. ومؤمن أرجو، أو يقول: آمنت باللّه وملائكته وكتبه ورسله. ومن زعم أنّ الإيمان قول بلا عمل، فهو مرجئى. ومن زعم أنّ الإيمـان هو القول، والأعمـال فشـرائع: فهو مرجئى. ومن زعم أنّ الإيمـان لا يزيـد ولا ينقص، فقـد قال بقول المرجئـة. ومن أنكر الاسـتثناء فى الإيمان، فهو مرجئى. ومن زعم أنّ إيمانه كإيمان جبريل والملائكة فهو جهمى. والقدر خيره وشـره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه،وحلوه ومرّه، ومحبوبه ومكروهه، وحسـنه وسيّئه، وأوّله وآخره. واللّه عزّوجلّ قضى قضاءه على عباده، لا يجاوزون قضاءه، بل هم كلّهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قـدر عليهم لا محالـة، وهو عـدل منه عزّ وجلّ. والزنى والسـرقة، وشـرب الخمر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والشرك باللّه عزّ وجلّ،والذنوب والمعاصى، كلّها بقضاء وقدر من اللّه عزّ وجلّ، من غير أن يكون لأحـد من الخلق على اللّه حجّة، بل للّه عزّوجلّ الحجّة البالغة على خلقه (لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون) . وعلم اللّه عزّ وجلّ ماض فى خلقه بمشـيئة منه، قـد علم من إبليس ومن غيره ممّن عصاه ـ من لـدن أن عصاه إبليس إلى أن تقوم الساعة ـ المعصـية،

وخلقهم لها، وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها، فكلّ يعمل بما خلق (۱۶۵)

له، وصائر إلى ما قضى اللّه عليه منه، لم يعد أحد منهم قدر اللّه عزّوجلّ ومشيئته، واللّه الفعّال لما يريد. ومن زعم أنّ اللّه عزّ وجلّ شاء لعباده الذين عصوا، الخير والطاعة وأنّ العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية، يعملون على مشيئتهم، فقد زعم أنّ مشيئة العباد أغلب من مشيئة اللّه عزّ وجلّ. فأىّ افتراء على اللّه أكبر من هذا؟! ومن زعم أنّ الزنى ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأة حملت من الزنى، وجاءت بولد، هل شاء اللّه عزّوجلّ أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى هذا فى سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أنّ مع اللّه تعالى خالقاً وهذا هو الشرك صريحاً. ومن زعم أنّ السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء فقد زعم أنّ هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره. وهذا يضارع قول المجوسية. بل كلّ رزقه اللّه، وقضى اللّه عزّوجلّ أن يأكله من الوجه الذى أكله. ومن زعم أنّ قتل النفس ليس بقدر من اللّه عزّوجلّ، فقد زعم أنّ المقتول مات بغير أجله، وأىّ كفر أوضح من هذا؟ بل كان ذلك بقضاءاللّه عزّ وجلّ وقدره وكلّ ذلك بمشيئته فى خلقه، وتدبيره فيهم، وما جرى من سابق علمه فيهم. وهو العدل الحقّ الذى يفعل ما يريد. ومن أقرّ بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة. ولا نشهد على أحد من أهل القبلة أنّه فى النار لذنب عمله ولا بكبيرة أتاها، إلّا أن يكون فى ذلك حديث، فنروى الحديث كما جاء على ما روى. نصدق به. ونعلم أنّه كما جاء. ولا تنقض الشهادة. والخلافة فى قريش ما بقى من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا ـ يخرج عليهم، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة. والجهاد ماض، قائم مع الإمام، برّاً أو فاجراً. ولا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل. (۱۶۶)

والجمعة والحجّ والعيدان مع الأئمّة، وإن لم يكونوا بررة عدولاً أتقياء. ودفع الصدقات والأعشار والخراج والفىء، والغنائم إلى الأمراء، عدلوا فيها أو جاروا. والانقياد لمن ولاّه اللّه عزّوجلّ أمركم لا ـ تنزع يداً من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك، يجعل اللّه لك فرجاً ومخرجاً، ولا تخرج على السلطان، بل تسمع وتطيع فإن أمرك السلطان بأمر، هو للّه عزّ وجلّ معصية، فليس لك أن تطيعه وليس لك أن تخرج عليه، ولا تمنعه حقّه، ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان، بل كفّ يدك ولسانك، وهواك. واللّه عزّوجلّ المعين. والكفّ عن أهل القبلة. ولا نكفر أحداً منهم بذنب، ولانخرجهم عن الإسلام بعمل، إلّا أن يكون فى ذلك حديث فيروى كما جاء، وكما روى، ونصدقه ونقبله ونعلم أنّه كما روى نحو ترك الصلاة وشرب الخمر، وما أشبه ذلك أو يبتدع بدعة ينسب صاحبها إلى الكفر والخروج عن الإسلام فاتبع الأثر فى ذلك ولا تجاوزه. ولا أحب الصلاة خلف أهل البدع، ولا الصلاة على من مات منهم. والأعور الدجّال خارج لا شكّ فى ذلك ولا ارتياب. وهو أكذب الكذّابين. وعذاب القبر حقّ. يسأل العبد عن دينه، وعن ربّه، ويرى مقعده من النار والجنة. ومنكر ونكير حق وهما فتاناالقبور، نسأل اللّه عزّوجلّ الثبات. وحوض النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حقّ، ترده أُمّته، وله آنية يشربون بها منه. الصراط حق يوضع على شفير جهنم ويمر الناس عليه، والجنة من وراء ذلك، نسأل اللّه عزّوجلّ السلامة فى الجواز. والميزان حقّ، توزن به الحسنات والسيّئات، كما شاء أن توزن. والصور حقّ، ينفخ فيه إسرافيل ـ عليه السَّلام ـ فيموت الخلق، ثمّ ينفخ (۱۶۷)

فيه أُخرى فيقومون لربّ العالمين عزّ وجلّ للحساب والقصاص والثواب والعقاب. والجنة والنار واللوح المحفوظ حقّ، تستنسخ منه أعمال العباد ممّا سبقت فيه من المقادير والقضاء. والقلم حقّ، كتب اللّه به مقادير كلّ شىء وأحصاه فى الذكر تبارك وتعالى. والشفاعة حقّ يوم القيامة، يشفع قوم فى قوم فلا يصيرون إلى النار، ويخرج قوم من النار بعدما دخلوها بشفاعة الشافعين، ويخرج قوم من النار برحمة اللّه عزّوجلّ بعدما لبثوا فيهاما شاء اللّه عزّوجلّ، وقوم يخلدون فيها أبداً، وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر باللّه عزّ وجلّ. ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنّة والنار. وقد خلقت النار وما فيها، وخلقت الجنة وما فيها،خلقهما اللّه عزّوجلّ، ثمّ خلق الخلق لهما، لا يفنيان، ولا يفنى ما فيهما أبداً. فإن احتج مبتدع بقوله تعالى: (كُلُّ شَىء هالِكٌ إلّا وجهَه) (۱) ونحو هذا من متشابه القرآن. قيل له: كلّ شىء ممّا كتب اللّه عزّوجلّ عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقهما اللّه عزّوجلّ للبقاء لا للفناءولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا. والحور العين، لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة أبداً لأنّ اللّه عزّ وجلّ خلقهنّ للبقاء، لا

للفنـاء، ولم يكتب عليهن الفنـاء ولاـ الموت، فمن قـال خلاـف ذلك فهو مبتـدع. وخلق اللّه سـبع سـماوات، بعضـها فوق بعض، وسـبع أرضين بعضها ________

۱ . القصص:۸۸. (۱۶۸)

أسـفل من بعض. وبين الأرض العليا والسـماء الدنيا خمسـمائة عام، وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمائة عام. والماء فوق السماء السابعة، وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء. واللّه عزّوجلّ على العرش. وهو يعلم ما فى السماوات السبع والأرضين السبع و[ما] بينهما وما تحت الثرى، وما فى قعر البحار ومنبت كلّ شعرة، وكل شجرة، وكل زرعة، وكل نبت، ومسـقط كلّ ورقة، وعدد ذلك وعدد الحصا والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم، وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كلّ شىء لا يخفى عليه شىء من ذلك، وهو على العرش، فوق السـماء السابعـة وعنـده حجب من نار ونور وظلمـة وماء، وهو أعلم بها. فإن احتـج مبتدع أو مخالف بقوله تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِليهِ مِنْ حَبْلِ الْوَريد) (۱) ، أو بقوله عزّ وجـلّ:(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ) (۲) ، أو بقوله تعالى: (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَة إِلاّهُوَ رابِعُهُمْ) (۳)ونحو هـذا من متشابه القرآن. قيل: إنّما يعنى بـذلك العلم. لأنّ اللّه تبارك وتعالى على العرش فوق السـماء السابعة العليا، يعلم ذلك كلّه، وهو تعالى بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان، واللّه تعالى على العرش. وللعرش حملة يحملونه. واللّه عزّوجلّ على عرشه. واللّه تعالى سـميع لا يشكّ، بصـير لا يرتاب، عليم لا يجهل، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل، حفيظ لا ينسى، يقظان(۴) لا يسهو، قريـب لاـ يغفـل، يتكلّـم ويسـمع وينظر، ويبصـر ويضـحك،ويفرح ويحـب، ويكره ويبغض،ويرضـى ويغضـب ويسـخط، ويرحم ويعفو ويعطى ويمنع، وينزل تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا كيف يشاء (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ________

۱ . ق:۱۶.

۲ . الحديد:۴.

۳ . المجادلة:۷.

۴ . لم ترد هذه الكلمة فى الكتاب ولا السنّة. ولعلّ الأولى أن يقال: (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوم) . (۱۶۹) السَّميعُ الْبَصِير) (۱) وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الربّ عزّوجلّ، يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد.

وخلق اللّه عزّوجلّ آدم ـ عليه السَّلام ـ بيده والسـماوات والأرض يوم القيامة فى كفّه. ويخرج قوماً من النار بيده، وينظر أهل الجنة إلى وجهه. ويرونه فيكرمهم ويتجلى لهم فيعطيهم. ويعرض عليه العبـاد يوم الفصـل والـدين، ويتولّى حسابهم بنفسه، لا يولى ذلك غيره عزّ وجـلّ. والقرآن كلاـم اللّه، ليس بمخلـوق، فمـن زعـم أنّ القرآن مخلـوق فهـو جهمى كـافر. ومن زعم أنّ القرآن كلاـم اللّه عزّوجلّ ووقف، ولم يقـل: مخلوق ولاـ غير مخلوق، فهو أخبث من الأوّل. ومن زعم أنّ ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقـة، والقرآن كلام اللّه فهو جهمى. ومن لم يكّفر هؤلاء القوم كلّهم فهو مثلهم. وكلّم اللّه موسى تكليماً، من اللّه سمع موسى يقيناً، وناوله التوراة من يده، ولم يزل اللّه متكلماً عالماً، تبارك اللّه أحسن الخالقين. والرؤيا من اللّه عزّ وجلّ حقّ، إذا رأى صاحبها شيئاً فى منامه يقصّها على عالم،وقد كـانت الرؤيـا من الأنبياء وحياً. ومن السـنّة: ذكر محاسن أصـحاب رسول اللّه ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلَّم ـ كلّهم أجمعين والكفّ عن الذى شـجر بينهم. فمن سب أصـحاب رسول اللّه ـ صـلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، أو واحداً منهم، فهو مبتدع رافضى، حبهم سنّة، الدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ ب آثارهم فضيلة. وخير هذه الأُمّة ـ بعد نبيّها ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ـ أبو بكر، وخيرهم ـ بعد أبى بكر ـ عمر، وخيرهم ـ بعد عمر ـ عثمان، وخيرهم ـ بعد عثمان ـ ________

۱ . الشورى:۱۱. (۱۷۰)

على، رضوان اللّه عليهم، خلفاء راشدون مهديون. ثمّ أصحاب محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بعد هؤلاء الأربعة، لا يجوز لأحد أن يذكر شـيئاً من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك فقد وجب على السـلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثمّ يستتيبه، فإن تاب قبل منه. وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة. وجلده فى المجلس حتى يتوب ويراجع.(۱) ثمّ إنّ الشيخ أبا جعفر

المعروف بالطحاوى المصرى (المتوفّى عام ۳۲۱هـ) كتب رسالة حول عقيدة أهل السنّة تشتمل على مائة وخمسة أَصول، زعم أنّها عقيدة الجماعة والسنّة على مذهب فقهاء الملة: أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى، وأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى، وأبى عبد اللّه محمّد بن الحسن الشيبانى والرسالة صغيرة كتب عليها تعاليق وشروح كثيرة. ولما ثار الإمام الأشعرى على المعتزلة وانخرط فى سلك أهل الحديث، جاء فى الباب الثانى من كتاب «الإبانة» بعقيدة أهل السنّةوالجماعة فى واحد وخمسين أصلاً، وإليك هذه الرسالة. ۲. رسالة«الأشعرى» فى عقيدة أهل الحديث

قولنا الذى نقول به، وديانتنا التى ندين بها: التمسک بكتاب ربّنا عزّ وجلّ، وبسنّة نبيّنا ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ،و ما روى عن الصحابة والتابعين وأئمّة الحديث ونحن بذلك معتصمون. وبما كان يقول به أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضر اللّه وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنّه الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذى أبان اللّه به الحقّ، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ ــــــــــــــــــــــ

۱ . السنّة : ۴۴ـ۵۰. (۱۷۱)

الزائغين وشك الشاكّين، فرحمة اللّه عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفخم، وعلى جميع أئمّة المسلمين. وجملة قولنا: ۱. أنا نقرّ باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، وما جاء من عند اللّه، وما رواه الثقات عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لا نرد من ذلك شيئاً. ۲. وأنّ اللّه عزّوجلّ إله واحد لاإله إلاّ هو، فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ۳. وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقّ. ۴. وأنّ الجنّة والنار حقّ. ۵. وأنّ الساعة آتية لا ـ ريب فيها، وأنّ اللّه يبعث من فى القبور. ۶. وأنّ اللّه استوى على عرشه كما قال:(الرَّحمنُ عَلى العرشِ اسْتَوى).(۱) ۷.وأنّ له وجهاً بلا ـ كيف كما قال: (وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الجَلالِ وَالإكْرام) .(۲) ۸. وأنّ له يدين بلا كيف كما قال: (خَلَقْتُ بيدى) (۳)، وكما قال:(بَلْ يَداهُ مَبْسُوطتان) .(۴) ۹. وأنّ له عيناً بلا ـ كيف كما قال: (تَجْرى بِأَعْيُننا) .(۵) ۱۰. وأنّ من زعم أنّ أسماء اللّه غيره كان ضالاً. ــــــــــــــــــــــ

۱ . طه:۵.

۲ . الرحمن:۲۷.

۳ . ص:۷۵.

۴ . المائدة:۶۴.

۵ . القمر:۱۴. (۱۷۲)

۱۱. وأنّ للّه علماً كما قال:(أَنْزَلَهُ بعِلْمِهِ) (۱)، وكما قال:(وَماتَحْمِل مِنْ أُنْثى وَلاتَضَعُ إِلاّبِعِلْمِهِ).(۲) ۱۲. ونثبت للّه السمع والبصر ولا ننفى ذلک، كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج. ۱۳. وثبت أنّ للّه قوّة كما قال:(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشدُّ مِنْهُمْ قُوّة) .(۳) ۱۴. ونقول: إنّ كلام اللّه غير مخلوق، وإنّه لم يخلق شيئاً إلاّ وقد قال له: كن فيكون،كما قال: (إِنّماقَوْلُنا لِشَىء إذا أَرْدناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .(۴) ۱۵. وإنّه لا يكون فى الأرض شىء من خير وشر إلاّما شاء اللّه، وإنّ الأشياء تكون بمشيئة اللّه عزّوجلّ. وإنّ أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله اللّه. ۱۶. ولا نستغنى عن اللّه، ولا نقدر على الخروج من علم اللّه عزّوجلّ. ۱۷. وإنّه لا خالق إلاّ اللّه، وإنّ أعمال العبد مخلوقة للّه مقدورة، كما قال: (وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُون) .(۵) وإنّ العباد لا ـ يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون، كما قال: (هَلْ مِنْ خالِقِ غَيْرُ اللّهِ) (۶)، وكما قال:(لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وهُمْ يُخْلَقُون) (۷) وكما ــــــــــــــــــــــ

۱ . النساء:۱۶۶.

۲ . فاطر:۱۱.

۳ . فصلت:۱۵.

۴ . النحل:۴۰.

۵ . الصافات:۹۶.

۶ . فاطر:۳.

۷ . النحل:۲۰. (۱۷۳)

قـال: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُق) (۱)، وكما قال: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غيَرْ شَىء أم هُمُ الخالِقُونَ)(۲) وهذا فی كتاب اللّه كثير. ۱۸. وإنّ اللّه وفق المؤمنين لطاعته، ولطف بهم، ونظر إليهم، وأصلحهم وهداهم، وأضل الكافرين ولم يهدهم، ولم يلطف بهم بالإيمان، كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين. ولو هداهم لكانوا مهتدين، كما قال تبارك و تعالى:(مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ المُهْتَدِی وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُون) .(۳) وإنّ اللّه يقدر أن يصلح الكافرين، ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنّه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وإنّه خذلهم وطبع على قلوبهم. ۱۹. وإنّ الخير والشر بقضاء اللّه وقدره. وإنّا نؤمن بقضاء اللّه وقدره، خيره وشرّه، حلوه ومرّه، ونعلم أنّ ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، وأنّ ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وأنّ العباد لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً إلاّ ما شاء اللّه كما قال عزّوجلّ:(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسی نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاّما شاءَ اللّه) (۴) وإنّا نلجأ فی أُمورنا إلى اللّه، ونثبت الحاجة والفقر فی كلّ وقت إليه. ۲۰. ونقول: إنّ القرآن كلام اللّه غير مخلوق، وإنّ من قال بخلق القرآن فهو كافر. ۲۱. وندين بأنّ اللّه تعالى يُرى فی الآخرة بالأبصار كما يُرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ونقول: إنّ الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون فی الجنة، كما قال ______________

۱ . النحل:۱۷.

۲ . الطور:۳۵.

۳ . الأعراف:۱۷۸.

۴ . الأعراف:۱۸۸. (۱۷۴)

اللّه عزّ وجلّ:(كَلاّإِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمئِذ لَمَحْجُوبُون) (۱) وإنّ موسى ـ عليه السَّلام ـ سأل اللّه عزّوجلّ الرؤية فی الدنيا، وإنّ اللّه تعالى تجلّى للجبل، فجعله دكّاً، فاعلم بذلك موسى أنّه لا يراه فی الدنيا. ۲۲. وندين بأن لا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنی والسرقة وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنّهم كافرون. ونقول: إنّ من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنی والسرقة وما أشبههما مستحلاً لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً. ۲۳. ونقول: إنّ الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كلّ إسلام إيماناً. ۲۴. وندين بأنّ اللّه تعالى يقلّب القلوب «وأنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»(۲)، وأنّه سبحانه«يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع»(۳) كما جاءت الرواية عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من غير تكييف. ۲۵. وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة ______________

۱ . المطففين:۱۵.

۲ . رواه مسلم رقم (۲۶۵۴) فی القدر: باب تصريف اللّه تعالى القلوب كيف شاء. وأحمد۲/۱۶۸و ۱۷۳ من حديث عبد اللّه عمرو. وابن ماجه برقم (۳۸۳۴) فی الدعاء: باب دعاء رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ والترمذی رقم (۲۱۴۱) فی القدر: باب ما جاء أنّ القلوب بين أصبعی الرحمن من حديث أنس بن مالك وأحمد:۶/۳۰۲ و ۳۱۵ والترمذی رقم (۳۵۱۷) فی الدعوات باب رقم ۸۹ من حديث أُمّ سلمة وأحمد:۶/۲۵۱ من حديث عائشة ۳۰۲، ۳۱۵.

۳ . أخرجه البخاری:۱۳/۳۳۵، ۳۳۶و ۳۶۹ و ۳۹۷ فی التوحيد:باب قوله تعالى: (لما خلقت بيدی) وباب قوله تعالى: (إنّ اللّه يمسك السموات والأرض) وباب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء. و۸/۴۲۳ وفی التفسير: باب قوله تعالى: (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) و مسلم رقم (۲۷۸۶)(۲۱) فی المنافقين: باب صفة القيامةوالجنة والنار والترمذی رقم (۳۲۳۶) و (۳۲۳۸) فی التفسير: باب و من سورة الزمر كلّهم من حديث عبد اللّه بن مسعود رضی اللّه عنه. (۱۷۵)

ولا ناراً إلّا من شـهد له رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبین ونخاف علیهم أن یکونوا بالنار معذبین. ونقول: إنّ اللّه عزّوجلّ یخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا بشـفاعة محمّد رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسلّم ـ تصدیقاً لما جاءت به الروایـات عن رسـول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ .(۱) ۲۶. ونؤمن بعـذاب القبر وبـالحوض، وأنّ المیزان حقّ، والصـراط حقّ، والبعث بعـد الموت حقّ، وأنّ اللّه عزّ وجـلّ یوقف العبـاد فی الموقف ویحاسب المؤمنین. ۲۷. وأنّ الإیمان قول وعمل یزیـد وینقص، ونسلم الروایات الصحیحة فی ذلک عن رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ التی رواها الثقاة عدل عن عدل حتی تنتهی الروایة إلی رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ . ۲۸. وندین بحب السلف، الذین اختارهم اللّه عزّوجلّ لصحبة نبیّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ ، ونثنی علیهم بما أثنی اللّه به علیهم، ونتولاهم أجمعین. ۲۹. ونقول: إنّ الإمام الفاضل بعد رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسلّم ـ أبو بکر الصدیق رضوان اللّه علیه، وإنّ اللّه أعزّ به الدین وأظهره علی المرتدین، وقدمه المسلمون للإمامة، کما قدمه رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ للصـلاة، وسمّوه بأجمعهم خلیفة رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ . ثمّ عمر بن الخطاب ، ثمّ عثمان بن عفان ، وإنّ الذین قتلوه، قتلوه ظلماً وعدواناً، ثمّ علی بن أبی طالب رضی اللّه عنه، ـــــــــــــــــ

۱ . خروجهم من النار بعـد أن امتحشوا وحدیث الشـفاعة، رواه البخاری:۱۳/۳۹۵ـ ۳۹۷ فی التوحیـد: باب کلام الرب تعالی یوم القیامة مع الأنبیاء وغیرهم. و ۱۳/۳۳۲ باب قوله تعالی (لما خلقت بیدی) . و۱۳/۳۹۸ باب قوله تعالی: (وکلّم اللّه موسی تکلیماً) و ۸/۱۲۲ فی تفسیر سورة البقرة: باب (علّم آدم الأسماء کلّها) ومسلم رقم (۱۹۳) من حدیث أنس بن مالک والبخاری۶/۲۶۴ و ۲۶۵ ومسلم (۱۹۴) فی الإیمان: باب أدنی أهل الجنة منزلة فیها من حدیث أبی هریرة والبخاری:۱۱/۳۶۷ و۳۷۱ من حدیث جابر. (۱۷۶)

فهؤلاء الأئمّة بعد رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ وخلافتهم خلافة النبوة. ونشـهد بالجنة للعشـرة الذین شـهد لهم رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ بها، ونتولّی سائر أصحاب النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ و نکف عمّا شجر بینهم، وندین اللّه بأنّ الأئمّة الأربعـة خلفاء راشـدون مهدیون فضـلاء لا یوازیهم فی الفضل غیرهم. ۳۰. ونصـدق بجمیع الروایـات التی یثبتها أهل النقل من النزول إلی السـماء الـدنیا، وأنّ الربّ عزّ وجـلّ یقول: «هـل من سائـل، هل من مسـتغفر»(۱) وسـائر مـا نقلوه وأثبتوه خلافـاً لمـا قاله أهل الزیغ والتضلیل. ۳۱. ونعول فیما اختلفنا فیه علی کتاب ربّنا تبارک وتعالی وسـنّة نبیّنا ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلّم ـ ، وإجماع المسلمین، وما کان فی معناه، ولا نبتدع فی دین اللّه بدعة لم یأذن اللّه بها، ولا نقول علی اللّه مالا نعلم. ۳۲. ونقول: إنّ اللّه عزّوجلّ یجیء یوم القیامة کما قال: (وَجاءَ ربّکَ وَالمَلَکُ صَفّاً صَفّاً) (۲)، وإنّ اللّه عزّ وجـلّ یقرب من عباده کیف شـاء، کمـا قال: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلیهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرید) (۳) وکمـا قـال: (ثُمَّ دَنا فَتَدَلّی* فَکانَ قابَ قَوسین أَوْ أَدنی) .(۴) ۳۳. ومن دیننا أن نصـلی الجمعة والأعیاد وسائر الصـلوات والجماعات ـــــــــــــــــ

۱ . رواه مسـلم(۷۵۸) (۱۷۰) (۱۷۲) فی صـلاة المسافرین:باب الترغیب والـدعاء والـذکر فی آخر اللیل. وللحـدیث صیغ أُخری رواها البخـاری فی التهجـد: بـاب الـدعاء والصـلاة من آخر اللیـل وفی الـدعوات: بـاب الـدعاء نصف اللیـل وفی التوحیـد: بـاب قوله تعالی: (یریـدون أن یبدلوا کلام اللّه) ومسـلم (۷۵۸) (۱۶۸) (۱۶۹) وأبـو داود رقم (۴۷۳۳) فی السـنّة. والترمـذی رقم (۳۴۹۳) فی الدعوات وأحمد۲/۲۵۸و ۲۶۷ و ۲۸۲و ۴۱۹ و ۴۸۷و ۵۰۴و ۵۲۱ من حدیث أبی هریرة.

۲ . الفجر:۲۲.

۳ . ق:۱۶.

۴ . النجم: ۸ـ۹. (۱۷۷)

خلف کـلّ برّ وفـاجر، کمـا روی عن عبـد اللّه بن عمر أنّه کـان یصـلّی خلف الحجّـاج. ۳۴. وأنّ المسـح علی الخفین سـنّة فی الحضـر والسفر خلافاً لقول من أنکر ذلک. ۳۵. ونری الدعاء لأئمّة المسـلمین بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضلیل من رأی الخروج علیهم، إذا ظهر منهم ترک الاسـتقامة، ونـدین بإنکار الخروج علیهم بالسـیف، وترک القتال فی الفتنـة. ۳۶. ونقرّ بخروج الـدجّال، کما جاءت به

الروایة عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ .(۱) ۳۷. ونؤمن بعذاب القبر ومنکر ونکیر ومسألتهما المدفونین فی قبورهم. ۳۸. ونصدّق بحدیث المعراج.(۲) ۳۹. ونصحّح کثیراً من الرؤیا فی المنام ونقرّ أنّ لذلک تفسیراً. ۴۰. ونری الصدقة عن موتی المسلمین، والدعاء لهم ونؤمن بأنّ اللّه ینفعهم بذلک. ___________

۱ . صحیح البخاری:۱۳/۸۷ فی الفتن: باب ذکر الدجال وفی الأنبیاء:باب ما ذکر عن بنی إسرائیل، و۱۳/۸۹ـ ۹۱، وفی فضائل المدینة: باب لا یدخل الدجال المدینة. ومسلم (۲۹۳۳) فی الفتن: باب ذکر الدجال وصفته ومن معه ولغایة(۲۹۴۷)، و الترمذی(۲۲۳۵) لغایة(۲۲۴۶) فی الفتن، وأبو داود(۴۳۱۵) فی الملاحم ولغایة(۴۳۲۸) وأحمد فی «المسند»:۱/۴، ۷ ;۲/۳۳، ۳۷، ۶۷، ۱۰۴، ۱۰۸، ۱۲۴، ۱۳۱، ۲۳۷، ۳۴۹، ۴۲۹، ۴۵۷، ۵۳۰ ;۳/۴۲ ;۵/۳۲، ۳۸، ۴۳، ۴۷. وابن ماجة من (۴۰۷۱) ولغایة (۴۹۸۸) فی الفتن باب فتنة الدجال.

۲ . رواه البخاری:۱۳/۳۹۹ـ ۴۰۶ فی التوحید: باب ما جاء فی قوله عزّ وجلّ:(وکلّم اللّه موسی تکلیماً) وفی الأنبیاء: باب صفة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ، ومسلم رقم (۱۶۲) فی الإیمان: باب الإسراء برسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ إلی السماوات، والنسائی:۱/۲۲۱ فی الصلاة: باب فرض الصلاة، والترمذی رقم (۳۱۳۰) فی التفسیر: باب و من سورة بنی إسرائیل. (۱۷۸)

۴۱. ونصدّق بأنّ فی الدنیا سحراً وسحرة، وأنّ السحر کائن موجود فی الدنیا. ۴۲. وندین بالصلاة علی من مات من أهل القبلة برّهم وفاجرهم وتوارثهم. ۴۳. ونقرّ أنّ الجنة والنّار مخلوقتان. ۴۴. وأنّ من مات أو قتل فبأجله مات أو قتل. ۴۵. وأنّ الأرزاق من قبل اللّه عزّوجلّ یرزقها عباده حلالاً وحراماً. ۴۶. وأنّ الشیطان یوسوس للإنسان ویشککه ویتخبطه خلافاً لقول المعتزلة والجهمیة، کما قال اللّه عزّوجلّ:(الّذینَ یَأْکُلُونَ الرِّبا لا یَقُومُونَ إلاّ کَما یَقُومُ الّذی یَتَخَبَّطُهُ الشَّیْطانُ مِنَ المَس) (۱)، وکما قال: (مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الخَنّاس* الَّذی یُوَسْوِسُ فی صُدُورِ النّاس* مِنَ الجِنَّةِ وَالنّاس) .(۲) ۴۷. ونقول: إنّ الصالحین یجوز أن یخصّهم اللّه عزّوجلّ ب آیات یظهرها علیهم. ۴۸. وقولنا فی أطفال المشرکین: إنّ اللّه یؤجّج لهم فی الآخرة ناراً، ثمّ یقول لهم اقتحموها، کما جاءت بذلک الروایات.(۳)

____

۱ . البقرة:۲۷۵.

۲ . الناس:۴ـ۶. ۳ . اختلف العلماء قدیماً وحدیثاً فی أولاد المشرکین علی أقوال، منها القول الذی ذکره المصنّف رحمه اللّه أنّهم یمتحنون فی الآخرة بأن ترفع لهم نار، فمن دخلها کانت علیه برداً وسلاماً، و من أبی عذّب. رواه البزاز من حدیث أنس بن مالک وأبی سعید الخدری رضی اللّه عنهما، ورواه الطبرانی من حدیث معاذ بن جبل رضی اللّه عنه.

قال الحافظ فی «الفتح»:۳/۱۹۵ وقد صحّت مسألة الامتحان فی حقّ المجنون و من مات فی الفترة من طرق صحیحة. ومن الأقوال أنّهم فی الجنة. قال النووی: وهو المذهب الصحیح الذی صار إلیه المحقّقون لقوله تعالی: (وَماکُنّا معذّبین حتّی نبعث رَسولاً). وانظر «الفتح»:۳/۱۹۵ـ ۱۹۶. (۱۷۹)

۴۹. وندین اللّه عزّوجلّ بأنّه یعلم ما العباد عاملون، وإلی ما هم صائرون، وما کان وما یکون، وما لا یکون إن لو کان کیف کان یکون. ۵۰. وبطاعة الأئمّة ونصیحة المسلمین. ۵۱. ونری مفارقة کلّ داعیة إلی بدعة ومجانبة أهل الأهواء، وسنحتج لما ذکرناه من قولنا وما بقی منه ممّا لم نذکره باباً باباً وشیئاً شیئاً، إن شاء اللّه تعالی. ***

وما طرح من الأُصول فی کتاب «الإبانة» هو الذی جاء به فی کتاب «مقالات الإسلامیین» عند البحث عن قول أصحاب الحدیث وأهل السنّة ولو کان بینهما اختلاف فإنّما هو فی العرض لا فی الأصل والجوهر. ویقول بعد عرضها «فهذه جملة ما یأمرون به، ویستعملونه، ویرونه وبکلّ ما ذکرنا من قولهم نقول وإلیه نذهب».(۱) لقد شهد التاریخ الإسلامی صراعاً عنیفاً بین الحنابلة والأشاعرة، وستوافیک صورة من ذلک فی آخر هذا الجزء. ولکن الحقّ أنّه لو کانت عقیدة الأشاعرة هی ما جاء فی مقدمة رسالة «الإبانة» أو ما جاء فی کتا ب«مقالات الإسلامیین» لما کان بین الفریقین أی اختلاف أبداً، وهذا ممّا یقضی منه العجب. ولأجل ذلک ـ ربما ـ تخیّل بعضهم(۲) أنّ الرسالة المطبوعة موضوعة علی لسان الأشعری. ۳. أُصول عقیدة أهل الحدیث عند الملطی

ثمّ تتابع بعده تبيين عقيدة أهل السنّة، فكتب أبو الحسين محمد بن أحمد ________________

۱ . مقالات الإسلاميين: ۳۲۰ـ ۳۲۵.

۲ . كالشيخ محمد زاهد الكوثري في بعض تعاليقه على الكتب. (۱۸۰)

ابن عبد الرحمن الملطي الشافعي (المتوفّى عام ۳۷۷هـ) كتابه المعروف «التنبيه والرد» وذكر عقيدة أهل السنّة تحت أُصول نذكرها: والذي ثبت عن محمد بن عكاشة أنّ أُصول السنّة ممّا اجتمع عليه الفقهاء والعلماء منهم: على بن عاصم، وسفيان بن عيينة، وسفيان بن يوسف الفريابي، وشعيب، ومحمّد بن عمر الواقدي، وشابة بن ثوار، والفضل بن دكين الكوفي، وعبد العزيز بن أبان الكوفي، وعبد اللّه بن داود، ويعلى بن قبيصة، وسعيد بن عثمان، وأزهر، وأبو عبد الرحمن المقرى، وزهير بن نعيم، والنضر بن شميل، وأحمد ابن خالد الدمشقي، والوليد بن مسلم القرشي، والرواد بن الجراح العسقلاني، ويحيى بن يحيى، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدى، وأبو معاوية الضرير كلّهم يقولون: رأينا أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كانوا يقولون: ۱. الرضا بقضاء اللّه و التسليم لأمر اللّه والصبر على حكم اللّه. ۲. الأخذ بما أمر اللّه، والنهي عمّا نهى اللّه عنه. ۳. الإخلاص بالعمل للّه. ۴. الإيمان بالقدر، خيره وشره من اللّه. ۵. ترك المراء والجدال والخصومات في الدين. ۶. المسح على الخفين. ۷. الجهاد مع أهل القبلة. ۸. الصلاة على من مات من أهل القبلة سنّة. ۹. الإيمان يزيد وينقص قول وعمل. ۱۰. القرآن كلام اللّه. ۱۱. الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منهم، من عدل أو جور، (۱۸۱)

ولا يخرج على الأُمراء بالسيف وإن جاروا. ۱۲. لا ينزل أحد من أهل التوحيد جنّة ولا ناراً. ۱۳. لا يكفر أحد من أهل التوحيد بذنب، وإن عملوا الكبائر. ۱۴. الكف عن أصحاب محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ۱۵. أفضل الناس بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ على.(۱) وهذا النصّ يجمع السنّة التي يدين بها أهل الحديث وقد اقتدى بهم الأشعري في أكثرها، وقد تقدم الأُصول التي نسبها الأشعري إلى أهل السنّة. وهذه الأُصول التي جاء بها محمّد بن عكاشة ملفقة من أُصول اتّفق على صحتها أهل القبلة وأُصول مختلف فيها، وأُصول مزورة ومختلقة ومكذوبة على الإسلام أساساً. غير أنّنا نبحث عن بعض الأُصول التي زعمها أهل الحديث أُصولاً صحيحة وهي عندنا مفتعلة على الإسلام ومختلقة، ونختار منها المواضيع التالية: ۱. إطاعة السلطان الجائر والصبر تحت لوائه. ۲. عدالة الصحابة جميعاً. ۳. الإيمان بالقدر خيره وشره. ۴. الإيمان بخلافة الخلفاء. ________________

۱ . التنبيه والرد لأبي الحسين الملطي: ص ۱۴ـ ۱۵ وممّا يجب التعليق عليه: أنّ محمد بن عكاشة مرمى بالكذب ووضع الحديث، فقد قال الرازي في كتاب «الجرح والتعديل»: محمد بن عكاشة الكرماني، روى عبد الرزاق: حدّثنا عبد الرحمن قال: سئل أبو زرعة عنه؟ فقال: قد رأيته وكتبت عنه وكان كذاباً، قدم علينا مع محمد بن رافع النيسابوري وكان رفيقه، فأوّل ما أملى حديث كذب على اللّه عزّوجلّ وعلى رسوله. (لاحظ الجرح والتعديل للحافظ أبي حاتم الرازي:۸/۵۲ ط الهند). (۱۸۲)

وممّا يعجب القارئ في مثل هذه الكلمة قوله: «إنّ هؤلاء كلهم يقولون: رأينا أصحاب رسول اللّه كانوا يقولون»، مع أنّه ليس بين هؤلاء العلماء تابعي واحد حتى تصح منهم رؤية أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، وهذا من أغرب الغرائب!!

الموضوعات الهامّة في عقائد أهل الحديث

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

إطاعة الحاكم العادل من صميم الدين، قال سبحانه: (أَطيعُوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولى الأَمْرِ مِنْكُمْ) .(۱) وليس المراد منه إطاعة مطلق ولاة الأمر، بل المراد خصوص العدول منهم بقرينة النهي عن إطاعة المسرفين والغافلين عن ذكر اللّه سبحانه والمكذبين والآثمين

وغیرهم. قال سبحانه: (ولا تُطِع مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتّبَعَ هَواهُ وكانَ أمْرُهُ فُرُطاً) .(۲) وقال سبحانه: (یا أیّها النّبیُّ اتّقِ اللّهَ ولا تُطِعِ الکافرینَ والمُنافِقِین) .(۳) وقال سبحانه: (فَلا تُطِعِ المُکَذِّبین) .(۴) وقال تعالی: (ولا تُطِعْ کُلَّ حَلاّف مَهِین) .(۵) ________________

۱ . النساء:۵۹.

۲ . الکهف:۲۸.

۳ . الأحزاب:۱.

۴ . القلم:۸.

۵ . القلم:۱۰. (۱۸۵)

وقال سبحانه:(فَاصبِرْ لِحُکْمِ رَبّکَ وَلا تُطِع مِنْهُمْ آثماً أَوْ کَفُوراً) .(۱) وقال تعالی: (وَلاتُطِیعُوا أَمْرَ المُسرِفین) .(۲) إلی غیر ذلک من الآیات الناهیة عن طاعة الطغاة العصاة. فبقرینة هذه الآیات الناهیة یصحّ أن یقال: إنّ المراد من الأمر بإطاعة أُولی الأمر، هو إطاعة العدول منهم. وقد تضافرت الروایات علی وجوب إطاعة السلطان العادل المعربة عن عدم وجوب إطاعة السلطان الجائر أوحرمتها. قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ :«السلطان العادل المتواضع، ظل اللّه ورمحه فی الأرض ویرفع له عمل سبعین صدّیقاً».(۳) وقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «ما من أحد أفضل منزلة من إمام، إن قال صدق، وإن حکم عدل، وإن استرحم رحم».(۴) وقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «أحبّ الناس إلی اللّه یوم القیامة وأدناهم مجلساً، إمام عادل ;وأبغض الناس إلی اللّه وأبعدهم منه، إمام جائر».(۵) وقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «السلطان ظلّ اللّه فی الأرض، یأوی إلیه الضعیف وبه ینصر المظلوم، ومن أکرم سلطان اللّه فی الدنیا أکرمه اللّه یوم القیامة».(۶) وقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «ثلاثة من کنّ فیه من الأئمّة صلح أن یکون إماماً اضطلع بأمانته: إذا عدل فی حکمه، ولم یحتجب دون رعیته، وأقام کتاب اللّه تعالی فی القریب والبعید»(۷)... إلی غیر ذلک من الروایات

---

۱ . الإنسان:۲۴.

۲ . الشعراء:۱۵۱.

۳ . کنز العمال:۶/۶، الحدیث ۱۴۵۸۹.

۴ . المصدر السابق:الحدیث ۱۴۵۹۳، ۱۴۶۰۴، ۱۴۵۷۲.

۵ . المصدر السابق:الحدیث ۱۴۵۹۳، ۱۴۶۰۴، ۱۴۵۷۲.

۶ . المصدر السابق:الحدیث ۱۴۵۹۳، ۱۴۶۰۴، ۱۴۵۷۲.

۷ . المصدر السابق:۵، الحدیث ۱۴۳۱۵. (۱۸۶)

التی یقف علیها المتتبع فی الجوامع الحدیثیة. هذا من طریق أهل السنّة وأمّا من طریق الشیعة فحدّث عنه ولا حرج. روی عمر بن حنظلة عن الصادق ـ علیه السَّلام ـ فی لزوم طاعة الحاکم العادل:«من روی حدیثنا، ونظر فی حلالنا وحرامنا، وعرف أحکامنا فلیرضوا به حکماً، فإنّی جعلته علیکم حاکماً، فإذا حکم بحکمنا فلم یقبل منه، فإنّما استخف بحکم اللّه وعلینا ردّ، والرادّ علینا، الرادّ علی اللّه وهو علی حدّ الشرک باللّه».(۱) ونکتفی ـ هنا ـ بقول الإمام الحسین بن علی ـ علیهما السَّلام ـ فی کتابه إلی أهل الکوفة حیث قال ـ علیه السَّلام ـ : «فلعمری ما الإمام إلاّ الحاکم بالکتاب، القائم بالقسط، الدائن بدین الحقّ، الحابس نفسه علی ذات اللّه».(۲) إذاً فوجوب إطاعة السلطان العادل ممّا لا شکّ فیه، ولا یحتاج إلی إسهاب الکلام فیه، ولکن الحنابلة ذهبوا إلی غیر ذلک، وإلیک البیان. إطاعة السلطان الجائر

فلقد اتّفقت کلمة الحنابلة ومن لفّ لفّهم علی وجوب إطاعة السلطان الجائر وإلیک نصوصهم: قال أحمد بن حنبل فی إحدی رسائله: السمع والطاعة للأئمّة وأمیر المؤمنین البر والفاجر، ومن ولی الخلافة فأجمع الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسیف وسمّی أمیر

المؤمنین، والغزو ماض مع الأمراء إلی یوم القیامة، البر والفاجر، وإقامة الحدود إلی الأئمة ولیس لأحد أن یطعن علیهم وینازعهم، ودفع الصدقات إلیهم جائز، من دفعها إلیهم أجزأت عنهم، براً کان أو ________________

۱ . الوسائل: الجزء۱۸، الباب ۱۱ من أبواب صفات القاضی، الحدیث ۱.

۲ . بحار الأنوار:۱۵/۱۱۶ ;تاریخالطبری:۴/۲۶۲، أحداث سنة ۶۰. (۱۸۷)

فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه وخلف کلّ من ولی، جائزة إقامته، ومن أعادها فهو مبتدع تارک للآثار مخالف للسنّة. ومن خرج علی إمام من أئمة المسلمین وکان الناس قد اجتمعوا علیه وأقرّوا له بالخلافة بأی وجه من الوجوه، أکان بالرضا أو بالغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمین وخالف الآثار عن رسول اللّه، فإن مات الخارج علیه، مات میتة جاهلیة.(۱) هذا الرأی المنقول عن إمام الحنابلة لا یمکن إنکار صحّة نسبته إلیه، ولأجل ذلک قال الأُستاذ أبو زهرة: ولأحمد رأی یتلاقی فیه مع سائر الفقهاء، وهو جواز إمامة من تغلّب ورضیه الناس وأقام الحکم الصالح بینهم، بل إنّه یری أکثر من ذلک، إنّ من تغلّب وإن کان فاجراً تجب إطاعته حتّی لا ـ تکون الفتن.(۲) والعبارة التی نقلناها عن إمام الحنابلة تکاد تعرب عن وجوب إطاعة الجائر ولو أمر بمعصیة الخالق وهو أمر عجیب منه جدّاً مع أنّ أکثر الأشاعرة الذین یحرّمون الخروج علیه، لا ـ یوجبون طاعته فی هذا الحال کما یوافیک نصوصهم، ولغرابة رأی ابن حنبل هذا، ذیّله أبو زهرة بقوله: ولکنّه ینظر فی هذه القضیة إلی مصلحة المسلمین وأنّه لا بدّ من نظام مستقرّ ثابت، وأنّ الخروج علی هذا النظام یحل قوة الأُمّةویفک عراها، ولأنّه رأی من أخبار الخوارج وفتنتهم ما جعله یقرر أنّ النظام الثابت أولی وأنّ الخروج علیه یرتکب فیه من المظالم أضعاف ما یرتکبه الحاکم الظالم. ثمّ إنّه ینظر فی القضیة نظرة اتباع فإنّ التابعین الذین عاشوا فی العصر الأموی إلی أکثر من ثلثی زمانه قد رأوا مظالم کثیرة، ومع ذلک نهوا عن الخروج ولم یسیروا مع الخارجین، وکانوا ینصحون الخلفاء والولاة إن وجدوا آذاناً تسمع، وقلوباً تفقه، وفی کلّ حال لا یخرجون ولا یؤیدون خارجه.(۳) ________________

۱ . تاریخ المذاهب الإسلامیة لأبی زهرة:۲/۳۲۲.

۲ . المصدر السابق:ص ۳۲۱ ;ولاحظ کتاب السنّة لابن حنبل : ۴۶.

۳ . تاریخ المذاهب الإسلامیة:۲/۳۲۲. (۱۸۸)

وهذا التوجیه من الأُستاذ غریب جدّاً. أمّا أوّلاً: فلأنّ الخروج علی النظام الظالم إذا کان موجباً لحلّ قوّة الأُمّة وفک عراها، یکون الصبر تشویقاً لتمادیه فی الظلم وإکثار الضغط علی الأُمّة وبالنتیجة: تحویل الدین وتحریفه عمّا هو علیه من الحقّ... فأی فائدة تکمن فی حفظ قوّة أُمة، انحرفت عن صراطها وتبدّلت سننها وتغیّرت أُصولها، فإنّ الظالم لا یری لظلمه حدّاً ولتعدّیه ضوابط، فلو رأی أنّ الإسلام بواقعه یضاد آراءه الشخصیة ومیوله الخبیثة، عمد إلی تغییره وتحویره فلیس یقتصر ظلم الظالم علی التعدّی علی النفوس والأموال، بل الراکب علی أعناق الناس یغیر کلّ شیء کیفما یرید، وحیثما یری أنّه لصالح شخصه، والتاریخ شاهدنا الأصدق علی ذلک. وأمّا ثانیاً: فإنّ الأُستاذ أبا زهرة نسب إلی التابعین الذین عاشوا فی العصر الأموی إلی أکثر من ثلثی زمانه بأنّهم رأوا مظالم کثیرة ومع ذلک نهوا عن الخروج ولم یسیروا مع الخارجین... ولکنّه غفل عن قضیة الحرة الدامیة حیث کان الخارجون فیها علی الحکومة الغاشمة هم الصحابة والتابعین.... وهذا المسعودی صاحب «مروج الذهب» ینقل إلینا لمحة عمّا جری هناک ویقول: ولمّا انتهی الجیش من المدینة إلی الموضع المعروف بالحرة وعلیهم «مسرف» خرج إلی حربه أهلها، علیهم عبد اللّه بن مطیع العدوی وعبد اللّه بن حنظلة الغسیل الأنصاری، وکانت وقعة عظیمة قتل فیها خلق کثیر من بنی هاشم وسائر قریش والأنصار وغیرهم من سائر (۱۸۹)

الناس، فقد قتل من آل أبی طالب اثنان: عبد اللّه بن جعفر بن أبی طالب، وجعفر بن محمد بن علی بن أبی طالب ;ومن بنی هاشم من غیر آل أبی طالب: الفضل بن العباس بن ربیعة بن الحارث ابن عبد المطلب، وحمزة بن عبد اللّه بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب والعباس ابن عتبة ابن أبی لهب بن عبد المطلب، وبضع وتسعون رجلاً من سائر قریش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممّن أدرکه الإحصاء دون من لم یعرف.(۱) هل نسی أبو زهرة(أو لعلّه تناسی) قضیة دیر الجماجم حیث قام ابن الأشعث التابعی فی

وجه الحجّاج السفّاك بالموضع المعروف بدير الجماجم فكان بينهم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق وذلك فى سنّة اثنتين وثمانين.(۲) وعلى كلّ تقدير فقد اقتفى أثر أحمد بن حنبل جماعة من متكلّمى الأشاعرة وغيرهم وادّعوا بأنّ هذه عقيدة إسلامية كان الصحابة والتابعون يدينون بها وأنّه يجب الصبر على الطغاة الظلمة إذا تصدروا منصة الحكم، نعم غاية ما يقولونه هو: إنّه لا تجب إطاعتهم إذا أمروا بالحرام والفساد جاعلين قولهم هذا منعطفهم الوحيد عن قول ابن حنبل وبقية أهل الحديث، وإليك نبذة من أقوال القوم: ۱. قال الإمام الشيخ أبو جعفر الطحاوى الحنفى(المتوفّى ۳۲۱هـ) فى رسالته المسمّاة بـ«بيان السنّةوالجماعة» المشهور بـ«العقيدة الطحاوية»: ونرى الصلاة خلف كلّ برّ وفاجر من أهل القبلة ولا ـ نرى السيف على أحد من أُمّة محمّد إلاّ ـ على من وجب عليه السيف(أى سفك الدم بالنصّ القاطع كالقاتل والزانى المحصن والمرتد) ولا نرى الخروج على أئمّتنا ولا ولاة أمرنا وإن جاروا، ولا ندعو على أحد منهم ولاننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعات اللّه عزّوجلّ فريضة علينا مالم يأمروا بمعصية.(۳) ۲. قال الإمام الأشعرى من جملة ما عليه أهل الحديث و السنّة: ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كلّ إمام برّ وفاجر... إلى أن قال: ويرون الدعاء لأئمّة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف، وأن لا يقاتلوا فى الفتن.(۴) ________________

۱ . مروج الذهب:۳/۶۹ـ ۷۰.

۲ . نفس المصدر السابق:۳/۱۳۲.

۳ . شرح العقيدة الطحاوية : ۱۱۰و ۱۱۱.

۴ . مقالات الإسلاميين: ۳۲۳. (۱۹۰)

۳. وقال الإمام أبو اليسر محمد بن عبد الكريم البزدوى: الإمام إذاجار أو فسق لا ينعزل عند أصحاب أبى حنيفة بأجمعهم وهو المذهب المرضى... ثمّ قال: وجه قول عامة أهل السنّة والجماعة إجماع الأُمّة، فإنّهم رأوا الفسّاق أئمّة، فإنّ أكثر الصحابة كانوا يرون بنى أُمية وهم بنو مروان أئمّة حتى كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلفهم ويرون قضاياهم نافذة، وكذا الصحابة والتابعون، وكذا من بعدهم يرون خلافة بنى عباس وأكثرهم فسّاق، ولأنّ القول بانعزال الأئمّة بالفسق، إيقاع الفساد فى العالم، وإثبات المنازعات وقتل الأنفس، فإنّه إذا انعزل يجب على الناس تقليد غيره، وفيه فساد كثير ثمّ قال: إذا فسق الإمام يجب الدعاء له بالتوبة ولا يجوز الخروج عليه، وهذا مروى عن أبى حنيفة، لأنّ الخروج إثارة الفتن والفساد فى العالم.(۱) ۴. وقال الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (المتوفّى عام ۴۰۳هـ) فى التمهيد: إن قال قائل: ما الذى يوجب خلع الإمام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أُمور: منها: كفر بعد إيمان، ومنها: تركه الصلاة والدعاء إلى ذلك، ومنها: عند كثير من الناس فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرمةوتضييع الحقوق وتعطيل الحدود،وقال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع بهذه الأُمور ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته فى شىء ممّا يدعو إليه من معاصى اللّه، إذ احتجوا فى ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وعن الصحابة فى وجوب طاعة الأئمّة وإن جاروا واستأثروا بالأموال وأنّه قال عليه السَّلام ـ : واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشى، وصلوا وراء كلّ بر وفاجر. وروى أنّه قال: وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة.(۲) ۵. وقال الشيخ نجم الدين أبوحفص عمر بن محمد النسفى(المتوفّى عام ۵۳۷هـ) فى العقائد النسفية:ولا ـ ينعزل الإمام بالفسق والجور... ويجوز ________________

۱ . أُصول الدين: ۱۹۰ـ ۱۹۲ .

۲ . التمهيد : ۱۸۶. (۱۹۱)

الصلاة خلف كلّ برّ وفاجر. وعلّله الشارح التفتازانى بقوله: لأنّه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمّة والأُمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا ينقادون لهم، ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم.(۱) ما استدلّوا به من روايات لإطاعة الجائر

وقد أيّدت تلك العقائد بروايات ربما يتصور القارئ انّ لها نصيباً من الحقّ أو حظاً من الصدق لكن الحقّ أنّ أكثرها مفتعلة على لسان

رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قد أفرغها فى قالب الحديث جمع من وعاظ السلاطين ومرتزقتهم تحفّظاً على عروشهم وحفظاً لمناصبهم، وإليك بعض تلك الروايات التى رواها مسلم فى صحيحه: ١. روى مسلم، عن حذيفة بن اليمان، قلت: يا رسول اللّه... إلى أن قال: قال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: يكون بعدى أئمّة لا يهتدون بهداى ولا يستنون بسنّتى، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول اللّه إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع. ٢. وروى عن أبى هريرة، عن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنّه قال: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة الجاهلية... إلى أن قال: ومن خرج على أُمّتى يضرب برها وفاجرها،ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى لذى عهد عهده فليس منّى ولست منه. ٣. روى عن ابن عباس أنّه قال: قال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنّه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتته جاهلية. ۴. روى عنه أيضاً، عن رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: من

---

١ . شرح العقائد النسفية : ١٨۵و ١٨۶. (١٩٢)

رأى من أميره شيئاً فليصبر، فإنّه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلّامات ميتة جاهلية. ۵. روى عن عبد اللّه بن عمر، أنّه جاء إلى عبد اللّه بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: أخرجوا لأبى عبد الرحمن وسادة فقال: إنّى لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدّثك حديثاً سمعت رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقوله: من خلع يداً من طاعة لقى اللّه يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. وقد فسر ابن عمر قول رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بلزوم بيعة يزيد وإطاعته حتى فى مسألة الحرة. ۶. روى عن أُمّ سلمة، أنّ رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «ستكون أُمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برىء و من أنكر سلم ولكن من رضى وتابع». قالوا يا رسول اللّه: ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلّوا». ٧. روى عن عوف بن مالك فى حديث: قيل يا رسول اللّه أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعته.(١) وقد أورد ابن الأثير الجزرى قسماً من هذه الأحاديث فى «جامع الأُصول».(٢) ٨. روى البيهقى فى سننه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: سيكون بعدى خلفاء يعملون بما يعلمون،ويفعلون بما يؤمرون وسيكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون ويفعلون مالا يؤمرون، فمن أنكر عليهم برئ ومن أمسك يده سلم ولكن من رضى وتابع.(٣)

---

١ . صحيح مسلم: ۶/٢٠ـ ٢۴، باب الأمر بلزوم الجماعة، وباب حكم من فارق أمر المسلمين.

٢ . لاحظ جامع الأُصول:۴، الكتاب الرابع فى الخلافة والأمارة، الفصل الخامس ص ۴۵١ الخ.

٣ . السنن الكبرى: ٨/١۵٨. (١٩٣)

٩.وروى ابن عبد ربه، عن عبد اللّه بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر.(١) ١٠. وهذه الأحاديث تهدف إلى قول أحمد بن حنبل فقد عرفت ما فى إحدى رسائله وهذا نصّه: السمع والطاعة للأئمّة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن ولى الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف وسمّى أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأُمراء إلى يوم القيامة.(٢)

عرض أحاديث إطاعة الجائر على القرآن وقبل كلّ شىء يجب علينا أن نعرض تلك الروايات على كتاب اللّه سبحانه فإنّه المحك الأوّل لتشخيص الحديث الصحيح من السقيم. قال سبحانه حاكياً عن العصاة والكفّار:(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنا اللّهَ وَأَطَعنا الرَّسُولا* و قالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سَادَتَنا وَكُبَرَاءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا* رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَينِ مِنَ العَذابِ وَالعَنْهُمْ لَعْناً كَبيراً).(٣) فهذا القسم من الآيات يندّد بقول من يرى وجوب طاعة السلطان الظالم التى توجب ضلالة المطيع له عن السبيل السوى، وثمة آيات تندّد بعمل من يصبر على عمل الطاغية من دون أن يأمره بالمعروف أو ينهاه عن المنكر، وترى نفس السكوت والصبر على طغيان الطاغية

جرماً وإثماً موجباً للهلاك، وهذه الآيات هى الواردة حول قوم بنى إسرائيل الذين كانوا يعيشون قرب ساحل من سواحل البحر فتقسّمهم إلى أصناف ثلاثة: الأوّل: الجماعة المعتدية العادية التى رفضت حكم اللّه سبحانه حيث حرم عليهم صيد البحر يوم السبت قال سبحانه: (إِذْ يعدون فى السّبت إِذ ـــــــــــــــــــــ

۱ . العقد الفريد:۱/۸.

۲ . تاريخ المذاهب الإسلامية:۲/۳۲۲.

۳ . الأحزاب:۶۶ـ ۶۸. (۱۹۴) تَأْتِيهِمْ حيتانُهُمْ يَوْم سَبْتِهِمْ شُرّعاً وَيَومَ لا يَسْبِتُون لا تَأْتيهِمْ...).(۱)

الثانى: الجماعة الساكتة التى أهمّتهم أنفسهم لا يرتكبون ماحرم اللّه وفى الوقت نفسه لا ينهون الجماعة العادية عن عدوانها، بل كانوا يعترضون على الجماعة الثالثة التى كانت تقوم بواجبها الدينى من إرشاد الجاهل والقيام فى وجه العاصى والطاغى، بقولهم: (لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً) .(۲) الثالث: الجماعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر معتبرين ذلك وظيفة دينية عريقةونصيحة لازمة للإخوان وقد حكى اللّه سبحانه عن لسانهم فى محكم كتابه العزيز حيث قال: (مَعْذِرةً إِلى ربِّكُمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَّقُون) .(۳) نرى أنّ اللّه سبحانه أباد الطائفتين الأوّليين وأنجى الثالثة. قال سبحانه: (فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخذْنا الّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذاب بَئِيس بِما كانُوا يَفْسُقُون) .(۴) فالآية الأخيرة صريحة فى حصر النجاة فى الناهين عن السوء فقط وهلاك العادين والساكتين عن عدوانهم، فلو كان السكوت والصبر على عدوان العادين أمراً جائزاً لماذا عمّ العذاب كلتا الطائفتين؟ أو ما كان فى وسع هؤلاء أن يعتذروا للقائمين بالأمر بالمعروف، بأنّ فى القيام والخروج وحتى فى النصيحة بالقول، تضعيفاً لقوة الأُمّة وفكّاً لعراها؟ فلو دلّت الآية الأُولى على حرمة طاعة الظالم فى الحرام، ودلّت الآية الثانية على حرمة السكوت فى مقابل طغيان العادين، فهناك آية ثالثة تدلّ على حرمة الركون إلى الظالم يقول سبحانه: (وَلا ـ تَرْكَنُوا إِلى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّار).(۵)

۱ . الأعراف:۱۶۳.

۲ . الأعراف:۱۶۴.

۳ . الأعراف:۱۶۴.

۴ . الأعراف:۱۶۵.

۵ . هود:۱۱۳. (۱۹۵)

أو ليس تأييد الحاكم الجائر والدعاء له فى الجمعة والجماعات وإقامة الصلاة بأمره، وإدارة كلّ شأن خوّل منه إليه، يعد ركوناً إلى الظالم؟! فما هو جواب هؤلاء المرتزقة فى ما يسمّى بالدول الإسلامية الذين يعترفون بجور حكامهم وانحرافهم عن الصراط السوى، ومع ذلك يدعون لهم عقب خطب الجمعات بطول العمر ودوام السلامة ويديرون الشؤون الدينية حسب الخطط التى يرسمها ويصوّرها لهم أُولئك الحكام، الذين يعدهم هؤلاء المرتزقة محاور ومراكز،ويعدّون أنفسهم أقماراً تدور فى أفلاكها، اللّهمّ إلاّ أن يعتذر هؤلاء بعدم التمكّن ممّا يجب عليهم من الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر على مراتبها المختلفة، ولكنّه عذر لا يقبل فى كثير من الأحيان، وعلى ذلك الأساس فما قيمة تلك الروايات المعارضة لنصوص الكتاب وصريح الذكر الحكيم؟! أحاديث معارضة لأحاديث طاعة الجائر

إنّ هناك روايات تنفى صحّة الروايات السابقة وتجعلها فى مدحرة البطلان وقد نقلها أصحاب الصحاح والسنن أيضاً وعند المعارضة يؤخذ من السنّة الشريفة ما يوافق كتاب اللّه الحكيم. وإليك نزراً من تلك الروايات: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «اسمعوا: سيكون بعدى أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس منّى ولست منه، وليس بوارد على الحوض».(۱) هذا بعض ما لدى السنّة من الروايات، و أمّا ما لدى الشيعة فنأتى ببعضها: ۱. عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ

أنّه قال: «ألا ومن علق سوطاً بین یدی سلطان، جعل اللّه ذلک السوط یوم القیامة ثعباناً من النار طوله سبعون ذراعاً یسلّطه اللّه علیه فی نار جهنم وبئس المصیر».

۱ . جامع الأُصول:۴/۷۵ نقلاً عن الترمذی والنسائی. (۱۹۶)

۲. وعنه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «إذا کان یوم القیامة نادی مناد: أین أعوان الظلمة، ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم کیساً، أو مد لهم مدة قلم، فاحشروهم معهم». ۳. وعنه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «من خفّ لسلطان جائر فی حاجة کان قرینه فی النار». ۴. وقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «ما اقترب عبد من سلطان جائر إلاّتباعد من اللّه». ۵. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ علیهما السَّلام ـ أنّه قال: «من أحبّ بقاء الظالمین، فقد أحبّ أن یعصی اللّه». ۶. و عنه ـ علیه السَّلام ـ أنّه قال: «من سوّد اسمه فی دیوان الجبّارین حشرهاللّه یومالقیامة حیراناً». ۷. وعنه ـ علیه السَّلام ـ أنّه قال: «من مشی إلی ظالم لیعینه وهو یعلم أنّه ظالم، فقد خرج عن الإسلام». ۸. وعن الإمام الصادق جعفر بن محمد ـ علیهما السَّلام ـ أنّه قال: «ما أحبّ أنّی عقدت لهم عقدة، أو وکیت لهم وکاء وأنّ لی ما بین لابتیها، لا، ولا مدة بقلم، إنّ أعوان الظلمة یوم القیامة فی سرادق من نار حتی یفرغ اللّه من الحساب».(۱) وغیرها من عشرات الأحادیث والروایات الواردة من النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وأهل بیته المعصومین ـ علیهم السَّلام ـ الناهیة عن السکوت علی الحاکم الجائر، والحاثّة علی زجره ودفعه، والإنکار علیه بکلّ الوسائل الممکنة، فهذه الأحادیث تدلّ علی أنّ ما مرّ من الروایات الحاثة علی السکوت عن الحاکم الظالم، والانصیاع لحکمه والتسلیم لظلمه، والرضا بجوره، جمیعها

۱ . راجع لمعرفة هذه الأحادیث وسائل الشیعة:۱۲، الباب ۴۲ من أبواب ما یکتسب به، الأحادیث ۶، ۱۰، ۱۱، ۱۲، ۱۴، ۱۵و الباب ۴۴ الحدیث ۵و ۶. (۱۹۷)

ممّا لفّقه رواة السوء والجور بإیعاز من السلطات الحاکمة فی تلک العصور المظلمة، فنسبوه إلی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وهو ـ روحی فداه ـ منها براء لمعارضتها الصریحة لمبادئ الکتاب والسنّة الصحیحة. ولو لم یکن فی المقام إلاّ قول علی ـ علیه السَّلام ـ فی خطبته: «... وما أخذ اللّه علی العلماء أن لا یقارّوا علی کظة ظالم ولا سغب مظلوم... » (۱) لکفی فی وهن تلک الروایات المفتعلة علی لسان النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ . ***

وفی ختام الکلام نلفت نظر القارئ الکریم إلی ما قاله الإمام أبو الشهداء الحسین بن علی ـ علیهما السَّلام ـ لأهل الکوفة حیث خطب أصحابه وأصحاب الحرّ(قائد جیش عبید اللّه بن زیاد آنذاک) فحمد اللّه وأثنی علیه ثمّ قال: «أیّها الناس إنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قال: من رأی سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم اللّه، ناکثاً لعهد اللّه، مخالفاً لسنّة رسول اللّه، یعمل فی عباد اللّه بالإثم والعدوان، فلم یغیر علیه بفعل ولا ـ قول، کان حقّاً علی اللّه أن یدخله مدخله، ألا ـ وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشیطان، وترکوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفیء، وأحلّوا حرام اللّه وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غیّر».(۲) وهذه النصوص الرائعة المؤیّدة بالکتاب والسنّة وسیرة السلف الصالح من الصحابة والتابعین الذین قاموا فی وجه الطغاة من بنی أُمّیة وبنی العباس، تشهد بأنّ ما نسب إلی الصحابة والتابعین من الاستسلام والسکوت علی ظلم الظالمین لکون ذلک من عقیدتهم الإسلامیة ما هو إلاّ بعض مفتعلات أصحاب العروش وقد وضعها وعّاظهم ومرتزقتهم، وإلاّفالطیّبون من الصحابة والتابعین بریئون من هذه النسبة.

۱ . نهج البلاغة: الخطبة ۳.

۲ . تاریخ الطبری: ۴/۳۰۴، حوادث سنة ۶۱. (۱۹۸) صراع بین العقیدة والوجدان

نری أنّ بعض الشباب المسلم فی البلاد الإسلامیة، قد انخرطوا فی الأحزاب السیاسیة، ورفضوا الدین من أساسه، ولعلّ بعض السبب هو أنّهم وجدوا فی أنفسهم صراعاً بین العقیدة والوجدان. فمن جانب، توحی إلیهم فطرتهم وعقیدتهم الإنسانیة السلیمة، أنّه تجب مکافحة الظالمین، والخروج علیهم، ونصرة المظلومین وانتزاع حقوقهم من أیدی الظالمین ;ومن جانب آخر یسمعون من علماء الدین أو

المتزيين بلباسهم، أنّه لا يجوز الخروج على السلطان، بل تجب طاعته وإن أمر بالظلم والعدوان. فحينئذ يقع الشاب فى حيرة من أمره بين اتّباع الفطرة والعقل السليم، واتّباع كلام هؤلاء العلماء الذين ينطقون باسم الدين خصوصاً إذا كان المتكلّم رجلاً يكيل له المجتمع الاحترام والإكبار، ويعرفه التاريخ بالخطيب الزاهد، كالحسن البصرى فإنّه عندما سئل عن مقاتلة الحجاج ـ ذلك السيف المشهر على الأُمّة والإسلام ـ فأجاب: أرى أن لا تقاتلوه، فإنّه إن يكن عقوبة من اللّه، فما أنتم برادّيها، وإن يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم اللّه وهو خير الحاكمين.فخرج السائلون من عنده وهم يقولون مستنكرين ما سمعوا منه: أنطيع هذا العلج. ثمّ خرجوا مع ابن الأشعث إلى قتال الحجاج.(۱) فإذا سمع الشاب الثورى هذه الكلمة من عميد الدين وخطيبه ـ كما يقال ـ عاد يصف جميع رجال الدين بما وصف به الحسن البصرى، وبالتالى يخرج من الدين ويتركه، ويصف الدين سناداً للظالم وملجأ له. وفى الختام نوجه نظر الأعلام من السنّة إلى خطورة الموقف فى هذه الأيّام، وأنّ أعداءالإسلام لبالمرصاد يصطادون الشباب بسهام الدعاية الكاذبة، ويعرّفون الإسلام بأنّه سند الظالمين وركن الجائرين بحجة أنّه ينهى عن الخروج على السلطان الجائر. ـــــــــــــــــ

۱ . الطبقات الكبرى لابن سعد:۷/۱۶۴. (۱۹۹)

والمسلم غير العارف بالدين وما أُلصق به، لا يميّز بين الحقيقة الناصعة وبين ما أُلبس عليها من ثوب ردىء قاتم. وليس هذا أوّل ولا آخر مورد يجد الشاب الثورى صراعاً فى نفسه بين العقلية الإنسانية والدعاية الكاذبة عن الإسلام، فيختار وحى الفطرة ويصبح ثائراً على القوى الطاغية، ويظن أنّه ترك الإسلام بظن أنّ المتروك هو الدين الحقيقى الذى أنزله اللّه تعالى على النبى محمّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، و هذه الجريمة متوجهة بالدرجة الأُولى إلى هذا النمط من العلماء. فواجب علماء الدين أن يرجعوا إلى المصادر الإسلامية الصحيحة فى تشخيص ما هو من صميم الدين عمّا أُلصق به، ولا يقتنعوا بما كتب باسم الدين عن السلف الصالح، وليس كلّ ما نسب إلى السلف الصالح، أو قالوا به من صميم الدين، كما أنّه ليس كلّ سلف صالحاً، بل هم بين صالح وطالح، وسعيد وشقى، وعالم وجاهل، وليس كلّ سلف أفضل وأتقى وأعلم من كلّ خلف، فليذكروا المثل السائر: «كم ترك الأوّل للآخر»، فليدرسوا الأُصول المسلّمة من رأس، نعم لا ـ أنكر أنّ هناك أُناساً واقفين على الحقيقة ولكنّهم يكتمونها، لأنّ مصالحهم الشخصية لا تقتضى إظهارها، وقد نزل فيهم قوله سبحانه: (إِنَّ الّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ وَ الهُدَى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنّاهُ لِلنّاسِ فِى الكِتابِ أُولئكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُون) (۱)، كما أنّ بينهم شخصيات لامعة جاهروا بالحقيقة وأصحروا بها واشتروا رضا الرب بأثمان غالية وتضحيات ثمينة. فهذا إمام الحرمين يقول: إن الإمام إذاجار وظهر ظلمه وغشمه ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعه، فلأهل الحل والعقد، التواطؤ على ردعه، ولو بشهر السلاح ونصب الحروب.(۲) فى الختام نعطف نظر القارئ الكريم إلى قوله سبحانه عندما يأمر

---

۱ . البقرة:۱۵۹.

۲ . شرح المقاصد:۲/۲۷۲. (۲۰۰)

المؤمنات بالبيعة مع النبى ويقول:(ولاـ يَعْصينَك فِى مَعْرُوف) (۱) فيقيد إطاعة النبى وحرمة مخالفته بما إذا أمر بالمعروف، ومن المعلوم أنّ النبى الأكرم معصوم لا يأمر بالمنكر أبداً وإنّما هو لتعليم غيره، فهل يجوز لمسلم أن يقول بوجوب طاعة السلطان الجائر إذا أمر بالجور والمنكر؟! *** (وَقالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتنا وَكُبراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا* رَبّنا آتِهِمْ ضِعْفَينِ مِنَ الْعَذابِ والعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً) .(۲)

---

۱ . الممتحنة:۱۲.

۲ . الأحزاب: ۶۷ ـ ۶۸. (۲۰۱)

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة كلّهم بلا استثناء، ونزاهتهم من كلّ سوء هى أحد الأُصول التى يتديّن بها أهل الحديث، وقد راجت تلك العقيدة بينهم حتى اتخذها الإمام الأشعرى أحد الأُصول التى يبتنى عليها مذهب أهل السنّة جميعاً(۱)، ونحن نعرض هذه العقيدة على الكتاب أوّلاً، وعلى السنّة النبوية الصحيحة ثانياً، وعلى التاريخ ثالثاً حتى يتجلّى الحقّ بأجلى مظاهره إن شاء اللّه تعالى، ولكن قبل أن ندخل فى صلب المسألة نقدّم تعريف الصحابى فنقول:

من هو الصحابى؟ إنّ هناك تعاريف مختلفة للصحابى نأتى ببعضها على وجه الإجمال: ۱. قال سعيد بن المسيب: «الصحابى، ولا نعدّه إلاّ ـ من أقام مع رسولاللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين». ۲. قال الواقدى: رأينا أهل العلم يقولون: كلّ من رأى رسول اللّه وقد أدرك فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممّن صحب رسول اللّه، ولو

---

۱ . مقالات الإسلاميين:۱/۳۲۳ يقول: «ويعرفون حقّ السلف الذين اختارهم اللّه سبحانه بصحبة نبيّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عمّا شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم ;»لاحظ أيضاً كتاب «السنّة»: ۴۹. (۲۰۲)

ساعة من نهار ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدّمهم فى الإسلام. ۳. قال أحمد بن حنبل: أصحاب رسول اللّه كلّ من صحبه شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه. ۴. قال البخارى: من صحب رسول اللّه أو رآه من المسلمين فهو أصحابه. ۵. وقال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب: لا خلاف بين أهل اللغة فى أنّ الصحابى مشتق من الصحبة، قليلاً كان أو كثيراً، ثمّ قال: ومع هذا فقد تقرر للأُمّة عرف فإنّهم لا يستعملون هذه التسمية إلاّ فيمن كثرت صحبته و لا يجيزون ذلك إلاّ فيمن كثرت صحبته لا على من لقيه ساعة أو مشى معه خطى، أو سمع منه حديثاً فوجب ذلك أن لا يجرى هذا الاسم على من هذه حاله، ومع هذا فإنّ خبر الثقة الأمين عنه مقبول و معمول به وإن لم تطل صحبته ولا سمع عنه إلاّ حديثاً واحداً». ۶. وقال صاحب الغوالى: لا يطلق اسم الصحبة إلاّ على من صحبه ثمّ يكفى فى الاسم من حيث الوضع، الصحبة ولو ساعة ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته. قال الجزرى بعد ذكر هذه النقول، قلت: وأصحاب رسول اللّه على ما شرطوه كثيرون فإنّ رسول اللّه شهد حنيناً ومعه اثنا عشر ألف سوى الأتباع والنساء، وجاء إليه«هوازن» مسلمين فاستنقذوا حريمهم وأولادهم، وترك مكة مملوءة ناساً وكذلك المدينة أيضاً، وكلّ من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين فهؤلاء كلّهم لهم صحبة، وقد شهد معه تبوك من الخلق الكثير ما لا يحصيهم ديوان، وكذلك حجة الوداع، وكلّهم له صحبة.(۱) ولا يخفى أنّ التوسع فى مفهوم الصحابى على الوجه الذى عرفته فى كلماتهم ممّا لا تساعد عليه اللغة والعرف العام، فإنّ صحابة الرجل عبارة عن

---

۱ . أُسد الغابة:۱/۱۱ـ۱۲، طبع مصر. (۲۰۳)

جماعة تكون لهم خلطةومعاشرة معه مدّة مديدة، فلا تصدق على من ليس له حظ إلاّالرؤية عن بعيد أو سماع الكلام أو المكالمة أو المحادثة فترة يسيرة أو الإقامة معه زمناً قليلاً. وأظن أنّ فى هذا التبسيط والتوسع غاية سياسية، لما سيوافيك أنّ النبى قد تنبّأ بارتداد ثلة من أصحابه بعد رحلته فأرادوا بهذاالتبسيط، صرف هذه النصوص إلى الأعراب وأهل البوادى، الذين لم يكن لهم حظ من الصحبة إلاّلقاء قصير وسيأتى أنّ هذه النصوص راجعة إلى الملتفين حوله الذين كانوا مع النبى ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً إلى حدّ كان النبى يعرفهم بأعيانهم وأشخاصهم وأسمائهم، فكيف يصحّ صرفها إلى أهل البوادى والصحارى من الأعراب، فتربّص حتى تأتيك النصوص. وعلى كلّ تقدير فلسنا فى هذا البحث بصدد تعريف الصحابة وتحقيق الحقّ بين هذه التعاريف غير أنّا نركز الكلام على أنّ أهل السنّة يقولون بعدالة هذا الجم الغفير المدعوين باسم الصحابة، وإليك كلماتهم: عدالة جميعالصحابة

قال ابن عبد البر: نثبت عدالة جميعهم.(۱) وقال ابن الأثير: إنّ السنن التى عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال الحرام إلى غير ذلك من أُمور الدين، إنّما تثبت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها. وأوّلهم والمقدّم عليهم أصحاب رسول اللّه، فإذاجهلهم الإنسان

كـان بغيرهم أشـدّجهلاً وأعظم إنكـاراً، فينبغى أن يعرفوا بأنسـابهم وأحوالهم، هم وغيرهم من الرواة حتى يصـحّ العمـل بما رواه الثقاة منهم وتقوم به الحجّة، فإنّ المجهول لا تصـحّ روايته ولا ينبغى العمل بما رواه. والصـحابة يشاركون سائر الرواة فى جميع ذلك إلاّفى الجرح والتعـديل، فـإنّهم كلّهـم عـدول لاـ يتطرق إليهـم الجرح، لأنّ اللّه عزّوجلّ ورسوله زكيـاهم وعـدلاهم، وذلـك مشـهور

١ . الاستيعاب فى أسماء الأصحاب:١/٢ فى هامش «الإصابة». (٢٠٤)

لا نحتاج لذكره.(١) وقال الحافظ ابن حجر فى الفصل الثالث من الإصابة: اتّفق أهل السنّة على أنّ الجميع عدول ولم يخالف فى ذلك إلاّ شذوذ من المبتدعة. وقد ذكر الخطيب فى الكفاية فصـلاً نفيساً فى ذلك فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل اللّه لهم وإخباره عن طهـارتهم واختياره لهم، ثمّ نقل عـدّة آيات حاول بها إثبات عـدالتهم وطهارتهم جميعاً إلى أن قال: روى الخطيب بسنده إلى أبى زرعـة الرازى قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحـداً من أصـحاب رسو لاللّه فاعلم أنّه زنـديق، وذلك أنّ الرسول حقّ، والقرآن حقّ، وما جـاء به حقّ، وإنّما أدّى إلينا ذلك كلّه الصـحابة، وهؤلاء يريـدون أن يجرحوا شـهودنا ليبطلوا الكتاب والسـنّة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة.(٢) هذه كلمات القوم وكم لها من نظائر نتركها طلباً للاختصار. تقييم نظرية عدالة جميعالصحابة

تقييم هـذه النظريـة يتم بتبيين أُمور: ١. إنّ البحث عن عدالـة الصـحابى أو جرحه ليس لغايـة إبطـال الكتاب والسـنّة ولا لإبطال شـهود المسـلمين، لما سـيوافيك من أنّ الكتاب شـهد على فضل عدّة منهم، وزيغ آخرين وهكذا السـنّة، إنّما الغاية فى هذا البحث هى الغاية فى البحث عن عدالـة التـابعين ومن تلاـهم من رواة القرون المختلفـة، فالغايـة فى الجميع هى التعرّف على الصالحين والطالحين، حتى يتسـنّى لنا أخـذ الدين عن الصـلحاء والتجنب عن أخذه عن غيرهم، فلو قام الرجل بهذا العمل وتحمل العبء الثقيل، لما كان عليه لوم فلو قال أبو زرعة ـ مكان قوله الآنف ـ هذا القول: «إذا رأيت الرجل يتفحّص عن أحد من أصحاب الرسول لغاية العلم بصدقه أو كذبه، أو خيره أو شره، حتى يأخذ دينه عن ـــــــــــــــــــــــ

١ . أُسد الغابة:٢/٣.

٢ . الإصابة:١/١٧. (٢٠٥)

الخيرة الصـادقين، ويحـترز عن الآـخرين، فـاعلم أنّه من جملـة المحقّقين فى الـدين والمتحرين للحقيقـة»، لكـان أحسن وأولى بـل هو الحسن والمتعيّن. ومن غير الصحيح أن يتهم العالم أحداً، يريد التثبت فى أُمور الدين، والتحقيق فى مطالب الشريعة، بالزندقة وأنّه يريد جرح شـهود المسلمين لإبطال الكتاب والسنّة، وما شهود المسلمين إلاّالآلاف المؤلّفة من أصحابه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فلا يضر بالكتاب والسـنّة جرح لفيف منهم وتعـديل قسم منهم، وليس الـدين القيم قائماً بهـذا الصـنف من المجروحين. ما هكـذا تورد يا سـعد الإبل!!. ٢. إنّ هذه النظرية تكوّنت ونشأت من العاطفة الدينية التى حملها المسـلمون تجاه الرسول الأكرم ـ صـلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وجرّتهم إلى تبنّى تلك الفكرة وقـد قيل: من عشق شـيئاً، عشق لوازمه وآثاره. إنّ صـحبة الصـحابة لم تكن بأكثر ولا أقوى من صـحبة امرأة نوح وامرأة لوط فما أغنتهما عن اللّه شـيئاً، قال سـبحانه: (ضَـرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلّـذينَ كَفَرُوا امرأَةَ نُوح وَامرأَةَ لُوط كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنـا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللّهِ شَـيئاً وَقيلَ ادخُلا النّار مَعَ الـدّاخلين) .(١) إنّ التشـرّف بصحبة النبى لم يكن أكثر امتيازاً وتأثيراً من التشـرّف بالزواج من النبى، وقد قال سـبحانه فى شأن أزواجه: (يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَة مُبَيِّنة يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلى اللّهِ يَسيراً) .(٢) ٣. إنّ أساتـذة العلوم التربويـة كشـفوا عن قـانون مجرب، وهو أنّ الإنسان الواقع فى إطـار التربيـة، إنّما يتأثر بعواملها إذا لم تكتمل شخصـيته الروحيـة والفكريـة، لأنّ النفوذ فى النفوس المكتملـة الشخصـية، والتأثير عليها والثورة على أفكارهـا وروحياتهـا، يكون صـعباً جـدّاً (ولاـ أقول أمراً محالاً) بخلاف ما إذا كان الواقع فى إطارها صبياً يافعاً أو شاباً فى عنفوان شبابه، إذ عندئذ يكون قلبه ـــــــــــــــــــــــ

١ . التحريم:١٠.

٢ . الأحزاب:٣٠. (٢٠۶)

وروحه كالأرض الخالية تنبت ما ألقى فيها، وعلى هذا الأساس لا يصحّ لنا أن نقول: إنّ الصحبة والمجالسة وسماع بعض الآيات والأحاديث، أوجدت ثورة عارمة فى صحابة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وأزالت شخصياتهم المكونة طيلة سنين فى العصر الجاهلى، وكونت منهم شخصيات عالية تعد مثلاً للفضل والفضيلة. مع أنّهم كانوا متفاوتين فى السن ومقدار الصحبة، مختلفين فى الاستعداد والتأثر، وحسبك أنّ بعضهم أسلم وهو صبى لم يبلغ الحلم، وبعضهم أسلم وهو فى أوّليات شبابه، كما أسلم بعضهم فى الأربعينات والخمسينات من أعمارهم، إلى أن أسلم بعضهم وهو شيخ طاعن فى السن يناهز الثمانين والتسعين. فكما أنّهم كانوا مختلفين فى السن عند الانقياد للإسلام، كذلك كانوا مختلفين أيضاً فى مقدار الصحبة فبعضهم صحب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ من بدء البعثة إلى لحظة الرحلة، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة، وكثير منهم أسلموا بعد الهجرة وربما أدركوا من الصحبة سنة أو شهراً أو أيّاماً أو ساعة، فهل يصحّ أن نقول: إنّ صحبة ما، قلعت ما فى نفوسهم جميعاً من جذور غير صالحة وملكات رديةوكونت منهم شخصيات ممتازة أعلى وأجل من أن يقعوا فى إطار التعديل والجرح؟! إنّ تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلّهم أشبه شيء بمادة كيمياوية تستعمل فى تحليل عنصر كالنحاس إلى عنصر آخر كالذهب، فكأنّ الصحبة قلبت كلّ مصاحب إلى إنسان مثالى يتحلّى بالعدالة، وهذا ممّا يردّه المنطق والبرهان، وذلك لأنّ الرسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لم يقم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق الإعجاز(فَلَو شاء لَهَداكم أَجْمَعين) (١) بل قام بإرشاد الناس ودعوتهم إلى الحقّ وصبهم فى بوتقات الكمال مستعيناً بالأساليب الطبيعية والإمكانيات الموجودة كتلاوة القرآن الكريم، والنصيحة بكلماته النافذة، وسلوكه القويم وبعث رسله ودعاة دينه إلى الأقطار ونحو ـــــــــــــــ

١ . الأنعام:١۴٩. (٢٠٧)

ذلك، والدعوة القائمة على هذا الأساس يختلف أثرها فى النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابلياتها، فلا يصحّ لنا أن نرمى الجميع بسهم واحد. إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة وهى: أنّ الأُصول التربوية تقضى بأنّ بعض الصحابة يمكن أن يصل فى قوّة الإيمان و رسوخ العقيدة إلى درجات عالية، كما يمكن أن يصل بعضهم فى الكمال والفضيلة إلى درجات متوسطة، ومن الممكن أن لا يتأثر بعضهم بالصحبة وسائر العوامل المؤثرة إلاّ شيئاً طفيفاً لا يجعله فى صفوف العدول وزمرة الصالحين. هذا هو مقتضى التحليل حسب الأُصول النفسية والتربوية غير أنّ البحث لا ـ يكتمل، ولا ـ يصحّ القضاء البات إلاّ بالرجوع إلى القرآن الكريم حتى نقف على نظره فيهم كما تجب علينا النظرة العابرة إلى كلمات الرسول فى حقّهم، وملاحظة سلوكهم وحياتهم فى زمنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وبعده.

الصحابة فى الذكر الحكيم

نرى أنّ الذكر الحكيم يصنف صحابة النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ويمدحهم فى ضمن أصناف نأتى ببعضها: ١. السابقون الأوّلون

يصف الذكر الحكيم السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بأنّ اللّه رضى عنهم وهم رضوا عنه، قال عزّمن قائل:(وَالسّابِقُونَ الأَوّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ وَالّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسان رَضَىَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّات تَجْرى تَحْتَها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبداً ذلِكَ الفَوزُ العَظيم)(١). ـــــــــــــــ

١ . التوبة:١٠٠.

(٢٠٨) ٢. المبايعون تحت الشجرة

يصف سبحانه جماعة من الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة بنزول السكينة عليهم، ويقول فى محكم كتابه: (لَقَدَ رَضِىَ اللّه عَنِ الْمُؤْمِنينَ إِذْيُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتحاً قَرِيباً) .(١) ٣. المهاجرون

وهؤلاء هم الذين يصفهم تعالى ذكره بقوله: (لِلْفُقَراءِ المُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَموالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْواناً

وَيَنْصُرُونَ اللّه وَرَسُولَهُ أولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ) .(۲) ۴. أصحاب الفتح

هؤلاء هم الذين وصفهم اللّه سبحانه وتعالى فى آخر سورة الفتح بقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّآءُ عَلى الكُفّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضلًا مِنَ اللّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُود ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطأَهُ فَ آزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاع لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجراً عَظيماً) .(۳) الأصناف الأُخر للصحابة

فالناظر المخلص المتجرّد عن كلّ رأى مسبق، يجد فى نفسه تكريماً لهؤلاء الصحابة غير أنّ القضاء البات فى عامة الصحابة يستوجب النظر إلى كلّ الآيات ______________

۱ . الفتح:۱۸.

۲ . الحشر:۸.

۳ . الفتح:۲۹. (۲۰۹)

القرآنية الواردة فى حقّهم فعندئذ يتبيّن لنا أنّ هناك أصنافاً أُخرى من الصحابة غير ما سبق ذكرها، تمنعنا من أن نضرب الكلّ بسهم واحد، ونصف الكلّ بالرضا وبالرضوان. وهذا الصنف من الآيات يدلّ بوضوح على وجود مجموعات من الصحابة تضاد الأصناف السابقة فى الخلقيات والملكات والسلوك والعمل، وإليك لفيفاً منهم: ۱. المنافقون المعروفون

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت فى حقّهم سورة المنافقين، قال سبحانه: (إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافقينَ لَكاذِبُونَ...).(۱) فهذه الآيات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قوية من المنافقين بين الصحابة آنذاك وكان لهم شأن فنزلت سورة قرآنية كاملة فى حقّهم. ۲. المنافقون المختفون

تدلّ بعض الآيات على أنّه كانت بين الأعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة، جماعة مردوا على النفاق وكان النبى الأعظم لا يعرف بعضهم، ومن تلك الآيات قوله سبحانه: (وَمِمَّنْ حَولَكُمْ مِنَ الأَعرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النّفاق(۲) لاـ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .(۳) لقد أعطى القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين وأعرب عن نواياهم وندد بهم فى السور التالية: البقرة، آل عمران، المائدة، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، محمّد، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، والمنافقين. ______________

۱ . المنافقون:۱.

۲ . مردوا على النفاق: تمرّنوا عليه وتمارسوا عليه.

۳ . التوبة: ۱۰۱. (۲۱۰)

وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدلّ على أنّ المنافقين كانوا جماعة هائلة فى المجتمع الإسلامى، بين معروف عرف بسمة النفاق ووصمة الكذب، وغير معروف بذلك، ولكن مقنّع بقناع التظاهر بالإيمان والحب للنبى، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة فى القرآن الكريم، وهناك ثلة من المحقّقين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل وكتابات، وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليهم، فبلغ مقداراً يقرب من عشر القرآن الكريم (۱)، وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدلّ على كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يوم ذاك فى المجتمع الإسلامى، وعلى ذلك لاـ يصحّ لنا الحكم بعدالة كلّ من صحب النبى مع غض النظر عن تلك العصابة المجرمة، المتظاهرة بالنفاق أو المختفية فى أصحاب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ. ۳. مرضى القلوب

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين بل كانوا يلونهم فى الروحيات والملكات مع ضعف فى الإيمان والثقة باللّه ورسوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال سبحانه فى حقّهم: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلّاغُرُوراً) .(۲) فأنّى لنا أن نصف مرضى القلوب الذين ينسبون خلف الوعد إلى اللّه سبحانه وإلى رسوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بالتقوى والعدالة؟ ۴. السمّاعون

تلک المجموعـة کانت قلوبهم کالریشـة فی مهب الریح تتمایل تارة إلی هؤلاء وأخری إلی أولئک بسبب ضـعف إیمانهم، وقد حذّر الباری عزّوجلّ المسلمین منهم حیث قال عزّمن قائل، واصفاً إیّاهم بـ«السمّاعون» لأهل ــــــــــــــــــــ

۱ . النفاق والمنافقون: تألیف الأُستاذ إبراهیم علی سالم المصری.

۲ . الأحزاب:۱۲. (۲۱۱)

الفتنـة: (إِنَّمَا یَستأْذِنُکَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْیوم الآخِرِ وَارتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فی رَیْبِهِمْ یَتَرَدَّدُونَ* ولو أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلکِنْ کَرِهَ اللّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبّطهُمْ وَقِیلَ اقْعُدُوا مَعَ القاعِدینَ* لَوْ خَرَجُوا فِیکُمْ ما زادُوکُمْ إِلاّخَبَالاً ـ ولأَوضَعوْا خِلاَلَکُمْ یَبغُونَکُمُ الْفِتْنَةَ وَفِیکُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلیمٌ بِالظّالِمِینَ) (۱) وذیـل الآیـة دلیـل علی کون السـمّاعین من الظالمین لا من العـدول. ۵. خالطو العمل الصالح بغیره

وهؤلاء هم الـذین یقومون بالصـلاح والفلاح تـارة، والفسـاد والعبث مرّة أُخری، فلأجـل ذلـک خلطوا عملاًـ صالحاً بعمل سـیّء قال سبحانه: (وَآخَرونَ اعْتَرفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَیِّئاً) .(۲) ۶. المشرفون علی الارتداد

إنّ بعض الآیات تدلّ علی أنّ مجموعة من الصـحابة کانت قد أشـرفت علی الارتداد یوم دارت علیهم الدوائر، وکانت الحرب بینهم و بین قریش طاحنة فأحسّوا بضـعفهم وقد أشـرفوا علی الارتداد، عرّفهم الحقّ سبحانه بقوله: (وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتهُمْ أَنْفُسهُمْ یَظُنُّونَ بِاللّهِ غَیْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِیَّةِ یَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شیء قُلْ إِنِ الأَمْرَ کُلَّهُ للّهِ یخفونَ فی أَنفُسِهِمْ ما لا یبـدُونَ لکَ یَقُولُونَ لَو کانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَیءٌ ما قُتِلْنا هَاهُنا).(۳) ۷. الفاسق

إنّ القرآن الکریم یحث المؤمنین وفی مقدّمتهم الصحابة الحضور، علی التحرز من خبر الفاسق حتّی یتبیّن، فمن هذا الفاسق الذی أمر القرآن بالتحرّز منه؟ اقرأ أنت ما نزل حول الآیة من شأن النزول واحکم بما هو الحقّ. ــــــــــــــــــــ

۱ . التوبة: ۴۵ـ ۴۷.

۲ . التوبة:۱۰۲.

۳ . آل عمران:۱۵۴. (۲۱۲)

قـال سبحانه: (یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبأ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصیبُوا قَوماً بِجَهالـة فَتُصْبِحُوا عَلی ما فَعَلْتُمْ نادِمِینَ) .(۱) فـإنّ من المجمع علیه بین أهـل العلم أنّه نزل فی حقّ الولیـد بن عقبـة بن أبی معیـط، وذکره المفسـرون فی تفسیر الآیـة فلاـ نحتـاج إلی ذکر المصادر. کما نزل فی حقّه قوله تعالی: (أَفَمَنْ کانَ مَؤمِناً کَمَنْ کانَ فاسِقاً لا یَسْتَوونَ) (۲)، نقل الطبری فی تفسیره بإسناده أنّه کان بین الولید وعلی کلام، فقال الولید: أنا أبسط منک لساناً وأحد منک سناناً وأرد منک للکتیبة. فقال علی: «اسکت فإنّک فاسق» فأنزل اللّه فیهما: (أَفَمَنْ کانَ مَؤْمِناً کَمَنْ کانَ فاسِقاً لا یَسْتَوُون).(۳) وقد نظم الحدیث حسـان بن ثـابت(شاعر عصـر الرسالـة) وقال: أنزل اللّه والکتاب عزیز * فی علی و فی الولید قرآناً فتبوّأ الولیـد إذ ذاک فسـقاً * وعلی مبوّأ إیماناً لیس من کان مؤمناً عرف * اللّه کمن کان فاسـقاً خواناً سوف یـدعی الولیـد بعـد قلیل * وعلی إلی الحساب عیاناً فعلی یجزی بـذاک جناناً * وولید یجزی بذاک هواناً(۴) أفهل یمکن لبـاحث حر، التصـدیق بما ذکره ابن عبـد البر وابن الأثیر وابن حجر، وفی مقـدمتهم أبو زرعـة الرازی الـذی هاجم المتفحّصـین المحقّقین فی أحوال الصحابة واتّهمهم بالزندقة. ــــــــــــــــــــ

۱ . الحجرات:۶.

۲ . السجدة:۱۸.

۳ . تفسیر الطبری:۲۱/۶۲، و تفسیر ابن کثیر:۳/۴۵۲.

۴ . «تـذکرة الخـواص» سـبط ابن الجـوزی: ۱۱۵ «;کفایـة» الکنجی: ۵۵ «;مطـالب السؤول» لابن طلحـة : ۲۰ «;شـرح النهـج» ، الطبعة القدیمة: ۲/۱۰۳ «;جمهرة الخطب» لأحمد زکی:۲/۲۳. لاحظ «الغدیر»: ۲/۴۲. (۲۱۳) ۸. المسلمون غیر المؤمنین

إنّ القرآن یعد جماعة من الأعراب الذین رأوا النبی وشاهدوه وتکلّموا معه، مسلمین غیر مؤمنین وأنّهم بعد لم یدخل الإیمان فی قلوبهم قال سبحانه: (قالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلکِنْ قُولُوآ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا یَدخُلِ الإِیمَانُ فی قُلُوبِکُمْ وَإِنْ تُطیعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لا یَلِتکُمْ مِنْ أَعْمالِکُمْ شَیئاً إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ).(۱) أفهل یصحّ عدّ عصابة غیر مؤمنین من العدول الأتقیاء؟! ۹. المؤلّفة قلوبهم

اتّفق الفقهاء علی أنّ المؤلفة قلوبهم ممّن تصرّف علیهم الصدقات قال سبحانه: (إِنَّما الصَدقات لِلْفُقَراءِ وَالمَساکینَ وَالعامِلِینَ عَلَیهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِی الرِّقَابِ وَالغارِمینَ وَفی سَبیلِ اللّهِ وَابنِ السَّبیل فَریضةً مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلیمٌ حَکیم) .(۲) والمراد من (المؤلّفةِ قُلُوُبهُمْ): الذین کانوا فی صدر الإسلام ممّن یظهرون الإسلام ، یتألّفون بدفع سهم من الصدقة إلیهم لضعف یقینهم ، وهناک أقوال أُخر فیهم متقاربة والکلّ یهدف إلی الإعطاء لمن لا یتمکن إسلامه حقیقة إلاّ بالعطاء.(۳) ۱۰. المولّون أمام الکفّار

إنّ التولی عن الجهاد والفرار منه، من الکبائر الموبقة التی ندد بها سبحانه بقوله: (یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا لَقِیتُمُ الَّذینَ کَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدبَارَ* وَمَنْ یُولّهِمْ یَومئذ دُبُرَهُ إِلاّمُتَحَرِّفاً لِّقِتَال أَوْ مُتَحَیّزاً إِلی فِئة فَقَدْ بَ آءَ بِغَضب مِنَ اللّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِیرُ) .(۴)

---

۱ . الحجرات:۱۴.

۲ . التوبة:۶۰.

۳ . تفسیر القرطبی:۸/۱۸۷. لاحظ: المغنی لابن قدامة:۲/۵۵۶.

۴ . الأنفال:۱۵ـ ۱۶. (۲۱۴)

إنّ التحذیر من التولی والفرار من الزحف، والحث علی الصمود أمام العدو، لم یصدر من مصدر الوحی إلاّ بعد فرار مجموعة کبیرة من صحابة النبی فی غزوة «أُحد» و «حنین». أمّا الأوّل: فیکفیک قول ابن هشام فی تفسیر الآیات النازلة فی أُحد: قال: ثمّ أنّبهم علی الفرار عن نبیهم وهم یدعون، لا یعطفون علیه لدعائه إیّاهم فقال: (إِذْ تُصْعِدُونَ ولا تَلْوُونَ عَلَی أَحَد والرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخراکُمْ) .(۱) وأمّا الثانی: فقد قال ابن هشام فیه أیضاً فلمّا انهزم الناس ورأی من کان مع رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ من جفاة أهل مکة، الهزیمة تکلّم رجال منهم بما فی أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفیان بن حرب: لا تنتهی هزیمتهم دون البحر، وصرخ جبلة ابن حنبل: ألا بطل السحر الیوم...(۲) أفبعد هذا یصحّ أن یعد جمیع الصحابة بحجة أنّهم رأوا نور النبوة، عدولاً أتقیاء؟! قال القرطبی فی تفسیره: قد فر الناس یوم «أحد» وعفا اللّه عنهم، و قال اللّه فیهم یوم حنین:(ثمّ ولّیتم مُدبرین) ثمّ ذکر فرار عدّة من أصحاب النبی من بعض السرایا.(۳) هذا الإمام الواقدی یرسم لنا تولّی الصحابة منهزمین ویقول: فقالت أُمّ الحارث: فمر بی عمر بن الخطاب فقلت له: یا عمر ما هذا؟ فقال عمر: أمر اللّه. وجعلت أمّ الحارث تقول: یا رسول اللّه من جاوز بعیری فأقتله.(۴) ______________

۱ . آل عمران:۱۵۳.

۲ . سیره ابن هشام:۳/۱۱۴، و ۴/۴۴۴، ولاحظ التفاسیر.

۳ . تفسیر القرطبی:۷/۳۸۳.

۴ . مغازی الواقدی:۳/۹۰۴. إنّ تعلیل الفرار من الزحف بقضاء اللّه یشبه تعلیل عبّادَالأوثان شرکهم به کما فی قوله سبحانه حاکیاً عن المشرکین: (لو شاء اللّه ما أشرکنا ولا آباؤنا) (الأنعام:۱۴۸) وتلزم من ذلک تبرئة العصاة والکفّار، لأنّ أعمالهم کلّها بقضاء منه. (۲۱۵)

هذه هی الأصناف العشرة من صحابة النبی ممّن لا یمکن توصیفهم بالعدالة والتقوی، أتینا بها فی هذه العجالة مضافاً إلی الأصناف المضادة لها، ولکن نلفت نظر القارئ الکریم إلی الآیات الواردة فی أوائل سورة البقرة وسورة النساء وغیرها من الآیات القرآنیة فتری فیها أنّ الإیمان بعدالة الصحابة مطلقاً خطأ فی القول،وزلة فی الرأی، یضاد نصوص الذکر الحکیم ولم تکن الصحابة إلاّ کسائر الناس فیهم صالح تقی، بلغ القمة فی التقی والنزاهة، وفیهم طالح شقی، سقط إلی هوة الشقاءوالدناءة. ولکن الذی یمیّز الصحابة عن غیرهم

أنّهم رأوا نور النبوة وتشرّفوا بصحبة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وشاهدوا معجزاته فى حلبة المباراة بأمّ أعينهم، ولأجل ذلك تحمّلوا مسؤولية كبيرة أمام اللّه وأمام الأجيال المعاصرة لهم واللاحقة بهم، فإنّهم ليسوا كسائر الناس، فزيغهم وميلهم عن الحقّ أشدّ لا يعادل زيغ أكثر الناس وانحرافهم، وقد قال سبحانه فى حقّ أزواج النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: (يا نِساءَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِنَ النِّساء...) (۱) فلو انحرف هؤلاء فقد انحرفوا فى حال شهدوا النور، ولمسوا الحقيقة، وشتان الفرق بينهم و بين غيرهم. الصحابة فى السنة النبوية

إذا راجعنا الصحاح والمسانيد نجد أنّ أصحابها أفردوا باباً بشأن فضائل الصحابة، إلاّ أنّهم لم يفردوا باباً فى مثالبهم بل أقحموا ما يرجع إلى هذه الناحية فى أبواب أُخر، ستراً لمثالبهم، وقد ذكرها البخارى فى الجزء التاسع من صحيحه فى باب الفتن، وأدرجها ابن الأثير فى جامعه فى أبواب القيامة عند البحث عن الحوض، والوضع الطبيعى لجمع الأحاديث وترتيبها، كان يقتضى عقد باب مستقل للمثالب فى جنب الفضائل حتى يطلع القارئ على قضاء السنّة حول صحابة النبى الأكرم. ________________

۱ . الأحزاب:۳۲. (۲۱۶)

روى أبو حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: إنّى فرطكم على الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى ثمّ يحال بينى و بينهم ... قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبى عياش وأناأحدّثهم بهذا الحديث فقال: هكذا سمعت سهلاً يقول؟ فقلت: نعم قال: وأنا أشهد على أبى سعيد الخدرى لسمعته يزيد فيقول: إنّهم منّى فيقال: إنّك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدى». أخرجه البخارى ومسلم.(۱) وظاهر الحديث أنّ المراد بقرينة «بدّل بعدى» أصحابه الذى عاصروه وصحبوه وكانوا معه مدّة ثمّ مضوا. روى البخارى ومسلم أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى ـ أو قال من أُمّتى ـ فيحلؤون عن الحوض فأقول يا ربّ أصحابى فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى».(۲) ثمّ قال: وللبخارى: أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل بينى و بينهم فقال: هلم! فقلت: أين؟ فقال: إلى النار واللّه، فقلت: ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى ;ثمّ إذا زمرة أُخرى، حتى إذا عرفتهم خرج رجل بينى و بينهم فقال لهم: هلم، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى النار واللّه، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدوا على أدبارهم فلا ـ أراه يخلص منهم إلاّمثل همل النعم».(۳) وظاهر الحديث«حتى إذا عرفتهم» وقوله«ارتدّوا على أدبارهم ________________

۱ . جامع الأُصول لابن الأثير:۱۱/۱۲۰، كتاب الحوض فى ورود الناس عليه، رقم الحديث ۷۹۷۲. و«الفرط»: المتقدّم قومه إلى الماء، ويستوى فيه الواحد والجمع، يقال رجل فرط وقوم فرط.

۲ . جامع الأُصول ۱۱/۱۲۰، رقم الحديث ۷۹۷۳.

۳ . جامع الأُصول:۱۱/۱۲۱، و «همل النعم» كناية عن أنّ الناجى عدد قليل، وقد اكتفينا من الكثير بالقليل، ومن أراد الوقوف على ما لم نذكره فليرجع إلى «جامع الأُصول». (۲۱۷)

القهقرى» أنّ الذين أدركوا عصره وكانوا معه، هم الذين يرتدّون بعده. الصحابة والتاريخ المتواتر

كيف يمكن عدّالصحابة جميعاً عدولاً والتاريخ بين أيدينا نرى أنّ بعضهم ظهر عليه الفسق فى حياة النبى وبعده، كوليد بن عقبة. أمّا الأوّل فقد عرفت نزول الآية فى حقّه ;وأمّا الثانى فروى أصحاب السير والتاريخ أنّ الوليد بن عقبة أيّام ولايته بالكوفة شرب الخمر وقام ليصلى بالناس صلاة الفجر فصلّى أربع ركعات، وكان يقول فى ركوعه وسجوده: اشربى واسقنى، ثمّ قاء فى المحراب ثمّ سلم، و قال: هل أزيدكم... إلى آخر ما ذكروه.(۱) وبعضهم ظهرت عليه سمة الارتداد عندما بدت علائم الهزيمة عند المسلمين فقال: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر(۲)، و قال الآخر: ألا بطل السحر.(۳) وهذا رسول اللّه يخاطب ذى الخويصرة عندما قال للنبى فى تقسيم غنائم «حنين»: اعدل، بقوله:«ويحك إن لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟! ثمّ قال: فإنّه يكون له شيعة يتعمّقون فى الدين حتى يخرجوا

منه كما يخرج السهم من الرميّة».(۴) وهذا أبو سفيان يضرب برجله قبر حمزة ـ عليه السَّلام ـ ويقول: ذق عقق إنّ الملك الذى كنّا نتنازع عليه أصبح اليوم بيد صبياننا.(۵) ـــــــــــــــــــــ

۱ . الكامل لابن الأثير:۲/۵۲ ;أُسد الغابة:۵/۹۱ وغيرهما. وقد أقام الإمام أمير المؤمنين على ـ عليه السَّلام ـ عليه الحد فى خلافة عثمان بإصرار من الناس وإلحاح منهم لئلاّ تتعطل الحدود.

۲ . سيرة ابن هشام:۴/۴۴۳ والقائل أبو سفيان.

۳ . سيرة ابن هشام:۴/۴۴۴ والقائل كلدة بن الحنبل فقال له صفوان: اسكت فض اللّه فاك.

۴ . سيرة ابن هشام:۴/۴۹۶.

۵ . قاموس الرجال:۱۰/۸۹ نقلاً عن الشرح الحديدى. (۲۱۸)

وهذا أبو سفيان عندما بويع عثمان، دخل إليه بنو أبيه حتى امتلأت بهم الدار ثمّ أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لاـ قال: يا بنى أُميّة تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولاـ جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة.(۱) أفهل بعد هذه الكلمات الكاشفة عن الردة الخبيثة يصحّ لمسلم أن يعد هؤلاء وأمثالهم من صنف العدول وطبقة الصالحين ويعد جرحهم إبطالاً للكتاب والسنّة و تضعيفاً لشهود المسلمين؟! آراء الصحابة بعضهم حول البعض

إنّ النظرة العابرة لتاريخ الصحابة تقتضى بأنّ بعضهم كان يتهم الآخر بالنفاق والكذب، كما أنّ بعضهم كان يقاتل بعضاً، ويقود جيشاً لمحاربته، فقتل بين ذلک جماعة كثيرة، أفهل يمكن تبرير أعمالهم من الشاتم والمشتوم، والقاتل والمقتول وعدّهم عدولاً ومثلاً للفضل والفضيلة؟! وإليک نزراً يسيراً من تاريخهم ممّا حفظته يد النقل غفلة عن المبادئ العامة لأصحاب الحديث: ۱. روى البخارى مشاجرة سعد بن معاذ مع سعد بن عبادة ـ سيد الخزرج ـ فى قضية الإفک قال: قام رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فاستعذر يومئذ من عبد اللّه بن أبى وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى، واللّه ما علمت على أهلى إلاّـخيراً ولقد ذكروا رجلاًـ ما علمت عليه إلاّـ خيراً وما كان يدخل على أهلى إلاّ معى». فقام سعد بن معاذ، أخو بنى عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول اللّه أعذرک فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا أمرک. فقام رجل من الخزرج: وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلک رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر اللّه لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطک ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير ـــــــــــــــــــــ

۱ . الشرح الحديدى:۹/۵۳ نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهرى. (۲۱۹)

وهو ابن عمّ سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر اللّه لنقتلنّه فإنّک منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيّان: الأوس والخزرج، حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول اللّه قائم على المنبر، فلم يزل رسول اللّه يخفضهم حتى سكتوا وسكت.(۱) اقرأ فاقض، فإنّ هؤلاء يتّهم بعضهم بعضاً بالكذب والنفاق، ونحن نعتبرهم عدولاً صلحاء، والإنسان على نفسه بصيرة. ۲. إنّ الحروب الدائرة بين الصحابة أنفسهم والثورة التى أقامها أصحاب النبى ومن اتّبعهم على عثمان بن عفان حتى جرّت إلى قتله، أفضل دليل على أنّه لاـ يصحّ تعريف الصحابة وتوصيفهم بالعدالة والتقوى، إذ كيف يصحّ أن يكون القاتل والمقتول كلاهما على الحقّ والعدالة؟! وهذا هو طلحة وهذا الزبير قد جهّزا جيشاً جراراً لحرب الإمام على ـ عليه السَّلام ـ وأعانتهما أمّ المؤمنين فقتلت جماعة كثيرة بين ذلک، فهل يمكن تعديل كلّ هذه الجماعة حتّى الباغين على الإمام المفترض الطاعة بالنصّ أوّلاً، وببيعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثانياً؟! وهذا معاوية بن أبى سفيان يعدّ من الصحابة وقد صنع بالإسلام والمسلمين ما قد صنع ممّا هو مشهور فى التاريخ، و من ذلک أنّه حارب الإمام عليّاً عليه الصلاة والسلام فى حرب صفين، وكان على مع كلّ من بقى من البدريين وهم قريب من مائة شخص، فهل من حارب هؤلاء الصحابة جميعاً بما فيهم سيد الصحابة على ـ عليه السَّلام ـ يعدّ من أهل الفضل والصلاح والعدالة؟! فاقض ما أنت قاض. لقد نقل صاحب المنار: أنّه قال أحد علماء الألمان فى «الآستانة» لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنّه ينبغى لنا أن نقيم تمثالاً من

الذهب لمعاویة ابن أبی سفیان فی میدان کذا من عاصمتنا «برلین». قیل له: لماذا؟! قال: ــــــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . صحیح البخاری:۵/۱۱۸ـ ۱۱۹ فی تفسیر سورة النور. (۲۲۰)

لأنّه هو الذی حول نظام الحکم الإسلامی عن قاعدته الدیمقراطیة إلی عصبیة الغلب (الملک لمن غلب)ولولا ذلک لعمّ الإسلام العالم کلّه، ولکنّا نحن الألمان وسائر شعوب أوروبا عرباً مسلمین.(۱) هـذا خال المؤمنین و من یترحّم علیه خطباء الجمعة والجماعة، فکیف حال غیره؟! أضف إلیه ما له من الموبقات والمهلکات ممّا لا یمکن لأحـد إنکاره. والاعتذار منه فی تبریر أعماله القاسـیة باجتهاده فی ما ناء به وباء بإثمه من حروب دامیة وإزهاق نفوس بریئة تعد بالآلاف المؤلّفة، لیس إلّا ضلالة وخداعاً للعقل، فإنّه اجتهاد علی خلاف ما یریده اللّه وضدّ رسوله، وإلّا یصحّ أن یعد جمیع المناوئین للإسـلام مجتهدین فی صدر الإسـلام ومؤخّره. هذا مجمل القول فی هذا الأصل الذی اتّخذه أصحاب الحدیث أصلًا من أُصول الإسلام ثمّ أدخله الأشعری فی الأُصول التی یتبنّاها أکثر أهل السنّة والجماعة.

التعذیر التافه أو أسطورة الاجتهاد

وما أتفه قول من یریـد تبریر عمل هؤلاء بالاجتهاد، وأنّهم کانوا مجتهدین فی أعمالهم وأفعالهم، أفهل یصحّ تبریر عمل القتل والفتک والخروج علی الإمـام المفترض طـاعته، بالاجتهاد؟! ولو صـحّ هـذا الاجتهاد (ولن یصـحّ أبـداً) لصـحّ عن کلّ من خالف الحقّ وحالف الباطل من الیهود و النصاری وغیرهم من الطغام اللئام. أی قیمة للاجتهاد فی قبال النص وصـریح السـنّة النبویة وإجماع الأُمّة؟! أی قیمة للاجتهـاد الـذی أباح دماء المسـلمین ودمّر کیانهم وشقّ عصاهم وفکّ عری وحـدتهم، أی، وأی، وأی؟! إنّ القائلین بعدالـة الصـحابة یتمسّـکون بمـا یروون عن النبی أنّه قـال: «أصـحابی کالنجوم بأیّهم اقتـدیتم اهتـدیتم».(۲) غیر أنّ متـن الحـدیث یکـذب صـدوره عن

---

۱ . تفسیر المنار:۱۱/۲۶۹ فی تفسیر سورة یونس.

۲ . جامع الأُصول:۹/ ۴۱۰ رقم الحدیث ۶۳۵۹ ، کتاب الفضائل. (۲۲۱)

النبی إذ لیس کـلّ نجم هادیاً للإنسان فی البر والبحر، بل هناک نجوم خاصـة موجبـة للاهتـداء، ولأجل ذلک قال سبحانه: (وَعَلامات وَبِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُون).(۱) ولم یقـل : وبـالنجوم هم یهتـدون، ولو کـان کـلّ نجم هادیاً للضال لکان الأنسب الإتیان بصـیغة الجمع. ولو افترضـنا صـحّة الاهتداء بکلّ نجم فی السـماء، أفهل یمکن أن یکون کلّ صحابی نجماً لامعاً فی سماء الحیاة، هادیاً للأُمّة؟! هذا قدامة بن مظعون صـحابی بـدری یعد من السابقین الأوّلین ومن المهاجرین هجرتین، روی أنّه شـرب الخمر وأقام علیه عمر الحد.(۲) کما أنّ المشـهور أنّ عبد الرحمن الأصغر بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر.(۳) وقد ارتد طلیحة بن خویلد عن الإسلام وادّعی النبوة، ومثله مسـیلمة والعنسی الکذّابان وأمرهما أشهر من أن یذکر. إنّ بعض الصحابة خضب وجه الأرض بالدماء، فاقرأ تاریخ بسر بن أرطأة حتی إنّه قتل طفلین لعبید اللّه بن عباس!! وکم وکم بین الصحابة لدة هؤلاء من رجال العیث والفساد قد حفل التاریخ بضبط مساوئهم، أفبعد هـذه البینـات یصـح لأی ابن أُنثی أن یتقوّل بعدالـة الصـحابة مطلقاً ویتّخـذها مـذهباً و یرمی المخالف له، بما هو بریء منه؟! الموقف الصحیح من الصحابة

والنظریة القویمة المسـتقیمة هی نظریة الشیعة المنعکسة فی الدعاء المروی عن الإمام الطاهر علی بن الحسین ـ علیهما السَّلام ـ تری أن یدعو اللّه سبحانه فی حقّ أصحاب محمّد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ لا لکلّهم، بل للّذین أحسنوا ــــــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . النحل:۱۶.

۲ . أُسد الغابة:۴/۱۹۹ وسائر کتب التراجم.

۳ . أُسد الغابة:۳/۳۱۲. (۲۲۲)

الصـحبة، والـذین أبلوا البلاء الحسن فی نصـره، والـذین عاضـدوه وأسـرعوا إلی وفـادته وإلیک تلک الکلمـة المبارکـة من الصـحیفة السـجادیة: «اللّهمّ وأصحاب محمّد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ خاصة الذین أحسنوا الصحبة، والذین أبلوا البلاء الحسن فی

نصره، وکانفوه وأسرعوا إلی وفادته، وسابقوا إلی دعوته، واستجابوا له حیث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد فی إظهار کلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء فی تثبیت نبوته وانتصروا به، و من کانوا منطوین علی محبته، یرجون تجارة لن تبور فی مودته، والذین هجرتهم العشائر إذ تعلّقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات، إذ سکنوا فی ظل قرابته، فلا تنس لهم اللّهمّ ما ترکوا لک وفیک، وأرضهم من رضوانک و بما حاشوا الخلق علیک، وکانوا مع رسولک دعاة لک إلیک، واشکرهم علی هجرهم فیک دیار قومهم، وخروجهم من سعة المعاش إلی ضیقه، ومن کثرت فی إعزاز دینک من مظلومهم، اللّهمّ وأوصل إلی التابعین لهم بإحسان الذین یقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا...».(۱) خاتمة المطاف

إنّ لأبی المعالی الجوینی کلاماً حول الصحابة دعا فیه إلی أنّ الواجب، الکف والإمساک عن الصحابة وعمّا شجر بینهم، نقله الشارح الحدیدی فی شرحه علی نهج البلاغة کما نقل نقد بعض الزیدیة له الذی سمعه من أستاذه النقیب أبی جعفر یحیی بن محمد العلوی البصری فی سنة إحدی عشرة وستمائة ببغداد وعنده جماعة و ما نقله عن أُستاذه رسالة مبسوطة فی الموضوع فیها نکات بدیعة لا یسعنا إیرادها فی المقام، ولذلک نقتبس بعضها وقد نقل فیها قضایا تعرب عن جریان السیرة علی النقد والرد والمشاجرة، وإلیک بعضها: ۱. هذه عائشة أُمّ المؤمنین خرجت بقمیص رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ فقالت للناس: هذا قمیص رسول اللّه لم یبل، وعثمان قد أبلی ـــــــــــــــ

۱ . الصحیفة السجادیة: الدعاء الرابع مع شرحه، فی ظلال الصحیفة السجادیة ص ۵۵ـ ۵۹. (۲۲۳)

سنته، ثمّ تقول: اقتلوا نعثلاً قتل اللّه نعثلاً، ثمّ لم ترض بذلک حتی قالت: أشهد أنّ عثمان جیفة علی الصراط غداً. ۲. هذا المغیرة بن شعبة وهو من الصحابة، ادّعی علیه الزنا وشهد علیه قوم بذلک، فلم ینکر ذلک عمر، ولا قال: هذا محال وباطل بحجّة أنّ هذا صحابی من صحابة رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ لا ـ یجوز علیه الزنا، کما أنّ عمر لم ینکر علی الشهود ولم یقل لهم: ویحکم هلا تغافلتم عنه لما رأیتموه یفعل ذلک، فإنّ اللّه تعالی قد أوجب الإمساک عن مساوئ أصحاب رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ وأوجب الستر علیهم، وهلاّ ـ ترکتموه لرسول اللّه فی قوله:«دعوا لی أصحابی» بل ما رأینا عمر إلاّ قد انتصب لسماع الدعوی وإقامة الشهادة، وأقبل یقول للمغیرة: یا مغیرة ذهب ربعک، یا مغیرة ذهب نصفک، یا مغیرة ذهب ثلاثة أرباعک، حتی اضطرب الرابع فجلد الثلاثة. و هلاّ قال المغیرة لعمر: کیف تسمع فیَّ قول هؤلاء ولیسوا من الصحابة وأنا من الصحابة ورسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ قد قال: أصحابی کالنجوم بأیّهم اقتدیتم اهتدیتم! ما رأیناه قال ذلک، بل استسلم لحکم اللّه تعالی. ۳. وهاهنا، من هو أمثل من المغیرة وأفضل، کقدامة بن مظعون، لمّا شرب الخمر فی أیّام عمر، فأقام علیه الحدّ، وهو رجل من علیة الصحابة، ومن أهل بدر المشهود لهم بالجنة ؛فلم یرد عمر الشهادة ولا درأ عنه الحدّ بحجّة أنّه بدری، ولا قال قد نهی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ عن ذکر مساوئ الصحابة، وقد ضرب عمر أیضاً ابنه حداً فمات، و کان ممّن عاصر رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ و لم تمنعه معاصرته له من إقامة الحدّ علیه. ۴. کیف یصحّ أن یقول رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : أصحابی کالنجوم بأیّهم اقتدیتم اهتدیتم؟! لأنّ هذا یوجب أن یکون أهل الشام فی صفین علی هدی، وأن یکون أهل العراق أیضاً علی هدی، وأن یکون قاتل عمار بن یاسر مهتدیاً، وقد صحّ الخبر الصحیح أنّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ (۲۲۴)

قال له: «تقتلک الفئة الباغیة». وقال اللّه سبحانه:(فَقاتِلُوا الَّتی تَبْغِی حَتّی تَفِیء إِلی أَمْرِ اللّه)(۱) فدلّ علی أنّها ما دامت موصوفة بالمقام علی البغی فهی مفارقة لأمر اللّه، ومن یفارق أمر اللّه لا یکون مهتدیاً. وکان یجب أن یکون بسر بن أبی أرطأة الذی ذبح ولدی عبید اللّه بن عباس الصغیرین، مهتدیاً، لأنّ بسراً من الصحابة أیضاً وکان یجب أن یکون عمرو بن العاص ومعاویة اللّذان کانا یلعنان علیاً وولدیه أ دبار الصلاة، مهتدیین، وقد کان فی الصحابة من یزنی، ومن یشرب الخمر، کأبی محجن الثقفی، ومن ارتد عن الإسلام، کطلیحة بن خویلد، فیجب أن یکون کلّ من اقتدی بهؤلاء فی أفعالهم مهتدیاً. ۵. إنّ هذا الحدیث «أصحابی کالنجوم» من موضوعات متعصبة الأمویة، فإنّ لهم من ینصرهم بلسانه وبوضعه الأحادیث إذا عجز عن نصرهم بالسیف، وکذا القول فی الحدیث الآخر وهو

قوله: «خير القرون القرن الـذى أنا فيه» وممّا يـدلّ على بطلانه أنّ القرن الـذى جاء بعـده بخمسـين سـنة، هو شـرّ قرون الدنيا، وهو أحد القرون التى ذكرها فى النصّ وكان ذلك القرن هو القرن الـذى قتل فيه الحسـين، وأوقع بالمدينـة، وحوصـرت مكـة، ونقضت الكعبة، وشـربت خلفاؤه والقائمون مقامه المنتصـبون فى منصب النبوة، الخمور وارتكبوا الفجور، كما جرى ليزيـد بن معاويـة ولزيد بن عاتكة وللوليـد بن يزيـد، و أُريقت الدماء الحرام، وقتل المسـلمون وسبى الحريم، واسـتعبد أبناء المهاجرين والأنصار ونقش على أيديهم كما ينقش على أيـدى الروم، وذلـك فى خلافـة عبـد الملـك، وإمرة الحجاج، وإذا تأمّلت كتب التواريـخ وجـدت الخمسـين الثانيـة، شـراً كلّها،لا خير فيها ولا فى رؤسائها وأُمرائها، والناس برؤسائهم وأُمرائهم. والقرن خمسون سـنة فكيف يصحّ هذا الخبر؟ ۶. فأمّا ما ورد فى القرآن من قوله تعالى: (لَقَدْ رَضِىَ اللّهُ عَنِ الْمُؤْمِنين)(۲)، وقوله: (محمّدٌ رسولُ اللّهِ والّذِينَ مَعهُ...) (۳) وقول ________________

۱ . الحجرات:۹.

۲ . الفتح:۱۸.

۳ . الفتح:۲۹. (۲۲۵)

النبى ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ : «إنّ اللّه اطّلع على أهل بـدر» إن كان الخبر صـحيحاً، فكلّه مشـروط بسـلامة العاقبـة، ولا يجوز أن يخبر الحكيم مكلفـاً غير معصوم، بـأنّه لا عقاب فيه فليفعل ما شاء. ۷. من الذى يجترئ على القول بأنّ أصـحاب محمّد ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ لا تجوز البراءة من أحـد منهم وإن أساء وعصـى بعـد قول اللّه تعالى للـذى شـرفوا برؤيته: (لَئِنْ أَشْـرَكْـتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين) .(۱) وبعـد قوله: (قُلْ إِنّى أَخافُ إِنْ عَصَـيتُ رَبّى عَذاب يَوم عَظيم) .(۲) وبعد قوله:(فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِع الهَوى فَيُضِـلّكَ عَنْ سَبيلِ اللّه إِنَّ الَّذينَ يَضِـلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللّهِ لَهُمْ عَـذابٌ شَديدٌ بما نَسُوا يَومَ الحِساب).(۳) إلاّ من لا فهم له ولا نظر معه ولا تمييز عنده. ۸. والعجب من الحشوية وأصحاب الحديث إذ يجادلون فى معاصى الأنبياء ويثبتون أنّهم عصوا اللّه تعالى، وينكرون على من ينكر ذلك ويطعنون فيه، ويقولون: قـدرى، معتزلى،وربما قالوا: ملحـد مخالف لنصّ الكتاب، وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يجادل فى هذا الباب، فتارة يقولون: إنّ يوسف قعد من امرأة العزيز مقعد الرجل من المرأة، وتارة يقولون: إنّ داود قتل أوريـا لينكـح امرأته، وتـارة يقولون: إنّ رسول اللّه ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ كـان كـافراً ضالاًـ قبـل النبوة وربما ذكروا زينب بنت جحش وقصـة الفـداء يوم بـدر، فأمّا قدحهم فى آدم ـ عليه السَّلام ـ وإثباتهم معصـيته ومناظرتهم من ينكر ذلك، فهو رأيهم وديدنهم، فـإذا تكلّم واحـد فى عمرو بن العـاص ومعاويـة، وأمثالهمـا ونسـبهم إلى المعصـية وفعـل القبيـح احمرّت وجـوههم، وطـالت أعنـاقهم وتخازرت أعينهم، وقالوا: مبتدع رافضـى، يسب الصـحابة ويشتم السلف، فإن قالوا: إنّما اتبعنا فى ذكر معاصى الأنبياء نصوص الكتاب. قيل لهم: فاتّبعوا فى البراءة من جميع العصاة نصوص الكتاب، فإنّه تعالى قال: (لا تَجِد ________________

۱ . الزمر:۶۵.

۲ . الأنعام:۱۵.

۳ . ص: ۲۶. (۲۲۶) قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوم الآخِرِ يُوادُّونَ مَن حادَّ اللّهَ وَرَسُولَه).(۱)

و قـال:(فَإِنْ بَغَتْ إِحـداهُما عَلَى الأُخرى فَقاتِلُوا الَّتى تَبغِى حَتّى تفىَ إِلى أَمْرِ اللّه). (۲) وقـال: (أَطيعُوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولى الأَمْرِ مِنْكُمْ) (۳).(۴) قتل الخليفة

قـد تصـافق أهـل السير والتاريـخ أنّ عثمان بن عفان قـد حوصـر ثمّ هوجم وقتل فى عاصـمة الإسـلام، قـد قتله الصـحابةوالتابعون لهم بإحسان، حتّى منعوا عن تجهيزه وتغسيله ودفنه والصلاة عليه، وهذا إمام المؤرّخين يتلو علينا كيفية الإجهاز عليه والهجوم على داره بعد محاصـرته قرابـة أربعين يوماً: يقول الطبرى: دخل محمّـد بن أبى بكر على عثمان فأخـذ بلحيته... ثمّ دخل الناس، فمنهم من يجأه بنعل سيفه، وآخر يلكزه، وجـاءه رجـل بمشـاقص معه فوجـأه فى ترقوته، ودخـل آخرون فلمّـا رأوه مغشـياً عليه جرّوا برجله، وجـاء التجيبى مخترطاً سـيفه ليضـعه فى بطنه فوقته نائلـة فقطع يدها، واتكأ بالسـيف عليه فى صدره، وقتل عثمان رضـى اللّه عنه قبل غروب الشـمس.

وفى نصّ آخر يقول: طعن محمد بن أبى بكر جنبيه بمشقص فى يده، وضرب كنانة بن بشر مقدم رأسه بعمود، وضربه سودان بن حمران المرادى بعد ما خرّ لجبينه، و وثب عمرو بن الحمق فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات إلى آخر ما ذكره.(۵) وقد وقعت الواقعة بمرأى ومسمع من معظم الصحابة وليس لأحد أن يتفوّه أنّهم لم يكونوا عالمين بها، فإنّها ما كانت مباغتة ولا غيلة حتى يكونوا فى غفلة ـــــــــــــــــ

۱ . المجادلة:۲۲.

۲ . الحجرات:۹.

۳ . النساء:۵۹.

۴ . الشرح الحديدى:۲۰/۱۲ـ۳۳، والرسالة مبسوطة مفصّلة أخذنا المهم منها.

۵ . تاريخ الطبرى:۳/۴۲۳. (۲۲۷)

عنها، وقد استمر الحوار أكثر من شهرين والحصر حوالى أربعين يوماً، كلّ ذلك يعرب عن أنّهم كانوا راضين بهاتيك الأحدوثة، لو لم نقل إنّهم كانوا بين مباشر لها، إلى خاذل للمودى به، إلى مؤلّب عليه، إلى راض بما فعلوا، إلى محبذ لتلك الأحوال كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الدار وقتل الخليفة، متجرداً عن أهواء وميول أموية. فعندئذ يدور الأمر بين أمرين، بأيّهما أخذنا يبطل الأصل المزعوم من عدالة الصحابة أجمع. فإن كان الخليفة قائماً على جادة الحقّ غير مائل عن الطريقة المثلى، فالمجهزون على قتله والناصرون لهم فسّاق إن لم نقل إنّهم مراق عن الدين لخروجهم على الإمام المفترضة طاعته. وإن كان مائلاً عن الحقّ، منحرفاً عن الطريقة، مستحقاً للقتل فما معنى القول بعدالة الصحابة كلّهم من إمامهم إلى مأمومهم. وأمّا تبرير عمل المجهزين عليه، المهاجمين على داره بأنّهم كانوا عدولاً خاطئين فى اجتهادهم، فهو خداع وضلال لا يصار إليه، ولا يركن إليه أى ذى مسكة من العقل إذ أى قيمة لاجتهادهم تجاه نصوص الكتاب؟ قال عزّ من قائل:(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْس أَوْ فَساد فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَميعاً).(۱) كلمة قيمة للإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ

وهناك كلمة قيمة للإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ تمثل نظريته فى حقّ الصحابة رواها نصر بن مزاحم المنقرى(المتوفّى عام ۲۱۲هـ) فى حديث عمر بن سعد: دخل عبد اللّه بن عمر، وسعد بن أبى وقاص، والمغيرة بن شعبة مع ـــــــــــــــــ

۱ . المائدة:۳۲. (۲۲۸)

أُناس معهم وكانوا قد تخلّفوا عن على. فدخلوا عليه فسألوه أن يعطيهم عطاءهم ـ و قد كانوا تخلّفوا عن على حين خرج إلى صفين والجمل ـ فقال لهم على: «ما خلّفكم عنّى؟» قالوا: قتل عثمان ولا ندرى أحل دمه أم لا؟ وقد كان أحدث أحداثاً ثمّ استتبتموه فتاب، ثمّ دخلتم فى قتله حين قتل، فلسنا ندرى أصبتم أم أخطأتم؟ مع أنّا عارفون بفضلك يا أميرالمؤمنين وسابقتك وهجرتك». فقال على: «ألستم تعلمون أنّ اللّه عزّ وجلّ قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر» فقال: (وَإِنْ طائِفتان مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الأُخْرى فَقاتِلُوا الّتى تَبْغِى حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّه)(۱)؟ قال سعد: يا على أعطنى سيفاً يعرف الكافر من المؤمن، أخاف أن أقتل مؤمناً فأدخل النار؟ فقال لهم على:« ألستم تعلمون أنّ عثمان كان إماماً بايعتموه على السمع والطاعة فعلام خذلتموه إن كان محسناً، وكيف لم تقاتلوه إذ كان مسيئاً. فإن كان عثمان أصاب بما صنع فقد ظلمتم، إذ لم تنصروا إمامكم ؛وإن كان مسيئاً فقد ظلمتم، إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم اللّه به، فإنّه قال: (فَقاتِلُوا الّتى تَبْغى حَتّى تَفِيء إِلى أَمْرِ اللّه) » فردّهم ولم يعطهم شيئاً. وكان على ـ عليه السَّلام ـ إذا صلّيالغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يقول: «اللّهمّ العن معاوية وعمراً وأبا موسى وحبيب بن مسلمة والضحاك بن قيس والوليد بن عقبة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد»، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وقيس بن سعد والحسن والحسين.(۲) وفى كلامه هذا دليل قاطع على أنّ هؤلاء الجائين إلى على لأخذ عطائهم، خونة ظلمة لا يمكن الحكم بعدالتهم، لأنّهم إمّا ظلموا إمامهم العادل، إذ لم ينصروه

وإمّا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم يعينوا الإمام القائم بالعدل. ______

۱ . الحجرات:۹.

۲ . وقعة صفين: ۵۵۱ـ ۵۵۲. (۲۲۹)

أضف إلى ذلك أنّ الملاعنة من الطرفين أقوى شاهد على فساد إحدى الطائفتين وليس الحقّ خافياً على مبتغيه، كما أنّ الصبح لا يخفى على ذى عينين. وهناك كلام للشيخ التفتازانى فى شرح مقاصده أخذته العصبية فى الدعوة إلى ترك الكلام فى حقّ البغاة والجائرين، ومع ذلك كلّه فقد أصحر بالحقيقة فقال: ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور فى كتب التواريخ والمذكور على ألسنة الثقات يدلّ بظاهره على أنّ بعضهم قد حاد عن طريق الحقّ، وبلغ حدّ الظلم والفسق، وكان الباعث له الحقد والعناد والحسد واللداد وطلب الملك والرئاسة والميل إلى اللذات والشهوات، إذ ليس كلّ صحابى معصوماً، ولا كلّ من لقى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بالخير موسوماً، إلاّ أنّ العلماء لحسن ظنّهم بأصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ، ذكروا لها محامل وتأويلات بها تليق، وذهبوا إلى أنّهم محفوظون عمّا يوجب التضليل و التفسيق صوناً لعقائد المسلمين عن الزيغ والضلالة فى حقّ كبار الصحابة سيما المهاجرين منهم، والأنصار، والمبشّرين بالثواب فى دار القرار. وأمّا ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء، ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء، إذ تكاد تشهد به الجماد والعجماء، ويبكى له من فى الأرض والسماء، وتنهد منه الجبال وتنشق الصخور، ويبقى سوء عمله على كرّ الشهور، ومر الدهور فلعنة اللّه على من باشر أو رضى أو سعى ولعذاب الآخرة أشدّوأبقى. فإن قيل: فمن علماء المذاهب من لم يجوز اللعن على يزيد مع علمهم بأنّه يستحقّ ما يربو على ذلك ويزيد؟ قلنا: تحامياً عن أن يرتقى إلى الأعلى فالأعلى كما هو شعار الروافض على ما يروى فى أدعيتهم ويجرى فى أنديتهم، فرأى المعتنون بأمر الدين، إلجام العوام بالكلية طريقاً إلى الاقتصاد فى الاعتقاد، بحيث لا تزل الأقدام على السواء ولا تضل الأفهام بالأهواء وإلاّفمن يخفى عليه الجواز والاستحقاق وكيف لا يقع عليهما الاتفاق، وهذا هو السرّ فيما نقل عن السلف من المبالغة فى مجانبة أهل الضلال وسدّطريق لا يؤمن (۲۳۰)

أن يجر إلى الغواية فى الم آل مع علمهم بحقيقة الحال، وجلية المقال، وقد انكشف لنا ذلك حين اضطربت الأحوال واشرأبت الأهوال، وحيث لا متسع ولا مجال والمشتكى إلى عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.(۱) إنّ بعض المنصفين من المصريين المعاصرين قد اعترف بالحقّوأراد الجمع بين رأيى السنةوالشيعة فى حقّ الصحابة فقال: إنّ منهج أهل السنة فى تعديل الصحابة أو ترك الكلام فى حقّهم، منهج أخلاقى ;وإنّ طريقة الشيعة فى نقد الصحابة وتقسيمهم إلى عادل وجائر منهج علمى، فكلّ من المنهجين مكمّل للآخر. وهذا هو ما أعربنا عنه فى صدر البحث وقلنا: «عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان» أى بين الأخلاق والموضوعية، وإليك نصّ كلامه: «يرى أهل السنة: أنّ الصحابة كلّهم عدول، وأنّهم جميعاً مشتركون فى العدالة وإن اختلفوا فى درجتها. وأنّ من كفّر صحابياً فهو كافر، و من فسّقه فهو فاسق. وإن طعن فى صحابى فكأنّما طعن على رسول اللّه. وأنّ من طعن على حضرة الرسول ـ عليه السَّلام ـ فهو زنديق بل كافر. ويرى جهابذة أهل السنّة أيضاً أنّه لا يجوز الخوض فيما جرى بين على ـ رضى اللّه عنه ـ و معاوية من أحداث التاريخ. وأنّ من الصحابة من اجتهد وأصاب وهو «على» و من نحا نحوه. وأنّ منهم من اجتهد وأخطأ مثل معاوية وعائشة رضى اللّه عنها و من نحا نحوهما. وأنّه ينبغى ـ فى نظر أهل السنّة ـ الوقوف والإمساك عند هذا الحكم دون التعرض لذكر المثالب. ونهوا عن سب معاوية باعتباره صحابياً، و شدّدوا النكير على من سب عائشة باعتبارها أُمّ المؤمنين الثانية بعد خديجة وباعتبارها حبّ رسول اللّه. ______

۱ . شرح المقاصد:۲/۳۰۶ـ ۳۰۷. (۲۳۱)

وما زاد على ذلك فينبغى ترك الخوض فيه وإرجاء أمره إلى اللّه سبحانه. وفى ذلك يقول أبو الحسن البصرى وسعيد بن المسيب: تلك أُمور طهّر اللّه منها أيدينا وسيوفنا، فلنطهّر منها ألسنتنا. هذه آراء أهل السنّة فى عدالة الصحابة وفيما ينبغى أن نقف منهم. أمّا

الشيعة فيرون أنّ الصحابة كغيرهم تماماً لا فرق بينهم و بين من جاء بعدهم من المسلمين إلى يوم القيامة. وذلك من حيث خضوعهم لميزان واحد هو ميزان العدالة، الذى توزن به أفعال الصحابة كما توزن أفعال من جاء من بعدهم من الأجيال. وإنّ الصحبة لا تعطى لصاحبها منقبة إلّا إذا كان أهلاً لهذه المنقبة وكان لديه الاستعداد للقيام برسالة صاحب الشريعة ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ. وإنّ منهم المعصومين كالأئمّة الذين نعموا بصحبة الرسول ـ عليه السَّلام ـ كعلى وابنيه ـ عليهم السَّلام ـ. ومنهم العدول وهم: الذين أحسنوا الصحبة لعلى بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. ومنهم المجتهد المصيب، ومنهم المجتهد المخطئ. ومنهم الفاسق، ومنهم الزنديق ـ و هو أقبح من الفاسق وأشدّ نكالاً ـ ويدخل فى دائرة الزنديق المنافقون والذين يعبدون اللّه على حرف. كما أنّ منهم الكفّار وهم الذين لم يتوبوا من نفاقهم والذين ارتدّوا بعد الإسلام. ومعنى هذا أنّ الشيعة ـ و هم شطر عظيم من أهل القبلة ـ يضعون جميع المسلمين فى ميزان واحد ولا يفرّقون بين صحابى وتابعى ومتأخر. كما لا يفرقون بين مغرق فى الإسلام وحديث عهد به إلّا باعتبار درجة (۲۳۲)

الأخذ بما جاء به حضرة الرسول صلوات اللّه عليه والأئمّة الاثنا عشر من بعده. وإنّ الصحبة فى ذاتها ليست حصانة يتحصّن بها من درجة الاعتقاد. وعلى هذا الأساس المتين أباحوا لأنفسهم ـ اجتهاداً ـ نقد الصحابة والبحث فى درجة عدالتهم. كما أباحوا لأنفسهم الطعن فى نفر من الصحابة أخلّوا بشروط الصحبة وحادوا عن محبّة آل محمّد ـ عليهم السَّلام ـ. كيف لا، و قد قال الرسول الأعظم: «إنّى تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا: كتاب اللّه وعترتى آل بيتى، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلّفونى فيهما». وعلى أساس من هذا الحديث و نحوه يرون أنّ كثيراً من الصحابة خالفوا هذا الحديث باضطهادهم لآل محمد، ولعنهم لبعض أفراد هذه العترة. ومن ثمّ، فكيف يستقيم لهؤلاء المخالفين شرف الصحبة، وكيف يوسمون بسمة العدالة؟! ذلك هو خلاصة رأى الشيعة فى نفى صفة العدالة عن بعض الصحابة وتلك هى الأسباب العلمية الواقعية التى بنوا عليها حججهم. والمتأمّل يرى أنّ الفرق بين هذين الموقفين كالفرق بين المنهج الأخلاقى والمنهج العلمى، وأنّ كلا المنهجين مكمل لصاحبه.(۱) هذا غيض من فيض، وقليل من كثير من تاريخ الصحابة وأحوالهم وهى مشحونة بالصواب والخطأ والهدى والضلال. ضعه أمام عقلك وفكرك فاقض ما أنت قاض ولا تتبع الهوى. (وَإنْ حَكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إنَّ ________

۱ . الأُستاذ حفنى داود المصرى: نظرات فى الكتب الخالدة: ۱۱۱. (۲۳۳) اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطين).(۱) (وَلِكُلّ درجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَما رَبّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُون) .(۲)

*** (وَهُوَ الَّذى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوقَ بعْض دَرَجات لِيَبْلُوَكُمْ فى ما آتاكُمْ إِنَّ رَبّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم)(۳). ________

۱ . المائدة:۴۲.

۲ . الأنعام:۱۳۲.

۳ . الأنعام: ۱۶۵.

الإيمان بالقدر خيره و شرّه

الإيمان بالقدر خيره و شرّه

هذا هو الأصل الثالث الذى اتّفقت عليه كلمات أهل الحديث. القدر كما ذكره بعض أئمّة اللغة. حدّ كلّ شىء ومقداره. والقضاء بمعنى الحكم البات، قال سبحانه: (إِنّا كُلّ شَىء خَلَقْناهُ بِقَدَر) (۱) وقال تعالى: (وَقَضى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّاإِيّاهُ) .(۲) وعلى هذا فالقدر فى الأشياء، هو تحديد وجود الشىء والقضاء هو إبرامه، ويؤيد ذلك ما روى عن بعض أئمّة أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ: القدر هو الهندسة ووضع الحدود فى البقاء والفناء، والقضاء هو الإبرام وإقامة العين.(۳) القول بالقضاء والقدر على نحو الإجمال من العقائد

الإسلامية التى لا يصحّ لمسلم إنكارها،ولو كان هناك اختلاف فإنّما هو فى تفسيرهما وأنّه هل القضاء والقدر بمعنى التقدير والحتم على أفعال الإنسان وخلقها بلا إرادة واختيار منه، وأنّه فى مسرح الحياة مكتوف اليدين فيما كتب وقدر عليه حتى فيما يتعلّق بالتكاليف (الحلال والحرام) أو أنّه بمعنى علمه السابق، على وجود الأشياء وتقديره وتحديده والحكم بوجودها على وجه لا ينافى اختيار العبد وحريته من ـــــــــــــــــ

١ . القمر:۴٩.

٢ . الإسراء:٢٣.

٣ . الكافى:١/١٥٨. (٢٣٥)

الأساس. وإن شئت قلت: ثبوت الأمر الجارى فى العلم الأزلى الإلهى مع إعطاء القدرة على الفعل والترك وتعريف الخير والشر، وبيان عاقبة الأوّل ومغبة الأخير، فهذا العلم السابق لا يستلزم جبراً، وعلمه سبحانه بمقادير ما يختاره العباد من النجدين وما يأتون به من العمل من خير أو شر لا ينافى التكليف، كما لا سببية له فى اختيار المكلّفين ولا يقبح معه عقلاً، العقاب على المعصية ولا يسقط معه الثواب على الطاعة. أمّا سبق علمه سبحانه على خصوصيات الفعل وتحقّقه وعدمه، فيكفى فى ذلك قوله سبحانه: (ما أَصابَ مِنْ مُصيبَة فِى الأَرْضِ وَلا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاّ فِى كِتاب مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلى اللّه يَسير). (١) وقوله سبحانه: (وَكُلّ شَيء فَعَلُوهُ فِى الزُّبُر* وَكلُّ صَغيروَكَبير مُسْتَطَر).(٢) وقال عزّ من قائل: (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لينَة أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصولِها فَبِإِذنِ اللّه) .(٣) و أمّا كون القدر والقضاء لا ـ ينافى التكليف، فيكفى قوله سبحانه:(إِنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمّا شاكِراً وَإِمّا كَفُوراً) (۴) وقوله سبحانه: (وَهَدَيْناهُ النَّجْدَين).(۵) وقوله سبحانه: (وَمَنْ يَشْكرْ فَإِنّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَميد).(۶) فاللّه سبحانه خلق الإنسان مزيجاً من العقل والنفس مع خلق عوامل النجاح تجاه النفس الأمّارة بالسوء، فمن عامل بالطاعة بحسن اختياره، ومن مقترف للمعصية بسوء الخيرة. وتدلّ على ذلك الآيات التالية: (فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيرات). (٧) (فَمَنِ اهْتَدى فَإِنّما يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها). (٨) (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ـــــــــــــــــ

١ . الحديد:٢٢.

٢ . القمر:۵٢ـ ۵٣.

٣ . الحشر:۵.

۴ . الإنسان:٣.

۵ . البلد:١٠.

۶ . لقمان:١٢.

٧ . فاطر:٣٢.

٨ . يونس:١٠٨. (٢٣۶) وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون) .(١) (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْها). (٢) (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها) .(٣)

إلى غير ذلك من الآيات التى تنصّ على حرية الإنسان فى اختياره خصوصاً فيما يرجع إلى الطاعة والمعصية. إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة: إنّه سبحانه «يعلم ما فى السماء والأرض إنّ ذلك فى كتاب إنّ ذلك على اللّه يسير»(۴) و فى ضوء ذلك نعتقد بأنّه سبحانه يعلم أعمارنا وأرزاقنا وما يجرى فى حياتنا من الأحداث، وما نقوم به من الأفعال كما يعلم مواعيد وفاتنا والكلّ موجود فى (كتاب مُبِين) .(۵) لكن علمه السابق بما يجرى فى صحيفة الكون لا ـ يجعل الإنسان مكتوف اليد أمام الملابسات التى حوله ولا ـ يصيره كالريشة فى مهب الريح، بل هو فى الكون محكوم من جهة ومختار من جهة أُخرى، محكوم بالسنن العامة السائدة على الكون والحياة ولا ـ يمكن الخروج عنها، مختار فى ما تتعلق به إرادته وفى موقفه من الملابسات التى حوله. فالنوازل والمصائب والحروب الطاحنة

تنتابه، شاء أم لم يشأ والموت يدمّر حياته وكيانه والسموم القتالة تهلكه والجراثيم الضارية تنحرف بها صحته، ولكنّه غير مسؤول أمام هذه الأُمور الخارجة عن اختياره، ولكنّه أمام نعمه سبحانه والإمكانيات التى حوله أمام خيارين: فله أن يستفيد منها بما يمد حياته فى الدنيا ويسعده فى الآخرة كما أنّ له خلاف ذلك. فلو قلنا: الإنسان مخيَّر لا مسيّر، فإنّما ـــــــــــــــــــــــــــ

١ . الجاثية:١٥.

٢ . الأنعام:١٠٤.

٣ . الإسراء:٧.

۴ . اقتباس من قوله سبحانه: (ألم تعلم أنّ اللّه يعلم ما فى السماء...) (الحج:٧٠).

۵ . إشارة إلى قوله سبحانه: (وَيَعْلَمُ ما فى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلّا يَعْلَمُها وَلا حَبّةٍ فى ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْب وَلا يابِس اِلّا فى كِتاب مُبين) (الأنعام:۵٩). (٢٣٧)

نريد هذا الجانب الثانى، ولو قيل إنّه مسيّر لا ـ مخيّر، فلابدّ أن يراد منه الجانب الأوّل. ثمّ إنّ فى الذكر الحكيم آيات ودلالات وتصريحات على كون الإنسان مخيراً، وهى على حدّ لا ـ يمكن جمعها فى مقام واحد. يقول اللّه لِكلِّ بشر على ظهر الأرض:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّم مِنْ قَبل أَنْ يَأْتِىَ يَومٌ لا ـ مَردَّ لَهُ مِنَ اللّهِ يومَئِذ يَصَّدّعُون* مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُون) (١) ، فهل ربط الجزاء بالعمل هنا من قبيل المزاح أو الخديعة؟ وعندما يصف ربّنا جزاء الكذبة والمكذبين ويبيّن عقبى عملهم ويقول: (فَلَنُذيقَنَّ الّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَديداً وَلَنَجزِيَنَّهُمْ أَسوأ الَّذى كانُوا يَعْمَلُونَ* ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءاللّه النّار لَهُمْ فِيها دارُ الخُلْد جَزاءً بِما كانُوا بِ آياتِنا يَجْحَدُون) (٢) هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء؟ وهل هذه النقمة المحسوسة على المجرمين تومئ من قرب أو بعد إلى أنّ القوم كانوا أهل خير فلوى زمامهم قدر سابق أو كتاب ماحق؟ ما أقبح هذا الفهم! فى يوم الحساب يحصد الناس ما زرعوا لأنفسهم. والقرآن حريص كلّ الحرص على إعلان هذه الحقيقة وهى أنّك واجد ما قدمت لن تؤخذ أبداً بشىء لم تصنعه، لم تغلب على إرادتك يوماً فيحسب عليك ما لم تشأ. إنّ المغلوب على عقله أو قصده لا يؤاخذ أبداً بل إنّ التكليف يسقط عنه. وتدبر قوله تعالى: (أَلْقِيا فى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّار عَنِيد* مَنّاع لِلْخَيْرِ مُعْتَد مُرِيب* الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلقِيَاهُ فِى العَذابِ الشَّدِيد* قالَ قَرِينُهُ رَبّنا ما أَطغيْتُهُ ولكِن كَانَ فِى ضَلال بَعيد) (٣) ربّنا سبحانه و تعالى ينفى الظلم عن نفسه ويقول إنّه ما عذب إلّا من فرط وأساء.(۴) ـــــــــــــــــــــــــــ

١ . الروم:۴٣ـ ۴۴.

٢ . فصلت:٢٧ـ ٢٨.

٣ . ق: ٢۴ـ ٢٧.

۴ . السنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ١۴٨ـ ١۴٩، ولكلامه ذيل فراجعه. (٢٣٨)

وعلى ذلك فهنا أمران مسلّمان لا يصح لأحد إنكار واحد منهما: ١. إنّ للّه سبحانه علماً سابقاً على كلّ شىء، ومنه أعمال العباد ويعبر عنه بالقدر والتقدير. ٢. الإنسان مخيّر فى ما تتعلّق به إرادته ومحكوم فيما هو خارج عن إطار إرادته. وللمسلم الواعى الجمع بينهما على وجه صحيح، وسوف يوافيك بيان هذا الجمع عند البحث عن عقيدة الأشاعرة فى كون الإنسان مسيّراً لا مخيراً.(١) وعلى ذلك فالاعتقاد بالتقدير والقضاء أمر لا يمكن لمسلم إنكاره كما أنّ حرية الإنسان فى مجال التكليف مثله أيضاً، فإذاً ما هو الذى وقع مثاراً للنقاش؟ فى النصف الثانى من القرن الأوّل بل قبله بقليل أيضاً، انتشر القول بالقدر حتى فرق المسلمين إلى قولين: إلى قدرى وجبرى، ولكن قد عرفت أنّ القدرية مع أنّها فى اللغة بمعنى مثبتة القدر يرادمنه فى المصطلح النافون للقدر. لابدّمن أن نقف ملياً للتأمل فى تشخيص النزاع بين الطرفين. فنقول: إنّ التأمّل فى عقائد بعض العرب فى الجاهلية يوحى بأنّهم كانوا قائلين بالقدر ومثبتين له بشكل يستنتجون منه سلب المسؤولية عن أنفسهم وإلقاءها على عاتق القدر. وهذا التفسير كان رائجاً بينهم وإن لم يعم الجميع، يقول

سبحانه:(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيء كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْم فَتُخرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تخرصُون).(۲) ________

۱ . لاحظ الجزء الثانى من هذه الموسوعة، وسيوافيك إجماله فى آخر هذا البحث عند القول بأنّ «القدر لا يلازم الجبر».

۲ . الأنعام:۱۴۸. (۲۳۹)

ولعلّ قوله سبحانه: (وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللّهَ لا ـ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاء أَتَقُولُونَ عَلى اللّهِ ما لا تَعْلَمُون) (۱) يشير إلى أنّهم كانوا يعتذرون بأنّ تقديره سبحانه يلازم الجبر ونفى الاختيار،واللّه سبحانه يرد على تلك المزعمة بهذا القول. فقد بقيت هذه العقيدة الموروثة من العصر الجاهلى فى أذهان بعض الصحابة، فقد روى الواقدى فى مغازيه عن أُمّ الحارث الأنصارية وهى تحدث عن فرار المسلمين يوم حنين قالت: مرّ بى عمر بن الخطاب(منهزماً) فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر اللّه.(۲) والعجب أنّ تلك العقيدة بقيت فى أذهان بعض الصحابة حتّى بعد رحلة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، فهذا السيوطى ينقل عن عبد اللّه بن عمر أنّه جاء رجل إلى أبى بكر فقال: أرأيت الزنى بقدر؟ قال:نعم، قال: فإنّ اللّه قدّره على ثمّ يعذّبنى؟! قال: نعم يابن اللخناء، أما واللّه لو كان عندى إنسان أمرته أن يجأ أنفك.(۳) لقد كان السائل فى حيرة من أمر القدر، فسأل الخليفة عن كون الزنى مقدّراً من اللّه أم لا؟ فلمّا أجاب الخليفة بنعم، استغرب من ذلك لأنّ العقل لا يسوغ تقديره سبحانه شيئاً بمعنى سلب الاختيار عن الإنسان فى فعله أو تركه ثمّ تعذيبه عليه، ولذلك قال: فإنّ اللّه قدره على ثمّ يعذبنى؟ فعند ذاك أقرّه الخليفة على ما استغربه وقال: نعم يابن اللخناء. ________

۱ . الأعراف:۲۸.

۲ . مغازى الواقدى:۳/۹۰۴.

۳ . تاريخ الخلفاء : ۹۵. (۲۴۰) استغلال الأمويين للقدر

لقد اتّخذ الأمويون مسألة القدر أداة تبريرية لأعمالهم السيّئة، وكانوا ينسبون وضعهم الراهن بما فيه من شتى ضروب العيث والفساد إلى القدر، قال أبو هلال العسكرى: إنّ معاوية أوّل من زعم أنّ اللّه يريد أفعال العباد كلّها.(۱) ولأجل ذلك لمّا سألت أُمّ المؤمنين عائشة، معاوية عن سبب تنصيب ولده يزيد خليفة على رقاب المسلمين فأجابها: إن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم.(۲) وبهذا أيضاً أجاب معاوية عبد اللّه بن عمر عندما استفسر من معاوية عن تنصيبه يزيد بقوله: إنّى أُحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى فى تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم.(۳) وقد كانت الحكومة الأموية الجائرة متحمّسة على تثبيت هذه الفكرة فى المجتمع الإسلامى، وكانت تواجه المخالف بالشتم والضرب والإبعاد. قال الدكتور أحمد محمود صبحى فى كتابه «نظرية الإمامة»: إنّ معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب، ولكن ب آيديولوجية تمس العقيدة فى الصميم، ولقد كان يعلن فى الناس أنّ الخلافة بينه و بين على ـ عليه السَّلام ـ قد احتكما فيها إلى اللّه فقضى اللّه له على على، وكذلك حين أراد أن يطلب البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز أعلن أنّ اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة فى أمرهم، وهكذا كاد أن يستقر فى أذهان المسلمين، أنّ كلّ ما يأمر به الخليفة ـ حتى و لو كانت طاعة اللّه فى خلافه ـ فهو قضاء من اللّه قد قدّر على العباد.(۴) ________

۱ . الأوائل:۲/۱۲۵.

۲ . الإمامة والسياسة :۱/۱۶۷.

۳ . الإمامة والسياسة :۱/۱۷۱ .

۴ . نظرية الإمامة: ۳۳۴. (۲۴۱)

وقد سرى هذا الاعتذار إلى غير الأمويين من الذين كانوا فى خدمة خلفائهم وأُمرائهم فهذا عمر بن سعد بن أبى وقاص قاتل الإمام

الشهيد الحسين عليه السّلام ـ لمّا اعترض عليه عبد اللّه بن مطيع العدوى بقوله: اخترت همدان والرى على قتل ابن عمك فقال عمر: كانت أُمور قضيت من السماء، وقد أعذرت إلى ابن عمى قبل الوقعهٔ فأبى إلّاما أبى.(۱) ويظهر أيضاً ممّا رواه الخطيب عن أبى قتادهٔ عندما ذكر قصهٔ الخوارج فى النهروان لعائشهٔ فقالت عائشهٔ: ما يمنعنى ما بينى وبين على أن أقول الحق سمعت النبى يقول: تفترق أُمّتى على فرقتين، تمرق بينهما فرقهٔ محلقون رؤوسهم، مخفون شواربهم، أزرهم إلى أنصاف سوقهم، يقرأون القرآن لا ـ يتجاوز تراقيهم، يقتلهم أحبهم إلى، وأحبهم إلى اللّه. قال: فقلت: يا أُمّ المؤمنين فأنت تعلمين هذا فلم كان الذى منك؟! قالت: يا قتادهٔ وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً، وللقدر أسباب».(۲) وقد كان حماس الأمويين فى هذه المسألهٔ إلى حدّ قد كبح ألسن الخطباء عن الإصحار بالحقيقهٔ، فهذا الحسن البصرى الذى كان من مشاهير الخطباء ووجوه التابعين، وكان يسكت أمام أعمالهم الإجراميهٔ ولكن كان يخالفهم فى القول بالقدر بالمعنى الذى كانت تعتمد عليه السلطهٔ آنذاك. فلمّا خوّفه بعض أصدقائه من السلطان، وعد أن لا يعود. روى ابن سعد فى طبقاته عن أيّوب قال: نازلت الحسن فى القدر غير مرّهٔ حتّى خوفته من السلطان ، فقال: لا أعود بعد اليوم.(۳) كيف وقد جلد محمد بن إسحاق صاحب السيرهٔ النبويهٔ المعروفهٔ فى مخالفته فى القدر. قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب: «إنّ محمّد بن إسحاق اتّهم بالقدر، وقال الزبير عن الدراوردى: وجلد ابن إسحاق يعنى فى القدر.(۴) ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . طبقات ابن سعد: ۵/۱۴۸.

۲ . تاريخ بغداد:۱/۱۶۰.

۳ . طبقات ابن سعد: ۷/۱۶۷.

۴ . تهذيب التهذيب:۹/۳۸ـ ۴۶. (۲۴۲) أحاديث مختلقهٔ لا تفارق الجبر

وفى ظل هذا الإصرار على القضاء والقدر بهذا المعنى نسجت أحاديث لا تفارق الجبر قيد شعرهٔ. وإليك أمثلهٔ منها: ۱. روى مسلم فى صحيحه عن زيد بن وهب، عن عبد اللّه قال: حدّثنا رسول اللّه وهو الصادق أنّ أحدكم يجمع خلقه فى بطن أُمّه أربعين يوماً، ثمّ يكون فى ذلك علقهٔ مثل ذلك، ثمّ يكون فى ذلك مضغهٔ مثل ذلك، ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّهٔ حتّى ما يكون بينه و بينها إلّاذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ;وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه و بينها إلّاذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّهٔ فيدخلها.(۱) ۲. وروى عنه أيضاً حذيفهٔ بن أسيد يبلغ به النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يدخل الملك على النطفهٔ بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسهٔ وأربعين ليلهٔ فيقول: يا ربّ أشقى أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أى رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثمّ تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص.(۲) ۳. قال:جاء سراقهٔ بن مالك بن جعشم قال: يا رسول اللّه بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن فيما العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟ قال: لا ـ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله.(۳) فبناء على الحديث الأوّل لا يقدر الإنسان على إضلال نفسه ولا هدايتها كما ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . صحيح مسلم:۸/۴۴ كتاب القدر.

۲ . صحيح مسلم:۸/۴۵ كتاب القدر.

۳ . جامع الأُصول:۱/۵۱۶ ;صحيح مسلم:۸/۴۸. (۲۴۳)

لا يقدر على أن يجعل نفسه من أهل الجنّهٔ أو النار، فكلّما أراد من شىء يكون الكتاب السابق حائلًا بينه و بين إرادته. والحديث الثانى يدلّ على أنّ الإنسان لا يقدر على تغيير مصيره بالأعمال الصالحهٔ والأدعيهٔ والصدقات، وأنّ الكتاب الذى سبق، حاكم على الإنسان فلا يزاد ولا ينقص وهو يخالف النصوص الثابتهٔ فى القرآن والسنّهٔ من تغيير المصير والزيادهٔ والنقص على المكتوب، بالأعمال الصالحهٔ أو الطالحهٔ. إنّ تفسير القضاء والقدر بهذا الشكل الذى يجعل الإنسان مكتوف اليدين فى بحر الحياهٔ ممّا ترغب عنه الفطرهٔ السليمهٔ. إنّ

هـذه الأحاديث قـد نسـجت وفق المعتقـدات السائدة للسـلطة آنذاك حتى تبرز أنّ الوضع الاجتماعى آنذاك لا يمكن تغييره أبداً فإنّه شيء قـد فرغ منه. فالفقير يجب أن يبقى هكـذا، والغنى كذلك يبقى غنياً، وهكذا المظلوم والظالم. ترى أنّهم قد رووا عن عبد اللّه بن عمر، عن أبيه قـال: يـا رسول اللّه أرأيت مـا نعمـل فيه أمر مبتـدع ـ أو مبتـدأ ـ أو فيمـا قـد فرغ منه؟ فقـال: «بل فيما قـد فرغ منه، يا ابن الخطاب وكلّ ميسر ;أمّا من كان من أهل السعادة فإنّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء». وفى رواية قال: لما نزلت (فَمِنْهُمْ شَقيٌّ وَسَعيدٌ) (۱) سألت رسول اللّه، فقلت: يا نبى اللّه فعلام نعمل، على شىء قد فرغ منه، أو على شىء لم يفرغ منه؟ قال: «بل على شـىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر! ولكن كلّ ميسر لما خلق له».(۲) وهـذا الحديث يعرب عن أنّه قد تم القضاء على الناس فى الأزل وجعلهم صنفين وكل ميسر لما خلق له، لا لما لم يخلق له، فأهل السعادة ميسرون ———————

۱ . هود:۱۰۵.

۲ . جامع الأُصول:۵۱۶/۱۰ـ ۵۱۷، وفيه أخرجه الترمذى. (۲۴۴)

للأعمال الصالحة فقط، وأهل الشقاء ميّسرون للأعمال الطالحة فقط. وهذه المرويات فى الصحاح والمسانيد ـ و قد تقدّم بعضها ـ(۱) لا تفترق عن الجبر وهى تناقض الأُصول المسلّمة العقلية والنقلية وحاشا رسول اللّه وخيرة أصـحابه أن ينبسوا بها ببنت شـفة وإنّما حيكت على منوال عقيـدة السـلطة، وعند ذلك لا تعجب ممّا يقوله أحمد بن حنبل فى رسائله: القدر خيره وشـره وقليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومرّه ومحبوبه ومكروهه وحسـنه وسـيّئه وأوّله وآخره من اللّه. قضاء قضاه، وقدر قدّره، لا يعدو أحد منهم مشـيئة اللّه ولا يجاوز قضاءه، بل كلّهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قدر عليهم لأفعالهم وهو عدل منه عزّ ربّنا وجلّ. والزنى والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشـرك باللّه والمعاصى كلّها بقضاء وقدر.(۲) وقد سرى الجهل إلى أكثر المستشرقين فاستنتجوا من هذه النصوص أنّ الإسـلام مبنى على القول بالجبر وفى ذلك يقول «ايرفنج» ـ من أعلام الكتاب فى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشـر ـ: القاعدة السادسة من قواعد العقيدة الإسلامية هى الجبرية، وقد أقام محمد جلّ اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شؤونه الحربية، وهـذا المـذهب الـذى يقرر أنّ النـاس غير قادرين بإرادتهم الحرة على اجتناب الخطيئـة أو النجاة من العقاب، ويعتبره بعض المسـلمين منافياً لعـدل اللّه، فقـد تكونت عـدّة فرق جاهدت وهم لا يعتبرون من أهل السـنّة.(۳) هـذا غيض من فيض ممّـا يمكن أن يـذكر حول القول بالقـدر وسـيوافيك توضـيحه والمضاعفات الناجمـة عنه عنـد البحث عن عقيـدة الأشاعرة. إنّ هنا كلمـة للشيـخ «محمد الغزالى» المعاصر حول القدر والجبر يعرب ———————

۱ . لاحظ ص ۱۵۶ـ ۱۶۱ من هذا الجزء.

۲ . طبقات الحنابلة:۱/۱۵ بتصرّف يسير، وقد تقدّم نصّ الرسالة.

۳ . حياة محمد : ۵۴۹. (۲۴۵)

عن أنّ المحقّقين من أهل السـنّة بـدأوا يدرسون الإسـلام من جديد أو يدرسون الأُصول الموروثة من أبناء الحنابلة وأهل الحديث من رأس وقد رد على القول بالقدر المستلزم للجبر رداً عنيفاً يعرب عن حريته فى الرأى وشـجاعته الأدبية فى تحليل عقائد الإسلام نقتبس منه ما يلى: فمن الناس من يزعم أنّ الحياة روايـة تمثيلية خادعة، وأنّ التكليف أُكذوبة وأنّ الناس مسوقون إلى مصائرهم المعروفة أزلاً طوعـاً أو كرهاً وأنّ المرسـلين لم يبعثوا لقطع أعـذار الجهل بل المرسـلون خدعـة تتم بها فصول الروايـة أو فصول المأساة والغريب أنّ جمهوراً كبيراً من المسلمين يجنح إلى هذه الفرية بل إنّ عامة المسـلمين يطوون أنفسـهم على ما يشبه عقيدة الجبر، ولكنّهم حياءً من اللّه يسترون الجبر باختيار خافت موهوم، وقد أسـهمت بعض المرويات فى تكوين هذه الشـبهة وتمكينها وكانت بالتالى سبباً فى إفساد الفكر الإسـلامى وانهيـار الحضـارة والمجتمع. إنّ العلم الإلـهى المحيـط بكـلّ شـىء وصّياف كشّاف يصف ما كان ويكشف ما يكون والكتاب الدالّ عليه يسـجل للواقع وحسب!لا يجعل السـماء أرضاً ولا الجماد حيواناً إنّه صورة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقص ولا أثر لهـا فى سـلب أو إيجـاب. إنّ هـذه الأوهام (التقـدير سالب للاختيار) تكـذيب للقرآن والسـنّة ،فنحن بجهـدنا وكـدحنا ننجو أو نهلك

والقول بأنّ كتاباً سبق علينا بذلك، وأنّه لا حيلة لنا بإزاء ما كتب أزلًا، هذا كلّه تضليل وإفك لقوله تعالى: (قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْها) (۱) ، (وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر) .(۲) والواقع أنّ عقيدة الجبر تطويح بالوحى كلّه وتزييف للنشاط الإنسانى من بدء الخلق إلى قيام الساعة بل هى تكذيب للّه والمرسلين قاطبة ومن ثمّ فإنّنا

---

۱ . الأنعام:۱۰۴.

۲ . الكهف:۲۹. (۲۴۶)

نتناول بحذر شديد ما جاء فى حديث مسلم وغيره: إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه و بينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار....(۱) ونظير ذلك ما رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب أنّه سئل عن قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أنفُسِهِمْ ألستُ بربِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنا أن تقُولُوا يومَ القِيامَةِ إنّا كُنّا عِنْ هذا غافِلِين) (۲) قال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول اللّه يسأل عنها فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «إنّ اللّه خلق آدم ثمّ مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريّة فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثمّ مسح على ظهره فاستخرج منه ذريّة فقال: هؤلاء خلقت للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل: يا رسول اللّه ففيم العمل؟ قال: فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : إنّ اللّه إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنّار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله اللّه النار».(۳) فإنّ هذا التفسير المنسوب لعمر يسير فى اتجاه مضاد للتفسير البديهى المفهوم من الآيات البينات. على أنّه ليس هنا أثر من الجبر الإلهى فى الآية التى ورد الحديث فى تفسيرها ولا يفيد أنّ اللّه خلق ناساً للنار يساقون إليها راغمين، وخلق ناساً للجنّة يساقون إليها محظوظين! وإنّ التعلق بالمرويات المعلولة إساءة بالغة للإسلام. كلّ ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين اللّه ودنيا الناس،

---

۱ . قد مرّ نصّ الحديث فى ص ۲۶۴.

۲ . الأعراف:۱۷۲.

۳ . صحيح الترمذى:۵/۲۶۶، رقم الحديث ۳۰۷۵. (۲۴۷)

وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهونون من الإرادة البشرية ومن أثرها فى حاضر المرء ومستقبله، وكأنّهم يقولون للناس: أنتم محكومون بعلم سابق لا فكاك منه ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه، فاجهدوا جهدكم فلن تخرجوا من الخط المرسوم لكم مهما بذلتم! إنّ هذا الكلام الردىء ليس نضح قراءة واعية لكتاب ربّنا، ولا اقتداء دقيقاً بسنة نبيّنا إنّه تخليط قد جنينا منه المر! وكلّ أثر مروى يشغب على حرية الإرادة البشرية فى صنع المستقبل الأُخروى يجب أن لا نلتفت إليه فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنقل لا يهدها حديث واهى السند أو معلول المتن، لكنّنا مهما نوّهنا بالإرادة الإنسانية فلا ننسى أنّنا داخل سفينة يتقاذفها بحر الحياة بين مد وجزر وصعود وهبوط والسفينة تحكمها الأمواج ولا تحكم الأمواج، ويعنى هذا أن نلزم موقفاً محدداً بإزاء الأوضاع المتغيرة التى تمر بنا هذا الموقف من صنعنا وبه نحاسب. أمّا الأوضاع التى تكتنفنا فليست من صنعنا ومنها يكون الاختيار الذى يبت فى مصيرنا، إنّ تصوير القدر على النحو الذى جاءت به بعض المرويات غير صحيح، وينبغى أن لا ـ ندع كتاب ربّنا لأوهام وشائعات تأباها روح الكتاب ونصوصه. القرآن قاطع فى أنّ أعمال الكافرين هى التى أردتهم (يا أَيُّهَا الَّذينَ كَفَروا لا تَعْتَذِرُوا الْيَومَ إِنّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُم تَعْمَلُون) (۱) وقاطع فى أنّ أعمال الصالحين هى التى تنجيهم (وَنُودُوا أنْ تِلْكُمُ الجَنّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون) .(۲) فلا احتجاج بقدر ولا مكان لجبر وعلى من يسيئون الفهم أو النقل أن لا يعكّروا صفو الإسلام. جاءت فى القدر أحاديث كثيرة نرى أنّها بحاجة إلى دراسة جادة حتى يبرأ المسلمون من الهزائم النفسية والاجتماعية التى أصابتهم قديماً وحديثاً.(۳) ________

۱ . التحريم:۷.

۲ . الأعراف:۴۳.

۳ . السنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ۱۴۴ ـ ۱۵۷ بتلخيص. (۲۴۸) تكوين القدرية كرد فعل

و لمّا كان القـدر والقضاء بالمعنى الـذى تروّجه السـلطة الأمويـة مخالفاً للفطرة والعقل قام رجال أحرار فى وجه هـذه العقيـدة يركّزون على القول بحريـة الإنسـان فى إطـار حيـاته فيما يرجع إلى سـعادته وشـقائه، وفيما عينت للثواب والعقاب، ولكن السـلطة اتهمتهم بنفى القضاء والقدر ومخالفة الكتاب والسـنة ثمّوضـعت السيوف على رقاب بعضهم، هذا هو معبد الجهنى اتّهموه بالقدر (نفى القدر) ذهب إلى الحسن البصـرى فقال له: إنّ بنى أُميّة يسفكون الدماء ويقولون إنّما تجرى أعمالنا على قدر اللّه، فقال: كذب أعداء اللّه.(۱) ومعبد هـذا قـد اتّهم بالقدريـة وأنّه أخـذ هـذه العقيدة عن رجل نصـرانى، ولكنّه اتهام فى غالب الظن قد أُلصق به وهو منه براء وهذا الذهبى يعرّفه بقوله: إنّه صدوق فى نفسه، وإنّه خرج مع ابن الأشـعث على الحجاج حتى قتل صبراً، ووثّقه ابن معين ونقل عن جعفر بن سليمان أنّه حدثه مالك بن دينار قال لقيت معبداً الجهنى بمكة بعد ابن الأشعث وهوجريح وكان قاتل الحجاج فى المواطن كلّها.(۲) ولا أظن أنّ الرجل الـذى ضـحى بنفسه فى طريق الجهاد ومكافحة الظالمين ينكر ما هو من أوضح الأُصول وأمتنها، ولو أنكر فإنّما أنكر المعنى الذى اسـتغله النظام آنذاك ويشـهد بذلك محاورته الحسن البصـرى الآنفة. ومثله غيلان الدمشـقى فقد اتّهم بنفس ما اتهم به أُستاذه، فهـذا الشهرسـتانى يقول: كان غيلان يقول بالقـدر خيره وشـره من العبـد. وقيل تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبد العزيز، فلمّا مـات عمر جـاهر بمـذهبه فطلبه هشـام بن عبـد الملـك وأحضـر الأوزاعى لمناظرته، فأفتى بقتله، فصـلب على باب كيسان بـدمشق.(۳)

---

۱ . الخطط المقريزية:۲/۳۵۶.

۲ . ميزان الاعتدال:۴/۱۴۱.

۳ . الملل النحل للشهرستانى:۱/۴۷. (۲۴۹)

وقـد صارت مكافحـة هـذا الاتجاه الظاهر عن معبـد الجهنى وغيلان الدمشـقى ومحاربته سـبباً لظهور المفوّضـة الـذين كانوا يعتقـدون بتفويض الأُمور إلى العبـاد وأنّه ليس للّه سبحانه أى صـنع فى أفعـالهم، فجعلوا الإنسـان خالقـاً لأفعاله، مسـتغنياً عن اللّه سـبحانه فصار كالإلـه فى مجـال الأفعال كمـا كـان القضـاء والقـدر حاكمـاً على كـلّ شـىء ولا يمكن تغييره بأى صورة أُخرى من الصور. فالطرفان يحيدان عن جادة التوحيد ويميلان إلى جانبى الإفراط والتفريط فى الخلق وسيوافيك تفصيل القول فى محله. الاحتجاج بالقدر

إنّ القـدر بـالمعنى الـذى جاء فى الأحـاديث النبويـة من شأنه أن يجعل الإنسان مسلوب الاختيار، مسيراً فى حياته غير مختار فى أفعاله فعنـد ذلك يصـحّ للعبـد أن يحتـجّ على المولى فى عصـيانه ومخالفته. ومن العجيب انّه جاء فى الصـحيحين حديث عن أبى هريرة عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنّه قال: «احتجّ آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبوالبشر الذى خلقك اللّه بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» فقال له آدم: أنت موسى الذى كلّمك اللّه تكليماً وكتب لك التوراة فبكم تجد فيها مكتوباً«وعصى آدم ربّه فغوى» قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين سنة قال فحج آدم موسى».(۱) وقد اضطرب القائلون بالقدر ومالوا يميناً وشـمالاً فى تفسير هـذا الحـديث وأمثاله إذ لو صـحّ القـدر بالمعنى الـذى جاء فى الأحاديث النبوية لكان باب العذر للعبد مفتوحاً على مصراعيه. والعجب من ابن تيمية حيث فسر الحديث فى رسالة أسماها ______

۱ . جامع الأُصول:۱۰/۵۲۳ ـ ۵۲۵ ;صحيح البخارى:۴/۱۵۸ و ۶/۹۶و ۸/۱۲۶و ۹/۱۴۸. (۲۵۰)

بـ«الاحتجـاج بالقـدر» بـأنّ موسـى لم يلم آدم إلاّمن جهـة المصـيبة التى أصابته وذريته بما فعل لا لأجل أنّ تارك الأمر الإلهى مـذنب عاص، ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة. ولم يقل: لماذا خالفت الأمر؟ ولماذا عصيت؟ والناس مأمورون عند المصائب التى تصـيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم، بالتسـليم للقدر وشـهود الربوبية كما قال اللّه تبارك و تعالى: (ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَة إِلاّبِإِذْنِ اللّه)

.(۱) ووجه العجب: أنّ ابن تيميـة قصـر النظر على كلام موسـى حيث اعترض على آدم بـأنّه لمـاذا أخرج نفسه وذريته من الجنـة، ولم يلتفت إلى جواب آدم، فإنّه صـريح فى الاحتجاج بالقـدر فى مورد العصـيان وأنّ معصـيته كانت أمراً مقـدراً قبل أن يخلق فلم يكن بد منها حيث قال لموسـى: أنت موسى الذى كلمك اللّه تكليماً وكتب لك التوراة فبكم تجد فيها مكتوباً«وعصى آدم ربّه فغوى» قبل أن أخلق، قال: بأربعين سـنة قال: فحج آدم موسـى.(۲) وعلى ذلك فموسـى وإن لم يلم آدم إلاّمن جهـة المصـيبة التى أصابته وذريته بما فعل، لكن لما كانت المصيبة نتيجة المعصية، احتج آدم على موسى بأنّ المعصية لما كانت أمراً مقدراً وهو بالنسبة إليها مسيراً، وكانت المصيبة نتيجـة لها، فهو معـذور فى المصـيبة الّتى عمّته وذريته. فالكلّ من السـبب والمسـبب كانا خارجين عن قدرته واختياره فلا لوم على المصيبة لعـدم صـحّة اللوم على المعصـية المقـدّرة قبل خلقته بأربعين سـنة. ثمّ إنّ كثيراً من القائلين بالقـدر بالمعنى الـذى تفيـده ظواهر الأحاديث لمّا رأوا فى صـميم عقلهم وأغوار فكرهم أنّه لا يجتمع معالتكليف، صاروا إلى الإجابـة بأصل مبهم جداً، وهو أنّه «لا يحتـج بالقـدر» . و عندئـذ يتـوجه إليهـم السؤال التـالى: لـو كـان القـدر بـالمعنى الـذى تفيـده ظـواهر الأحـاديث أمراً صـحيحاً يجب

---

۱ . التغابن:۱۱.

۲ . الاحتجاج بالقدر: ۱۸. (۲۵۱)

الإذعان به و بنتائجه ولوازمه وهو كون الإنسان مجبوراً مسـيراً فلا محالة يصحّ الاحتجاج به أيضاً فى مقام الاعتذار. وبالجملة: لا مناص عن اختيار أحـد الأمرين: إمّا الإذعان بالقدر ونتائجه ولوازمه ومنها الاحتجاج على المولى سبحانه فى مقام المخالفة، وإمّا رفض ذلك الاعتقاد والقول بكون الإنسان مخيراً مختاراً. فالجمع بين الإذعان بالقـدر وعـدم الاحتجاج به أشبه بالأخذ بالشـجرة وإضاعة الثمرة. ثمّ إنّ ابن تيميـة قد التجأ فى حلّ العقدة إلى جواب آخر: وهو أنّ القدر لا يحتج به، قال: «وليس القدر حجّة لابن آدم ولا عذراً بل القدر يؤمن به ولا يحتـج به والمحتـج بالقـدر فاسـد العقل والـدين فإنّ القـدر إن كان حجّة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه، وهـذا أمر ممتنع فى الطبيعـة لا ـ يمكن لأحـد أن يفعله، وهو ممتنع طبعاً، محرم شـرعاً، ولما كان الاحتجاج بالقـدر باطلاً فى فطرة الخلق وعقولهم، لم تـذهب إليه أُمّـة من الأُمم، ولا هو مـذهب أحدمن العقلاء».(۱) وكان على ابن تيميـة أن يتنبّه عندئـذ فيجعل عدم احتجاج العقلاء بالقـدر دليلاً على بطلان القـدر بالمعنى الـذى اختاره وتـديّن به، وإلاّفلو صـحّ القـدر لا يصـحّ أن يقال «لا يحتـج به». وبالجملـة: إمّا أن يؤمن بالقـدر ويحتـج به، وإمّا أن لا يؤمن به ولا يحتـج به. وهناك أمر آخر، وهو: أنّ القائل بالقـدر يصـرح بوجوب الإيمان بالقدر خيره وشـره،وبما أنّ القدر فعل اللّه سـبحانه، فتكون النتيجة كون الخير والشر من أفعاله سبحانه وتقديراته حسب ما سبق بـه علمـه واقتضـته حكمته. مع أنّ صـريح الصـحاح من الأحـاديث خلافه وأنّ النـبى ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلّم ـ قـال: «والشـر ليس إليك».(۲)

---

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل:۸۸/۱ـ۹۱.

۲ . سنن النسائى:۱۳۰/۲، كتاب الصلاة، أبواب الافتتاح، باب «نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة». (۲۵۲)

وعلى ذلك فيجب تفسير الشـر بشـكل يناسب مقام الرب كالجدب و المرض والفقر والخوف. وإطلاق الشـر عليها نوع مجاز وتأويل.

محاولة للجمع بين القدر وصحّة التكليف

إنّ بعض المتحذلقين فى العصـر الحاضر لمّا رأى أنّ القدر بالمعنى الذى تفيده ظواهر الروايات لا يجتمع مع الاختيار والحرية ويناقض صحّـة التكليف، صار بصـدد الجمع بينهما فقال: «إنّ للقـدر أربع مراتب: المرتبـة الأُولى: العلم: علمه الأزلى الأبدى، فلا يتجدّد له علم بعد جهل ولا يلحقه نسيان بعد علم. المرتبة الثانية: الكتاب: فنؤمن بأنّ اللّه تعالى كتب فى اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة، قـال سبحانه: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مـا فِى السَّمـاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِى كِتاب انَّ ذلكَ على اللّهِ يَسِيْر) .(۱) المرتبة الثالثة: المشيئة: فنؤمن بـأنّ اللّه تعـالى قـد شـاء كلّ ما فى السـماوات والأرض لا يكون شـىء إلاّبمشـيئته، ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن. المرتبة

الرابعة: الخلق: فنؤمن بأنّ (اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْء و هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْء وَكِيل* لَهُ مقالِيدُ السّماواتِ والأرض) (۲) ». وهذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من اللّه نفسه ولما يكون من العباد. فكلّ ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك، فهى معلومة للّه تعالى مكتوبة عنده واللّه قد شاءها وخلقها. ثمّ يقول: ولكنّنا مع ذلك نؤمن بأنّ اللّه تعالى جعل للعبد اختياراً وقدرة، بهما يكون الفعل، والدليل على أنّ فعل العبد باختياره وقدرته أُمور. ثمّ استدل ب آيات تثبت للعبد إتياناً بمشيئته وإعداداً بإرادته مثل قوله سبحانه: (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنّى شِئْتُم) (۳) وقوله: (وَلَو ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . الحج:۷۰.

۲ . الزمر:۶۲ـ ۶۳.

۳ . البقرة:۲۲۳. (۲۵۳) أرادُوا الخُرُوجَ لأَعدّوا لَهُ عُدَّة)(۱).(۲)

انظر إلى التناقض الذى ارتكبه الكاتب المعاصر وهو بصدد بيان العقيدة الإسلامية، إذ لو كان فعل العبد معلوماً للّه ومكتوباً فى اللوح المحفوظ وقد شاء اللّه فعله وخلقه، فكيف يكون للعبد اختيار وقدرة بهما يوجد الفعل؟ وهل الفعل بعد علمه تعالى وكتابته، ومشيئته وخلقه يكون محتاجاً إلى شىء آخر حتّى يكون لاختيار العبد وقدرته دور فى ذلك المجال؟«هل قرية وراء عبادان»؟؟! فكما أنّه لا يكون للعباد دور فى خلق السماوات والأرض بعد ما تعلّق به علمه سبحانه وكتبه فى لوحه، وشاء وجوده، وخلقه، فهكذا أفعال عباده بعد ما وقعت فى إطار هذه المجالات الأربعة. وبالجملة فعندما تحقّق الخلق من اللّه لا تكون هناك أية حالة انتظارية فى تكوّن الفعل ووجوده. فلا معنى لأن يكون للعبد بعد خلقه سبحانه دور أو تأثير. وأمّا مسألة «الكسب» الذى أضافه إمام الأشاعرة إلى «الخلق» فعده سبحانه خالقاً والعبد كاسباً، فسيوافيك أنّه ليس للكسب مع معقول بعد تمامية الخلقة، فتربص حتى حين. صراع بين الوجدان وظواهر الأحاديث

لاـ شك أنّ كلّ إنسان يجد من صميم ذاته أنّ له قدرة واختياراً ولا يحتاج فى إثباته إلى الاستدلال بالآيات والروايات كما ارتكبه الكاتب وهذا شىء لا يمكن لأحد إنكاره، ولذلك صحّ التكليف وحسن بعث الأنبياء وعليه يدور فلك الحياة فى المجتمع الإنسانى. والقدر بالمعنى الذى تصرح به الأحاديث لا يجتمع مع اختيار العبد وقدرته، فلو صحّ القدر بالمعنى المعروف بين أهل الحديث لم يكن مناص فى ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . التوبة:۴۶.

۲ . «عقيدة أهل السنّة والجماعة» بقلم محمد صالح العثيمين من منشورات الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة: ص ۲۷ـ ۲۹. (۲۵۴) الصراع عن ارتكاب أحد أمرين: إمّا إنكار القدر و القضاء وهو لا يصحّ أن يصدر من مسلم مؤمن بكتاب اللّه، وإمّا إنكار القدرة والاختيار وهو يخالف الوجدان والفطرة السليمة، وأمّا الجمع بينهما فهو أمر غير ممكن. والحقّ أنّ الاعتقاد بالقدر بالمعنى الوارد فى الروايات السابقة لا ينفك عن الجبر قيد شعرة، وللعبد الاحتجاج على المولى بأنّ الفعل ـ بعد تنزّله من مرتبة العلم إلى مرتبة الكتابة ومنهما إلى درجة المشيئة فدرجة الخلق والإيجاد ـ يكون عندئذ مخلوقاً للّه سبحانه و فعلاً له، وكلّ فاعل مسؤول عن فعل نفسه لا فعل غيره.(وَلاـتَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى) (۱). ولا تكون حينئذ للفعل أية صلة بالعبد إلّا كونه ظرفاً للصدور ومحلاً لإيجاده سبحانه. ولكن الإمامية مع اعترافهم بالمراتب الأربع للقدر لاـ يرونه ملازماً للجبر، بل يرون للعبد بعدها اختياراً وحرية. ولأجل ذلك يجب تركيز الكلام فى تفسير كون الفعل مورداً لمشيئته وكونه مخلوقاً له سبحانه، وإليك بيان هذين الأمرين: القول بالقدر لا يلازم الجبر

إنّ منشأ توهم الجبر وكون الإنسان مسيّراً لا مخيّراً أحد أمرين: ۱. كون فعله متعلّقاً لمشيئته سبحانه وما شاء اللّه يقع حتماً. ۲. كونه خالقاً لكلّ شىء حتّى أفعال عباده وإلّا بطل التوحيد فى الخالقية. وبالبيان التالى يظهر بطلان التوهم المذكور، وأنّ واحداً من الأصلين لا يقتضى الجبر، إذا فسر على الوجه الصحيح، لا على الوجه الذى يتبنّاه أهل الحديث وحتى الأشاعرة. فنقول: ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . الأنعام:۱۶۴. (۲۵۵) الأمر الأوّل: تعلّق مشيئته بالأفعال

أمّا كون أفعال العباد متعلّقة لمشيئته سبحانه، فهناك من ينكر ذلك ويقول: إنّ التقدير يختص بما يجرى فى الكون من حوادث كونية ممّا يتعلّق به تدبيره سبحانه، وأمّا أفعال العباد فليست متعلّقة بالتقدير والمشيئة، بل هى خارجة عن إطارهما، والحافز إلى ذاك التخصيص هو التحفّظ على الاختيار ونفى الجبر، فهذا القول يعترف بالقدر ولكن لا ـ فى أفعال العباد بل فى غيرها. يلاحظ عليه: أنَّ الظاهر من الآيات أنّ فعل العباد تتعلّق به مشيئة اللّه، وأنّه لولا مشيئته سبحانه لما تمكن من الفعل. يقول الراغب: لولا أنّ الأُمور كلّها موقوفة على مشيئة اللّه وأنّ أفعالنا معلّقة بها وموقوفة عليها لما أجمع الناس على تعليق الاستثناء به فى جميع أفعالنا نحو (سَتَجِدُنِى إنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرينَ) ، (سَتَجِدُنِى إنْ شَاءَ اللّهُ صابِراً) ، (يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّهُ إن شاء) ، (ادخُلُوا مِصْرَ إن شاءَ اللّهُ) ، (قُلْ لا أملِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً ولا ضَرّاً إلاّ ما شاءَ اللّهُ)، (وَما يكونُ لَنا أنْ نعودَ فِيها إلاّأن يشاءَ اللّهُ ربُّنا) ، (ولا تَقُولَنَّ لِشَىء إنّى فاعِلٌ ذلِكَ غداً * إلاّ أن يشاءَ اللّهُ) .(۱) وهناك آيات أُخر لم يذكرها«الراغب»: ۱. قوله سبحانه: (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَة أو تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلَى أُصُولِها فبإذنِ اللّهِ ولِيُخْزِىَ الفاسِقين) .(۲) فالإذن هنا بمعنى المشيئة وما ذكر من القطع والإبقاء من باب المثال. ۲. قوله سبحانه: (إن هُوَ إلاّ ذِكْرٌ لِلعالَمِين* لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَسْتَقِيم* وما تَشاؤُونَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللّهُ ربُّ العَالَمِينَ) .(۳) ۳. قوله سبحانه: (إنَّ هَذِهِ تَذْكِرةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخذَ إلى ربّهِ سَبِيلاً*

۱ . المفردات:۲۷۱.و الآيات كالتالى: الصافات: ۱۰۲، الكهف:۶۹، هود:۳۳، يوسف:۹۹، الأعراف: ۱۸۸ و ۸۹، والكهف: ۲۳ ـ ۲۴.

۲ . الحشر:۵.

۳ . التكوير:۲۷ـ ۲۹. (۲۵۶) وما تَشاءُونَ إلاّ أن يَشاءَ اللّهُ إنّ اللّه كانَ عليماً حكِيماً) .(۱)

۴. قال سبحانه: (كَلاّ ـ بَلْ لا يَخافُونَ الآخِرَة* كَلاّ إنّهُ تَذْكِرَةٌ* فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ* و ما يَذْكُرُونَ إلاّ أنْ يَشاءَ اللّهُ هُوَ أهْلُ التَّقْوى و أهْلُ المَغْفِرَةِ).(۲) وجه الدلالة فى الآيات الثلاث واحدة ومفعول الفعل(وما تشاءون) فى الآية الأُولى هو الاستقامة. معناه وما تشاءون الاستقامة على الحقّ إلاّ أن يشاء اللّه ذلك، كما أنّ المفعول فى الآية الثانية عبارة عن اتّخاذ الطريق والمعنى وما تشاءون اتّخاذ الطريق إلى مرضاة اللّه تعالى إلاّأن يشاء اللّه تعالى ، كما أنّ المفعول للفعل، (وما يذكرون) فى الآية الثالثة هو القرآن ،أى وما يذكرون القرآن ولا ـ يتذكّرون به إلاّ ـ أن يشاء اللّه. إذا عرفت ذلك ففى الآيات الثلاث الأخيرة احتمالان: الأوّل: المراد أنّكم «لا ـ تشاءون الاستقامة أو اتّخاذ الطريق أو التذكّر بالقرآن إلاّ أن يشاء اللّه أن يجبركم عليه ويلجئكم إليه، ولكنّه لا يفعل، لأنّه يريد منكم أن تؤمنوا اختياراً لتستحقوا الثواب، ولا يريد أن يحملكم عليه» واختاره أبو مسلم كما نقله عنه «الطبرسى» وحاصله: وما تشاءون واحداً من هذه الأُمور إلاّأن يشاء اللّه إجباركم وإلجاءكم إليه، فحينئذ تشاءون ولا ينفعكم ذلك، والتكليف زائل، ولم يشأ اللّه هذه المشيئة، بل شاء أن تختاروا الإيمان لتستحقوا الثواب.(۳) وعلى هذا فالآيات خارجة عمّا نحن فيه، أعنى: كون أفعال البشر على وجه الإطلاق ـ اختيارية كانت أو جبرية ـ متعلّقة لمشيئته سبحانه. الثانى: إنّ الآية بصدد بيان أنّ كلّ فعل من أفعال البشر ومنها الاستقامة واتخاذ الطريق والتذكّر لا تتحقّق إلاّ بعد تعلق مشيئته سبحانه بصدورها غير أنّ

۱ . الإنسان: ۲۹ـ ۳۰.

۲ . المدثر:۵۳ـ ۵۶.

۳ . مجمع البيان:۵/۳۹ و ۴۱۳ و ۴۴۶. (۲۵۷)

لتعلّق مشيئته شرائط ومعدّات منها كون العبد متجرّداً عن العناد واللجاج متهيئاً لقبول الصلاح والفلاح موقعاً نفسه فى مهب الهداية الإلهية، فعند ذلك تتعلّق مشيئته بهداية العبد، وبما أنّ الكفّار المخاطبين فى الآية لم يكونوا واجدين لهذا الشرط لم تتعلّق مشيئته باستقامتهم واتّخاذ الطريق والاتّعاظ بالقرآن. وليس هذا بكلام غريب وإنّه هو المحكّم فى الآيات الراجعة إلى الهداية فإنّ له سبحانه هدايتين:هداية عامة تفيض إلى عامة البشر: مؤمنهم وكافرهم وإليه يشير قوله سبحانه: (إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إمّا شاكِراً وَإمّا كَفُوراً) (۱) وهناك هداية خاصة تفيض منه سبحانه إلى من جعل نفسه فى مهب الرحمة واستفاد من الهداية الأُولى، وإلى ذلك يشير قوله

سبحانه: (وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (۲)، والظاهر من مجموع الآيات حول المشيئة هو الاحتمال الثانى دون الأوّل واختاره العلاّمة الطباطبائى فقال فى تفسير سورة الإنسان. الاستثناء من النفى يفيد أنّ مشيئة العبد متوقّفة فى وجودها على مشيئته تعالى فلمشيئته تعالى تأثير فى فعل العبد من طريق تعلّقها بمشيئة العبد وليست متعلّقة بفعل العبد مستقلّا وبلا واسطة حتى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد وكون الفعل جبرياً ولا أنّ العبد مستقل فى إرادة يفعل ما يشاؤه، شاء اللّه أو لم يشأ، فالفعل اختيارى لاستناده إلى اختيار العبد.(۳) هذا كلّه فى الصغرى أى كون أفعال العباد متعلقة لمشيئته سبحانه. إنّما الكلام فى الكبرى وهو أنّ تعلّق المشيئة بفعل العبد لا يستلزم الجبر، وهذه هى النقطة الحسّاسة فى حلّ عقدة الجبر مع القول بكون أفعالنا متعلّقة لمشيئته. بيان ذلك أنّ هناك فرضين: ۱. تعلّقت مشيئته سبحانه بصدور الفعل من العبد إيجاداً واضطراراً. ۲. تعلّقت مشيئته سبحانه بصدوره منه عن إرادة واختيار. ______

۱ . الإنسان:۳.

۲ . الشورى:۱۳.

۳ . الميزان:۲۰/ ۱۴۲. (۲۵۸)

فالقول بالجبر إنّما هو نتيجة الفرض الأوّل دون الثانى. إنّ مشيئته سبحانه تعلّقت بصدور كلّ فعل عن فاعله مع الخصوصية الموجودة فيه، كالصدور عن لا شعور فى النار بالنسبة إلى الحرارة والصدور عن اختيار فى الإنسان بالنسبة إلى التكلم والمشى. وعلى ذلك يجب أن تصدر الحرارة من النار عن اضطرار، ويصدر التكلّم أو المشى عن الإنسان باختيار وإرادة. فلو صدر الأوّل عن النار بغير هذا الوضع، أو الثانى من الإنسان بغير هذه الكيفية لزم التخلّف عن مشيئته سبحانه وهو محال، إذ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ومجرّد كون الفعل متعلّقاً لمشيئته وأنّ ما شاء يقع، لا يستلزم القول بالجبر، ولا يصير الإنسان بموجبه مسيّراً إذا كان الفعل صادراً عن الفاعل بالخصوصية المكتنفة به. فالنار فاعل طبيعى تعلقت مشيئته سبحانه بصدور أثرها (أى الحرارة) عنها بلا شعور. والإنسان فاعل مدرك شاعر مريد، تعلّقت مشيئته سبحانه بصدور فعله عنه مع الشعور والإرادة. فلو صدر الفعل فى كلا الموردين لا مع هذه الخصوصيات لزم التخلّف. فتنزيه ساحته عن وصمة التخلّف يتوقّف على القول بأنّ كلّ معلول يصدر عن العلّة. لكن بالخصوصية التى خلقت معها. فقد شاء اللّه سبحانه أن تكون النار فاعلاً موجباً، ويصدر عنها الفعل بالإيجاب، كما شاء أن يكون الإنسان فاعلاً مختاراً ويصدر الفعل عنه لكن بقيد الاختيار والحرية. ولقائل أن يقول: إنّ تعلّق المشيئة المهيمنة من اللّه سبحانه على صدور الفعل من العبد عن اختيار موجب لكون صدور الفعل أمراً قطعياً وعدم المناص إلاّعن إيجاده ومع هذا كيف يكون الفعل اختيارياً فإنّ معناه أنّ له أن يفعل وله أن لا يفعل وهذا لا يجتمع مع كون صدور الفعل قطعياً. والجواب: إنّ قطعية أحد الطرفين لا تنافى كون الفعل اختيارياً، وذلك بوجهين: (۲۵۹)

۱. بالنقض بفعل البارى سبحانه، فإنّ الحسن قطعى الصدور، والقبيح قطعى العدم، ومع ذلك فالفعل اختيارى له واللّه سبحانه يعامل عباده بالعدل والقسط قطعاً ولا مناص عنه ولا يعاملهم ظلماً وجوراً قطعاً وبتاتاً، ومع ذلك ففعله سبحانه المتّسم بالعدل، اختيارى لا اضطرارى. ۲. إنّ تعلّق مشيئته سبحانه بأفعال العباد، يرجع لباً إلى تعلّقها بحريتهم فى الفعل والعمل، وعدم وجود موجب للجوئهم إلى أحد الطرفين حتماً فشاء اللّه سبحانه كونهم أحراراً غير مجبورين، مختارين غير مضطرين حتى يهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حى عن بيّنة. هذا كلّه حول المشيئة. الأمر الثانى: خلق الأفعال

وأمّا كون أفعال العباد مخلوقة للّه سبحانه فهذا أصل يجب الاعتراف به بحكم التوحيد فى الخالقية، وبحكم أنّ(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْء وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْء وَكِيلٌ) .(۱) إلاّ أنّه يجب تفسير التوحيد فى الخالقية، وليس معناه انحصار الفاعلية والخالقية، أعمّ من المستقل وغير المستقل باللّه سبحانه، بأن يكون هناك فاعل واحد يقوم مقام جميع العلل والفواعل المدركة وغير المدركة، كما هو الظاهر من عبارات القوم فى تفسير التوحيد فى الخالقية،إذ معنى ذلك رفض مسألة العلية والمعلولية بين الأشياء. وهذا ما لا يوافق عليه العقل ولا الذكر الحكيم، بل معناه أنّه ليس فى صفحة الوجود خالق أصيل غير اللّه، ولا فاعل مستقل سواه سبحانه، وأنّ كلّ ما فى الكون من

كواكب وجبال، وبحار وعناصر، ومعادن وسحب، ورعود وبروق، وصواعق ونباتات، وأشجار وإنسان وحيوان وملك وجن، وعلى الجملة كلّ ما يطلق عليه عنوان الفاعل والسبب كلّها علل وأسباب غير مستقلة ______________

۱ . الزمر:۶۲. (۲۶۰)

التأثير، وأنّ كلّ ما ينسب إلى تلك الفواعل من الآثار ليس لذوات هذه الأسباب بالاستقلال. وإنّما ينتهى تأثير هذه المؤثرات إلى اللّه سبحانه، فجميع هذه الأسباب والمسببات رغم ارتباط بعضها ببعض مخلوقة للّه، فإليه تنتهى العلية، وإليه تؤول السببية، وهو معطيها للأشياء، كما أنّ له تجريدها عنها إن شاء، فهو مسبب الأسباب وهو معطّلها. وهذا هو نتيجة الجمع بين الآيات الناصة على حصر الخالقية باللّه سبحانه، والآيات المثبتة لها لغيره، كما فى قوله سبحانه حاكياً عن سيدنا المسيح ـ على نبيّنا وآله وـ عليه السَّلام ـ ـ:(أَنّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكونُ طيراً بِإِذْنِ اللّه) (۱)، وقوله سبحانه:(فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ).(۲) فهذا الصنف من الآيات الذى يسند الخلق إلى غيره سبحانه إذا قورن بالآيات الأُخرى المصرحة بانحصار الخالقية باللّه سبحانه، مثل قوله تعالى:(قُلِ اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَىْء وَهُوَ الْواحِدُ القَهّار) (۳) يستنتج أنّ الخالقية المستقلة غير المستندة إلى شىء سوى ذات الخالق منحصرة باللّه سبحانه، وفى الوقت نفسه الخالقية والفاعلية غير المستقلة المفاضة من الواهب سبحانه إلى الأسباب، تعم عباده وجميع الفواعل المدركة وغير المدركة. وعلى ذلك فكلّ فعل صادر عن فاعل طبيعى أو مدرك كما يعد فعله سبحانه كذلك يعدّ فعلاً للعبد، لكن بنسبتين. فاللّه سبحانه فاعل لها بالتسبيب، وغيره فاعل لها بالمباشرة. فليست ذاته سبحانه مبدأً للحرارة بلا واسطة النار، أو للأكل والمشى بلا واسطة ______________

۱ . آل عمران:۴۹.

۲ . المؤمنون:۱۴.

۳ . الرعد:۱۶. (۲۶۱)

الإنسان، بل الفاعل الذى تصدر عنه هذه الأُمور هو النار والإنسان، ولكن فاعلية كلّ واحد بقدرته وإفاضة الوجود. وبذلك يتبيّن أنّ أفعال العباد فى حال كونها مخلوقة للّه، مخلوقة للإنسان أيضاً، فالكلّ خالق لا فى عرض واحد، بل فاعلية الثانى فى طول فاعلية الأوّل. والبيتان التاليان يلخّصان هذه النظرية: وكيف فعلنا إلينا فوّضا * وإنّ ذا تفويض ذاتنا اقتضى لكن كما الوجود منسوب لنا * فالفعل فعل اللّه وهو فعلنا وبذلك يتبين أنّ الاعتراف بالمرتبة الثالثة والرابعة من القدر لا يلازم الجبر، بشرط تفسيرهما على النحو الذى تقدّم.(۱) *** ثمّ إنّ هناك رسائل ثلاثاً تعدّ من بدايات علم الكلام فى القرن الأوّل تعرب عن آراء متضاربة فى استلزام القول بالعلم الإلهى السابق، القول بالجبر وعدمه. فالأمويون على الأوّل وفى مقدّمتهم عمر بن عبد العزيز. وغيرهم على الثانى كالحسن البصرى وأصحابه، نذكر نصّ الرسالتين إحداهما لعمر بن عبد العزيز والأُخرى للحسن وهما يغنيان عن الرسالة الثالثة للحسن بن محمد بن الحنفية، كما سنذكره. عرف الأمويون منذ عصر معاوية إلى آخر دولتهم أنّ سلطتهم على الناس لا تبقى إلاّ مع إذاعة فكرة الجبر بين الأُمّة. وقد أشرنا إلى نماذج من أقوال معاوية فيما سبق، ونضيف فى المقام ما نقله القاضى عبد الجبار عن الشيخ أبى على الجبائى أنّه قال: إنّ أوّل من قال بالجبر وأظهره معاوية، وإنّه أظهر أنّ ما يأتيه بقضاء اللّه ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه ويوهم أنّه مصيب فيه وأنّ اللّه جعله إماماً وولاّه الأمر وفشا ذلك فى ملوك بنى أُميّة. وعلى هذا القول قتل هشام بن عبد الملك غيلان رحمه اللّه ، ثمّ نشأ بعدهم ______________

۱ . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا: «مفاهيم القرآن» :۱/۲۹۹ـ ۳۳۴. (۲۶۲)

يوسف السمنى فوضع لهم القول بتكليف مالا يطاق، وأخذ هذا القول عن ضرير(۱) وكان بواسط زنديقاً نبوياً(۲) وقال جهم: إنّه لا فعل للعبد. وتبعه ضرار فى المعنى، وإن أضاف الفعل إلى العبد وجعله كسباً له وفعلاً وإن كان خلقاً للّه عنده.(۳) الرسائل الثلاث

إنّ الأُمّة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الأوّل ومجموع القرنين التاليين كانت تعيش فى مأزق حرج بالنسبة إلى العقائد

الإسلامية عامة، والجبر والاختيار خاصة، إذ لم تكن العقيدة الإسلامية مدوّنة ولا مضبوطة، وتكفينا فى البرهنة على ذلك الرسائل الثلاث التى تعد من أقدم الوثائق التاريخية فى مسائل علم الكلام: الرسالة الأُولى: الرسالة المنسوبة إلى الحسن بن محمد بن الحنفية (المتوفّى حوالى ۱۰۰هـ) حفيد الإمام على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ، ويستظهر أنّها كتبت بإيحاء من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (المتوفّى۸۶هـ) وأنّ تاريخ تأليفها يرجع إلى سنة ۷۳هجرى.(۴) الرسالة الثانية: ما كتبه الحسن البصرى (المتوفّى ۱۱۰هـ) إلى الخليفة نفسه. والرسالتان تقعان على جانبى النقيض، فالأُولى تمثّل فكرة الجبر لكن بصورة ملائمة، والأُخرى تبيّن عقيدة الاختيار والحرية. الرسالة الثالثة: رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز رداً على قدرى مجهول ــــــــــــــ

۱ . كلمة ضرير وصف لا علم.

۲ . كذا فى المصدر ويحتمل أن تكون الكلمة تحريف: «ثنوياً».

۳ . المغنى للقاضى عبد الجبار:۸/۴.

۴ . ترجمه ابن سعد فى الطبقات الكبرى و قال: يكنّى أبا محمد، و كان من ظرفاء بنى هاشم وأهل العقل منهم و كان يقدم على أخيه أبى هاشم فى الفضل والهيئة، توفّى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ولم يكن له عقب.(الطبقات الكبرى:۵/۳۲۸). (۲۶۳)

الهوية افترض أنّه ينكر العلم الأزلى، ليستريح من عواقب الجبر، فردّ عليه مثبتاً لعلمه القديم، وخرج بالجبر الشديد الذى ربما لا يقع موقع القبول حتى لدى بعض الطوائف الجبرية كالأشاعرة. ولأجل إيقاف القارئ على الحالة الحرجة التى كان المسلمون يعانون منها، ننشر نص رسالة عمر بن عبد العزيز فإنّها تغنى عن الرسالة المنسوبة إلى حفيد الإمام، إذ هما تتحدان م آلاً ونهاية، ونردفها بنشر رسالة الحسن البصرى التى تقع منها على جانب النقيض. غير أنّا نقدم فى المقام الخطبة المروية عن الإمام على ـ عليه السَّلام ـ حول القضاء والقدر، ثمّ نردفها بكتاب لابنه الحسن ـ عليه السَّلام ـ إلى الحسن البصرى عند ما سأله عن القدر. وإليك الخطبة:

۱. خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السَّلام ـ

۱. خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السَّلام ـ

روى الكلينى عن على بن محمد، عن سهل بن زياد مرفوعاً قال: كان أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخ فجثا بين يديه(۱)، ثمّ قال له:يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من اللّه وقدر؟ فقال أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ: «أجل يا شيخ ما علوتم تلعة(۲) ولا هبطتم بطن واد إلّابقضاء من اللّه وقدر. فقال له الشيخ: عند اللّه أحتسب عنائى(۳) يا أمير المؤمنين؟ فقال له: «مه يا شيخ! فواللّه لقد عظّم اللّه الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون، وفى مقامكم وأنتم مقيمون، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليه مضطرين». فقال له الشيخ: وكيف لم نكن فى شىء من حالاتنا مكرهين ولا ـ إليه مضطرين، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟ فقال له: «وتظن أنّه كان قضاء حتماً وقدراً لازماً؟ إنّه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهى والزجر من اللّه، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب، ولا ــــــــــــــ

۱ . جثا يجثوا جثواً وجثياً بضمهما: جلس على ركبتيه وأقام على أطراف أصابعه.

۲ . والتلعة ما ارتفع من الأرض.

۳ . أى منه أطلب أجر مشقتى. (۲۶۵)

محمدة للمحسن، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان وقدرية هذه الأُمّة ومجوسها. إنّ اللّه تبارك وتعالى كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يملك مفوضاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث

النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار». فأنشأ الشيخ يقول: أنت الإمام الذى نرجو بطاعته * يوم النجاة من الرحمن غفراناً أوضحت من أمرنا ماكان ملتبساً * جزاك ربّك بالإحسان إحساناً (۱) وقال الرضى: ومن كلام له ـ عليه السَّلام ـ للسائل الشامى لما سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من اللّه وقدر؟ بعد كلام طويل هذا مختاره: ويحك! لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدراً حاتماً! ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. وإنّ اللّه سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً،ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً: (ذلِكَ ظَنُّالّذِينَ كفروا فَوَيلٌ لِلّذينَ كَفَرُوا مِنَ النّار)(۲) .(۳) روى هذا النصّ من الإمام مشايخ الحديث فى القرن الثالث والرابع منهم: ۱. ثقة الإسلام الكلينى (حوالى ۲۵۰ ـ ۳۲۹هـ) فى جامعه «الكافى» ج۱، ص ۱۵۵ بسند مرفوع. ۲. الصدوق (۳۰۶ـ ۳۸۱هـ) فى توحيده ص ۲۷۳، و فى عيون أخبار الرضا ، ج۱، ص ۱۳۸ بأسانيد ثلاثة. ________

۱ . الكافى:۱/۱۵۵ـ ۱۵۶، كتاب التوحيد باب الجبر والقدر.

۲ . ص : ۲۷.

۳ . نهج البلاغة: قسم الحكم الرقم ۷۸. (۲۶۶)

۳. أبو محمد الحسن بن على الحسينى بن شعبة الحرّانى الذى يروى عن أبى على محمد بن الهمام الإسكافى الذى (توفّى عام ۳۳۶هـ) فالرجل من أعلام أواسط القرن الرابع. ۴. الشيخ المفيد(۳۳۶ـ ۴۱۳هـ) فى كتابه «العيون والمحاسن» ص ۴۰. ۵. محمد الرضى جامع نهج البلاغة (۳۵۹ ـ ۴۰۶هـ). ۶. محمد بن على الكراجكى (المتوفّى ۴۴۹هـ) فى كتابه «كنز الفوائد» ص ۱۶۹. وهؤلاء أساتذة الحديث عند الشيعة لا ـ يمتون للاعتزال ولا للمعتزلة بصلة، بل يصارعونهم فى كثير من المسائل والمبادئ، ولبعضهم ردود على المعتزلة فى بعض المجالات، كما ستوافيك أسماؤها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد المعتزلة، وبعد هذا لا يصحّ تقوّل بعض المتحذلقين كالدكتور على سامى النشار حيث رأى أنّ هذا النصّ موضوع على لسان على ـ عليه السَّلام ـ ببراعة نادرة يرى فيه محاكاة ممتازة بأسلوب على ـ عليه السَّلام ـ بحجة أنّه ورد فيه جميع المصطلحات المعتزلية.(۱) يلاحظ عليه: أنّ الكاتب لم يتحمّل جهد التتبع حتى يقف على مصادر الحديث فى كتب الشيعة فى القرن الثالث والرابع فألقى الكلام على عواهنه فحكم بوضع النصّ، وقد عرفت وجوده فى كتب الشيعة الذين كانوا هم والمعتزلة متصارعين وأمّا ما تمسّك به من وجود مصطلحات المعتزلة فى الكلام فهو ناشئ عن عدم إلمام الرجل بتاريخ تكوّن المعتزلة فإنّهم أخذوا أكثر مبادئهم من خطب الإمام على ـ عليه السَّلام ـ فى التوحيد والعدل، مضافاً إلى أنّ «عطاء بن واصل» مؤسس المنهج تتلمذ على يد «أبى هاشم» ولد «محمد بن الحنفية»، وهو أخذ عقائده عن أبيه وهو عن على ـ عليه السَّلام ـ ، و هذا شىء قطعى فى التاريخ، ولا ينكره إلّا المتعصّب وهو ________

۱ . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام:۱/۴۱۲. (۲۶۷)

ممّا تعترف به أئمّة الاعتزال، كما سيوافيك نصوصهم فى الجزء الثالث إن شاءاللّه. إنّ مسألة القضاء والقدر و كون الإنسان مخيّراً أو مسيّراً ليست من المسائل التى طرحتها المعتزلة بل من المسائل القديمة التى كانت مطروحة عند جميع الأُمم، و قد عرفت عقيدة المشركين المعاصرين للنبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كما عرفت بعض الأحاديث المروية عن الخلفاء حول القدر والجبر، فلو كان وجود تلك المصطلحات شاهداً على وضع النص، فليكن ذلك شاهداً على كون أحاديث القدر بأجمعها موضوعة لاشتمالها على مصطلحات لم تكن موجودة فى عصر الرسول الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . والعجب العجاب أنّ الدكتور ينكر النص ولكنّه يصحح روايات أبى هريرة ويقول: وقد أكثر حقاً من روايات الحديث لكثرة ملازمة الرسول.(۱) ولا ـ أظن أنَّ من درس تاريخ حياة أبى هريرة يوافق الدكتور فى هذا الرأى، فإنّه أسلم بعد خيبر وما أدرك من حياة الرسول إلّاسنتين وبضعة أشهر، ومع ذلك فهوأكثر الصحابة حديثاً!! فيفوق عدد أحاديثه أحاديث عائشة وعلى ـ عليه السَّلام ـ مع أنّ عليّاً ـ عليه السَّلام ـ عاش فى كنف النبى ـ

صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ من لدن ولادته إلی أن لبّی الرسول دعوة ربّه، فمرویات الإمام فی الصحاح والمسانید حوالی خمسمائة حدیثاً و مرویات أبی هریرة تناهز خمسة آلاف حدیث!! ________________

۱ . المصدر السابق:۱/۲۸۵. (۲۶۸)

۲. کتاب الحسن السبط ـ علیه السَّلام ـ

۲. کتاب الحسن السبط ـ علیه السَّلام ـ إلی الحسن البصری

کتب الحسن بن أبی الحسن البصری(۱) إلی أبی محمد الحسن بن علی ـ علیهما السَّلام ـ: أما بعد فإنّکم معشر بنی هاشم الفلک الجاریة فی اللجج الغامرة والأعلام النیرة الشاهرة أو کسفینة نوح ـ علیه السَّلام ـ التی نزلها المؤمنون ونجا فیها المسلمون، کتبت إلیک یابن رسول اللّه عند اختلافنا فی القدر وحیرتنا فی الاستطاعة، فأخبرنا بالذی علیه رأیک ورأی آبائک ـ علیهم السَّلام ـ. فإنّ من علماللّه علمکم وأنتم شهداء علی الناس واللّه الشاهد علیکم، ذرّیة بعضها من بعض، واللّه سمیع علیم. فأجابه الحسن ـ علیه السَّلام ـ: «بسم اللّه الرحمن الرّحیم وصل إلی کتابک، ولولا ـ ما ذکرته من حیرتک وحیرة من مضی قبلک إذاً ما أخبرتک، أمّا بعد: فمن لم یؤمن بالقدر خیره وشره، [و]أنّ اللّه یعلمه فقد کفر، ومن أحال المعاصی علی اللّه فقد فجر، إنّ اللّه لم یطع مکرهاً ولم یعص مغلوباً ولم یهمل العباد سدی من المملکة، بل هو المالک لما ملکهم والقادر علی ما علیه أقدرهم، بل أمرهم تخییراً، ونهاهم تحذیراً، فإن ائتمروا بالطاعة لم یجدوا عنها صاداً، وإن انتهوا إلی معصیة فشاء أن یمن علیهم بأن یحول بینهم وبینها فعل، وإن لم یفعل

____

۱ . هو الحسن بن یسار، مولی زید بن ثابت، أخو سعید وعمارة، المعروف بالحسن البصری، مات سنة ۱۱۰ هـ وله تسع وثمانون سنة. (۲۶۹)

فلیس هو الذی حملهم علیها جبراً ولا أُلزموها کرهاً، بل منّ علیهم بأن بصّرهم وعرّفهم وحذّرهم وأمرهم ونهاهم لا جبلاً لهم علی ما أمرهم به فیکونوا کالملائکة، ولا ـ جبراً لهم علی ما نهاهم عنه وللّه الحجّة البالغة، فلو شاء لهداکم أجمعین، والسلام علی من اتّبع الهدی».(۱) ________________

۱ . تحف العقول: ۲۳۱ ;ورواه المجلسی فی البحار:۱۰/۱۳۶ نقلاً عن کتاب العدد القویة لدفع المخاوف الیومیة تألیف الشیخ الفقیه رضی الدین علی بن یوسف بن المطهّر الحلّی ;وأیضاً رواه الکراجکی فی کنز الفوائد: ۱۷۰ الطبعة الأُولی، بأدنی اختلاف فی اللفظ. (۲۷۰)

۳. رسالة عمر بن عبد العزیز

۳. رسالة عمر بن عبد العزیز فی الرد علی القدریة(۱)

حدثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق السراج، ثنا أبو الأشعث أحمد بن المقدام، ثنا محمد بن بکر البرسانی، ثنا سلیم بن نفیع القرشی، عن خلف أبی الفضل القرشی، عن کتاب عمر بن عبد العزیز: ۱. إلی النفر الذین کتبوا إلیّ بما لم یکن لهم بحق فی ردّ کتاب اللّه، وتکذیبهم بأقداره النافذة فی علمه السابق الذی لا حدّ له إلاّ اللّه ولیس لشیء مخرج منه، وطعنهم فی دین اللّه و سنّة رسوله القائمة فی أُمّته. ۲. أمّا بعد، فإنّکم کتبتم إلیّ بما کنتم تستترون فیه قبل الیوم فی ردّعلم اللّه والخروج منه إلی ما کان رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلّم ـ یتخوّفه علی أُمّته من التکذیب بالقدر. ۳. وقد علمتم أنَّ أهل السنّة کانوا یقولون: الاعتصام بالسنّة نجاة، وسینقص العلم نقصاً سریعاً، وقول عمر بن الخطاب وهو یعظ الناس: «إنّه لا عذر لأحد عند اللّه بعد البیّنة بضلالة رکبها حسبها هدی،ولا فی هدی ترکه ________________

۱ . نقلها أبو نعيم الإصبهانى فى كتابه «حلية الأولياء» :۵/۳۴۶ـ ۳۵۳ فى ترجمة عمر بن عبد العزيز. ونحن ننقلها عمّا نشره «المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية» تحت عنوان «بدايات علم الكلام» عام النشر۱۹۷۷م. (۲۷۱)

حسبه ضلالة. قد تبيّنت الأُمور وثبتت الحجة وانقطع العذر» فمن رغب عن أنباء النبوة وما جاء به الكتاب تقطعت من يديه أسباب الهدى ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى. ۴. وإنّكم ذكرتم أنّه بلغكم أنّى أقول: إنّ اللّه قد علم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون، فأنكرتم ذلك علىّ وقلتم: إنّه ليس يكون ذلك من اللّه فى علم حتى يكون ذلك من الخلق عملاً ـ ۵. فكيف ذاك كما قلتم؟! واللّه يقول:(إِنّا كاشِفُوا العَذابِ قَليلاً إِنَّكُمْ عائِدُون) (۱) يعنى العائدين فى الكفر وقال: (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُون) .(۲) ۶. فزعمتم بجهلكم فى قول اللّه: (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر) (۳) أنّ المشيئة فى أى ذلك أحببتم، إليكم من ضلالة أو هدى. ۷. واللّه يقول: (وَما تَشاءُونَ إِلاّأَنْ يَشاء اللّهُ ربُّ العالمينَ) (۴)، فبمشيئة اللّه لهم شاءوا، لو لم يشأ لم ينالوا بمشيئتهم من طاعته شيئاً، قولاً ولا عملاً، لأنّ اللّه لم يملّك العباد ما بيده و لم يفوّض إليهم ما يمنعه من رسله. فقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً، فما اهتدى منهم إلاّمن هداه اللّه ;ولقد حرص إبليس على ضلالتهم جميعاً، فما ضلّ منهم إلاّمن كان فى علم اللّه ضالاً. ۸. وزعمتم بجهلكم أنّ علم اللّه ليس بالذى يضطر العباد إلى ما عملوا من معصيته ولا بالذى يصدّهم عمّا تركوا من طاعته، ولكنّه بزعمكم كما علم أنّهم سيعملون بمعصيته، كذلك علم أنّهم سيستطيعون تركها. ۹. فجعلتم علم اللّه لغواً، تقولون: لو شاء العبد لعمل بطاعة اللّه وإن كان فى علم اللّه أنّه غير عامل بها، ولو شاء ترك معصيته وإن كان فى علم ـــــــــــــــــــ

۱ . الدخان:۱۵.

۲ . الأنعام:۲۸.

۳ . الكهف:۲۹.

۴ . التكوير:۲۹. (۲۷۲)

اللّه أنّه غير تارك لها، فأنتم إذا شئتم أصبتموه وكان علماً، وإذا شئتم رددتموه وكان جهلاً، وإن شئتم أحدثتم من أنفسكم علماً ليس فى علم اللّه، وقطعتم به علم اللّه عنكم، وهذا ما كان ابن عباس يعده للتوحيد نقضاً، وكان يقول: «إنّ اللّه لم يجعل فضله ورحمته هملاً بغير قسم ولاـ احتظار، ولم يبعث رسله بإبطال ما كان فى سابق علمه» فأنتم تقرّون بالعلم فى أمر وتنقضونه فى آخر، واللّه يقول: (...يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيديهِمْ وَما خَلفَهُمْ وَلا يُحيطُونَ بِشَىء مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ...) .(۱) فالخلق صائرون إلى علم اللّه ونازلون عليه وليس بينه شىء هو كائن حجاب يحجبه عنه ولا يحول دونه، إنّه عليم حكيم. ۱۰. وقلتم: لو شاء لم يعذب بعمل. ۱۱. بغير ما أخبر اللّه فى كتابه عن قوم(وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُون) (۲) وأنّه سيمتعهم قليلاً(ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (۳)، فأخبر أنّهم عاملون قبل أن يعملوا وأخبر أنّه معذّبهم قبل أن يخلقوا. ۱۲. وتقولون أنتم إنّهم لو شاءوا خرجوا من علم اللّه فى عذابهم إلى ما لم يعلم من رحمته لهم. ۱۳.ومن زعم ذلك فقد عادى كتاب اللّه بالرد. ولقد سمّى اللّه رجالاً من الرسل بأسمائهم وأعمالهم فى سابق علمه، فما استطاع آباؤهم لتلك الأسماء تغييراً، وما استطاع إبليس بما سبق لهم فى علمه من الفضل تبديلاً، فقال: (وَاذْكُر عِبادَنا إِبْراهيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الأَيدِى وَالأَبصار* إِنّا أَخلَصْناهُمْ بِخالِصة ذِكرى الدّار) (۴) فاللّه أعزّ فى قدرته وأمنع من أن يملك أحداً إبطال علمه فى شىء من ذلك، فهو المسمّى لهم بوحيه الذى (لا يَأْتيهِ ـــــــــــــــــــ

۱ . البقرة:۲۵۵.

۲ . المؤمنون:۶۳.

۳ . هود:۴۸.

۴ . ص: ۴۵ ـ ۴۶. (۲۷۳) الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلا مِنْ خَلْفِه)(۱) أو أن يشرك فى خلقه أحداً، أو أن يدخل فى رحمته من قد أخرجه منها، أو أن يخرج منها من قد أدخله فيها. ولقد أعظم باللّه الجهل من زعم أنّ العلم كان بعد الخلق، بل لم يزل اللّه وحده بكلّ شىء

علیماً وعلی کلّ شیء شهیداً قبل أن یخلق شیئاً، وبعد ما خلق لم ینقص علمه فی بدئهم ولم یزد بعد أعمالهم، ولا تغیر بالجوائح التی قطع بها دابر ظلمهم، ولم یملک إبلیس هدی نفسه ولا ضلالة غیره.وقد أردتم بقذف مقالتکم إبطال علم اللّه فی خلقه وإهمال عبادته، وکتاب اللّه قائم بنقض بدعتکم وإفراط قذفکم. ولقد علمتم أنّ اللّه بعث رسوله والناس یومئذ أهل الشرک، فمن أراد اللّه له الهدی لم تحل ضلالته الّتی کان فیها دون إرادة اللّه له، ومن لم یرد اللّه له الهدی ترکه فی الکفر ضالاً فکانت ضلالته أولی به من هداه.

۱۴. فزعمتم أنّ اللّه أثبت فی قلوبکم الطاعة والمعصیة، فعملتم بقدرتکم بطاعته وترکتم بقدرتکم معصیته، وإنّ اللّه خلو من أن یکون یختص أحداً برحمته أو یحجز أحداً عن معصیته. ۱۵. وزعمتم أنّ الشیء الذی یقدر إنّما هو عندکم الیسر والرخاء والنعمة وأخرجتم منه الأعمال. ۱۶. وأنکرتم أن یکون سبق لأحد من اللّه ضلالة أو هدی أو أنّکم الذین هدیتم أنفسکم من دون اللّه، وأنّکم الذین حجزتموها عن المعصیة بغیر قوة من اللّه ولا إذن منه. ۱۷. فمن زعم ذلک فقد غلا فی القول، لأنّه لو کان شیء لم یسبق فی علم اللّه وقدره لکان للّه فی ملکه شریک ینفذ مشیئته فی الخلق من دون اللّه واللّه یقول: (حَبَّبَ إِلَیْکُمُ الإیمانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُم) (۲) وهم له قبل ذلک کارهون (وَ کَرَّهَ إِلَیْکُمُ الْکُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْیانَ)(۳) وهم له قبل ذلک محبون وما کانوا علی شیء من ذلک لأنفسهم بقادرین. ثمّ أخبرنا بما سبق لمحمّد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ

۱ . فصلت:۴۲.

۲ . الحجرات:۷.

۳ . الحجرات:۷. (۲۷۴)

من الصلاة علیه والمغفرة له ولأصحابه فقال: (أَشِدّاءُ عَلَی الکُفّارِ رُحماءُ بَیْنَهُمْ) (۱) وقال: (لِیَغْفِرَ لَکَ اللّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَما تَأَخَّرَ) (۲)، فکرماً غفرها اللّه له قبل أن یعملها ثمّ أخبرنا بما هم عاملون قبل أن یعملوا وقال: (تَراهُمْ رُکّعاً سُجّداً یَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْواناً) (۳). فضلاً سبق لهم من اللّه قبل أن یخلقوا ورضواناً عنهم قبل أن یؤمنوا. ۱۸. وتقولون أنتم إنّهم قد کانوا ملکوا ردّ ماأخبر اللّه عنهم أنّهم عاملون وإنّ إلیهم أن یقیموا علی کفرهم مع قوله، فیکون الذی أرادوا لأنفسهم من الکفر مفعولاً ولا یکون لوحی اللّه فیما اختار تصدیقاً. ۱۹. بل (فللّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ) (۴) و (هی) فی قوله: ه(لولا کِتابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیما أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ) (۵)، فسبق لهم العفو من اللّه فیما أخذوا قبل أن یؤذن لهم. ۲۰. وقلتم: لو شاءوا خرجوا من علم اللّه فی عفوه عنهم إلی ما لم یعلم من ترکهم لما أخذوا. ۲۱. فمن زعم ذلک فقد غلاـ و کذب، و لقد ذکر بشراً کثیراً هم یومئذ فی أصلاب الرجال وأرحام النساء فقال:(وَآخرِینَ مِنْهُمْ لمّا یَلْحَقُوا بِهِم) (۶)، (والّذِینَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِم یَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلإخوانِنَا الّذِین سَبَقُونا بالإیمان)(۷)، فسبقت لهم الرحمة من اللّه قبل أن یخلقوا والدعاء لهم بالمغفرة ممّن لم یسبقهم بالإیمان من قبل أن یدعوا.

۱ . الفتح:۲۹.

۲ . الفتح:۲.

۳ . الفتح:۲۹.

۴ . الأنعام:۱۴۹.

۵ . الأنفال:۶۸.

۶ . الجمعة:۳.

۷ . الحشر:۱۰. (۲۷۵)

۲۲. ولقد علم العالمون باللّه أنّ اللّه لا یشاء أمراً فیحول مشیئته غیره دون بلاغ ما شاء، ولقد شاء لقوم الهدی فلم یضلّهم أحد وشاء إبلیس لقوم الضلالة فاهتدوا. فقال لموسی وأخیه: (اذْهَبا إِلی فِرْعَونَ إِنّهُ طَغی* فَقُولا لَهُ قَولاً لَیناً لَعَلَّهُ یَتَذَکّرُ أَوْ یَخْشَی)(۱)، وموسی فی سابق علمه أنّه یکون لفرعون عدواً وحزناً فقال: (ونُرِیَ فِرعونَ وهامانَ وجُنُودَهُما مِنهُم ما کانُوا یَحْذَرُونَ) .(۲) ۲۳. فتقولون أنتم: لو

شاء فرعون كان لموسى ولياً وناصراً، واللّه يقول:(لِيَكونَ لَهُمْ عَدُواً وحَزَناً) (٣). وقلتم: لو شاء فرعون لامتنع من الغرق واللّه يقول:(إِنّهُمْ جُنْدٌ مُغرَقُونَ) (۴). فثبت ذلك عنده في وحيه في ذكر الأوّلين، كما قال في سابق علمه لآدم قبل أن يخلقه: (إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَهْ) (۵) فصار إلى ذلك بالمعصية التي ابتلى بها، وكما كان إبليس في سابق علمه أنّه سيكون (مَذْمُوماً مَدْحُوراً) (۶) وصار إلى ذلك بما ابتلى به من السجود لآدم فأبى، فتلقى آدم بالتوبة فرحم و تلقى إبليس باللعنة فغوى، ثمّ أهبط آدم إلى ما خلق له من الأرض مرحوماً متوباً عليه، وأهبط إبليس بنظرته مدحوراً مسخوطاً عليه. ٢۴. وقلتم أنتم: إنّ إبليس وأولياءه من الجنّ قد كانوا ملكوا ردّ علم اللّه والخروج من قسمه الذى أقسم به إذ قال: (فَالحَقُّ وَالحَقَّ أقولُ* لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ ممّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (٧)حتّى لا ينفذ له علم إلّا بعد مشيئتهم. ______________

١ . طه:۴٣ـ۴۴.

٢ . القصص: ۶.

٣ . القصص:٨.

۴ . الدخان:٢۴.

۵ . البقرة:٣٠.

۶ . الإسراء:١٨.

٧ . ص:٨۴ ـ ٨۵. (٢٧۶)

٢۵. فماذا تريدون بهلكة أنفسكم في ردّ علم اللّه؟ فإنّ اللّه جلّوعلا لم يشهدكم خلق أنفسكم، وكيف يحيط جهلكم بعلمه؟ وعلم اللّه ليس بمقصر عن شيء هو كائن، ولا يسبق علمه في شيء فيقدر أحد على ردّه. ولو كنتم تنتقلون في كلّ ساعة من شيء إلى شيء هو كائن، لكانت مواقعكم عنده. ولقد علمت الملائكة قبل خلق آدم ما هو كائن من العباد في الأرض(من الفساد) وسفك الدماء فيها، وما كان لهم في الغيب من علم، فكان في علم اللّه الفساد وسفك الدماء، وما قالوه تخرصاً إلّا بتعليم العليم الحكيم لهم فظن ذلك منهم، وأنطقهم به. ٢۶. فأنكرتم أنّ اللّه أزاغ قوماً قبل أن يزيغوا وأضلّ قوماً قبل أن يضلّوا. ٢٧. وهذا ممّا لا يشك فيه المؤمنون باللّه: إنّ اللّه قد عرف قبل أن يخلق العباد مؤمنهم من كافرهم وبرهم من فاجرهم. وكيف يستطيع عبد هو عند اللّه مؤمن أن يكون كافراً أو هو عند اللّه كافر أن يكون مؤمناً؟ واللّه يقول: (أوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فأحْيَيناهُ وجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها) (١). فهو في الضلالة ليس بخارج منها أبداً إلّا بإذن اللّه. ٢٨. ثمّ آخرون «اتّخذوا» من بعد الهدى(عِجْلاً جَسَداً) (٢) فضلّوا به، فعفا عنهم لعلّهم يشكرون،فصاروا (مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُونَ) (٣) وصاروا إلى ما سبق لهم. ثمّ ضلّت ثمود بعد الهدى فلم يعف عنهم ولم يرحموا، فصاروا في علمه إلى (صَيْحَةً واحِدَةً فَإذا هُمْ خامِدُونَ)(۴)، فنفذوا إلى ما سبق لهم، لأنّ صالحاً رسولهم وأنّ الناقة (فِتْنَةً لَهُمْ) (۵) وأنّه مميتهم كفّاراً، فعقروها. ______________

١ . لأنعام:١٢٢.

٢ . الأعراف:١۴٨.

٣ . الأعراف:١۵٩.

۴ . يس:٢٩.

۵ . القمر:٢٧. (٢٧٧)

٢٩. وكان إبليس فيما كانت فيه الملائكة من التسبيح والعبادة فابتلى فعصى فلم يرحم، وابتلى آدم فعصى فرحم. وهمّ آدم بالخطيئة فنسي، وهمّ يوسف بالخطيئة فعصم، فأين كانت الاستطاعة عند ذلك؟ هل كانت تغني شيئاً فيما كان من ذلك حتى لا يكون، أو تغني فيما لم يكن حتى يكون، فنعرف لكم بذلك حجّة؟ بل اللّه أعزّممّا تصفون وأقدر. ٣٠. وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من اللّه

ضلالـة أو هـدى، وإنّما علمه بزعمكم حافظ وإنّ المشيئة فى الأعمال إليكم، إن شـئتم أحببتم الإيمان فكنتم من أهل الجنة. ثمّ جعلتم بجهلكم حـديث رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ الـذى جاء به أهل السنّة ـ و هو مصـدق للكتاب المنزل ـ أنّه من ذنب مُضاه ذنباًخبيثاً، فى قول النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حين سأله عمر: «أرأيت ما نعمل أشـىء قـد فرغ منه أم شـىء تأتنفه؟ فقال ـ عليه السَّلام ـ : «بـل شـىء قـد فرغ منه». فطعنتم بالتكـذيب له ، و تعليم من اللّه فى علمه إذ قلتم: إن كنّا لا نسـتطيع الخروج منه فهو الجبر. والجبر عندكم الحيف. ۳۱. فسمّيتم نفاذ علم اللّه فى الخلق حيفاً. ۳۲. وقـد جاء الخبر أنّ اللّه خلق آدم فنثر ذريّته فى يـده فكتب أهل الجنّة ومـا هم عـاملون، وكتب أهـل النـار ومـا هم عاملون. وقال سـهل بن حنيف يوم صـفين : أيّها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، فوالذى نفسى بيده، لقد رأيتنا يوم أبى جندل ولو نستطيع رد أمر رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لرددناه. واللّه ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلاّأسـهلت بنا على أمر نعرفه قبل أمركم هـذا. ۳۳. ثمّ أنتم بجهلكم قـد أظهرتم دعوة حقّ على تأويل باطل تـدعون الناس إلى ردّ علم اللّه فقلتم: الحسنة من اللّه والسيّئة من أنفسنا ;وقال أئمّتكم وهم أهل السنّة:الحسنة من اللّه فى قدر سبق، والسيّئة من أنفسنا فى علم قد سبق. ۳۴. فقلتم: لا يكون ذلك حتّى يكون بدؤها من أنفسنا كما بدء السيّئة من أنفسنا. (۲۷۸)

۳۵. وهـذا رد الكتاب منكم ونقض الـدين، وقـد قال ابن عباس رضـى اللّه عنه حين نجم القول فى القـدر: هذا أوّل شـرك هذه الأُمّة، واللّه، مـا ينتهى بهم سـوء رأيهم حتّى يخرجـوا اللّه من أن يكـون قـدر خيراً كمـا أخرجوه من أن يكون قـدر شـراً. ۳۶. أنتم تزعمون بجهلكم أنّ من كان فى علم اللّه ضالاً فاهتدى، فهو بما ملك ذلك حتّى كان فى هداه ما لم يكن اللّه علمه فيه، وأنّ من شـرح صدره للإسـلام فهو ممّا فوض إليه قبل أن يشرحه اللّه له، وأنّه إن كان مؤمناً فكفر فهو ممّا شاء لنفسه وملك من ذلك لها وكانت مشيئته فى كفره أنفذ من مشيئة اللّه فى إيمانه. ۳۷. بل أشـهد أنّه من عمل حسنة فبغير معونة كانت من نفسه عليها، وأنّ من عمل سيئة فبغير حجّة كانت له فيها وأنّ الفضل بيـد اللّه يؤتيه من يشاء وأنّ اللّه لو أراد أن يهـدى الناس جميعاً لنفـذ أمره فيمن ضلّ حتّى يكون مهتدياً. ۳۸. فقلتم: بمشـيئته شاء لكم تفويض الحسنة إليكم وتفويض السيئة، ألقى عنكم سابق علمه فى أعمالكم وجعل مشيئته تبعاً لمشيئتكم. ۳۹. ويحكم، فواللّه، ما أمضى لبنى إسرائيل مشيئتهم حين أبوا أن يأخذوا ما آتاهم بقوّة حتى نتق(الجَبَلَ فَوْقَهُم كَأَنَّهُ ظُلَّة) (۱). فهل رأيتموه أمضـى مشـيئة لمن كان قبلكم فى ضـلالته حين أراد هداه حتى صار إلى أن أدخله بالسيف فى الإسلام كرهاً بموقع علمه بذلك فيه؟ أم هـل أمضـى لقوم يونس مشـيئتهم حين أبوا أن يؤمنوا حتى أظلّهم العـذاب ف آمنوا و قبـل منهم، ورد على غيرهم الإيمان فلم يقبل منهم. وقال:(فَلَمّا رأوا بَأْسنا قالُوا آمَنّا باللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرنا بما كُنّا بِهِ مُشْرِكين* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لما رأَوا بَأْسَـنا سُنّةَ اللّهِ الّتى قَدْ خَلَتْ فى عِبادِهِ) (۲) أى علم اللّه الذى قد خلا فى خلقه(وَخَسِرَ هُنالِكَ ـــــــــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . الأعراف:۱۷۱.

۲ . غافر:۸۴ـ۸۵. (۲۷۹) الكافِرُون)(۱)وذلـك كـان موقعهم عنـده أن يهلكوا بغير قبول منهم، بل الهـدى والضـلالة والكفر والإيمان والخير والشر بيد اللّه يهدى من يشاء ويذر من يشاء (فى طُغيانهم يَعْمَهُون) (۲). كذلك قال إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ : (رَبِّ ... واجْنُبْنى وَبَنِىَّ أنْ نعبُدَ الأَصنامَ) (۳)، قال: (رَبّنا وَاجْعَلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرّيّتِنَا أُمّةً مُسْلِمةً لَك)(۴)، أى إنّ الإيمان والإسلام بيدك وإنّ عبادة من عبد الأصنام بيدك، فأنكرتم ذلك وجعلتموه ملكاً بأيديكم دون مشيئة اللّه عزّوجلّ.

۴۰. وقلتم فى القتـل إنّه بغير أجل. ۴۱. وقـد سـمّاه اللّه لكم فى كتابه فقال ليحيى: (وَسَـلامٌ عَليهِ يَومَ وُلِدَ ويَومَ يَمُوتُ وَيَوَم يُبْعَثُ حَيّاً) (۵) فلم يمت يحيى إلاّـ بالقتـل، وهو موت كمـا مـات من قتـل شـهيداً أو قتـل خطـأ كما مات بمرض أو بفجأة، كلّ ذلك موت بأجل استوفاه ورزق استكمله وأثر بلغه ومضجع برز إليه، (وَ ما كانَ لِنَفْس أنْ تَمُوتَ إلاّ بِإذنِ اللّهِ كِتاباً مُؤَجّلا) (۶) ولا تموت نفس ولها فى الـدنيا عمر ساعـة إلاّ بلغته ولا موضع قدم إلاّ وطئته ولا مثقال حبة من رزق إلاّ اسـتكملته ولا مضـجع حيث كان إلاّبرزت إليه، يصدق ذلك قول اللّه عزّوجلّ(قُلْ لِلّذِينَ كَفَرُوا سَـتُغْلبُون و تُحْشَرُون إلى جَهَنّم) (۷)، فأخبر اللّه بعـذابهم بالقتل فى الـدنيا وفى الآخرة بالنار وهم أحيـاء بمكـة. ۴۲. وتقولـون أنتـم: إنّهـم قـد كـانوا ملكـوا رد علم اللّه فى العـذابين الـذين أخبر اللّه ورسوله أنّهمـا نازلاـن بهم.

---

۱ . غافر:۸۵.

۲ . الأعراف:۱۸۶.

۳ . إبراهيم:۳۵.

۴ . البقرة:۱۲۸.

۵ . مريم:۱۵.

۶ . آل عمران:۱۴۵.

۷ . آل عمران:۱۲. (۲۸۰)

۴۳. فقال: (ثانِیَ عِطْفهِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ لَهُ فِی الدُّنیا خِزْیٌ) (۱) یعنی القتل یوم بدر (ونُذِیقُهُ یَومَ القِیامَةِ عَذابَ الحَرِیقِ) (۲) فانظروا إلی ما أرادکم فیه رأیکم کتاباً سبق فی علمه بشقائکم إن لم یرحمکم. ۴۴. ثمّ قول رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : «بنی الإسلام علی ثلاثة أعمال: الجهاد ماض منذ یوم بعث اللّه رسوله إلی یوم تقوم فیه عصابة من المؤمنین یقاتلون الدجّال لا ینقض ذلک جور جائر ولا ـ عدل عادل، والثانیة: أهل التوحید لا تکفروهم بذنب ولا تشهدوا علیهم بشرک ولا تخرجوهم من الإسلام بعمل، والثالثة: المقادیر کلّها خیرها وشرها من قدر اللّه». فنقضتم من الإسلام جهاده، وجرّدتم شهادتکم علی أُمّتکم بالکفر وبرئتم منهم ببدعتکم، وکذبتم بالمقادیر کلّها والآجال والأعمال والأرزاق، فما بقیت فی أیدیکم خصلة بنی الإسلام علیها إلاّنقضتموها وخرجتم منها. *** هذه رسالة عمر بن عبد العزیز إلی بعض القدریین مجهولی الهویة، وقد نسب إلیهم إنکار علمه الأزلی فی أفعال العباد، ومصائرهم، ونحن نتبرّأ ممّن ینکر علمه الوسیع المحیط بکلّ شیء، ونؤمن بما قاله سبحانه: (وَلا رَطْب وَلا یابس إِلاّ فی کِتاب مُبِین). (۳)

وقوله سبحانه: (ما أَصابَ مِنْ مُصیبَة فِی الأَرْضِ وَلا فِی أَنفُسِکُمْ إِلاّ فِی کتاب من قَبلِ أَنْ نَبَرَأَها إِنَّ ذلکَ عَلی اللّهِ یَسیر) .(۴) ولکن نتبرّأ من کلّ من جعل علمه السابق ذریعة إلی نسبة الجبر إلی اللّه سبحانه، ونؤمن بأنّ علمه السابق المحیط لا یکون مصدراً لکون العباد مجبورین فی مصائرهم وأنّهم یعملون ویفعلون، ویختارون بمشیئتهم التی منحها اللّه لهم فی حیاتهم، لیهلک من هلک عن بیّنة، ویحیا من حیّ عن بیّنة. ---

۱ . الحج:۹.

۲ . الحج:۹.

۳ . الأنعام:۵۹.

۴ . الحدید:۲۲. (۲۸۱)

فمنکر علمه السابق المحیط بکلّ شیء ضالّ مضلّ، ومن استنتج منه الجبر مثله فی الضلالة والغوایة، عصمنا اللّه جمیعاً من الزلّة، والعثرة فی العلم والعمل. ولأجل أن یقف القارئ الکریم علی أنّه کان فی تلک العصور الحرجة رجال من أهل السنّة یذهبون إلی غیر ما ذهب إلیه أصحاب السلطة الأمویون ننشر رسالة الحسن البصری فی ذلک المجال، وهی رسالة قیمة.(۱) ---

۱ . الهدف هو نشر هذه الرسالة لما فیها من فائدة، ولا صلة له بتقییم الحسن البصری فی کلّ ما یقول أو ما یروی عنه أو ینسب إلیه، فإنّ لبیان ذلک مجالاً آخر. (۲۸۲)

۴. رسالة الحسن البصری فی الدفاع

۴. رسالة الحسن البصری فی الدفاع عن نظریة الاختیار

قال القاضی عبد الجبار:المشهور أنّ عبد الملک بن مروان کاتبه بأنّه قد بلغنا عنک من وصف القدر ما لم یبلغنا عن أحد من الصحابة، فاکتب بقولک إلینا فی هذا الکتاب، فکتب إلیه: بسم اللّه الرّحمن الرّحیم سلام علیک أمّا بعد: فإنّ الأمیر أصبح فی قلیل من کثیر مضوا، والقلیل من أهل الخیر مغفول عنهم، و قدیماً قد أدرکنا السلف الذین قاموا بأمر اللّه، واستنّوا بسنّة رسوله، فلم یبطلوا حقاً، ولا ألحقوا بالرب تعالی إلاّ ـ ما ألحق بنفسه،ولا ـ یحتجون إلاّ ـ بما احتج اللّه تعالی به علی خلقه بقوله الحقّ:(وَماخَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ لیعبُدُونِ) (۱). ولم یخلقهم لأمر ثمّ حال بینهم و بینه، لأنّه تعالی لیس بظلام للعبید ولم یکن فی السلف من ینکر ذلک ولا یجادل فیه، لأنّهم کانوا علی أمر واحد متسق.(۲) وإنّما أحدثنا الکلام فیه، حیث أحدث الناس النکرة له، فلمّا أحدث المحدثون فی دینهم ما أحدثوه، أحدث المتمسّکون بکتابه ما یبطلون به المحدثات، ویحذرون به من المهلکات. ________________

۱ . الذاریات:۵۶.

۲ . فی مخطوطة أیا صوفیا:متفقین. (۲۸۳)

وذکر: إنّ الذی أوقعهم فیه تشتت الأهواء، وترک کتاب اللّه تعالی، ألم تر إلی قوله: (قُلْ هاتُوا بُرهانَکُمْ إنْ کُنْتُمْ صادِقِین) (۱). فافهم أیّها الأمیر ما أقوله، فإنّ ما نهی اللّه عنه فلیس منه، لأنّه لا یرضی ما یسخط، وهو من العباد، فإنّه تعالی یقول: (ولا یَرضی لِعبادِهِ الکُفرَ وَإنْ تشکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ) .(۲) فلو کان الکفر من قضائه وقدره، لرضی به ممّن عمله، وقال تعالی: (وَقَضی ربُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إلاّ إیّاهُ) (۳)؟! وقال: (وَالّذی قدَّرَ فَهَدی) (۴) ولم یقل والذی قدّر فأضل، لقد أحکم اللّه آیاته وسنّة نبیّه ـ علیه السَّلام ـ فقال: (قُلْ إنْ ضَلَلتُ فَإنّما أَضِلُّ عَلی نَفسِی وَإنِ اهْتَدَیْتُ فَبِما یُوحِی إلیَّ رَبِّی)(۵). وقال: (الّذی أَعطی کُلَّ شَیْء خَلْقَهُ ثُمّ هَدَی) (۶). ولم یقل ثمّ أضل، وقال: (إنّ عَلَیْنا لَلْهُدی) (۷)، ولم یقل إنّ علینا للضلال ولا یجوز أن ینهی العباد عن شیء فی العلانیة، ویقدره علیهم فی السر، ربّنا أکرم من ذلک وأرحم ولو کان الأمر کما یقول الجاهلون ما کان تعالی یقول: (اعْمَلُوا ما شِئْتُم)(۸). ولقال: اعملوا ما قدرت علیکم، وقال: (لِمَنْ شاءَ مِنْکُمْ أنْ یَتَقدَّمَ أو یَتَأَخَّرَ) (۹). لأنّه جعل فیهم من القوّة ذلک لینظر کیف یعملون، ولو کان الأمر کما قاله المخطئون، لما کان إلیهم أن یتقدّموا ولا یتأخّروا،ولا کان لمتقدم حمد فیما عمل، ولا علی متأخّر لوم، ولقال: جزاء بما عمل بهم، ولم یقل جزاء بما عملوا وبما کسبوا، وقال تعالی: (وَنَفْس وَما سَوّاها* فَأَلْهَمَها فُجُورَها ________________

۱ . النمل: ۶۴.

۲ . الزمر:۷.

۳ . الإسراء:۲۳.

۴ . الأعلی: ۳.

۵ . سبأ:۵۰.

۶ . طه:۵۰.

۷ . اللیل:۱۲.

۸ . فصلت: ۴۰ .

۹ . المدثر:۳۷. (۲۸۴) وَتَقواها) .(۱) أی بیّن لها ما تأتی و ما تذر ثمّ قال: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها).(۲) فلو کان هو الذی دسّاها ما کان لیخیب نفسه، تعالی عمّا یقول الظالمون علوّاً کبیراً، وقوله تعالی: (رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعفاً فِی النّار).(۳)

فلو کان اللّه هو الذی قدّم لهم الشر، ما قال ذلک، وقال تعالی: (رَبّنا إنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَکُبراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِیلا)(۴). فالکبراء أضلّوهم دون اللّه تعالی، بل قال تعالی: (إنّا هَدَیْناهُ السَّبیلَ إمّا شاکِراً وَإمّا کَفُوراً)(۵) (وَمَنْ شَکَرَ فَإنّما یَشْکُرُلِنَفْسِهِ) (۶). وقال: (وَأَضلَّ فِرعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدَی).(۷) وقال تعالی: (وما أضَلَّنا إلاّ المُجْرِمُون) (۸). (وأضَلَّهُمُ السّامِری) (۹). (إنَّ الشیطانَ یَنْزَغُ بَیْنَهُمْ)(۱۰). (فَزَیَّنَ لَهُمُ

الشّيطانُ أعْمالَهُم).(۱۱) و قال: (وَ أمّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحبُّوا العَمى عَلى الهُدى)(۱۲)فكان بدو الهدى من اللّه واستحبابهم العمى بأهوائهم وظلم آدم نفسه، ولم يظلمه ربّه فقال:(رَبَّنا ظَلَمْنا أنْفُسَنا)(۱۳). وقال موسى :(هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيطانِ إنّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبين)(۱۴) . فغواه أهل الجهل وقالوا: (فَإِنَّ ــــــــــــــــــــ

۱ . الشمس:۷ و ۸.

۲ . الشمس:۹و ۱۰.

۳ . ص:۶۱.

۴ . الأحزاب:۶۷.

۵ . الإنسان:۳.

۶ . لنمل:۴۰.

۷ . طه:۷۹.

۸ . الشعراء:۹۹.

۹ . طه:۸۵.

۱۰ . الإسراء:۵۳.

۱۱ . النحل:۶۳.

۱۲ . فصلت:۱۷.

۱۳ . الأعراف:۲۳.

۱۴ . القصص:۱۵. (۲۸۵) اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهْدِى مَنْ يَشاءُ)(۱) ولِمَ لم ينظروا إلى ما قبل الآيـة وما بعـدها، ليبيّن لهم أنّه تعالى لا يضـلّ إلاّـ بتقـدّم الكفر والفسق، كقوله تعالى: (ويُضِلُّ اللّهُ الظّالِمِينَ)(۲). وقـوله: (فَلَمّـا زَاغُوا أزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ) (۳). (ومـا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسِقِين) (۴).

وبين الحسن فى كلامه الوعيـد، فقال: إنّه تعالى قال: (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَـةُ العَذَابِ أَفأنتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النّارِ)(۵). وقال :(كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الّذِيَن فَسَقُوا) .(۶) وقال تعالى: (أُدْخُلُوا فِى السّلْمِ كَافَّة) (۷). فكيف يدعوهم إلى ذلك وقد حال بينهم وبينه؟ وقال: (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُول إلاّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللّهِ)(۸). فكيف يجوز ذلـك و قـد منع خلقه من طاعته؟ قال: والقوم ينازعون فى المشـيئة وإنّما شاء اللّه الخير بمشـيئته قال: (يُريـدُ اللّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ العُسرَ) (۹). وقـال فى ولـد الزنى إنّه من خلق اللّه، وإنّما الزانى وضـع نطفته فى غير حقّهـا، فتعـدّى أمر اللّه، واللّه يخلق من ذلـك مـا يشـاء وكـذلك صـاحب البـذر إذا وضـعه فى غير حقّه.(۱۰) وقال فى الرسالة: إنّ اللّه تعالى أعدل وأرحم من أن يعمى عبداً، ثمّ يقول له: أبصر وإلاّ عذبتك، وإذا خلق اللّه الشقى شقياً، ولم يجعل له سبيلاً إلى السـعادة فكيف يعـذبه؟! وقد قال اللّه تعالى لآدم وحواء: (فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَة)(۱۱). فغلبهما الشيطان على هواه ثمّ قال: (يا بَنِى ــــــــــــــــــــ

۱ . فاطر:۸.

۲ . إبراهيم:۲۷.

۳ . الصف:۵.

۴ . البقرة: ۲۶ .

۵ . الزمر:۱۹.

۶ . يونس:۳۳.

۷ . البقرة:۲۰۸.

۸ . النساء:۶۴.

۹ . البقرة:۱۸۵.

۱۰ . كذا فی النسخة والظاهر: حقله.

۱۱ . الأعراف:۱۹. (۲۸۶) آدمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيطانُ كَما أَخرجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ) .(۱) وليس للشيطان عليهم سلطان إلّا ليعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها فی شك. وبعث اللّه الرسول نوراً ورحمة فقال: (اسْتَجِيبُوا للّهِ وللرّسُولِ) (۲) وقال: (اسْتَجِيبُوا لرَبِّكُم) (۳) وقال: (أَجِيبُوا داعِيَ اللّهِ) (۴) و(وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوه)(۵) وقال: (وَما كُنّا مُعذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (۶) فكيف يفعل ذلك ثمّ يعميهم عن القبول. وقال تعالى: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ) (۷) وينهى عمّا أمر به الشيطان قال فی الشيطان : (يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصحابِ السَّعِيرِ) (۸) فمن أجاب الشيطان كان من حزبه، فلو كان كما قال الجاهلون لكان إبليس أصوب من الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ إذ دعاؤه إلى إرادة اللّه تعالى وقضائه، ودعت الأنبياء إلى خلاف ذلك، وإلى ما علموا أنّ اللّه قد حال بينهم و بينه.

وقال القوم فيمن أسخط اللّه: إنّ اللّه جبلهم على إسخاطه، وكيف يسخط أن عملوا بقضائه عليهم وإرادته، واللّه يقول: (ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَدَاكَ) (۹) وهؤلاء الجهّال يقولون: إنّ اللّه قدّمه وما أضلّهم سواه: (لِيُرْدُوهُمْ ولِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ولو شاءَ اللّهُ ما فَعَلُوهُ)(۱۰) فلو كان الأمر كما زعموا، لكان الدعاء والأمر لا تأثير له، لأنّ الأمر مفروغ منه، لكن التأويل على غير ما قالوه وقد قال تعالى: (ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وذلِكَ ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . الأعراف:۲۷.

۲ . الأنفال:۲۴.

۳ . الشورى:۴۷.

۴ . الأحقاف:۳۱.

۵ . الأنعام:۱۵۳.

۶ . الإسراء:۱۵.

۷ . النحل:۹۰.

۸ . فاطر:۶.

۹ . الحج:۱۰.

۱۰ . الأنعام:۱۳۷. (۲۸۷) يَومٌ مَشْهُود) (۱)، والسعيد ذلك اليوم هو المتمسّك بأمر اللّه والشقی هو المضيع.

وقال فی الرسالة: واعلم أيّها الأمير، أنّ المخالفين لكتاب اللّه تعالى وعدله يحيلون فی أمر دينهم بزعمهم على القضاء والقدر ثمّ لا يرضون فی أمر دنياهم إلّا بالاجتهاد والتعب والطلب والأخذ بالحزم فيه. وذلك لثقل الحقّ عليهم، ولا يعولون فی أمر دنياهم وفی سائر تصرفهم على القضاء والقدر، فلو قيل لأحدهم: لا تستوثق فی أُمورك، ولا تقفل حانوتك احترازاً لمالك و اتّكل على القضاء والقدر، لم يقبل ذلك، ثمّ يعوّلون عليه فی الذی قال: وما يحتجون به أنّ اللّه تعالى قبض قبضة فقال: «هذا فی الجنّة و لا أُبالی. وقبض أُخرى و قال: هذا فی النار ولا أُبالی». فإنّهم يرون ربّهم يصنع ذلك، كالمقارع بينهم المجازف، فتعالى اللّه عمّا يصفونه. فإن كان الحديث حقّاً، فقد علم اللّه تعالى أهل الجنّة وأهل النار، قبل القبضتين وقبل أن خلقهم، فإنّما قبض اللّه أهل الجنة الذين فی علمه أنّهم يصيرون إليها، و إنّما مرادهم أن يقرروا فی نفوس الذين يقبلون ما رووه، أن تكون أعمال الناس هباءً منثوراً، من حيث قد فرغ من الأمر، وكيف يصح ذلك مع قوله: (تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ و تَنْشَقّ الأرضُ وتَخِرُّالجِبَالُ هَدّاً* أن دَعَوْا للرّحمنِ وَلَداً)(۲) وهو الذی حملهم عليه. وما معنى قوله: (فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُون) (۳) وقد منعهم؟ وكيف يقول: (ما كانَ لأَهلِ المَدينةِ ومَن حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعرابِ أَنْ

يَتَخَلّفُوا عَنْ رَسُولِ اللّهِ) (۴) بـل كان يجب أن يقول: ما كان لأهل المدينـة أن يعملوا بما قضـيت عليهم(۵)، ولمـا قال: (فَلَولا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيّة يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ فِی ـــــــــــــــــ

۱ . هود:۱۰۳.

۲ . مريم:۹۰ـ۹۱.

۳ . الانشقاق:۲۰.

۴ . التوبة:۱۲۰.

۵ . كذا فی النسخة والظاهر: إلاّ بما قضيت عليهم. (۲۸۸) الأرْض) (۱). وهو الذی حال بينهم و بين الطاعة.

وإذا كـان الأمر مفروغـاً منه، فكيف يقول: (لَيْسَ عَلَىالأَعْمَى حَرَجٌ ولاـ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ولاـ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ) (۲) وكيف ابتلى العبـاد فعـاقبهم على فعلهم؟ وكيف يقول:(إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وَإمّا كَفُوراً) (۳) وكيف يقول: (قَدَّرَ فَهَدَى) (۴) ولم يقل قدّر فأضـل، وكيف يصـحّ أنّه خلقهم للرّحمـة والعبـادة بقوله: (فِطْرَةَ اللّهِ الّتی فَطَرَالنّاسَ عَلَيْهـا)(۵) وقـوله : (فَطَرَكُمْ أَوّلَ مَرَّة) (۶) وقوله: (إلاّمَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَلِذلِکَ خَلَقَهُمْ) (۷) فإذا خلقهم لذلک، فكيف يصحّ أن لا يجعل لهم سبيلًا، ويقرهم على السعادة والشقاء على ما يذكرون. وكيف يبتلى إبليس بالسجود لآدم، فإذا عصى يقول له(فَاهْبِطْ مِنها) (۸) ويجعله شيطاناً رجيماً؟ وكيف يقول:(فَمَا يَكُونُ لَکَ أَنْ تَتَكَبّرَ فِيها) (۹) وكيف يحـذر آدم عـداوته. إن كان الأمر مفروغاً منه على ما تقولون؟ وقال فی الرسالـة: واعلم أيّها الأمير ما أقول: إنّ اللّه تعالى لم يخف عليه بقضائه شـیء، ولم يزدد علماً بالتجربـة، بل هو عالم بما هو كائن وما لم يكن، ولـذلک قال: (ولَوْ بَسَطَاللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا)(۱۰)، (ولَوْلا أنْ يَكُونَ النّاسُ أُمّةً واحِدَةً)(۱۱) فعلم سبحانه أنّه خلق خلقاً من ملائكة وجن وإنس، وأنّه يبتليهم قبل أن يخلقهم، وعلم ما يفعلون كما قدّر أقواتهم، وقدّر ثواب أهل ـــــــــــــــــ

۱ . هود:۱۱۶.

۲ . النور:۶۱.

۳ . الإنسان:۳.

۴ . الأعلى:۳.

۵ . الروم:۳۰.

۶ . الإسراء:۵۱.

۷ . هود:۱۱۹.

۸ . الأعراف:۱۳.

۹ . الأعراف:۱۳.

۱۰ . الشورى:۲۷.

۱۱ . الزخرف:۳۳. (۲۸۹)

الجنّة وعقـاب أهـل النار قبل ذلک، ولو شاء إدخال العصاة النار لفعل، لكنّه سـهل سبيلهم لتكون الحجـة البالغـة له على خلقه، والعلم ليس بـدافع إلى معاصـيه، لأنّ العلم غير العمل، (فَتَبَارَکَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِين) .(۱) وقال: فی قولهم فی الضـلال والهدى، وقوله: (وَلو شـاءَ ربُّکَ لآمَنَ مَنْ فِی الأرضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) (۲)، (وَلَو شـاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى) (۳)، لأنّ المراد بـذلک إظهار قـدرته على ما يريده كما قال: (إنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرْضَ أَوْ نَسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ) (۴)، (ولو نشاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ)(۵)، (ولَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أعْيُنِهِمْ)(۶)، (ولَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِی كُلِّ قَرْيَة نَذِيراً)(۷)، و قـال: (فَلَعَلَّکَ بَاخِعٌ نَفْسَکَ عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا) (۸)، حتّى بلغ من قوله أن قال:(فَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِیَ نَفقاً فِی الأَرضِ أو سُلَّماً فِی السَّماءِ)(۹) ، فإنّما يـدلّ بذلک رسوله على قدرته، فكذلک

غیر الـذی شـاء منهم،ولـذلک قـال فی حجتهم یـوم القیامـهٔ ردّاً علیهم لقـولهم: (لَوْ أَنَّ اللّهَ هَـدانِی لَکَنتُ مِنَ المُتَّقِینَ)(۱۰) ورد ذلک بقوله: (بَلی قَدْ جاءَتْک آیاتِی فَکَذَّبْتَ بِها وَاسْتَکْبَرْتَ).(۱۱) وقال تعالی بعد ما حکی عنهم قولهم: (لو شاءَ الرّحمَنُ ما عَبَدْنَاهُمْ ما لَهُمْ بِـذَلِک مِنْ عِلْم إنْ هُمْ إلاّـ یَخْرُصُونَ).(۱۲) وقال تعالی بعـد ما حکی عنهم قولهم: (سَـیَقُولُ الّـذِینَ أشْـرَکُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ ما أشْـرَکْنَا ولاَ آباؤُنا ولا حَرَّمنا مِنْ ______

۱ . المؤمنون:۱۴.

۲ . یونس:۹۹.

۳ . الأنعام:۳۵.

۴ . سبأ:۹.

۵ . یس:۶۷.

۶ . یس: ۶۶ .

۷ . الفرقان:۵۱.

۸ . الکهف:۶.

۹ . الأنعام:۳۵.

۱۰ . الزمر:۵۷.

۱۱ . الزمر:۵۹.

۱۲ . الزخرف:۲۰. (۲۹۰) شَیْء) (۱) مکـذباً لهم:(کَذلِکَ کَذَّبَ الّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّی ذاقُوا بَأْسَـنا) (۲)، فنعوذ بـاللّه ممن ألحق باللّه الکـذب. وجعلوا القضاء والقـدر معـذرهٔ، وکیف یصحّ ذلک مع قوله: (وَما ظَلَمْناهُمْ وَلکِنْ کانُوا هُمُ الظّالمین) (۳)؟! وکیف یصحّ أن یقول: (وَما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَهٔ فَمِنْ نَفْسَکَ)(۴)؟! أی العقوبـهٔ التی أصابتـک هی من قبل نفسک بعملک. ولو شاء تعالی أن یأخـذهم بالعقوبـهٔ من دون معصـیهٔ لقـدر علی ذلـک، لکنّه رؤوف رحیم. ولـذلک أرسل موسـی إلی فرعون و قـد قال: (ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إله غَیْرِی)(۵) فقـال: (فَقُولا لَهُ قَولاً لَیِّنَاً)(۶) وقـال: (اذْهَبْ إلی فِرْعَوْنَ إنّهُ طَغَی) (۷) (فَقُـلْ هَلْ لَکَ إلی أنْ تَزَکّی) (۸) وقال:(وَلَقَدْ أَخذنا آلَ فِرْعَونَ بِـالسِّنینَ وَنَقْص مِنَ الثَّمراتِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرون) (۹) فیتوبون، فلمّـا لجّوا فی کفرهم بعـد ذلـک الأـمر والترغیب إلی طـاعته، أخذهم بما فعلوا.

قـال: ثمّ انظر أیّها الأمیر، کیف صـنیعه لمن أطاع فقال: (إلاّقَوْمَ یُونُسَ لمّا آمَنُوا کَشَـفْنا عَنْهُمْ عَـذابَ الخِزْیِ فِی الحَیاهِْ الـدُّنیا ومَتَّعْناهُمْ إلی حِین)(۱۰) ، (ولَوْ أنَّ أهْلَ القُری آمَنُوا وَاتُّقوا لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ)(۱۱) ، (ولو أنّهُمْ أقامُوا التوراهَْ والإنجیل)(۱۲) ، و قال موسی: (ادْخُلُوا الأـرضَ المُقَدَّسَـهَْ الّتِی کَتَبَ اللّهُ لَکُمْ ولاـ تَرْتَـدُّوا عَلَی أدْبـارِکُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِـرِینَ)(۱۳) ، وقـال: (فَلَمّـا عَتَوْا عَنمّـا نُهُـوا عَنْهُ قُلْنا

______

۱ . الأنعام:۱۴۸.

۲ . الأنعام:۱۴۸.

۳ . الزخرف:۷۶.

۴ . النساء: ۷۹.

۵ . القصص: ۳۸ .

۶ . طه:۴۴.

۷ . طه:۲۴.

۸ . النازعات:۱۸.

۹ . الأعراف:۱۳۰.

۱۰ . یونس:۹۸.

۱۱ . الأعراف:۹۶.

۱۲ . المائدة: ۶۶.

۱۳ . المائدة:۲۱. (۲۹۱) لَهُمْ کُونُوا قِرَدةً خاسِئِینَ)(۱) ، فهذا صنیعه بأهل طاعته، وما قدّمناه صنیعه بأهل معاصیه عاجلًا، فإذا هم اتّبعوا أهواءهم، عاقبهم بما یستحقون.

وقال فی الرسالة: ولا یصحّ الجبر إلاّ بمعونة اللّه، ولذلک قال لمحمّد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ : (وَلولا أَنْ ثَبَّتْناکَ لَقَدْ کِدْتّ تَرْکَنُ إِلَیهِمْ شَیئاً قَلیلًا) (۲) ، وقال یوسف ـ علیه السَّلام ـ : (وإلاّ تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ) (۳) فقد بیّن وأمر ونهی، وجعل للعبد السبیل علی عبادته، وأعانه بکلّ وجه ولو کان عمل العبد یقع قسراً لم یصحّ ذلک. هذا نصّ الرسالة نقلناها برمتها عن «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» للقاضی عبد الجبار ص ۲۱۶ـ ۲۲۳. قال المعلّق علی کتاب القاضی: رسالة الحسن إلی عبد الملک بن مروان مطبوعة فی مجلة«دار الإسلام» طبعها رویتر عدد ۲۱ سنة ۱۹۳۳ م ـ وأضاف ـ منها نسخة من مکتبة أیا صوفیا استنبول برقم ۳۹۹۸. وهذه الرسالة تعترف بعلمه السابق ولکن تنکر کونه موجباً للجبر بمحکم آیاته. ومن لطیف کلامه فی الرسالة قوله: «والعلم لیس بدافع إلی معاصیه، لأنّ العلم غیر العمل». کلام مؤلّف کتاب المعتزلة

إنّ عامة المسلمین فی صدر الإسلام کانوا یؤمنون بالقدر خیره وشره من اللّه تعالی وأنّ الإنسان فی هذه الدنیا مسیّر لا مخیّر وأنّ القلم قد جفّ علی علم اللّه، وقد قال أحد رجاز ذلک الزمان معبراً عن تلک العقیدة: ________________

۱ . الأعراف:۱۶۶.

۲ . الإسراء:۷۴.

۳ . یوسف:۳۳. (۲۹۲)

یا أیّها المضمر همّاً لاتهم * إنّک إن تقدر لک الحمی تحم ولو علوت شاهقاً من العلم * کیف توقیک وقد جف القلم(۱)

یلاحظ علیه: أنّ نسبة کون الإنسان مسیّراً لا مخیّراً إلی عامّة المسلمین خطأ جداً، وإنّما هی عقیدة تسربت إلی المسلمین من بلاط الأمویین، وهم أخذوه من الأحبار والرهبان، وإلاّ فالطبقة المثلی من المسلمین کانوا یعتقدون بالاختیار فی مقابل التسییر. و هذه خطب علی ـ علیه السَّلام ـ وأبناء بیته الرفیع جاهرة بالاختیار ونفی کون التقدیر سالباً للحریة، وهذا هو الحسن البصری یسأل «الحسن بن علی» عن مکانة القدر فی التشریع الإسلامی، وهو ـ علیه السَّلام ـ یجیب بما عرفته.(۲) کیف وإنّ التکلیف والوعد والوعید یقوم علی أساس الحریة ولا یجتمع مع الجبر کما أنّ إرسال الرسل لا یتم إلاّ بالقول بأنّ الإنسان مخیّر فی اتّباع الرسول ومخالفته مضافاً إلی أنّ تعذیب الإنسان المسیّر ظلم قبیح منفیّ عنه سبحانه عقلاً ونقلاً. وهذه الوجوه کافیة فی إثبات أنّ الرأی العام للمسلمین ـ لولا الضغط من البلاط الأموی ـ هو الاختیار. وما تقدم من رسالة عادل بنی أُمیة! لأصدق شاهد علی أنّ مذهب الجبر أذیع من قبل الحکام الأمویین.

---

۱ . کتاب المعتزلة: ۹۱ نقلًا عن تأویل مختلف الحدیث لابن قتیبة: ۲۵.

۲ . لاحظ ص:۲۹۲.

هل الإیمان بخلافة الخلفاء من صمیم الدین؟

هل الإیمان بخلافة الخلفاء من صمیم الدین؟

إذا كان الخلاف فى الإمامة أعظم خلاف بين الأمّة حسب نظر الشهرستانى إذ قال: «ما سلّ سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة فى كلّ زمان». فيجب على دعاة الوحدة الذين يبذلون سعيهم لتوحيد الصفوف معالجة هذه المسألة من وجهة علمية وفى جو هادئ. فإن حل هذه المسألة ونظائرها يوجب تقارب الخطى، بل يوحّد الصفوف. فإنّ الوحدة بشكلها السلبى الذى يدعو إلى تناسى الماضى، والتغافل عنه من أساسه، وإسدال الستار على كلّ ما فيه من مفارقات، على ما يتبنّاه بعض دعاتها، لا تؤثر ولا تحقّق أُمنيّتهم، وإنّما تحقّق تلك الأمنية لو أثبتت بصورة علمية أنّ جملة كبيرة من صور الخلاف لا تستند على أساس، وإنّما هى وليدة دعايات خلقتها بعض الظروف وغذّاها قسم من السلطات فى عهود خاصة، ولأجل ذلك نطرح هذه المسألة على طاولة البحث حتى تتقارب الأفكار المتباعدة فإنّ الصراع العلمى والجدال بالحقّ، مهما كان بصورة علمية، يكون من أفضل عوامل التقريب ورفع التباعد، فنقول: من راجع الكتب الكلامية لأصحاب الحديث، وبعدهم الأشاعرة وجد أنّهم يعدّون الإيمان بخلافة الخلفاء الأربع وحتى تفاضلهم حسب زمن إمامتهم من صميم الإيمان، ولابدّ أن نأتى ببعض النصوص للقدامى منهم: (۲۹۴)

۱. قال إمام الحنابلة (المتوفّى عام ۲۴۱هـ) فى كتاب السنّة: خير هذه الأُمّة بعد نبيّنا ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أبو بكر، وخيرهم بعد أبى بكر، عمر ;وخيرهم بعد عمر، عثمان ;وخيرهم بعد عثمان، على، رضوان اللّه عليهم خلفاء راشدون مهديّون.(۱) ۲. وقال أبو جعفر الطحاوى الحنفى فى العقيدة الطحاوية المسمّاة بـ«بيان السنة والجماعة»: ونثبت الخلافة بعد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لأبى بكر الصديق تفضيلاً وتقديماً على جميع الأُمّة ثمّ لعمر بن الخطاب ثمّ لعثمان بن عفان ثمّ لعلى بن أبى طالب عليه السَّلام ـ .(۲) ۳. وقال أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى(المتوفّى عام ۳۲۴هـ) عند بيان عقيدة أهل الحديث وأهل السنّة: ويقرّون بأنّهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلّهم بعد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ .(۳) وقال أيضاً بعد ما استعرض خلافة الأئمّة الأربعة قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ :«الخلافة فى أُمّتى ثلاثون سنة، ثمّ ملك بعد ذلك».(۴) ۴. وقال عبد القاهر البغدادى فى بيان الأُصول التى اجتمع عليها أهل السنّة: وقالوا بإمامة أبى بكر الصديق بعد النبى خلاف من أثبتها لعلى وحده من ——————

۱ . كتاب «السنّة» المطبوع ضمن رسائل بإشراف حامد محمد الفقى، وهذا الكتاب ألّفه لبيان مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنّة ووصف من خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طغى فيها، أو عاب قائلها بأنّه مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنّة وسبيل الحقّ.

۲ . «شرح العقيدة الطحاوية» للشيخ عبد الغنى الميدانى الحنفى الدمشقى: ۴۷۱ـ ۴۷۸.و قد توفّى الطحاوى عام ۳۲۱هـ

۳ . مقالات الإسلاميين: ۳۲۳.

۴ . «الإبانة عن أُصول الديانة» الباب السادس عشر: ص ۱۹۰ وما ذكره من الحديث رواه أحمد فى مسنده: ۵/۲۲۰ ولاحظ العقائد النسفية: ۱۷۷، ولمع الأدلة للإمام الأشعرى: ۱۱۴. (۲۹۵)

الرافضة، وخلاف قول الراوندية الذين أثبتوا إمامة العباس وحده.(۱) أقول: هذه هى عقيدة هؤلاء الأعلام وغيرهم ممّن كتب فى موضوع الإمامة عن أهل السنّة، ولرفع الستار عن وجه الحقيقة، نبحث فى نواح خاصة لها صلة وثيقة بالموضوع وهذه النواحى عبارة عن: ۱. هل الإمامة والخلافة من أُصول الدين أو من فروعه؟ ۲. هل هناك نصّ فى القرآن أو السنّة فى مسألة الإمامة أو لا؟ ۳. مبدأ ظهور هذه العقيدة؟ ۴. هل هناك نصّ على أفضلية بعضهم على بعض وفق تسلسل زمانهم؟ فإذا تبيّن الحال فى هذه المواضع يتبيّن الحال فى المسألة التى بيّناها آنفاً. أ. هل الإمامة من الأُصول أو من الفروع؟

الشيعة الإمامية على بكرة أبيهم اتّفقوا على كون الإمامة أصلاً من أُصول الدين، و قد برهنوا على ذلك فى كتبهم،ولأجل ذلك يعد الاعتقاد بإمامة الأئمّة من لوازم الإيمان الصحيح عندهم، وأمّا أهل السنّة فقد صرّحوا فى كتبهم الكلامية أنّها ليست من الأُصول، وإليك بعض نصوصهم: ۱. قال الغزالى (المتوفّى عام ۵۰۵هـ): اعلم أنّ النظر فى الإمامة أيضاً ليس من المهمات، وليس أيضاً من فن المعقولات بل من الفقهيات، ثمّ إنّها مثار للتعصّبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها، وإن أصاب فكيف إذا

أخطأ؟! ولكن إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات بها، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد، فإنّ فطام القلوب عن المنهج المخالف للمألوف، شديد النفار. ولكنّا نوجز القول فيه.(۲) ______________

۱ . الفرق بين الفرق: ۳۵۰.

۲ . الاقتصاد فى الاعتقاد: ۲۳۴،وفى العبارة صعوبة والظاهر زيادة كلمة «المخالف» وصحيحها «المنهج المألوف». (۲۹۶)

۲. قال الآمدى (۵۵۱ ـ ۶۳۱هـ): واعلم أنّ الكلام فى الإمامة ليس من أُصول الديانات ولا من الأُمور اللابديات بحيث لا يسع المكلّف الإعراض عنها، والجهل بها بل لعمرى، إنّ المعرض عنها لأرجى حالاً من الواغل فيها، فإنّها قلّما تنفك عن التعصب والأهواء وإثارة الفتن والشحناء، والرجم بالغيب فى حقّ الأئمّة والسلف بالإزراء، وهذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق، فكيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق. لكن لما جرت العادة بذكرها فى أواخر كتب المتكلّمين والإبانة عن تحقيقها فى عامة مصنّفات الأُصوليّين لم نر من الصواب خرق العادة بترك ذكرها فى هذا الكتاب.(۱) ۳. قال السيّد الشريف (المتوفّى ۸۱۶هـ) فى شرح المواقف: المرصد الرابع فى الإمامة ومباحثها وليست من أُصول الديانات والعقائد خلافاً للشيعة بل هى عندنا من الفروع المتعلّقة بأفعال المكلّفين إذ نصب الإمامة عندنا واجب على الأُمّة سمعاً، وإنّما ذكرناها فى علم الكلام تأسّياً بمن قبلنا، إذ قد جرت العادة من المتكلّمين بذكرها فى أواخر كتبهم.(۲) ۴. قال الرازى: اتّفقت الأُمّة، إلاّ شذاذاً منهم، على وجوب الإمامة والقائلون بوجوبها، منهم من أوجبها عقلاً، ومنهم من أوجبها سمعاً، أمّا الموجبون عقلاً، فمنهم من أوجبها على اللّه تعالى، ومنهم من أوجبها على الخلق.(۳) وعلى كلّ تقدير فقد اعتبر أهل السنّة هذا الوجوب حكماً شرعياً فرعياً كسائر الأحكام الفرعية الواردة فى الكتاب والسنّة والكتب الفقهية، وإذا تبيّن هذا المطلب فلنبحث عن الموضوع الثانى. ب. هل هناك نصّ على الإمامة أم لا؟

اتّفقت الشيعة الإمامية على أنّ المذاهب الحقّ فى باب الإمامة هو القول ______________

۱ . غاية المرام فى علم الكلام: ۳۶۳ .

۲ . شرح المواقف:۸/۳۴۴.

۳ . المحصل للرازى: ۴۰۶، ط ايران. (۲۹۷)

بالتنصيص وأنّ النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نصّ فى أيام حياته على الخليفة من بعده، وذلك فى موارد ضبطها التاريخ أشهرها قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فى يوم الغدير، أى الثامن عشر من ذى الحجة الحرام فى عام حجّة الوداع فى منصرفه من مكة عند بلوغه غدير خم رافعاً يد على ـ عليه السَّلام ـ فى محتشد كبير، وهو يقول: «ألست أولى بكم من أنفسكم»؟ قال الناس: نعم، فقال: «من كنت مولاه فهذا علىٌّ مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه». وقد قامت ثلّة كبيرة من علماء الفريقين بضبط طرق هذا الحديث وأسناده، فألّفوا فى ذلك مختصرات ومفصّلات، أجمعها وأعمّها كتاب الغدير لآية اللّه الحجّة الأمينى ـ رضوان اللّه عليه ـ هذا ما عند الشيعة، وأمّا عند السنّة، فالرأى السائد هو عدم التنصيص على أحد والزعم بأنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ مات ولم يستخلف. فهذا هو إمام الحرمين يقول: وما نص النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ على إمامة أحد بعده وتوليته، إذ لو نص على ذلك لظهر وانتشر كما اشتهرت تولية رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وسائر ولاته، وكما اشتهر كلّ أمر خطير.(۱) وقال الأشعرى: وممّا يبطل قول من قال بالنصّ على أبى بكر: أنّ أبا بكر قال لعمر:«ابسط يدك أُبايعك» يوم السقيفة، فلو كان رسولاللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ نصّ على إمامته لم يجز أن يقول أبسط يدك أُبايعك».(۲) وقد عقد ابن كثير الحنبلى فى كتابه «البداية والنهاية» باباً مستقلاً فى أنّ رسول اللّه لم يستخلف وتبعه السيوطى فى «تاريخ الخلفاء».(۳) والمسألة ـ أى عدم وجود النصّ على المتقمّصين بالخلافة بعد النبى ـ من ______________

۱ . لمع الأدلة: ۱۱۴.

۲ . اللمع: ۱۳۶.

۳ . لاحظ البداية: ۵/۲۵۰ ;تاريخ الخلفاء: ۷، ط مصر. (۲۹۸)

الوضوح بمكان بحيث لا تحتاج إلى إقامة الدليل عليها، كيف و هذه قصة السقيفة لم نر أحداً فيها من الذين رشّحوا أنفسهم للخلافة، كسعد بن عبادة من الأنصار، وأبى بكر من المهاجرين، استدلّ على صحّة خلافته بنصّ النبى عليه. فهذا هو سعد بن عبادة يقول بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه: يا معشر الأنصار لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إنّ محمّداً لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلّا رجال قليل... إلى أن قال: حتّى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصّيكم بالنعمة، فرزقكم اللّه الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه... إلى أن قال: وتوفّاه اللّه وهو عنكم راض وبكم قرير عين، استبدّوا بهذا الأمر دون الناس. هذا منطق مرشّح الأنصار لا ترى فيه تلميحاً إلى وجود النصّ عليه وليس يقصر عنه منطق أبى بكر فى هذا الموقف حين قال: فهم ـ أى المهاجرين ـ أوّل من عبد اللّه فى الأرض، و آمن باللّه وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم فى ذلك إلّا ظالم... إلى أن قال: من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلّامدل بباطل أو متجانف لإثم، أو متورط فى هلكة.(۱) فهذان المنطقان من سعد بن عبادة وأبى بكر يعربان عن عدم وجود النصّ على واحد منهما، وأمّاالخليفتان الآخران فحدث عنهما ولا حرج، فقد رقى عمر بن الخطاب منصّة الخلافة بأمر من أبى بكر عندما دعا عثمان بن عفان فى حال مرضه فقال له: اكتب: بسم اللّه الرّحمن الرحيم... هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين: أمّا بعد، ثمّ أُغمى عليه، فكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم يكن خيراً منه، ثمّ أفاق وقال: اقرأ علىَّ، فقرأ عليه ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . تاريخ الطبرى:۲/۴۵۶، حوادث السنّة ۱۱. (۲۹۹)

فكبّر أبو بكر... إلى أن قال لعثمان: جزاك اللّه خيراً عن الإسلام وأهله، وأمّره أبو بكر من هذا الموضع.(۱) وأمّا عثمان فقد انتخب عن طريق الشورى التى عيّن أعضاءها عمر بن الخطاب عندما طعنه أبو لؤلؤة ـ غلام المغيرة بن شعبة ـ و كان أعضاء الشورى ستة أشخاص وهم: على بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبد اللّه، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام.(۲) وقد ذكر التاريخ كيفية استلام عثمان للخلافة، فهذا هو التاريخ المسلّم به، يعرب بوضوح عن عدم وجود نصّ على واحد من الخلفاء الثلاث جميعاً، وإلاّ ـ لم يحتج إلى تعيين أوّل الخلفاء لثانيهم وإلى تعيين الشورى وانتخاب الخليفة عن طريقها. وقد قام المحدّثون القدامى منهم والمتأخّرون، بجمع ما ورد من الأحاديث حول الخلافة والإمارة، منهم الإمام أبو السعادات الجزرى فى كتابه «جامع الأُصول من أحاديث الرسول» فقد جمعها فى الجزء الرابع من هذا الكتاب، ومنهم العلّامة علاء الدين على المتقى الهندى(المتوفّى ۹۷۵هـ) فقد جمعها فى كتابه «كنز العمال» الجزء الخامس، ولا يوجد فيه نصّ صريح على واحد من الخلفاء الثلاث. نعم فى المقام روايات تشير إلى أنّ الخلافة من حقّ قريش، و هى أحاديث مشهورة موجودة فى الكتاب الآنف ذكره. إذا وقفت على هذين الأمرين، تقف على أنّ ما ادّعيناه من عدم كون الاعتقاد بخلافة الخلفاء من صميم الدين نتيجة ذينك الأمرين، وذلك لأنّه إذا كان أصل الإمامة والخلافة من الفروع لا من الأُصول، من جانب، وثبت حسب نصوص القوم أنّ النبى لم ينص على خلافة واحد منهم من جانب آخر، غاية ما فى الباب أنّ الأُمّة فى صدر الإسلام قاموا بواجبهم الشرعى أو العقلى حيث كان ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . الإمامة والسياسة: ۱۸ وص ۲۵، ط مصر ;الشرح الحديدى:۱/۱۶۵.

۲ . تاريخ الطبرى:۳/۲۹۳. (۳۰۰)

نصب الإمام واجباً بأحد الوجهين، فإنّ أقصى ما يمكن أن يقال: إنّ خلافة هؤلاء كانت أمراً صحيحاً غير مخالف للأُصول والقواعد، ولكن يجب أن يعلم أنّه ليس كلّ قضية صحيحة جزءاً من الدين ;وعلى فرض كونها من الدين، فليس كلّ ما هو من الدين يجب أن يعد من العقائد ;وعلى فرض كونها من العقائد، فليس كلّ ما هو يعد من العقائد مائزاً بين الإيمان والكفر أو بين السنّة والبدعة. وهذه مراحل ثلاث يجب أن يركز عليها النظر فنقول: إنّ غاية جهد الباحث حسب أُصول أهل السنّة هى إثبات كون خلافتهم أمراً صحيحاً،

لأنّ نصب الإمام واجب على الأمّة عقلاً أو شرعاً، فلأجل ذلك قاموا بواجبهم فنصبوا هذا وذاك للإمامة، ونتيجة ذلك أنّ عملهم كان أمراً مشروعاً ولكن ليس كلّ أمر مشروع يعد جزءاً من الدين. فلو قام القاضى بفصل الخصومة بين المترافعين فى ضوء الكتاب والسنّة فحكم بأنّ هذا المال لزيد دون عمرو وكان قضاؤه صحيحاً لا يعد خصوص هذا القضاء (لا أصل القضاء بالصورة الكلية) من الدين، إذ ليس كلّ أمر صحيح جزءاً من الدين، ولا يصحّ أن يقال إنّه يجب أن نعتقد أنّ هذا المال لزيد دون عمرو، ولو تنزّلنا عن ذلك وقلنا إنّه من الدين، ولكن ليس كلّ ما هو من الدين يعد من العقائد فكون الماء طاهراً ومطهّراً حكم شرعى، ولكن ليس من العقائد، فأىّ فرق بينه و بين خلافة الخلفاء مع اشتراك الجميع فى كونه حكماً فرعياً لا أصلاً من الأُصول. ولو تنزّلنا مرّة ثانية وقلنا إنّه من العقائد، ولكن ليس كلّ ما يجب الاعتقاد به مائزاً بين الإيمان والكفر، أو بين السنّة والبدعة، إذ للمسائل العقائدية درجات ومراتب، فالشهادة بتوحيده سبحانه ونبوة نبيّه وإحياء الناس يوم الدين، تعد مائزاً بين الكفر والإيمان، وليس كذلك الاعتقاد بعذاب القبر، أو سؤال منكر ونكير، أو كون مرتكب الكبيرة مؤمناً. و على هذا الأساس يجب على إخواننا أهل السنّة تجديد النظر فى هذا الأصل الذى ذهبوا إليه، وهو جعلهم الاعتقاد بخلافة الخلفاء المشار إليهم، آية السنّة، ومخالفته آية البدعة. (۳۰۱)

ولو توفّى الرجل عن أولاد صغار بلا وصى ولا تعيين قيّم لصغاره فعلى الحاكم الإسلامى تعيين القيّم عليهم لئلّا تضيع أموالهم، وعندئذ يسأل فهل الاعتقاد بالأصل الكلى من صميم الدين؟ وأنّه يجب على المسلم أن يعتقد بأنّ من مات عن أولاد صغار يجب على الحاكم نصب من يلى أُمورهم؟ وعلى فرض كونه بصورته الكلية من صميمه، فهل الاعتقاد بأنّ زيداً ولى الصغار عند نصب الحاكم له، من صميم الدين، أو أنّ المطلوب فى الفروع هو العمل عند الابتلاء. وأمّا الاعتقاد التفصيلى بالكبريات والصغريات فغير لازم؟ ج. مبدأ ظهور هذه العقيدة

لم يكن فى عصور الخلفاء الثلاث أى أثر من هذه العقيدة ولم يكن يخطر ببال أحد من المهاجرين والأنصار أنّه يجب الاعتقاد بخلافة هذا أو ذاك أو ذلك، وأنّ من لم يكن معتقداً بخلافتهم يخرج عن صفوف المؤمنين ويلتحق بالمبدعين. وإنّما أوجدت تلك الفكرة يد السياسة بهدف الإزراء بعلى ـ عليه السَّلام ـ، وتصحيح خروج معاوية عليه لأخذ ثأر الخليفة، ولعلّ عمرو بن العاص هو أوّل من بذر تلك الفكرة. ويدلّ على ذلك ما ذكره المسعودى فى كتابه: قال: اجتمع عمرو بن العاص مع أبى موسى الأشعرى فى دومة الجندل، فجرى بينهما مناظرات و قد أحضر «عمرو» غلامه لكتابة ما يتفقان عليه، فقال عمرو بن العاص ـ بعد الشهادة بتوحيده سبحانه نبوة نبيّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : ونشهد أنّ أبا بكر خليفة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ عمل بكتاب اللّه وسنّة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ حتّى قبضه اللّه إليه، وقد أدّى الحقّ الذى عليه. قال أبو موسى: اكتب ثمّ قال فى عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى: اكتب، ثمّ قال عمرو: واكتب: وأنّ عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ورضاً منهم، وأنّه كان مؤمناً. فقال أبو موسى الأشعرى: ليس هذا ممّا قعدنا له. قال عمرو: واللّه لابدّمن أن يكون مؤمناً أو كافراً. فقال أبو موسى: كان مؤمناً. (۳۰۲)

قال عمرو: فمره يكتب . قال أبو موسى: اكتب. قال عمرو: فظالماً قتل عثمان أو مظلوماً؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلوماً. قال عمرو: أو ليس قد جعل اللّه لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم. قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لاـ قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى. قال عمرو للكاتب: اكتب، وأمره أبو موسى فكتب. قال عمرو: فإنّا نقيم البيّنة على أنّ علياً قتل عثمان....(۱) وهذا النصّ من حجّة التاريخ وغيره يعرب عن أنّ الاعتقاد بخلافة الخلفاء إنّما برز للوجود فى جو مشحون بالعداء والبغضاء والمنافسة والمغالبة، حتى جعل ذلك الداهية الماكر، الاعتقاد بخلافة الشيخين وسيلة لانتزاع الإقرار بخلافة الثالث من الخلفاء، ولم يكن الانتزاع مقصوداً بالذات، بل كان أخذه ذريعة لانتزاع الاعترافات الأُخرى من أنّه قتل مظلوماً وأنّه ليس له ولى يطلب بدمه أولى من معاوية وأنّ علياً هو القاتل... إلى آخره. ثمّ إنّ الأجواء السياسية المخالفة لأمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ أخذت تروّج تلك العقيدة من أجل الإطاحة به ـ عليه السَّلام ـ وإثبات صحّة

قيام معاوية وصحّة أعماله وقيامه ونصبه فصار ذلك المستمسك السياسى بمرور الزمان، عقيدة دينية، سقته الأوضاع السياسية الأموية والعباسية، إلى أن ذكرت فى الكتب والمؤلفات وعدّت من صميم الدين. وقد استفحلت أهمية الإيمان بخلافة الخلفاء ولا سيما الثالث منهم فى عهد معاوية عندما كتب إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبى تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء فى كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً و يبرأون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من فيها من شيعة على ـ عليه السَّلام ـ، فاستعمل معاوية عليهم زياد بن سمية وضم إليها البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم

____

١ . مروج الذهب:٢/٣٩۶ـ ٣٩٧. (٣٠٣)

عارف، لأنّه كان منهم أيّام على ـ عليه السَّلام ـ فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدى والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله فى جميع الآفاق ألّا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله و مناقبه، فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا إلى بكلّ ما يروى كلّ رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتّى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه فى العرب منهم و الموالى، فكثر ذلك فى كلّ مصر، وتنافسوا فى المنازل والدنيا، فليس يجىء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلّاكتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً. ثمّ كتب إلى عماله أنّ الحديث فى عثمان قد كثر وفشا فى كلّ مصر وفى كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين فى أبى تراب إلّاوتأتونى بمناقض له فى الصحابة، فإنّ هذا أحب إلىّ وأقرّ لعينى، وأدحض لحجّة أبى تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس فى رواية ما يجرى هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، و أُلقى إلى معلّمى الكتاتيب فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء اللّه.(١) كلّ ذلك يثبت أنّ الإيمان بخلافتهم ولا سيما الثالث منهم، كان وليد ________

١ . الشرح الحديدى:١١/۴۴ـ ۴۵ نقله عن كتاب الأحداث لأبى الحسن على بن محمد بن أبى سيف المدائنى. (٣٠۴)

سياسات غاشمة انطلقت من البيت الأموى وأشياعه ضد البيت العلوى وأتباعه. وبذلك يسهل تصديق ما ذكره الكاتب الكبير محمود أبو رية فى كتابه القيم «أضواء على السنة المحمدية»: إنّ الأهواء الشخصية والأغراض المذهبية كان لها أثر بعيد فى وضع الحديث على رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لكى يؤيد كلّ فريق رأيه، ويحقّق م آربه بحقّ وبغير حقّ وبصدق وبغير صدق.(١) وفى الختام للقارئ الكريم أن يسأل : مَن جعل الاعتقاد بخلافة الخلفاء الأربع من صميم الدين دون سواهم؟! وأن يسأل عن وجه التفاضل والتمييز بينهم و بين سائر الخلفاء الذين تسلّموا دفة الخلافة عن طريق الوراثة، أو تنصيص سابق منهم على اللاحق، أو ببيعة عدّة من الشاميين وغيرهم. وهذا عمر بن عبد العزيز قد تسلّم دفّة الحكم بأحد هذه الطرق مع أنّهم لاـ يجعلون الإيمان بخلافته من صميم الإيمان، مع أنّه من قريش وقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ:« لا يزال هذا الأمر فى قريش، ما بقى منهم اثنان». وقال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «قريش ولاة الناس فى الخير والشر إلى يوم القيامة».(٢) اللّهمّ إلّاأن يعتذروا عن هذا التخصيص بأنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «الخلافة فى أُمّتى ثلاثون سنة، ثمّ ملك بعد ذلك».(٣) لكن فى سنده سعيد بن جمهان، قال أبو حاتم الرازى: شيخ يكتب حديثه ولا يحتج به.(۴) ثمّ إنّ هنا نكتتين نبّه عليهما العلاّمة الروحانى فى كتابه «بحوث مع أهل السنّة والسلفية»: (ص ٢۴ـ ٢۵) نأتى بهما معاً: ________

١ . أضواء على السنّة المحمدية.

۲ . جامع الأصول:۴/۴۳۷ـ ۴۳۸.

۳ . المصدر السابق.

۴ . الجرح والتعديل:۴/۱۰. (۳۰۵)

۱. الحقّ الـذى يراه المتتبع فى التاريـخ هو أنّ عقيـدهٔ خلافهٔ الخلفاء الثلاث وقداسـتهم البالغهٔ، قد أُقحمت فى عقائد أهل السـنّهٔ إقحاماً، وإنّما كان ذلك رد فعل ومحاكاهٔ لعقيـدهٔ الشـيعهٔ فى على ـ عليه السَّلام ـ وأولاده الطاهرين، ولـذا صـيغت هـذه العقيـدهٔ أوّلاً عند أهل السـنّهٔ فى قالب الرد والمعارضهٔ لعقيدهٔ الشـيعهٔ فقط، ثمّ ألحقوا علياً ـ عليه السَّلام ـ بهم فى عصـر متأخر. وبتفصيل أكثر نقول: إن جعل خلافهٔ الشيخين من العقائد، لم يكن فى القرن الأوّل. وغايهٔ ما كان يقال فيهما هو أنّ خلافتهما كانت صحيحهٔ. هذا فضلاً عن عقيدتهم فى خلافهٔ عثمان وعلى، بل إنّ عثمان لم يكن بذلك المرضـى عند الناس. ثمّ إنّ المرجئهٔ كانت تشك فى عدالهٔ عثمان وعلى، بل فى إيمانهما.(۱) ونحلهٔ الإرجاء كانت شائعـهٔ فى عامـهٔ الناس آنـذاك قبل غلبـهٔ أهل الحـديث، بل لقـد كان لهم القدح المعلّى حتى بعد وجود أهـل الحـديث والسـنّهٔ فى كثير من البلاـد. حتى قال الأمير نشوان الحميرى: وليس كورهٔ من كور الإسـلام إلاّ والمرجئـهٔ غالبون عليها إلاّ القليل.(۲) ۲. تقرر الأـمر فى نحلـهٔ أهـل الحـديث على قبول خلافـهٔ على ـ عليه السَّلام ـ بعـد ما كانوا فى الغالب من العثمانيهٔ ينكرون خلافـهٔ على، و يظهر أنّ قبول خلافـهٔ على ـ عليه السَّلام ـ كان على يد الإمام أحمد بن حنبل، فقد ذكر ابن أبى يعلى بالإسـناد عن وديزهٔ الحمصـى قال: دخلت على أبى عبد اللّه أحمد بن حنبل حين أظهر التربيع بعلى ـ رضى اللّه عنه ـ فقلت له: يا أبا عبد اللّه إنّ هـذا لطعن على طلحـهٔ والزبير، فقال: بئس ما قلت وما نحن وحرب القوم وذكرها، فقلت: أصـلحك اللّه إنّما ذكرناها حين ربعت بعلى وأوجبت له الخلافهٔ وما يجب للأئمّهٔ قبله، فقال لى: وما يمنعنى من ذلك، قال: قلت: حديث ابن ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . طبقات النساء:۶/۱۵۴.

۲ . الحور العين: ۲۰۳. (۳۰۶)

عمر(۱)، فقال لى: عمر خير من ابنه فقد رضـى علياً للخلافهٔ على المسلمين وأدخله فى الشورى، وعلى بن أبى طالب رضى اللّه عنه قد سمّى نفسه أمير المؤمنين ;فـأقول أنا ليس للمؤمنين بأمير، فانصـرفت عنه.(۲) وهـذا يعرب عن أنّ مسألـهٔ التربيع كانت مسألهٔ ثقيلهٔ على هـذا المحـدّث، وقد كان غير الكوفيّين على هذا المذاق. وممّا يؤيد عدم كون خلافهٔ الخلفاء من صـميم الدين: أنّ أحمد بن حنبل فى رسالته المؤلّفـهٔ حول مـذاهب أهل السنّهٔ لم يـذكرها فى عـداد العقائـد الإسـلاميهٔ، بل بعـدما أكمل بيان العقائـد قال: ومن السـنّهٔ ذكر محاسن أصـحاب رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ والكف عمّا شـجر بينهم، فمن سبّ أصـحاب رسول اللّه أو واحداً منهم فهو مبتـدع رافضـى، حبهم سنّهٔ، والـدعاء لهم قربهٔ، والاقتداء بهم وسـيلهٔ، والأخذ ب آثارهم فضـيلهٔ، وخير هذه الأُمّهٔ ـ بعد نبيها ـ أبو بكر، وخيرهم بعـد أبى بكر عمر، وخيرهم بعـد عمر عثمان، وخيرهم بعـد عثمان على، رضوان اللّه عليهم خلفاء راشـدون مهديون.(۳) وأمّا البحث عن الدليل الدالّ على أفضلية بعضهم على بعض وفق تسلسل زمانهم، فسيوافيك الكلام فيه فى الجزء السادس. *** (ثُمَّ أَورَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبير) (۴).

*** ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . الحديث المنسوب إلى ابن عمر هو «كنّا نعد ورسول اللّه حىّ وأصحابه متوافرون: أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ نسكت».

۲ . طبقات الحنابلهٔ:۱/۳۹۳.

۳ . كتاب السنّهٔ: ۴۹.

۴ . فاطر: ۳۲. (۳۰۷)

خاتمهٔ المطاف

خاتمة المطاف

فیها أُمور: الأوّل: المذهب الحنبلی فی مجال العقائد والفقه

إنّ للمذهب السنّی علی الإطلاق دعامتین: ۱. المذهب الفقهی

لم یکن لأهل السنّة والجماعة فی القرون الأُولی إلی القرن السابع مذهب فقهی خاص یقتفون أثره، بل کانت لهم مذاهب فقهیة مختلفة متشتّتة غیر أنّ ید السیاسة حصرت المذاهب الفقهیة فی الأربعة المعروفة وهی: الحنفی والمالکی والشافعی والحنبلی وألغت سائر المذاهب ولم تعترف بها. قال المقریزی: استمرت ولایة القضاة الأربعة من سنة ۶۶۵ حتی لم یبق فی مجموع أمصار الإسلام مذهب یعرف من مذاهب الإسلام غیر هذه الأربعة، وعودی من تمذهب بغیرها وأنکر علیه، ولم یول قاض، ولا قبلت شهادة أحد ما لم یکن مقلداً لأحد هذه المذاهب، وأفتی فقهاؤهم فی هذه الأمصار فی طول هذه المدّة، بوجوب اتّباع هذه المذاهب وتحریم ما عداها، والعمل علی هذا إلی الیوم.(۱) ________

۱ . الخطط المقریزیة:۲/۳۳۳و ۳۳۴ و ۳۴۴. (۳۰۸)

وهذه الکلمة الأخیرة، أعنی قوله: وتحریم ما عداها تکشف عن رزیة فادحة ألمت بالإسلام حیث إنّ المسلمین قد عاشوا قرابة سبعة قرون، ومات فیها علی دین الإسلام ما لا یحصی عددهم إلاّخالقهم ولم یسمع أحد فی القرنین الأوّلین اسم هذه المذاهب. ثمّ فی ما بعدهما کان المسلمون بالنسبة إلی الأحکام الشرعیة فی غایة من السعة والحریة، وکان العامی یقلّد من اعتمد من المجتهدین، وکان المجتهدون یستنبطون الأحکام من الکتاب والسنّة علی موازینهم المقررة عندهم فی العمل بالکتاب والسنّة ولم یعلم وجه لهذا الحصر وأنّه لیس لأحد من المقلّدین أو الفقیه المجتهد أن یخرج عن حدّتقلید الأئمّة الأربعة، فبأی دلیل شرعی صار اتّباع المذاهب الأربعة واجباً مخیراً والرجوع إلی غیرها حراماً باتاً مع أنّا نعلم أنّ هذه المذاهب نشرت فی ما نشرت من المناطق بالقهر والغلبة من الحکومات الإسلامیة، فالحکومة التی کان یروقها الفقه الحنفی کانت تباشر نشره وتکبت غیره وتسد الطریق أمامه، والحکومة التی کان یروقها غیر الحنفی تعمل مثل عمل الحکومة الأُولی، وقد أشعلت السیاسات الخادعة نیران العداء بین أتباع المذاهب الأربعة طول القرون(۱)، وعاد وعاظ السلاطین ینحتون لکلّ إمام من الأئمة الأربعة فضائل ومناقب صدرت عن النبی قبل میلادهم وإمامتهم.(۲) هذا حال الدعامة الأُولی ولا ـ نطیل البحث فیها، والذی یجب أن یستنتج ممّا ذکرناه هو أنّ من یحلم بخلود الدین وبقاء قوانینه ویرغب فی غضاضة الدین وطراوته وصیانته عن الاندراس وغناء المسلمین عن موائد الأجانب، یجب علیه ________

۱ . لاحظ تاریخ حصر الاجتهاد لشیخنا العلاّمة الطهرانی: ۱۴۰ والحوادث الجامعة لابن الفوطی: ص۲۱۶ فی حوادث سنة ۶۴۵ واقرأ فیها ملحمة النزاع بین اتّباع الأئمّة الأربعة، ولا تنس ما أنشده علی بن الجرجانی عن بعضهم:

مثل الشافعی فی العلماء * مثل البدر فی نجوم السماء

قل لمن قاسه بنعمان جهلاً * أیقاس الضیاء بالظلماء تاریخ بغداد:۲/۶۹.

۲ . لاحظ تاریخ بغداد:۱/۴۱ «مناقب أبی حنیفة» و ج۲/۶۹«مناقب الشافعی»و قد نقل أحادیث فی مناقبهما ولم یکن من الإمامین أثر إلاّ فی عالم الذر. (۳۰۹)

السعی فی فتح باب الاجتهاد، سواء أُوافق رأی الأئمّة الأربعة أم خالفها.(۱) ۲. المذهب العقائدی

ونعنی به الأُصول التی یعتنقها أهل السنّة فی هذا الجیل والأجیال المتقدّمة إلی زمن الإمام أحمد حول المبدأ والمعاد وأسمائه سبحانه وصفاته وما یرجع إلی الإنسان فی عاجله وآجله. ولا شکّ أنّ هذه الأُصول قد دونت و رتبت فی الکتب الکلامیة للحنابلة بصورة بسیطة، وفی کتب الأشاعرة بصورة علمیة مبرهنة، وقد قدّمنا إلیک عصارات مدوّنة من عقائدهم. والذی نرکز علیه هو أنّ هذه الأُصول علی اختلاف فی عددها وإن صارت عقیدة لأهل السنّة فی هذه الأجیال ولکنّها أُصول اجتمعوا علیها منذ تصدّر أحمد ابن حنبل منصة الإمامة فی العقائد والمعارف واستخرجها من السنّة ودوّنها فی رسائله، وذکر أنّها عقائد أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنّة

المتمسكین بعروتها، المعروفین بها،المقتدی بهم فیها من لدن أصحاب النبی إلی یومنا هذا من علماء الحجاز و الشام وغیرهم. ولكن الحقیقة غیر ذلك بل كان المسلمون، أعنی: بهم أصحاب الحدیث، السنّة قبل تصدّر أحمد لمنصة الإمامة فی مجال العقائد علی فرق وشیع ولم تكن هذه الأُصول برمتها مقبولة عندهم، وإنّما الإمام أحمد وحدهم علی تلك الأُصول وقضی علی سائر المذاهب الدارجة بین أهل الحدیث أنفسهم، فنسبة هذه الأُصول إلی إمام الحنابلة أقرب إلی الحقیقة من نسبتها إلی الصحابة والتابعین وتابعی التابعین. والغافل عن تاریخ حیاة الإمام وتأثیره فی نفوس المسلمین وما كسب بعد الإفراج من العطف والحنان یتخیل أنّ هذه الأُصول مذهب أهل السنّة مع أنّه لم یكن لهذه الأُصول بهذا النحو، أثر قبله، بل كان المحدّثون ـــــــــــــــــــ

۱ . لاحظ مفاهیم القرآن:۳/۲۹۰ـ ۳۰۵ تجد فیها بغیتك. (۳۱۰)

مختلفین فی كثیر من هذه الأُصول. فصار الإجماع والاتّفاق من جانب الإمام سبباً لتناسی ما كانوا علیه من العقائد. إنّ الإمام أحمد لمّا ظهر منه الصمود والثبات فی طریق العقیدة (عدم خلق القرآن وقدمه) وتحمّل المحنة(۱) إلی أن أُفرج عنه فی أیّام المتوكّل و قرّبه الخلیفة إلی بلاطه، صار ذلك سبباً لشهرته وإمامته فی مجال العقائد، وقد جعلت المحنة من ذلك الرجل الصمود، بطلاً سامیاً تهوی إلیه الأفئدة، وتخضع له الأعناق، أضف إلیه أنّه جنّد بلاط الخلیفة جهوده لترویج أفكاره و آرائه، فعند ذلك صار أحمد إمام السنّة وناصرها، فصارت السنة ما قاله أحمد، والبدعة ما هجره أحمد، وكأنّهم نسوا أو تناسوا ما كان علیه أسلافهم من الفرق المختلفة. وعلی ضوء هذا فلیس المذهب الحنبلی العقائدی، مذهباً لعامة أهل الحدیث و أهل السنّة وإنّما هو مذهب الإمام أحمد، وقد أخذت هذه الأُصول بالانتشار والشیوع عندما انقلب الوضع أیّام المتوكل وبعده لصالحه، ولولا أنّ المحنة استبطلت الرجل وخلقت منه رجلاً مثالیاً شجاعاً فی طریق العقیدة، لكان المذهب السنّی فی الناحیة العقائدیة غیر مجمع علی هذه الأُصول التی یتخیل أنّها أُصول اتّفق علیها أصحاب النبی والتابعون لهم بإحسان إلی زمن إمامة أحمد. وإن كنت فی ریب ممّا ذكرنا ـ أی اختلاف آراء أهل الحدیث وتشتت مذاهبهم فی مجال العقائد ـ فاستمع لما یقوله السیوطی ویذكره فی هذا المجال ونحن نأتی بملخّص ما ذكره ذلك المحدّث الخبیر وهو یكشف عن وجود المسالك المختلفة والأهواء المتضادة عند أهل الحدیث، وأنّهم لم یكونوا قط علی وتیرة واحدة حسبما وحدهم إمام الحنابلة فهم كانوا بین: مرجئی یری أنّ العمل لیس جزءاً من الإیمان وأنّه لا تضر معه معصیة كما لا تنفع مع الكفر طاعة، ونقدم إلیك بعض أسمائهم من الذین عاشوا قبل إمامة أحمد أو عاصروه، نظراء: ـــــــــــــــــــ

۱ . سیوافیك تفصیل ذلك فی الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد المعتزلة. (۳۱۱)

۱. إبراهیم بن طهمان، ۲. أیّوب بن عائذ الطائی، ۳. ذر بن عبد اللّه المرهبی، ۴. شبابة بن سوار، ۵. عبد الحمید بن عبد الرحمن، ۶. أبو یحیی الحمانی، ۷. عبد المجید بن عبد العزیز، ۸. ابن أبی راود، ۹. عثمان بن غیاث البصری، ۱۰. عمر بن ذر، ۱۱. عمر بن مرة، ۱۲. محمد بن حازم، ۱۳. أبو معاویة الضریر، ۱۴. ورقاء بن عمر الیشكری، ۱۵. یحیی بن صالح الوحاظی، ۱۶. یونس بن بكیر. إلی ناصبی لعلی وأهل بیته الطاهرین ـ علیهم السَّلام ـ ، نظراء: ۱. إسحاق بن سوید العدوی، ۲. بهز بن أسد، ۳. حریز بن عثمان، ۴. حصین بن نمیر الواسطی، ۵. خالد بن سلمة الفأفاء، ۶. عبد اللّه بن سالم الأشعری، ۷. قیس بن أبی حازم. إلی متشیع یحب علیاً وأولاده ویری الولاء فریضة نزل بها الكتاب ویری الفضیلة لعلی فی الإمامة والخلافة، نظراء: ۱. إسماعیل بن أبان، ۲. إسماعیل بن زكریا الخلقانی، ۳. جریر بن عبد الحمید، ۴. أبان بن تغلب الكوفی، ۵. خالد بن محمد القطوانی، ۶. سعید بن فیروز، ۷. أبو البختری، ۸. سعید بن أشوع، ۹. سعید بن عفیر، ۱۰. عباد بن العوام، ۱۱. عباد بن یعقوب، ۱۲. عبد اللّه بن عیسی، ۱۳. ابن عبد الرحمن بن أبی لیلی، ۱۴. عبد الرزاق بن همام، ۱۵. عبد الملك بن أعین، ۱۶. عبید اللّه بن موسی العبسی، ۱۷. عدی بن ثابت الأنصاری، ۱۸. علی بن الجعد، ۱۹. علی بن هاشم بن البرید، ۲۰. الفضل بن دكین، ۲۱. فضیل بن مرزوق الكوفی، ۲۲. فطر بن خلیفة، ۲۳. محمد بن جحادة الكوفی، ۲۴. محمد بن فضیل بن غزوان، ۲۵. مالك بن إسماعیل أبو غسان، ۲۶. یحیی بن الخراز. إلی قدری ینسب محاسن العباد ومساویهم ومعاصیهم إلی أنفسهم ولا یسند فعلهم إلی اللّه سبحانه، نظراء: ۱. ثور بن زید المدنی، ۲. ثور بن یزید الحمصی، ۳. حسان بن عطیة (۳۱۲)

المحاربی، ۴. الحسن بن ذکوان، ۵. داود بن الحصین، ۶. زکریا بن إسحاق، ۷. سالم بن عجلان، ۸. سلام بن مسکین، ۹. سیف بن سلمان المکی، ۱۰. شبل بن عباد، ۱۱. شریک بن أبی نمر، ۱۲. صالح بن کیسان، ۱۳. عبد اللّه بن عمرو ، ۱۴. أبو معمر عبد اللّه بن أبی لبید، ۱۵. عبد اللّه بن أبی نجیح، ۱۶. عبد الأعلی ابن عبد الأعلی، ۱۷. عبد الرحمن بن إسحاق المدنی، ۱۸. عبد الوارث بن سعید الثوری، ۱۹. عطاء بن أبی میمونة، ۲۰. العلاء بن الحارث، ۲۱. عمرو بن زائدة، ۲۲. عمران بن مسلم القصیر، ۲۳. عمیر بن هانی، ۲۴. عوف الأعرابی، ۲۵. کهمس بن المنهال، ۲۶. محمد بن سواء البصری، ۲۷. هارون بن موسی الأعور النحوی، ۲۸. هشام الدستوائی، ۲۹. وهب بن منبه، ۳۰. یحیی بن حمزة الحضرمی. إلی جهمی ینفی کلّ صفة للّه سبحانه ویعتقد بخلق القرآن وحدوثه، نظیر: بشر بن السری. إلی خارجی ینکر علی أمیر المؤمنین مسألة التحکیم ویتبرأ منه و من عثمان و من طلحة والزبیر وأُمّ المؤمنین عائشة ومعاویة وغیرهم، نظراء: ۱. عکرمة مولی ابن عباس، ۲. الولید بن کثیر. إلی واقفی لا ـ یقول فی التحکیم أو فی القرآن بشیء من الحدوث والقدم وإنّه مخلوق أو غیر مخلوق، نظیر: علی بن هشام. إلی متقاعد یری لزوم الخروج علی أئمّة الجور ولا یباشره بنفسه، نظیر:عمران ابن حطّان.(۱) إلی غیر ذلک من ذوی الأهواء والآراء الذین قضی علیهم الدهر وعلی آرائهم ومذاهبهم بعد ما وصل أحمد بن حنبل إلی قمة الإمامة فی العقائد. فصار أهل الحدیث مجتمعین تحت الأُصول التی استخرجها أحمد وجعل الکلّ کتلة واحدة، بعد ما کانوا علی سبل شتی. ________________

۱ . تدریب الراوی للسیوطی:۱/۳۲۸. (۳۱۳)

هذه ملحمة أهل الحدیث وقصة مذهبهم الفقهی والعقائدی، والأسف أنّ المفکّرین من أهل السنّة یتخیّلون أنّ هذه الأُصول التی یدینون بها باسم عقیدة السلف الإسلامیة قبل التحاق الأشعری به و باسم عقیدة الإمام الأشعری بعد التحاقه هی نفس الأُصول التی کان علیها المسلمون الأُول إلی زمن الإمام أحمد وزمن الملتحق بهم الشیخ الأشعری. وهذا التاریخ الواضح یفرض علی المفکّرین المتعطّشین لمعرفة الحقّ دراسة هذه الأُصول من رأس حتی لا یعبأوا بما جاء فی هذه الکتب ممّا علیه مارکة «عقیدة السلف» أو «عقیدة الصحابة والتابعین» أو تابعی التابعین. والذی یوضح ذلک هو أنّ کلّ واحد من هذه الأُصول ردّ لمذهب نجم فی القرون الأُولی، فلأجل التبرّی منه صار خلافه شعاراً لمذهب أهل السنّة. إمامة أحمد فی الفقه

لا شکّ أنّ الفقه المنسوب إلی أحمد هو أحد المذاهب الفقهیة المعروفة وتقتفیه جماعة کثیرة فی الحجاز ونجد والشامات، ولکن هذا الفقه المدوّن لا یمت إلی الفقه إلاّ بصلة ضعیفة، وذلک لأنّ الإمام لم یکن إمام الفقه والاجتهاد بل کان إمام الحدیث، فکان یعد أکبر محدث فی عصره، وأعظم حافظ للسنّة، وأمّا الاجتهاد بالمعنی المصطلح الذی کان یتمتع به سائر الأئمّة الأربعة، فلم یکن متوفراً فیه إلاّ ـ ببعض مراتبه الضئیلة التی لا یصحّ عدّه معها أحد الأئمّة الفقهاء، فإنّ للاجتهاد مؤهّلات وشرائط محررة فی محلها، أعظمها وجود ملکة قدسیة یقتدر معها الإنسان علی استخراج الفروع عن الأُصول، وأمّا الإفتاء بالحکم فی ضوء النصّ الصریح الوارد فیه فلیس إلاّ مرتبة ضعیفة من الاجتهاد، والاجتهاد المطلق یستدعی ذهناً وقّاداً، مشققاً للفروع، ومستخرجاً إیّاها من الأُصول، إلی غیر ذلک ممّا یقوم به أئمّة الفقه، والمعروف من الإمام أحمد غیر ذلک، فإنّ اجتهاده کان أشبه باجتهاد الأخباریین والمحدّثین الذین یفتون بنصّ الحدیث ویتوقفون فی غیر مورده. وأمّا المذهب الفقهی الحنبلی الدارج بین الحنابلة فقد جمع أُصوله تلمیذ (۳۱۴)

الإمام«الخلاّل» من هنا وهناک، ومن الفتاوی المتشتتة الموجودة بین أیدی الناس حتی جعله مذهباً للإمام أحمد، وجاء من جاء بعده فاستثمرها واستغلها حتّی صار مذهباً من المذاهب. کلام للذهبی

قال: وقد دوّن عنه کبار تلامذته مسائل وافرة فی عدّة مجلدات. ثمّ ذکر أسامی عدّة من تلامیذه الذین جمعوا مسائل الإمام وفتاواه، وقال: جمع أبو بکر الخلال سائر ما عند هؤلاء من أقوال أحمد وفتاویه وکلامه فی العلل والرجال والسند والفروع حتی حصل عنده من ذلک ما لا یوصف کثرة ورحل إلی النواحی فی تحصیله وکتب عن نحو من مائة نفس من أصحاب الإمام، ثمّ کتب کثیراً من ذلک عن أصحاب أصحابه،وبعضه عن رجل، عن آخر، عن آخر، عن الإمام، ثمّ أخذ فی ترتیب ذلک وتهذیبه و تبویبه، وعمل کتاب العلم

وكتاب العلل وكتاب السنة، كلّ واحد من الثلاثة فى ثلاثة مجلدات.(۱) فلو صحّ ما ذكره الذهبى فهو يعرب عن أنّ الإمام أحمد لم يكن رجلًا متربعاً على منصة دراسة الفقه وأُصوله وقائماً بتربية الفقيه، وأقصى ما كان يتمتع به هو الإجابة عن الأسئلة التى كانت ترد عليه من العراق وخارجه فى ضوء النصوص الموجودة عنده، فتفرقت الأجوبة طبق الأسئلة فى البلاد وجمعها «الخلال»فى كتاب خاص. هذا ما ذكره الذهبى ولكنّ الظاهر عن غير واحد ممّن ترجم الإمام أنّه كان يتحفّظ عن الفتيا ويتزهّد عنه، ولعلّه يرى مقام الإفتاء أرفع وأعلى من نفسه. روى الخطيب فى تاريخه بالإسناد قال: كنت عند أحمد بن حنبل فسأله رجل عن الحلال والحرام، فقال له أحمد: سل عافاك اللّه غيرنا. قال الرجل: إنّما نريد جوابك يا أبا عبد اللّه. قال: سل عافاك اللّه غيرنا، سل الفقهاء، سل أبا

۱ . سير أعلام النبلاء:۱۱/۳۳۰. (۳۱۵)

ثور.(۱) وهذا يعرب عن أنّ ديدن الإمام فى حياته هو التحفّظ والتجنّب عن الإفتاء إلاّ إذا قامت الضرورة أو كان هناك نصوص واضحة فى الموضوع. وهذا لا يجتمع مع ما نسب إليه الذهبى من أنّ «الخلال» كتب عنه الكتب التى ذكرها. وهناك تحقيق بارع للشيخ أبى زهرة فى كتابه حول حياة ابن حنبل نذكر خلاصة ما جاء فيه: إنّ أحمد لم يصنّف كتاباً فى الفقه يعد أصلًا يؤخذ منه مذهبه ويعد مرجعه ولم يكتب إلاّ الحديث، وقد ذكر العلماء أنّ له بعض كتابات فى موضوعات فقهية، منها: المناسك الكبير، والمناسك الصغير، ورسالة صغيرة فى الصلاة كتبها إلى إمام صلّى هو وراءه فأساء فى صلاته، وهذه الكتابات هى أبواب قد توافر فيها الأثر، وليس فيها رأى أو قياس أو استنباط فقهى بل اتّباع لعمل، وفهم لنصوص. ورسالته فى الصلاة والمناسك الكبير والصغير هى كتب حديث، وكتبه التى كتبها كلّها فى الحديث فى الجملة، وهى المسند والتاريخ والناسخ والمنسوخ والمقدّم والمؤخّر فى كتاب اللّه وفضائل الصحابة والمناسك الكبير والصغير والزهد، وله رسائل يبيّن مذهبه فى القرآن والرد على الجهمية والردّ على الزنادقة. وإذا كان أحمد لم يدوّن فى الفقه كتاباً ولم تنشر آراؤه ولم يملها على تلامذته كما كان يفعل أبو حنيفة، فإنّ الاعتماد فى نقل فقهه إنّما هو على عمل تلاميذه فقط، وهنا نجد أنّ الغبار يثار حول ذلك النقل من نواح متعددة. إنّ المروى عن ذلك الإمام الأثرى ـ الذى كان يتحفّظ فى الفتيا فيقيد نفسه بالأثر ، ويتوقف حيث لا أثر ولا نصّ شاملًا عاماً، ولا يلجأ إلى الرأى إلاّ حين الضرورة القصوى التى تلجئه إلى الإفتاء ـ كثير جدّاً، والأقوال المروية عنه متضاربة، وذلك لا يتّفق مع ما عرف عنه من عدم الفتوى إلاّ فيما يقع من المسائل ولا يفرض الفروض ولا يشقّق الفروع ولا يطرد العلل، ولقد كان يكثر من قول:لا أدرى، فهذه الكثرة لا تتفق مع المعروف منه من الإقلال فى الفتيا والمعروف عنه من قول :لا أدرى، ومع المشهور عنه من أنّه لا يفتى بالرأى إلاّ للضرورة القصوى.

۱ . تاريخ بغداد:۲/۶۶. (۳۱۶)

إنّ الفقه المنقول من أحمد قد تضاربت أقواله فيه تضارباً يصعب على العقل أن يقبل نسبة كلّ هذه الأقوال إليه. وافتتح أى كتاب من كتب الحنابلة واعمد إلى باب من أبوابه تجده لا يخلو من عدّة مسائل اختلفت فيها الرواية بين لا ونعم ـ أى بين النفى المجرّد والإثبات المجرّد ـ هذه نواح قد أثارت غباراً حول الفقه الحنبلى وإذا أضيف إليها أنّ كثيراً من القدامى لم يعدّوا «أحمد» من الفقهاء، فابن جرير الطبرى لم يعدّه منهم، و «ابن قتيبة» الذى كان قريباً من عصره جدّاً لم يذكره فى عصابة الفقهاء بل عدّه فى جماعة المحدثين، ولو كانت تلك المجموعة الفقهية من أحمد ما ساغ لأُولئك أن يحذفوا أحمد عن سجل الفقهاء.(۱) الثانى : شكوى تاريخية للأشاعرة ضد الحنابلة

لم يزل النزاع قائماً على قدم وساق بين الحشوية والحنابلة من أهل الحديث من جهة و متكلّمى الأشاعرة من جهة أُخرى ـ مع أنّ إمام الأشاعرة كان قد أعلن اقتفاء أثر إمام الحنابلة ـ و نار الجدال مستعرة بين الفريقين،عبر العصور المختلفة، وذلك أنّ الطائفة الأُولى كانت متمسكة بروايات التشبيه والتجسيم، ومثبتة للّه سبحانه ما لا تصحّ نسبته إليه،وكانت الطائفة الثانية تتبرأ من هذه الأُمور، ولقد بلغ

السيل الزبى فى عصر أبى نصر عبد الرحيم بن أبى القاسم عبد الكريم القشيرى رئيس الأشاعرة فى وقته، فقام فطاحل الأشاعرة فى عصره، تعضيداً ومساندة لشيخهم برفع الشكوى إلى الوزير نظام الملك ممّا تبثه الحنابلة من سموم التشبيه و التجسيم، و تمت الرسالة بتوقيع كثير من علمائهم التى تبيّن جوهر العقيدة الحنبلية فى ذلك العصر. أمّا الوالد فهو أبو القاسم القشيرى النيشابورى، وهو من أعاظم الأشاعرة فى عصره (ولد عام ۳۷۶هـ) من العرب الذين وردوا خراسان وسكنوا النواحى، ـــــــــــــــــــ

۱ . ابن حنبل، حياته وعصره :۱۶۸ـ ۱۷۱. (۳۱۷)

كان يعرف الأُصول على مذهب الأشعرى والفقه على مذهب الشافعى(توفىّ عام ۴۶۵هـ).(۱) وأمّا الولد فهو أبو نصر عبد الرحيم بن أبى القاسم القشيرى، ويعرّفه ابن عساكر بأنّه إمام الأئمّة وحبر الأُمّة تخرّج على إمام الحرمين حتى حصل طريقته فى المذهب، وتوفّى عديم النظير فريد الوقت سنة ۵۱۴هـ.(۲) يقول ابن عساكر: وهذه الرسالة بخط بعض أصحاب الإمام أبى نصر عبد الرحيم ابن الأُستاذ القشيرى فيها خطوط الأئمّة بتصحيح مقاله وموافقته فى اعتقاده على الوجه الذى هو مذكور فى هذا الكتاب، فأوقفنا عليه شيخنا أبو محمد القاسم وأسمعناه، وأمرنا بكتابته، فاكتتبناه على ما هو عليه، وأثبتناه فى هذه الترجمة اللائقة به، وقد رفع الإمام أبو إسحاق الشيرازى وأصحابه هذا المحضر إلى نظام الملك منتصرين للشيخ أبى نصر بن القشيرى، فعاد جواب نظام الملك إلى فخر الدولة وإلى الإمام أبى إسحاق بإنكار ما وقع، والتشديد على خصوم ابن القشيرى، و ذلك سنة ۴۶۹هـ و إليكالمحضر: شكوى الأشاعرة من المتوسمين بالحنبلية

بسم اللّه الرحمن الرحيم يشهد من ثبت اسمه ونسبه وصحّ نهجه ومذهبه واختبر دينه وأمانته من الأئمّة الفقهاء والأماثل العلماء وأهل القرآن والمعدلين الأعيان وكتبوا خطوطهم المعروفة بعباراتهم المألوفة، مسارعين إلى أداءالأمانة، وتوخّوا فى ذلك ما تحظره الديانة مخافة قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلم مِمَّن كَتَم شَهادةً عِنْدَهُ مِنَ اللّه) إنّ جماعة من الحشوية والأوباش الرعاع المتوسمين بالحنبلية أظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازى الشنيعة ما لم يتسمح به ملحد فضلاً عن موحّد، ولا تجوّز به قادح فى أصل الشريعة، ولا معطل; ونسبوا كلّ من ينزّه البارى تعالى وجلّ عن النقائص والآفات وينفى عنه الحدوث والتشبيهات، ـــــــــــــــــــ

۱ . التبيين: ۲۷۱ـ ۲۷۶.

۲ . المصدر السابق: ۳۰۸ـ ۳۱۰. (۳۱۸)

ويقدّسه عن الحلول والزوال، ويعظمه عن التغيّر من حال إلى حال، وعن حلوله فى الحوادث وحدوث الحوادث فيه، إلى الكفر والطغيان ومنافاة أهل الحق والإيمان، وتناهوا فى قذف الأئمّة الماضين، وثلب أهل الحقّ وعصابة الدين، ولعنهم فى الجوامع والمشاهد والمحافل والمساجد والأسواق والطرقات والخلوة، والجماعات. ثمّ غرّهم الطمع والإهمال، ومدّهم فى طغيانهم الغى والضلال إلى الطعن فيمن يعتضد به أئمّة الهدى وهو للشريعة العروة الوثقى، وجعلوا أفعاله الدينية معاصى دنية، وترقّوا من ذلك إلى القدح فى الشافعى رحمة اللّه عليه وأصحابه، واتفق عود الشيخ الإمام الأوحد أبى نصر ابن الأُستاذ الإمام زين الإسلام أبى القاسم القشيرى رحمة اللّه عليه من مكة حرسها اللّه، فدعا الناس إلى التوحيد وقدس البارى عن الحوادث والتحديد، فاستجاب له أهل التحقيق من الصدور الأفاضل السادة الأماثل، وتمادت الحشوية فى ضلالتها والإصرار على جهالتها وأبوا إلاّ التصريح بأنّ المعبود ذو قدم وأضراس ولهوات وأنامل، وأنّه ينزل بذاته ويتردّد على حمار فى صورة شاب أمرد بشعر قطط وعليه تاج يلمع وفى رجليه نعلان من ذهب، وحفظ ذلك عنهم وعلّلوه ودوّنوه فى كتبهم، وإلى العوام ألقوه، وأنّ هذه الأخبار لا تأويل لها، وأنّها تجرى على ظواهرها، وتعتقد كما ورد لفظها، وأنّه تعالى يتكلّم بصوت كالرّعد و كصهيلالخيل، و ينقمون على أهلالحق لقولهم إنّاللّه تعالى موصوف بصفات الجلال، منعوت بالعلم والقدرة والسمع والبصر والحياة والإرادة والكلام، وهذه الصفات قديمة، وإنّه يتعالى عن قبول الحوادث، ولا يجوز تشبيه ذاته بذات المخلوقين ولا تشبيه كلامه بكلام المخلوقين. ومن المشهور المعلوم: أنّ الأئمّة الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فى الفروع كانوا يصرّحون بهذا الاعتقاد ويدرسونه ظاهراً مكشوفاً لأصحابهم ومن هاجر من البلاد إليهم ولم يتجاسر أحد على إنكاره ولا تجوز متجوّز

بالرد عليهم دون القدح والطعن فيهم، وانّ هذه عقيدة أصحاب الشافعى ـرحمة اللّه عليهـ يدينون اللّه تعالى بها ويلقونه باعتقادها، و يبرأون إليه من سواها من غير شكّ ولا (۳۱۹)

انحراف عنها، وما لهذه العصابة مستند، ولا للحق مغيث يعتمد إلاّ اللّه تعالى، ورأفة المجلس السامى الأجلى العالمى العادلى القوامى النظامى الرضوى أمتعه اللّه بحياة يأمن خطوبها باسمة فلا يعرف قطوبها، فإن لم ينصر ما أظهره ويشيد ما أسّسه وعمره بأمر جزم وعزم حتم يزجر أهل الغواية عن غيهم ويردع ذوى العناد عن بغيهم ويأمر بالمبالغة فى تأديبهم، رجع الدين بعد تبسّمه قطوباً، وعاد الإسلام كما بدأ غريباً، وعيونهم ممتدة إلى الجواب بنيل المأمول والمراد، وقلوبهم متشوّفة إلى النصرة والإمداد، فإن هو لم ينعم النظر فى الحادث الذى طرقهم ويصرف معظم هممه العالية إلى الكارث الذى أزعجهم وأقلقهم ويكشف عن الشريعة هذه الغمة ويحسم نزغات الشيطان بين هذه الأُمّة، كان عن هذه الظلامة يوم القيامة مسؤولاً. إذ قد أديت إليه النصائح والأمانات من أهل المعارف والديانات، وبرئوا من عهدة ما سمعوه بما أدّوه إلى سمعه العالى وبلغوه، والحجّة للّه تعالى متوجهة نحوه بما مكّنه فى شرق الأرض وغربها وبسط قدرته فى عجمها وعربها، وجعل إليه القبض والإبرام واصطفاه من جميع الأنام، فما ترد نواهيه وأوامره ولا تعصى مراسمه زواجره، واللّه تعالى بكرمه يوفقه ويسدّده ويؤيد مقاصده ويرشده ويقف فكرته وخواطره على نصرة ملته وتقوية دينه وشريعته بمنّه ورأفته وفضله ورحمته. صورة الخطوط

١. الأمر على ما ذكر فى هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبى نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى أكثر اللّه فى أئمّة الدين مثله من عقد المجالس وذكر اللّه عزّوجلّ بما يليق به من توحيده وصفاته ونفى التشبيه عنه، وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم أسمع منه غير مذهب أهل الحقّ من أهل السنّة والجماعة، وبه أدين اللّه عزّوجلّ وإيّاه اعتقد، وهو الذى أدركت أئمّة أصحابنا عليه، واهتدى به خلق كثير من المجسمة وصاروا كلّهم على مذهب أهل الحقّ، ولم يبق من المبتدعة إلاّ نفر يسير، فحملهم الحسد والغيظ على سبّه وسبّ الشافعى وأئمّة أصحابه ونصّار مذهبه، وهذا أمر لا يجوز الصبر عليه (۳۲۰)

ويتعيّن على المولى أعز اللّه نصره التنكيل بهذا النفر اليسير الذين تولّوا كبر هذا الأمر وطعنوا فى الشافعى وأصحابه، لأنّ اللّه عزّوجلّ أقدره، وهو الذى برأ فى هذا البلد بإعزاز المذهب بما بنى فيه من المدرسة التى مات كلّ مبتدع من المجسمة والقدرية غيظاً منها وبما يرتفع فيها من الأصوات بالدعاء لأيامه، استجاب اللّه فيه صالح الأدعية، ومتى أهمل نصرهم لم يكن له عذر عند اللّه عزّجلّ. وكتب إبراهيم بن على الفيروز آبادى. ٢. الأمر على ما ذكر فى هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبى نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى جمّل اللّه الإسلام به وكثّر فى أئمّة الدين مثله من عقد المجالس وذكر اللّه عزّوجلّ بما وصف به نفسه من التنزيه ونفى التشبيه عنه وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم نسمع منه غير مذهب أهل الحقّ من أهل السنّة والجماعة وبه ندين اللّه عزّوجلّ، وهو الذى كان عليه أئمّة أصحابنا واهتدى به خلق كثير من المجسّمة واليهود والنصارى فصاروا أكثرهم على مذهب أهل الحقّ ولم يبق من المبتدعة إلاّ نفر يسير، فحملهم الحسد والغيظ على سبّه وسب الشافعى رضى اللّه عنه و نصّار مذهبه حتى ظهر ذلك بمدينة السلام، وهذا أمر لا يحل الصبر عليه ويتعيّن على من بيده قوام الدين والنظر فى أُمور المسلمين أن ينظر فى هذا ويزيل هذا المنكر، فإنّ من يقدر على إزالته ويتوقف فيه يأثم، ولا نعلم اليوم من جعل اللّه سبحانه أمر عباده إليه إلاّ المولى أعزّ اللّه أنصاره، فيتعيّن عليه الإنكار على هذه الطائفة والتنكيل بهم، لأنّ اللّه سبحانه أقدره على ذلك، وهو المسؤول عنه غداً إن توقف فيه وصار قصد المبتدعة أكثره معاداة الفقهاء الذين هم سكان المدرسة الميمونة فإنّهم يموتون غيظاً منهم لما هم عليه من مذاكرة علم الشافعى وإحياء مذهبه. وكتب الحسين ابن محمد الطبرى. ٣. الأمر على ما شرح فى صدر هذا المحضر. وكتب عبيد اللّه بن سلامة الكرخى. ۴. الأمر على ما ذكر فى هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبى نصر عبد الرحيم بن عبدالكريم القشيرى أدام اللّه حراسته من عقد المجالس (۳۲۱)

للوعظ والتذكير فى المدرسة النظامية المعمورة والرباط، وأطنب فى توحيد االلّه عزّوجلّ والثناء عليه بما يستوجبه من صفات الكمال

وتنزيهه عن النقائص و نفى التشبيه عنه واستوفى فى الاعتقاد ما هو معتقد أهل السنّة بأوضح الحجج وأقوى البراهين، فوقع فى النفوس كلامه، ومال إليه الخلق الكثير من العامة، ورجع جماعة كثيرة من اعتقاد التجسيم والتشبيه واعترفت بأنّها الآن بان لها الحقّ، فحسده المبتدعة المجسمة وغيرهم فحملهم ذلك على بسط اللسان فيه غيظاً منه و سبّ الشافعى رحمة اللّه عليه وأئمّة أصحابه ومن ينصرهم، وتظاهروا من ذلك بما لا يمكن الصبر معه، ويتعيّن على من جعل اللّه إليه أمر الرعية أن يتقدّم فى ذلك بما يحسم مادة الفساد، لأنّ سبب ذلك فرط غيظهم من اجتماع شمل العصابة الشافعية فى الاشتغال بالعلم بعمارة المدرسة الميمونة ،وتوفّرهم على الدعاء لأيّام من به عزّهم ولا عذر للتفريط فى ذلك. وكتب محمد بن أحمد الشاشى. ۵. الأمر على ما ذكر فيه. وكتب سعد اللّه بن محمد الخاطب. ۶. الأمر على المشروح فى هذا الصدر من حال الشيخ الإمام الأوحد أبى نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى أكثر اللّه فى أئمّة أهل العلم مثله من عقد المجالس ونشر العلم ووصف اللّه تعالى بما وصف به نفسه من توحيده وصفاته ونفى التشبيه عنه وقمع أهل البدع من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم أسمع منه عدولاً عن مذاهب أهل الحقّ والسنّة والدين القويم والمنهج المستقيم الذى به يدان اللّه تعالى و يعبد ويعتقد، فاهتدى بهديه خلق من المخالفين وصار إلى قوله ومعتقده جمع كثير إلّا من شقى به من الحاسدين، فأخلدوا إلى ذمّه وسبه وسب أئمّة الشافعيين، وقدحوا فى الشافعى وأصحابه، وصرّحوا بالطعن فيهم فى الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد، وهذه غمّة و ردّة لا يرجى لكشفها بعد اللّه تعالى إلّا المجلس السامى الأجلى النظامى القوامى العادلى الرضوى، أمتع اللّه الدنيا والدين ببقائه وحرس على الإسلام والمسلمين ظليل ظله ونعمائه، ويفعل اللّه ذلك بقدرته وطوله ومشيئته. وكتب الحسين بن أحمد البغدادى. ۷. حضرت المدرسة النظامية المنصورة المعمورة أدام اللّه سلطان إعزازها والرباط المقدس للصوفية أجاب اللّه صالح أدعيتهم فى المسلمين مجالس هذا (۳۲۲)

الشيخ الأجل الإمام ناصر الدين محيى الإسلام أبى نصر عبد الرحيم بن الأُستاذ الإمام زين الإسلام أبى القاسم القشيرى أحسن اللّه عن الشريعة جزاءه، فلم أسمع منه قط إلّا ما يجب على كلّ مكلّف علمه وتصحيح العقيدة به من علم الأُصول وتنزيه الحقّ سبحانه وتعالى ونفى التشبيه عنه، وإقماع الأباطيل والأضاليل وإظهار الحقّ والصدق، حتى أسلم على يديه ببركة التوحيد والتنزيه من أنواع أهل الذمّة عشرات، ورجع إلى الحقّ وعلم الصدق من المبتدعة مئات، وتبعه خلق غير محصور بحيث لم يستطع أحد ممّن تقدّم أو علماء العصر أن يشقّوا غباره فى مثل ذلك فخامرهم الحسد وعداوة الجهل وحملهم على الطعن فيه عدواناً وبهتاناً، ثمّ تمادى بهم الجهل إلى اللعن الظاهر للإمام الشافعى ـقدس اللّه روحهـ وسائر أصحابه عجماً وعرباً. وقائلوا ذلك شرذمة من ناشئة أغبياء المجسمة، وطائفة من أرذال الحشوية، استغنوا من الإسلام بالاسم، ومن العلم بالرسم، وتبعهم سوقة لا نسب لهم ولا حسب، وتظاهرت هذه اللعنة منهم فى الأسواق، ولم يستحسن أحد من أصحابه ـكثرهم اللّهـ دفع السفاهة بالسفاهة والسيئة بالسيّئة، ويجب على الناظر فى أُمور المسلمين من الذى قد انتشر فى المشارق والمغارب علمه وعدله وأمره ونهيه، الذى لطاعته نبأت صدور الأولياء والأعداء رغبة ورهبة، نصرته، ومدّ ضبعيه والشد على يديه وتقديم كلمته العليا وتدحيض كلمة أعدائه السفلى، فالصبر فى الصدمة الأُولى وهذه الصدمة التى كانت قلوب أصحاب الشافعى كثّرهم اللّه وغرة وغلة شغله بها منذ سنين، فانقشع ذلك وانكشف فى هذه الأيام المؤيدة المنصورة المؤبدة النظامية القوامية العالمية العادلية نصرها اللّه وأعلاها، وقد وقف تمامه على الأمر الماضى المنصور منه فإنّ فى شعبة من شعب عنايته ونصرته وكلمته للدين الذى مد أطراره كفاية وبلاغاً وعلى الغارس تعهد غراسه فضلًا وتعصباً فى كلّ وقت. وكتب عزيزى بن عبد الملك فى التاريخ حامداً للّه ومصلياً على محمّد النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وصحبه وسلم وشرف وكرم.(۱) ______________

۱ . تبيين كذب المفترى: ۳۱۰ـ ۳۱۸. (۳۲۳)

وأصحاب الخطوط فى هذا المحضر هم كبار أئمّة المذهب الشافعى ببغداد فى ذلك العهد، فقد ترجمهم محقّق كتاب «تبيين كذب المفترى» فى تعليقته على الكتاب، ثمّ أضاف: ولما طفح كيل فتن الحشوية الذين لا يكادون يفقهون حديثاً ، اضطر أكابر العلماء المعروفون بكمال الهدوء والتؤدة والأناة إلى قمع فتنتهم بالسعى لدى ولى الأمر سعياً حثيثاً، ورفع الإمام أبو إسحاق الشيرازى وأصحابه

هـذا المحضـر إلى نظـام الملـک منتصـرين للشـيخ أبی نصـر ابن القشـيری، فعاد جواب نظام الملک إلی فخر الدولـة و إلی الإمام أبی إسـحاق بإنكار ما وقع، والتشديد على خصوم ابن القشيری وذلک سنة تسع وستين وأربعمائة، فسكن الحال ثمّ أخذ الشريف أبو جعفر بن أبی موسی ـ و هو شيخ الحنابلة إذ ذاک ـ و جماعته يتكلّمون فی الشيخ أبی إسحاق ويبلغونه الأذی بألسنتهم، فأمر الخليفة بجمعهم والصـلح بينهم بعـد ما ثارت بينهم فتنة هائلة ذهب فيها نحو من عشـرين قتيلا، فلمّا وقع الصـلح وسـكن الأمر أخذ الحنابلة يشـيعون أنّ الشـيخ أبا إسـحاق تبرأ من مذهب الأشـعری، فغضب الشيخ لذلک غضباً لم يصل أحد إلی تسكينه حتی كتب إلی نظام الملک يشكو أهـل الفتن، فعـاد الجواب فی سـنة سـبعين وأربعمائـة إلی الشـيخ باسـتجلاب خاطره وتعظيمه، والأمر بتأديب الـذين أثاروا الفتنـة وبأن يسجن الشـريف أبو جعفر، فهـدأ الحال وسـكن جأش الشـيخ وانقمعت الحشوية، وتنفّس أهل السـنّة الصـعداء وإلی اللّه عاقبة الأُمور.

الثالث: تطور الدعوة السلفية ومراحلها

قـد تعرّفت فی البحوث السابقـة علی أنّه كان لمنع تـدوين الحـديث فی العصور الأُولی الإسـلامية تأثير خاص فی تسـرب عقائد اليهود والنصـاری إلی أوسـاط المسـلمين ولا سـيما أهل الحـديث منهم. ففی ظل ذلک المنع، ظهرت الفرق الباطلـة من المجسّـمة والمشبّهة ودعاة القول بالجهة للّه سـبحانه وجلوسه علی العرش ناظراً إلی ما دونه ممّا يتحاشی عنه أهل التنزيه. ولم يكن ظهور تلک العقائد أمراً غير مترقب، بل كان نتيجة حتمية للعوامل السائدة علی تلک البيئة، إذ فی الظروف التی يصلب فيها العقل (۳۲۴)

ويعدم، ويعاب فيها التفكير فی العقائد والمعارف، ويكتفی عن التدبر فی الذكر الحكيم، بالبحث عن القراءات السبع أو العشر، ويعرف الاسـتدلال والإمعـان فی الكتـاب العزيز بأنّه تأويل باطل، بل كفر و زندقـة، ويفسـح المجال للمتظاهرين بالإسـلام من الأحبار والرهبان ليقوموا بنشر قصص الأوّلين وأساطير الآخرين ـ ففی تلک الظروف ـ لا تظهر علی مسرح العقائد، إلاّ عقائد الطوائف المنحرفة، ولا غرو حينئـذ فی أن يصوّر إله العالم بصورة موجود مادی ذی جهات وأبعاض وأيـد وأرجل، له تكلم وضـحک وما يضاهی هـذه النظريات. وقـد جاء بعض الخلف محاولاً تصـحيح هـذه المأثورات، بإضافـة «بلا كيف» عقيب هـذه الصـفات، ولكن المحاولـة فاشـلة جـدّاً، فإنّ مرجعهـا إلی أنّه سـبحانه جسم بلاـ كيف، ولا يختلف التعبيران إلاّ فی الصـراحة والكنايـة. ومن العقائـد الغريبـة التی ظهرت فی أواخر القرن الثـانی، كـون كلامـه سبحانه قـديماً غير مخلوق، وقـد تلقّاه أهـل الحـديث أمراً مسـلماً، وكـان اللائق بمنهجهم هو السـكوت، لاعترافهم بعـدم ورود نصّ من رسول اللّه فيها، ولكنّهم اعتنقوا هذه العقيدة اعتناقاً وثيقاً لم ير مثله فی سائر المسائل، حتّی اسـتعدوا فی طريقه لتقـديم التضـحيات الثمينـة، من شتی أنواع الضـرب والحبس والتقيـد، وذلک عنـدما عزم المأمون علی ردعهم عن القول بقـدم القرآن، فاسـتتاب أهل الحديث منه، فاسـتجاب بعضـهم دون بعض وممّن أظهر الصمود والثبات علی تلک العقيدة إمام الحنابلة أحمد بن حنبل. وقـد ضـرب فی عصـر الخليفـة المعتصم فلم يرتـدع، فصار ذلک سـبباً لاشـتهار الرجل بينهم، وبلوغه قمـة الإمامة فی العقائد والسـنّة، واكتسـابه مكانـة مرموقـة بين النـاس. فصارت السـنّة ما أمضاه الإمام والبدعـة ما هجره، فراجت رسائله وكتبه التی ألّفت باسـم عقيـدة أهل السـنّة، وكانت الرئاسة فی باب العقائد منحصـرة به إلی أن ظهر الإمام الأشـعری تائباً عن الاعتزال، معلناً التحاقه فی العقائد بالإمـام أحمـد، و عـدّ نفسه مـدافعاً عن عقائـد أهـل السـنّة تـارة بالنصوص والأحاديث، وأُخری بالاسـتدلال والبرهنـة: فألّف فی بـداية الالتحاق كتاب «الإبانة» وهو تصوير خاص لرسائل إمام مذهبه، كما ألّف فی الفترة الأُخری كتاب «اللمع» وهو (۳۲۵)

تصوير لمـا يملكه من الفكر الـذی ورثه عن المعتزلـة حينما كان منتهجاً مناهجهم. وبما أنّ الإمام الأشـعری قـد قضـی شـطراً كبيراً من عمره بين أهل الفكر والتعقّل، فلـذا أخـذ بالتعديل والتهذيب فی عقائد المذهب الأُم ـ أهل الحديث ـ وما قام به من العملية العقلية وإن أغضبت ثلـة من الحنابلة وأهل الحديث، حتی إنّ كبير الحنابلة (البربهاری) فی ذلک الوقت لم يقبل دفاع الشـيخ الأشـعری عن عقائد أهـل السـنّة بالبرهنـة والاسـتدلال، ولكن النفوس المسـتعدة المتنورة تأثّرت بمنهـج الإمام الأشـعری، وزاد الإقبال عليه وتوفر الثناء علی فكرته. وعلی ضـوء منهجه ألّف الإمـام البيهقی (۱) صـاحب السـنن الكبری كتاب «الأسـماء والصـفات» وعالـج فيه كثيراً من روايات التشبيه والتجسيم، كما قام ابن فورک(۲) بتأليف كتاب «مشكل الحديث وبيانه»، كلّ ذلک علی الخط الذی رسمه الأشعری فی تنزيهه

سبحانه. ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى(المتوفّى عام ۴۵۸هـ) وطبع كتاب «الأسماء والصفات» فى مصر بتصحيح الشيخ محمد زاهد الكوثرى. ومن المأسوف عليه أنّ يد الخيانة أسقطت مقدمة الأُستاذ الشيخ سلامة العزامى الشافعى عند إعادة الطبع بالأفست، وما هذا إلاّ لأنّ المقدمة كانت على ضد السلفيةوالوهابية.

۲ . هو أبو بكر محمد بن حسن بن فورك(المتوفّى عام ۴۰۶هـ) له ترجمة فى تبيين ابن عساكر:۲۳۲ـ ۲۳۳.

يقول المقريزى فى خططه (ج۲،ص ۳۵۸) فى بيان حقيقة المذهب الأشعرى: إنّه سلك طريقاً بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال (نفى الصفات الخبرية كاليد والوجه)، وبين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه فمال إليه جماعة وعوّلوا على رأيه، منهم: القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى، و أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الإسفرائينى، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الشيرازى، والشيخ أبو حامد محمد بن أحمد الغزالى، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى،والإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازى وغيرهم ممن يطول ذكره ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلّوا له فى مصنّفات لا تكاد تحصر، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة وانتقل منه إلى الشام، إلى آخر ما ذكره. (۳۲۶) إبعاد أحمد عن الإمامة فى العقائد

قد كان لانتشار مذهب الأشعرى تأثير خاص فى إبعاد الإمام أحمد عن ساحة العقائد، وأُفول إمامته فى الأُصول، وانزوائه فى كثير من البلدان وإقامة الأشعرى مقامه. فصار الفرع الذى اشتق من الأصل المذهب الرسمى لأهل السنّة. وبلغت إمامة الفرع إلى الحدّ الذى كلّما أطلق مذهب أهل السنّة لا يتبادر منه إلاّ ذلك المذهب أو ما يشابهه كالماتريدية. يقول المقريزى بعد الإشارة إلى أُصول عقيدة الإمام الأشعرى: هذه جملة من أُصول عقيدته التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتى من جهر بخلافها أريق دمه.(۱) نعم، بلغ الإمام الأشعرى قمة الإمامة فى العقائد من دون أن يمس إمامة أحمد فى الفروع ومرجعيته فى الفتيا، كيف وهو أحد المذاهب الأربعة الرسمية بين أهل السنّة إلى الآن فى العواصم الإسلامية، لكن لا فى نطاق واسع بل فى درجة محدودة تتلو إمامة أبى حنيفة والشافعى ومالك. تجديد الدعوة السلفية فى القرن الثامن

لقد اهتم بعض الحنابلة ـ أعنى: أحمد بن تيمية الحرانى الدمشقى (المتوفّى عام ۷۲۸هـ) ـ بإحياء مذهب السلفية على المفهوم الذى كان رائجاً فى عصر الإمام أحمد وقبله وبعده إلى ظهور الأشعرى، فأصرّ على إبقاء أحاديث التشبيه والجهة بحالها من دون توجيه وتصرف، وهاجم التأويلات التى ذكرها بعض الأشاعرة فى كتبهم حول تلك الأحاديث. ولكنّه لم يكتف بمجرّد الإحياء، بل أدخل فى عقائد السلف أُموراً لا ـ ترى منها أثراً فى كتبهم، فعد السفر لزيارة الرسول الأـعظم بدعة وشركاً، كما عدّ التبرّك ب آثارهم والتوسّل بهم شيئاً يضاد التوحيد فى العبادة. وقد ضم إلى ذينك الأمرين شيئاً ثالثاً وهو إنكار كثير من الفضائل الواردة فى آل البيت، المروية فى الصحاح و المسانيد حتى فى مسند ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . الخطط المقريزية:۲/۳۹۰. (۳۲۷)

إمامه أحمد. وبذلك جدد الفكرة السلفية الخاصة المتبلورة فى الفكرة العثمانية التى تعتمد على التنقيص من شأن على وإشاعة بغضه وعناده. وبذلك نقض قواعد ما أرساه إمامه أحمد من مسألة التربيع وجعل علىـعليه السَّلام ـ رابع الخلفاء الراشدين، وأنّ علياً كان أولى وأحقّ من خصومه. ومن حسن الحظ إنّه لم يتأثر بدعوته إلاّـ القليل من تلامذته كابن القيم (المتوفّى عام ۷۵۱هـ) كيف وقد عصفت الرياح المدمرة على هذه البراعم التى أظهرها، حيث قابل منهجه المحقّقون بالطعن والردّ الشديدين، فأفرد بعضهم فى الوقيعة به ت آليف حافلة، وجاء البعض الآخر يزيف آراءه و معتقداته فى طى كتبه، وقام ثالث يترجمه ويعرفه للملأ ببدعه وضلالاته. وكفى فى ذلك ما كتبه بعض معاصريه كالذهبى، فإنّه كتب رسالة مبسوطة إليه ينصحه ويعرفه بأنّه ممّن يرى القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينيه، وأنّه لم تسلم أحاديث الصحيحين من جانبه ثمّ خاطبه بقوله: أما آن لك أن ترعوى؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟

أما أنت فی عشر السبعین وقد قرب الرحیل؟.(۱) وهناک کلام للمقریزی یقول بعد الإشارة إلی اشتهار مذهب الأشعری وانتشاره فی أمصار الإسلام: إنّه نسی غیره من المذاهب وجهل حتی لم یبق الیوم مذهب یخالفه. إلاّ أن یکون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبی عبد اللّه أحمد بن محمد ابن حنبل ـ رضی اللّه عنه ـ فإنّهم کانوا علی ما کان علیه السلف لا یرون تأویل ما ورد من الصفات، إلی أن کان بعد السبعمائة من سنی الهجرة، اشتهر بدمشق وأعمالها تقی الدین أبو العباس أحمد بن تیمیة الحرانی، وتصدّی للانتصار لمذهب السلف، وبالغ فی الرد علی مذهب الأشاعرة، وصدع بالنکیرة علیهم وعلی الرافضة وعلی الصوفیة، فافترق الناس فیه فریقان فریق یقتدی به ________________

۱ . تکملة السیف الصقیل: ۱۹۰، ونقل قسماً من هذه الرسالة العزامی فی الفرقان الذی طبع فی مقدّمة الأسماء والصفات للبیهقی ونقله العلاّمة الأمینی فی غدیره:۵/۸۷ ـ ۸۹. (۳۲۸)

ویعول علی أقواله ویعمل برأیه ویری أنّه شیخ الإسلام وأجل حفاظ أهل الملّة الإسلامیة، وفریق یبدعه ویضلّله ویزری علیه بإثباته الصفات وینتقد علیه مسائل منها ما له فیه سلف ومنها ما زعموا أنّه خرق فیه الإجماع ولم یکن له فیه سلف، وکانت له ولهم خطوب کثیرة وحسابه وحسابهم علی اللّه الذی لا ـ یخفی علیه شیء فی الأرض ولا ـ فی السماء وله إلی وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقلیل بمصر.(۱) الدعوة السلفیة فی القرن الثانی عشر

لم یتعظ الرجل من قوة ناصحه المشفق حتی أدرکته المنیة فی سجن دمشق، ولکن کانت بذرة الضلال مدفونة فی الکتب وزوایا المکتبات إلی أن ألقی الشر بجرانه، وجاء الدهر بمحمّد بن عبد الوهاب النجدی فی القرن الثانی عشر(۱۱۱۵ـ ۱۲۰۶هـ) فحذا حذو ابن تیمیة، وأخذ وتیرته واتبع طریقته، فأحیا ما دثره الدهر، ودعا إلی السلفیة من جدید، غیر أنّه اتّخذ ما أضافه ابن تیمیة إلی عقائد السلف ممّا لا یرتبط بمسألة التوحید والشرک، کالسفر إلی زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ والتبرک ب آثاره، والتوسل به، وبناء القبة علی قبره، قاعدة أساسیة لدعوته، ولم یهتم فی ت آلیفه بمسألة التشبیه وإثبات الجهة والفوق. نعم، لمّا استفحلت دعوة الشیخ محمد بن عبد الوهاب فی نجد وقام اُمراء المنطقة (آل سعود) بترویج منهجه واستغلوه للسیطرة علی الجزیرة العربیة، اهتمت الوهابیة بنشر ما ألّفه السلف حول البدع السابقة الموروثة من الیهود والنصاری ،فصار إثبات الصفات الخبریة کالید والوجه والاستواء بمفهومها اللغوی مذهباً رسمیاً لدعاة الوهابیة، لا یجترئ عالم علی مخالفته فی أوساطهم.(۲) ________________

۱ . الخطط المقریزیة:۲/۳۵۸ـ ۳۵۹.

۲ . وقد ألّف رضا بن نعسان معطی فی مکة المکرمة کتاباً حول الصفات الخبریة سماه «علاقة الإثبات والتفویض بصفات ربّ العالمین» وقدم علیه عبد العزیز بن باز رئیس إدارة البحوث العلمیة والإفتاء والدعوة والإرشاد وأصر فیه علی أنّ عقیدة السلف فی هذه الصفات إبقاؤها علی مفاهیمها اللغویة بلا تغییر وتصرف. وغیر خفی علی النبیه أنّه لا ینتج إلاّ التجسیم وإن کان الکاتب والمقرظ لا یعترفان به، ولکنّه لا ینفک عن تلک النتیجة. (۳۲۹)

وبذلک وردت الدعوة السلفیة فی مراحلها التاریخیة المرحلة الثالثة بعد الاندراس و لمّا تمّت معاملة الدول الکبری علی الخلافة العثمانیة المسیطرة علی أکثر ربوع الإسلام ـ یوم ذاک ـ و اُقصیت من ساحة البلاد العربیة، حلّت سیطرة آل سعود المتبنین للعقیدة الوهابیة من لدن میلادها، محلها فی أرض الحجاز عموماً، والحرمین الشریفین خصوصاً. ومن جراء ذلک أخذت الدعوة الوهابیة تنتشر فی الأراضی المقدسة بالطابع السلفی، فصارت السلفیة والوهابیة وجهین لعملة واحدة، وقد استعانت السلطة السعودیة بکلّ ما تملک من قوّة وقدرة إرهابیة، ودراهم ودنانیر ترغیبیة، لنشر المنهج الوهابی، ولکلّ من ذینک الأمرین أهله ومحله. فاستعملت الأوّل فی الاُمّیّین والرعاع من الناس، واشترت بالثانی أصحاب القلم وأرباب الجرائد والمجلات وسائر وسائل الإعلام. فصارت السلفیة فی هذه الأماکن رمز الإسلام الأصیل، وآیة الدین الصحیح، المجرّد عن البدع اللصیقة به بعد لحوق النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلَّم ـ بالرفیق الأعلی. وقد استعانت هذه السلطة فی تسریع الحرکة الوهابیة فی هذا الزمان بما ظهر فی المناطق الشرقیة من الجزیرة من الذهب

الأسود، فاستولت على زبرج الدنيا وزينتها وتمادت فى غيّها وساقت كثيراً من الناس إلى معاسيف السبل ومعاميها، حتّى تأثر بتلك الحركة بعض الشبان وغيرهم خارج الجزيرة العربية. إنّ الدعايات الخادعة، أثرت فى تفكير كثير من الناس إلى حدّ تخيل لهم أنّ تجديد مجد الإسلام وبلوغ المسلمين إلى ذروة السنام لا يتم إلّا بإحياء ما كان عليه السلف فى الأُصول والفروع، ويريدون منه عهود الخلافة الراشدة والأمويين والعباسيين، فكأنّ حياتهم فى تلك العصور كانت باقات زهور تفتحت فى تلك القرون، فعم ريحها وريحانها أجواء الأقطار الإسلامية، (٣٣٠)

فلأجل ذلك يتطلّعون إلى تلك العهود تطلع الصائم إلى الهلال، والظامئ إلى الماء. لكن الدعايات الخاطئة عاقتهم عن التعرف على ما فى تلك العصور من النقاش والخلاف بين المسلمين وسفك الدماء وقتل الأولياء وحكومة الإرهاب والإرعاب، إلى غير ذلك من المصائب والطامات الكبرى. ولو درسوا تاريخ السلف ـ منذ فارق النبى الأعظم المسلمين وتسنم الأمويون منصة الخلافة إلى أن انتكث فتلهم، وأجهز عليهم عملهم، وورثهم العباسيون ولم يكونوا فى العمل والسيرة بأحسن حال منهم ـ لوقفوا على أنّ حياة السلف لم تكن حياة مثالية راقية، بل كانت تسودها المجازر الطاحنة الدامية، والجنايات الفظيعة التى ارتكبتها الطغمة الأموية والعباسية فى حقّ الأبرياء الأولياء والعلويين من العترة الطاهرة. فلو صحّ ما فى التواريخ المتواترة، لدلّ قبل كلّ شيء على أنّ السلف لم يكن بأفضل من الخلف، وأنّ الخلف لم يكن بأسوأ من السلف، ففى كلتا الفئتين رجال صالحون مثاليون كما فيهما رجال دجّالون وأُناس طالحون. المفكّرون الإسلاميون المعاصرون والسلفية

ومن المؤسف أنّ السلفية اتخذت لنفسها فى الآونة الأخيرة طابعاً حاداً وسلوكاً فى غاية الجمود و التحجّر، وفى منتهى التقشف والتزمت حتى ذهب من ينحو هذا المنحى إلى تحريم كلّ ما يتصل بالحضارة ومعطياتها المباحة شرعاً، فإذا بهم يحرمون حتى التصوير الفوتوغرافى ويهاجمون الراديو و التلفزيون(١) عتواً وجهلاً. وقد كان هذا الموقف الجامد المتحجّر، وهذا التزمت والجفاف الذى ما أنزل اللّه به من سلطان، والذى أسند ـ و للأسف ـ إلى الإسلام، وما رافقه من قوة على الآخرين ورميهم بالبدعة، والخروج على الدين بحجة عدم ________________

١ . راجع مجلة الفرقان العدد الخامس من السنّة الأُولى وتصدرها جماعة من السلفيّين المتشدّدين. (٣٣١)

الانقياد لمواقف السلف، وآرائهم، وراء ابتعاد جماعات كبيرة من الشباب من أبناء المسلمين عن الإسلام السهل الحنيف، وإساءة الظن به وبمؤسساته. وهذا هو ما حدا ببعض الغيارى والمتحررين من المفكّرين الإسلاميين إلى التصدّى لهذا الاتجاه الدخيل على الإسلام البعيد عن روحه النقية السمحة. وممن انبرى لإبطال هذا المذهب وإزالة الغبار عن وجه الحقيقة الأُستاذ محمد سعيد رمضان البوطى فى كتابه «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامى». حيث عمد أوّلاً إلى تفنيد زعم السلفيين المعاصرين بأنّ على المسلم أن يجمد على ما ورد عن السلف وعلى منهجهم وكأنّه مذهب إسلامى مقدس لا يجوز أن تناله يد الجرح والتعديل، ولا أن يخضع للنقاش والنقد، بل لا يجوز أن يتخطى فى مقام العمل والسلوك. حيث قال: إنّ اتّباع السلف لا يكون بالانحباس فى حرفية الكلمات التى نطقوا بها أو المواقف الجزئية التى اتخذوها، لأنّهم هم أنفسهم لم يفعلوا ذلك.(١) ثمّ قال: إنّ من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمة (السلف) فنصوغ منها مصطلحاً جديداً طارئاً على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامى ألا وهو (السلفية) فنجعله عنواناً مميزاً تندرج تحته فئة معينة من المسلمين تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده، مفهوماً معيناً، وتعتمد فيه على فلسفة متميزة بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك، جماعة إسلامية جديدة فى قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة والمتعارضة بشكل مؤسف فى هذا العصر، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها وميولها، بل تختلف عنهم حتّى بمزاجها النفسى ومقاييسها الأخلاقيّة كما هو الواقع اليوم فعلاً. بل إنّنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إنّ اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التى أشرنا إليها بدعة طارئة فى الدين لم يعرفها السلف الصالح لهذا الأُمّة، ولا الخلف الملتزم بنهجه.(٢) ________________

١ . السلفية مرحلة زمنية: ١٢.

۲ . المصدر نفسه: ۱۳. (۳۳۲)

ويقول: إنّ السلف أنفسهم لم يكونوا ينظرون إلى ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال أو تصرفات، هذه النظرة القدسية الجامدة التى تقتضيهم أن يسمِّروها بمسامير البقاء والخلود، بل ساروا وراء ذلك مع ما تقتضيه علل الأحكام وسنة التطور فى الحياة، وعوامل التقدم العلمى، ومنطق التجاوز المستمر من الصالح إلى الأصلح كما سايروا الأعراف المتطورة من عصر إلى آخر، أو المتبدلة ما بين بلدة وأُخرى ما دام ذلك كلّه منتشراً وراء أسوار النصوص الحاكمة والمهيمنة.(۱) ثمّ أشار إلى نماذج من مواقف السلف التى تطورت مع تطور الأحوال والأوضاع فى شتى مجالات العلم والسلوك. ثمّ قال: إنّ السلف أنفسهم لم يجمدوا عند حرفية أقوال صدرت منهم، كما لم يتشبّثوا بصور أعمال أو عادات ثبتوا عندها ثمّ لم يتحولوا عنها، بل الذى رأيناه فى هذه النماذج اليسيرة هو نقيض ذلك تماماً، فكيف نقلّدهم فى شىء لم يفعلوه، بل ساروا فى طريق معاكس له...؟(۲) ثمّ ينتهى إلى القول: إنّ كلّ ما ذكرنا هنا تلخيص إجمالى للبرهان على أنّ السلفية لا تعنى على كلّ حال إلاّ مرحلة زمنية مرت... فإن قصدت بها جماعة إسلامية ذات منهج معين خاص بها، يتمسّك به من شاء، ليصبح بذلك منتسباً إليها منضوياً تحت لوائها، فتلك إذن إحدى البدع المستحدثة بعد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ .(۳) ثمّ لإبطال حجّية مواقف السلف على من بعدهم ما لم يستند إلى برهان يشير إلى نماذج من خلافاتهم واختلافاتهم فى المواقف والآراء(۴) ثمّ يقول: فلو كانت اتجاهات السلف واجتهاداتهم هذه حجّة لذاتها، لا تحتاج هى بدورها إلى برهان أو مستند يدعمها، لأنّها هى برهان نفسها، إذن لوجب أن تكون تلك ــــــــــــــــــ

۱ . نفس المصدر:۱۴ـ ۱۵.

۲ . نفس المصدر: ۱۸.

۳ . نفس المصدر:۲۳.

۴ . نفس المصدر:۲۳. (۳۳۳)

النظرات المتباعدة بل المتناقضة كلّها حقّاً وصواباً، ولوجب المصير دون أى تردد إلى رأى المصوبة. وعن إمكانية طروء الخطأ على مواقف السلف يقول: إنّ اقتداءنا بالسلف لا يجوز أن يكون بواقعهم الذى عاشوه من حيث إنّهم أشخاص من البشر يجوز عليهم كلّ أنواع الخطأ والسهو والنسيان، فإنّهم من هذا الجانب بشر مثلنا لا يمتازون عن سائر المسلمين بشىء.(۱) من هنا يرى أنّ على الأُمّة إذا أرادت أن تصل إلى الحقيقة الإسلامية فى مجال العقيدة والسلوك أن تتبع منهجاً فى هذا المجال لا أن تكتفى بمجرّد اتباع السلف بشكل مطلق، فيقول فى هذا الصدد: إنّ الإنسان لكى يمارس الإسلام يقيناً وسلوكاً لابدّ أن يجتاز المراحل الثلاث التالية: أ. التأكّد من صحّة النصوص الواردة والمنقولة عن فم سيدنا محمّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قرآناً كانت هذه النصوص أم حديثاً، بحيث ينتهى إلى يقين بأنّها موصولة النسب إليه، وليست متقوّلة عليه. ب. الوقوف بدقة على ما تتضمنه وتعينه تلك النصوص بحيث يطمئن إلى ما يعنيه ويقصده صاحب تلك النصوص منها. ج. عرض حصيلة تلك المعانى والمقاصد التى وقف عليها وتأكد منها، على موازين المنطق والعقل (ونعنى بالمنطق هنا قواعد الدراية والمعرفة عموماً) لتمحيصها ومعرفة موقف العقل منها.(۲) وعندما شرح البند الأوّل والعلّة الموجبة له يشير إلى ما تعرض له الحديث النبوى على يد الوضّاعين والزنادقة، ويشير إلى أقسام الحديث من متواتر وصحيح وضعيف، ممّا يجعلنا نتحفظ تجاه النصوص، ولا نقدم على الأخذ بها ــــــــــــــــــ

۱ . السلفية مرحلة زمنية:۵۵ـ۵۶.

۲ . نفس المصدر:۶۳. (۳۳۴)

لمجرّد رواية السلف لها أو روايتها عن السلف، بل نأخذ بها بعد التمحيص والتحقيق حسب الميزان المذكور. فيقول: فمن التزم بمقتضى هذا الميزان فهو متبع كتاب اللّه متقيد بسنة رسول اللّه، سواء أكان يعيش فى عصر السلف أو جاء بعدهم، ومن لم يلتزم بمقتضاه فهو متنكب عن كتاب اللّه، تائه عن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام وإن كان من الرعيل الأوّل، ولم يكن يفارق مجلس

رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ.(۱) وبعد أن يسهب في شرح تفاصيل هذا المنهج يقول: ولم نعلم أنّ في أهل هذه القرون الغابرة كلّها من قد استبدل بهذا المنهج الذى كان ولا يزال فيصل ما بين أهل الهداية والضلال، التمذهب بمذهب يسمّى السلفية بحيث يكون الانتماء إليه هو عنوان الدخول فى ساحة أهل الهداية والرشاد. وعدم الانتماء إليه هو عنوان الجنوح إلى الزيغ والضلالة والابتداع. ولقد أصغينا طويلاً ونقبنا كثيراً فلم نسمع بهذا المذهب في أىّ عصر من عصور الإسلام الغابرة، ولم يأت من يحدثنا بأنّ المسلمين في عصر ما قد انقسموا إلى فئة تسمّى نفسها السلفية وتحدد شخصيتها المذهبية هذه ب آراء محددة تنادى بها، وأخلاقية معينة تصطبغ بها، وإلى فئة أُخرى تسمى من وجهة نظر الأُولى بدعية أو ضلالية أو خلفية أو نحو ذلك، كلّ الذى سمعناه وعرفناه أنّ ميزان استقامة المسلمين على الحقّ أو جنوحهم عنه إنّما مردّه إلى اتّباع المنهج المذكور. وهكذا، فقد مرّ التاريخ الإسلامى بقرونه الأربعة عشر دون أن نسمع عن أى من علماء وأئمّة هذه القرون أنّ برهان استقامة المسلمين على الرشد يتمثل في انتسابهم إلى مذهب يسمّى بالسلفية فإن هم لم ينتموا إليه ويصطبغوا بمميزاته وضوابطه، فأُولئك هم البدعيون الضالّون. ________________

۱ . السلفية مرحلة زمنية: ۷۹. (۳۳۵)

إذن فمتى ظهرت هذه المذهبية التى نراها بأُمّ أعيننا اليوم والتى تستثير الخصومات والجدل فى كثير من أصقاع العالم الإسلامى، بل تستثير التنافس والهرج فى كثير من بقاع أوروبا حيث يقبل كثير من الأوروبيين على فهم الإسلام ويبدون رغبة فى الانتساب إليه؟(۱) وبعد أن يشير إلى مبدأ ظهور هذه الكلمة (السلفية) وسبب ذلك، و كيف أنّها استخدمت فى ذلك الوقت للدعوة إلى السير على خطا المسلمين الأُول فى الالتزام بأصل الإسلام فى مواجهة الموجة المادية الغربية التى اجتاحت البلاد الإسلامية فى أوائل القرن العشرين، ولكنّها تحولت فيما بعد إلى لقب، لقب به الوهابيون مذهبهم، وهم يرون أنّهم دون غيرهم من المسلمين على حقّ، وأنّهم دون غيرهم الأُمناء على عقيدة السلف، والمعبرون عن منهجهم فى فهم الإسلام وتطبيقه، وأمّا الآخرون فكفرة ضالّون. يقول بعد كلّ هذا تحت عنوان: «التمذهب بالسلفية بدعة لم يكن من قبل»: إذا عرف المسلم نفسه بأنّه ينتمى إلى ذلك المذهب الذى يسمّى اليوم بالسلفية، فلا ريب أنّه مبتدع... فالسلفى اليوم، كلّ من تمسّك بقائمة من الآراء الاجتهادية المعينة ودافع عنها وسفّه الخارجين عليها ونسبهم إلى الابتداع، سواء منها ما يتعلق بالأُمور الاعتقادية، أو الأحكام الفقهية والسلوكية.(۲) ثمّ أشار الأُستاذ البوطى إلى الآثار الضارة اللاحقة بالأُمّة الإسلامية من جرّاء هذه البدعة، وما يلازمها من عصبية مقيتة ومواقف متصلّبة وعنيفة. وما أوجدت من مشاكل فى الأوساط الإسلامية... وأشار ـ فيما أشار ـ إلى تهجّم السلفيين على جماعة من المسلمين المجاهدين فى سبيل اللّه لا لشىء إلّا لأنّ السلفيين لا يرتضون بعض أعمالهم المباحة شرعاً. ________________

۱ . السلفية مرحلة زمنية: ۲۳۰ـ ۲۳۱.

۲ . نفس المصدر: ۲۳۶ـ ۲۳۷. (۳۳۶)

حيث قال: وفى إحدى الأصقاع النائية (۱) حيث تدافع أُمّة من المسلمين الصادقين فى إسلامهم عن وجودها الإسلامى وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوّب إليهم من الجماعات السلفية سهام الاتّهام بالشرك والابتداع، لأنّهم قبوريون توسّليون(۲) ثمّ تتبعها الفتاوى المؤكّدة بحرمة إغاثتهم بأىّ دعم معنوى أو عون مادى، ويقف أحد علماء تلك الأُمّة المنكوبة المجاهدة ينادى فى أصحاب تلك الفتاوى والاتهامات: يا عجباً لإخوة يرموننا بالشرك مع أنّنا نقف بين يدى اللّه كلّ يوم خمس مرات نقول:(إِيّاك نعبدُ وإِيّاكَ نَسْتَعين) (۳)... لكن النداء يضيع، ويتبدّد فى الجهات دون أىّ متدبر أو مجيب!!(۴) ثمّ يقول: إنّ استنكار هذه الرعونات الشنيعة لا يكون إلاّـ بمعالجتها، ولاـ تكون معالجتها إلاّـ بسد الباب الذى اقتحمت منه، وإنّما الباب الذى اقتحمت منه هو الإقدام على اقتطاع جماعة من جسم الجماعة الإسلامية الواحدة، واختراع اسم مبتدع لها ثمّ تغذية روحها العصبية وأنانيّتها الجماعية بمقوّمات معينة وأساليب وأخلاقيات متميزة تدافع بها عن كيانها الذاتى، بل تتّخذ من هذا الاسم سلاحاً لمقاومة الآخرين وطعنهم دون هوادة إذا اقتضى الأمر.(۵) ثمّ يشير الأُستاذ إلى استفادة أصحاب الفكر اليسارى من هذه البدعة لصالح المادية الماركسية الجدلية حيث اعتبروا

هذه البدعة دليلًا على صحّة نظريتهم التاريخية فى مجال التناقض والصيرورة، فى غفلة من أصحاب هذه البدعة. ________

۱ . والمراد هو إيران المسلمة وذلك عند دفاع أهلها عن وطنهم ومقدّساتهم فى الحرب المفروضة عليهم من جانب الاستكبار العالمى وعملائه.

۲ . نعم هذا هو ما كان يفعله السعوديون الذين يتسترون تحت غطاء السلفية فكانوا يساعدون النظام الإلحادى البعثى العراقى بالمال والسلاح والدعاية مجاهرين بذلك. وحبذا لو أنّ الأُستاذ الشهم كشف عن اسم هذه الفرقة المتجنّية على الإسلام والمسلمين،التى لم تكتف بتكفير المسلمين فى إيران بل كفرت كلّ المسلمين وضلّلتهم.

۳ . الفاتحة:۵.

۴ . السلفية مرحلة زمنية: ۲۴۵.

۵ . المصدر نفسه: ۲۴۶. (۳۳۷) السلفية وتدمير الآثار الإسلامية

لقد قامت «الوهابية» المفروضة على الشعب المسلم فى الجزيرة العربية باسم «السلفية» بتدمير الآثار الإسلامية وقد ركزت جهودها فى هذه الأيام على محو آثار الإسلام ومعالمه وطمس كلّ أثر دينى حتى المساجد، مع أنّ مؤسس«الوهابية»، أعنى: «محمد بن عبد الوهاب» ، كان يركز جهوده على هدم القبور فقط لا على هدم كلّ أثر دينى للرسول الأعظم وصحابته المنتجبين، لكنّ حلفاءه بدأوا فى هذه الأيام بالقضاء على الآثار الدينية باسم تطوير البلدين: مكة والمدينة فترى كيف طمست حتى فى هذه السنوات الأخيرة(۱۳۹۶ـ ۱۴۰۸هـق) عشرات من الآثار الإسلامية ومحيت معالمها تحت غطاء توسعة المسجد النبوى، أو تطوير المدينة وإعمارها، وكأنّ التطوير يتوقف على التدمير ولا يجتمع مع حفظ تلك الآثار فى مكانها، ولا نشكّ نحن وكلّ متحرق على الحقّ والحقيقة أنّها مؤامرة شيطانية على الإسلام وأهله. والعجب أنّ «السعوديين» يقومون بهذا العمل باسم الاقتداء بالسلف مع أنّ السلف فى القرون السابقة فرضوا على أنفسهم رعايتها، فإنّ الحكام ـ الذين تعاقبوا على مسند الحكم فى الحجاز عدا يزيد ـ فرضوا على أنفسهم حفظها ورعايتها غير أنّها فى هذه الأيام، كأنّها أصبحت ملكاً صرفاً لآل سعود، وكأنّها ليست آثاراً إسلامية ولا تخص مليار مسلم فضلاً عن الأجيال اللاحقة، ولو نظر المسلم فى تاريخ الآثار الإسلامية قبل استيلاء «السعوديين» عليها لوجد جميع الآثار تتمتع بأفضل عناية ورعاية من جانب السلف. فما معنى هذه السلفية التى تتبعض فى مفهومها فيؤخذ منها شىء ويترك منها شىء؟! يقولون : «نؤمن ببعض ونكفر ببعض». وفى الوقت الذى تحرص فيه الدول المتحضّرة على إحياء أمجادها وتراثها، وتتعهد بإنشاء كليات ومعاهد ومؤسسات ومتاحف لحفظ الآثار وصيانتها ـ فى هذا الوقت نفسه ـ تعمد السعودية إلى القضاء على أنفس الآثار الإسلامية وأعزها على كلّ مسلم. والعجب العجاب أنّ هؤلاء يدّمرون بيوت بنى هاشم وبيت الإمام (۳۳۸)

الصادق ـ عليه السَّلام ـ ، وقبر والد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ومشهد ذى النفس الزكية، وبيت أبى أيّوب الأنصارى مضيف النبى، ولكنّهم يعتنون ب آثار اليهود فى المدينة المنوّرة، فترى فيها حصن «كعب بن الأشرف» رأس اليهود الذى اغتاله بعض الصحابة بأمر النبى الأعظم محفوظاً، وقد وضعت أمامه لوحة تحمل مرسوماً ملكياً بحفظه تحت عنوان حفظ الآثار. وليس هذا التخطيط منحصراً بحفظ تراث ذلك اليهودى بل حصون خيبر بجميع شقوقها وفروعها سجلت فى ديوان الآثار التى يجب حفظها عن الاندراس، لأنّها شارة خاصة لأسلاف الحافظين لها«فاعتبروا يا أُولى الأَبصار». فأين المسلمون الغيارى، أعنى: الذين افتقدوا يوماً شعرة من رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وكانوا يحتفظون بها فى مسجد من مساجد الهند فانتابتهم رجّة عظيمة، وثارت ثائرتهم حتى اضطرت الدولة العلمانية الهندية إلى بذل الجهود للعثور على تلك الشعرة، حتّى عثر عليها وأعيدت إلى مكانها. فأين أُولئك الغيارى حتّى يروا بأُم أعينهم أنّ الآثار النبوية تدمّر، الواحد تلو الآخر وفى كلّ شهر ويوم على أيدى السلطات السعودية. ولن تنتهى الجريمة إلى هذا الحدّ، بل ربما تتعدى إلى ما لا سمح اللّه به لهم. ومن الملفت للنظر أنّ المفكّرين من علماء الإسلام عندما قام الوهابيون بهدم قبور أئمّة أهل البيت فى البقيع(۱) أعلنوا للعالم الإسلامى بأنّ الجريمة لن تتوقف عند هذا الحد، بل إنّ هدم البقيع مقدمة لهدم ومحو جميع آثار

الرسالة، وفى ذلك يقول المرجع الدينى الراحل (۲) السيد صدر الدين العاملى: ـــــــــــــــــــ

۱ . عام ۱۳۴۴هـ .

۲ . لبى دعوة ربّه عام ۱۳۷۳هـ (۳۳۹)

لعمرى إنّ فاجعة البقيع * يشيب لهولها فود الرضيع وسوف تكون فاتحة الرزايا * إذا لم نصح من هذا الهجوع أما من مسلم للّه يرعى * حقوق نبيّه الهادى الشفيع (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلب يَنْقَلِبُونَ) . الرابع: نصيحة لأعلام الحنابلة وقادتهم اتّفق المسلمون تبعاً للذكر الحكيم على أنّ الرسالة المحمّدية رسالة عالمية أوّلاً، وخاتمية ثانياً، قال سبحانه: (قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَميعاً)(۱)، وقد حملت الأُمّة الإسلامية رسالة إبلاغ الإسلام على عواتقها بعد التحاق النبى الأكرم بالرفيق الأعلى فنشروها فى مشارق الأرض ومغاربها حسبما توفر لديهم من الإمكانيات، وقد وصلت النوبة فى هذا العصر إلى قادة المسلمين وأئمّتهم، فيجب عليهم بث الإسلام وتعاليمه بين الناس ـ شرقيّهم وغربيّهم ـ فى حدود الإمكانيات والوسائل الموجودة فى سبيل بسط الدعوة ونشرها حتّى ينقذوا العالم من مخالب المادية ومن الحروب التى تهدد كيان الإنسانية. وممّا لا شكّ فيه أنّ للتأثير فى النفوس وجذب القلوب، عللاً وأسباباً مختلفة، أهمها كون الداعى مجهزاً بقوة المنطق والاستدلال القاطع الذى تخضع له العقول السليمة، فعند حسن الدعوة وأسلوبها،وقوّة المادة ورصانتها، ترى القلوب تهوى إليها من كلّ صوب وجانب،والناس يدخلون فى دين اللّه أفواجاً، وأمّا إذا كانت الدعوة غير منسجمة مع الفطرة السليمة، فنفور الناس هو النتيجة الحتمية وتكون من قبيل«مايفسده أكثر ممّا يصلحه». وفى ظل هذا العامل سيطرت الدعوة المحمدية ـ آن ظهورها ـ على قلوب العالم واكتسحت العراقيل الموجودة أمامها، وما ذاك إلّا لكون الدعوة حائزة للشرائط موافقة للطباع، وإلى هذا الانسجام يشير قوله سبحانه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّين حَنيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الّتى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ ـــــــــــــــــــ

۱ . الأعراف:۱۵۸. (۳۴۰) الدِّينُ القَيِّمْ وَلكِنْ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُون) .(۱)

فالدعوة إلى التوحيد ورفض الأصنام، وبسط العدل والقسط بين الناس، والدعوة إلى الاعتدال فى ما يرجع إلى أُمور الدنيا والآخرة، وتأمين سبل الحياة، والحفاظ على الروابط العائلية و... كلّها أُصول إسلامية مطابقة للفطرة الإنسانية. فإذا كان هذا هو الأساس لنشر الإسلام فى العالم وجذب النفوس إليه، فيجب على قادة المسلمين على الإطلاق والحنابلة وأهل الحديث بالخصوص، تجريد الدعوة عن الأُمور التى تعارض الفطرة ومن التى تناطح العقل السليم، ثمّ عرض الإسلام بشكل يتجاوب مع العقول السليمة كما كانت عليه الدعوة المحمدية آن ظهورها وبعدها، وهذه الغاية المتوخاة لا تتحقّق ـ بلا مجاملة ـ إلّابدراسة الأُصول والعقائد التى نسجت على طبق الأحاديث الموجودة فى الصحاح والمسانيد من رأس والعودة إليها من جديد حتى تصفو الدعوة من الأُمور التى يشمئز منها شعور الإنسان الحر صاحب الفطرة السليمة التى بنى عليها دين اللّه فى عامة الشرائع السماوية. هلمّ معى نلاحظ نماذج من الأُصول التى قامت عليها الدعوة الحنبلية المتسمّية فى هذه العصور بالدعوة السلفية، ثمّ نعرضها على محك الصحة ومقياسها «الفطرة الإنسانية»، فهل هى تتجاوب معها؟ ونحن لا نطيل الكلام بعرض عامة الأُصول بل نأخذ ـ كما قلنا ـ نماذج ونجعلها على مرأى ومسمع من القارئ. أفهل يمكن دعوة شعوب العالم إلى الإسلام مع القول بأنّ اللّه سبحانه كإنسان له من الأعضاء ما للإنسان عدا اللحية والفرج، وأنّ له عينين ناظرتين وذراعين وصدراً ونفساً ورجلاً وحقواً ونزولاً وصعوداً إلى غير ذلك ممّا ملأ كتب الحنابلة وقليلاً من كتب الأشاعرة؟ وأقصى ما عندهم أنّ له سبحانه هذه ـــــــــــــــــــ

۱ . الروم:۳۰. (۳۴۱)

الأعضاء ولكن بلا كيفية، و قد عرفت حال التدرّع به وأنّه ممّا لا يسمن ولا يغنى من جوع. أفيصحّ لنا دعوة أساتذة العلوم الإنسانية والطبيعية من المخترعين والمكتشفين فى عالمنا الراهن إلى الإله الذى استقرّ على عرشه فوق السماوات ينظر منه إلى العالم كلّه الذى هو تحت قدميه، والعرش يئط تحته أطيط الرحل تحت الراكب؟! باللّه عليك إذا كانت رسالتنا فى العالم نشر ما جاء فى قول هذا

الشاعر الحنبلى: للّه وجه لا ـ يحد بصورة * ولربنا عينان ناظرتان وله يدان كما يقول إلهنا * ويمينه جلّت عن الأيمان! فهل يتصور لنا النجاح فى ميدان الدعوة؟! أو يكون التراجع والفشل نتيجة حتمية للدعوة، وإنّنا سوف نقابل بالقول بأنّ المادية والإلحاد أولى وأرجح من الاعتقاد بهذا الإله الذى جلس على سرير كجلوس الملوك ينظر إلى ملكه بعيونه ويفعل بيده ويكتب ببنانه. أو ليس القول بالجبر وسلب الاختيار هى النتيجة الطبيعية للروايات الواردة فى الصحاح والمسانيد حول القضاء والقدر، و قد مضى حديث مسلم: «فوالذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه و بينها إلّاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار...».(۱)؟! أو ليس هذا تطويحاً بالوحى كلّه وتزييفاً للنشاط الإنسانى من بدء الخلق إلى قيام الساعة وتكذيباً للّه والمرسلين قاطبة. قال سبحانه: (قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْها) (۲). و قال سبحانه: (وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَفَلْيُؤْمِنْوَمَنْ شاءَفَلْيَكْفُر) .(۳) ______________

۱ . راجع ص ۲۶۴ من هذا الجزء.

۲ . الأنعام:۱۰۴.

۳ . الكهف:۲۹. (۳۴۲)

وهناك أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى وتعرف الإنسان بأنّه مسلوب المشيئة، وأنّه مقهور بكتاب سابق، وأنّ سعيه باطل، لأنّه لا يغير شيئاً ممّا خط عليه فى الأزل مع أنّه سبحانه يقول: (وَأَنْ لَيْسَ للإنْسان إلّاما سعى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرى* ثُمَّ يُجزاهُ الجَزاءَ الأَوفى) .(۱) فهذه أحاديث واهية خلّفت تعاليم باطلة فى أوساط المسلمين يجب تجريد الدعوة الإسلامية منها، فهى تعاكس منطق الفطرة أوّلاً، والعقل السليم ثانياً، ومنطق العقلاء ثالثاً، ومنطق الشرائع عامة رابعاً، فليس لهذه الروايات أن تطيح على المحفوظ من كتاب اللّه وسنّة رسوله، أو تنافح ما اجتمع عليه عقول العالمين، ولو صحت هذه الروايات، لكانت الحياة عملاً مسرحياً، والدعوة الإلهية دعوة خادعة، والناس محكومون بما جف عليه القلم وليس لهم التخطّى عنه قدر أنملة. هذه بعض الأُصول(۲) التى تناقض الفطرة، وهى أكثر ممّا حررناه هنا، فليكن منها شعار الحنابلة وبعدهم الأشاعرة بأنّه: يجوز التكليف بما لا ـ يستطاع ولا ـ يطاق.(۳) يجوز تعذيب أطفال المشركين يوم القيامة.(۴) يعذب الميت ببكاء أهله عليه.(۵) ليس للعقل الحكم بحسن شىء أو قبحه، و عليه : يصحّ له سبحانه إدخال المؤمن الجحيم، والعاصى الجنّة. إنّ الإطاحة بحاكمية العقل فى مجال التحسين والتقبيح إماتة للمنطق وإحياء للخرافات، وفى الوقت نفسه ردّ لصميم الدعوة المحمدية المبنية على التدبّر ______________

۱ . النجم:۳۹ـ ۴۱.

۲ . قد تعرفت على مصادر هذه الأُصول فى الفصل الخامس من هذا الجزء: ص ۱۳۸ ـ ۱۷۵.

۳ . اللمع: ۱۱۶.

۴ . اللمع: ۱۱۶.

۵ . صحيح البخارى: كتاب الجنائز، الباب ۵. (۳۴۳)

والتعقّل والاحتكام إلى العقل فى مجال الطاعة والمعصية، يقول سبحانه: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالمُجْرِمِين* ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُون) .(۱) و أُقسم باللّه صادقاً أنَّ الدعوة الإسلامية لا تكون ناجحة فى أقطار الغرب والشرق إذا كانت هذه الأُصول هى اللحمة والسدى لها. إنّ ملحمة الكنائس ومغادرة المثقفين من المسيحيّين عن دينهم هى العبرة لقادة الحنابلة ومن يقتفى أثرهم، ولم يكن للهوّة السحيقة بين أصحاب الكنائس والمثقفين سبب، سوى وجود الخرافات فى تعاليم الكنائس، فلم تزل تدعو إلى التثليث أوّلاً، وإلى التجسيم ثانياً، وصلب المسيح لأجل إنقاذ البشرية ثالثاً، وبيع أوراق المغفرة رابعاً، ونوع خاص من الجبر وسلب الاختيار خامساً، هذا وذاك صار سبباً لانسحاب الشباب والعلماء عن ساحة الكنائس والبيع واختصاص الأماكن المقدّسة بالسذج من الناس الذين لا يعرفون من العلم والحياة سوى شىء طفيف. هذه نصيحتى لقادة الحنابلة، وفى الأخير نضيف إليها كلمة وهى أنّ الحنابلة وأهل الحديث عمدوا إلى احتكار

اسم «أهل السنّة» لأنفسهم ولا يصفون سائر الطوائف الإسلامية به، حتّى إنّ ابن تيمية محيى الدعوة السلفية فى القرن الثامن لا يبيح تسمية الأشاعرة باسم أهل السنّة فضلاً عن المعتزلة والشيعة وغيرهم، ولكن فى هذا الاحتكار بل فى هذه التسمية نكتة لافتة: إنّ توصيف طائفة من المسلمين باسم أهل السنّة من العناوين الطارئة الحديثة التى ظهرت فى آخر القرن الأوّل أو فى أوّليات القرن الثانى، فإنّك لا ترى أثراً من هذا الاسم ولا التوصيف به فى زبر الأوّلين إلاّ فى رسالة عمر بن عبد العزيز فى القدر التى مرت بنصها فى ما سبق(۲)، وقد عرفت أنّ كتابة الحديث وتدوينه والتحدّث به وإفشاءه كان من الأُمور المنكرة، وهذا هو عمر بن الخطاب قال لأبى ذر و عبد اللّه بن مسعود وأبى الدرداء: ما هذا الحديث الذى تفشون عن محمّد؟(۳) وكان يقول أيضاً: جرّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن

---

۱ . القلم:۳۵و ۳۶.

۲ . قد مرّت الرسالة فى ص ۲۹۲ من هذا الجزء.

۳ . كنز العمّال: ۱۰/۲۹۳، الحديث ۲۹۴۷۹. (۳۴۴)

رسول اللّه وامضوا وأنا شريككم.(۱) وقد خلّف هذا المنع فى نفوس المسلمين أثراً خاصاً فعاد التحدّث وكتابة الحديث وتدوينه أمراً منكراً لديهم وتركه أمراً مرغوباً فيه، حتّى إنّه بعد ما أصدر الخليفة عمر بن عبد العزيز الأمر الأكيد بضرورة تدوين الحديث، كانت رواسب الحظر تحول دون القيام بما أمر به الخليفة فلم يكتب شىء من أحاديث النبى إلاّ صحائف غير منظمة ولا مرتبة إلى أن جاء عصر أبى جعفر المنصور فقام المحدثون بتدوينه سنة مائة وثلاثة وأربعين. فإذا كان التحدّث بسنّة الرسول أمراً منكراً فى القرن الأوّل وأوّليات القرن الثانى، فكيف يحتمل أن يعرف أُناس ينكرون نقل الحديث وإفشاءه باسم «أهل السنّة» وعلى ذلك فلا نحتمل وجود هذه التسمية فى تلك العصور، و إنّما حدثت تسمية أهل الحديث وتوصيفهم بأهل السنّة بعدما شاع التحدّث به وقام ثلة جليلة من المسلمين بجبر ما انكسر. فعلى ضوء ذلك، لا يصحّ احتكار هذا اللقب وتسمية طائفة خاصة به، بل كلّ من يحترم حديث رسول اللّه وسنّته ويعمل بها فهو من أهل السنّة فالمسلمون سنّيهم وشيعيّهم، أشعريّهم ومعتزليّهم، من غير استثناء طائفة واحدة كلّهم أهل السنّة، أى مقتفون سنّة رسول اللّه وأثره من قوله وفعله وتقريره. والشيعة أولى بهذا الوصف من غيرهم، فإنّهم لم يزالوا يحترمون سنّة رسول اللّه منذ حياته إلى يومنا هذا، فقد قام الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ بتدوين أحاديثه كما قامت ثلّة جليلة من خيار صحابة الإمام بتدوين الحديث إلى أن وصلت حلقات التأليف من عصر الإمام إلى عصر الأئمّة الاثنى عشر وبعدهم إلى أعصارنا هذه، فدوّنوا سنّة رسول اللّه المروية عن طرق أهل البيت و أئمّتهم وما صحّ لديهم من طرق غيرهم. أفهل يصحّ بعد هذا احتكار الحنابلة لهذا اللقب وعدم السماح بإطلاقه على غيرهم والتقوّل بـ: نحن السنّيون؟! ــــــــــــــــــــــــــ

۱ . طبقات ابن سعد:۶/۷ ;والمستدرك:۱/۱۰۲. (۳۴۵) موقف تاريخى لشيخ الأزهر من عقائد الحنابلة

إذا كبر على أعلام الحنابلة ما قدّمت إليهم من النصيحة الخالصة، فعليهم ـ على الأقل ـ الأخذ بما قاله الشيخ «سليم البشرى» شيخ الجامع الأزهر الأسبق، فقد رفع إليه الشيخ «أحمد» شيخ معهد بلصفورة سؤالاً ما هذا حاصله: ما قولكم دام فضلكم فى رجل من أهل العلم هنا تظاهر باعتقاد جهة فوقية للّه سبحانه وتعالى، ويدّعى أنّ ذلك مذهب السلف وتبعه على ذلك البعض القليل من الناس، وجمهور أهل العلم ينكرون عليه، والسبب فى تظاهره بهذا المعتقد ـ كما عرض على هو بنفسه ذلك ـ عثوره على كتاب لبعض علماء الهند نقل فيه صاحبه كلاماً كثيراً عن ابن تيمية فى إثبات الجهة للبارى سبحانه، وليكن معلوماً أنّه يعتقد الفوقية الذاتية له جلّ ذكره، يعنى أنّ ذاته فوق العرش بمعنى ما قابل التحت مع التنزيه، ويخطّئ أبا البركات الدرديرى، فى قوله فى خريدته: منزّه عن الحلول والجهة * والاتصال والانفصال و السفة يخطّئه فى موضعين من البيت: قوله: «والجهة» وقوله: «والانفصال»، و يخطّئ الشيخ «اللقانى» فى قوله: ويستحيل ضد ذى الصفات * فى حقّه كالكون فى الجهات وبالجملة فهو مخطّئ لكلّ من يقول بنفى الجهة مهما كان قدره ـ إلى أن قال ـ : إنّ قول فضيلتكم لا ـ سيما فى مثل هذا الأمر هو الفصل. فوافاه الجواب بالنحو التالى: إلى حضرت الفاضل العلاّمة

الشیخ أحمد علی بدر خادم العلم الشریف ببلصفورة: قد أرسلتم بتاریخ ۲۲محرم سنة ۱۳۲۵ هـ مکتوباً مصحوباً بسؤال عن حکم من یعتقد ثبوت الجهة له تعالی، فحررنا لکم الجواب الآتی وفیه الکفایة (۳۴۶)

لمن اتّبع الحقّ وأنصف، جزاکم اللّه عن المسلمین خیراً: اعلم أیّدک اللّه بتوفیقه وسلک بنا وبک سواء طریقه، أنّ مذهب الفرقة الناجیة وما علیه أجمع السنّیون: أنّ اللّه تعالی منزّه عن مشابهة الحوادث، مخالف لها فی جمیع سمات الحدوث، ومن ذلک تنزّهه عن الجهة والمکان، کما دلّت علی ذلک البراهین القطعیة، فإنّ کونه فی جهة یستلزم قدم الجهة أو المکان وهما من العالم، وهو ما سوی اللّه تعالی، و قد قام البرهان القاطع علی حدوث کلّ ما سوی اللّه تعالی بإجماع من أثبت الجهة و من نفاها، ولأنّ المتمکن یستحیل وجود ذاته بدون المکان مع أنّ المکان یمکن وجوده بدون المتمکن لجواز الخلاء، فیلزم إمکان الواجب ووجوب الممکن وکلاهما باطل، ولأنّه لو تحیز لکان جوهراً لاستحالة کونه عرضاً، ولو کان جوهراً فإمّا أن ینقسم وإمّا أن لا ینقسم، وکلاهما باطل، فإنّ غیر المنقسم هو الجزء الذی لا ـ یتجزأ وهو أحقر الأشیاء، تعالی اللّه عن ذلک علواً کبیراً. والمنقسم جسم وهو مرکّب والترکیب ینافی الوجوب الذاتی، فیکون المرکّب ممکناً یحتاج إلی علّة مؤثرة، وقد ثبت بالبرهان أنّه تعالی واجب الوجود لذاته، غنی عن کلّ ما سواه، مفتقر إلیه کلّ ما عداه، سبحانه لیس کمثله شیء وهو السمیع البصیر.... هذا وقد خذل اللّه أقواماً أغواهم الشیطان وأزلّهم، اتّبعوا أهواءهم وتمسّکوا بما لا یجدی فاعتقدوا ثبوت الجهة، تعالی اللّه عن ذلک علوّاً کبیراً، واتّفقوا علی أنّها جهة فوق، إلاّ أنّهم افترقوا، فمنهم من اعتقد أنّه جسم مماس للسطح الأعلی من العرش، وبه قال الکرامیة والیهود، وهؤلاء لا نزاع فی کفرهم ;ومنهم من أثبت الجهة مع التنزیه، وأنّ کونه فیها لیس ککون الأجسام، وهؤلاء ضلاّل فسّاق فی عقیدتهم، وإطلاقهم علی اللّه ما لم یأذن به الشارع، ولا مریة أنّ فاسق العقیدة أقبح وأشنع من فاسق الجارحة بکثیر سیما من کان داعیة أو مقتدی به. وممّن نسب إلیه القول بالجهة من المتأخرین، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة الحرانی الحنبلی الدمشقی من علماء القرن الثامن، فی ضمن أُمور نسبت إلیه خالف الإجماع فیها عملاً برأیه، وشنّع علیه معاصروه، بل (۳۴۷)

البعض منهم کفروه، ولقی من الذل والهوان ما لقی، وقد انتدب بعض تلامذته للذب عنه وتبرئته ممّا نسب إلیه وساق له عبارات أوضح معناها، وأبان غلط الناس فی فهم مراده، واستشهد بعبارات له أُخری صریحة فی دفع التهمة عنه، وأنّه لم یخرج عمّا علیه الإجماع، وذلک هو المظنون بالرجل لجلال قدره ورسوخ قدمه. وما تمسک به المخالفون القائلون بالجهة أُمور واهیة وهمیة، لا تصلح أدلّة عقلیة ولا نقلیة، قد أبطلها العلماء بما لا مزید علیه، وما تمسکوا به ظواهر آیات وأحادیث موهمة کقوله تعالی: (الرّحمنُ عَلی الْعَرشِ اسْتَوی)(۱) وقوله: (إلیهِ یَصْعَدُ الکَلِمُ الطَیِّب) (۲) وقوله: (تَعْرُجُ المَلائِکَةُ والرُّوحُ إلیهِ)(۳)وقوله:(أأمِنتُمْ مَنْ فِی السَّماءِ أن یَخْسِفَ بِکُمُ الأرض)(۴) وقوله: (وَهُوَ القاهِرُ فوقَ عِبادِهِ)(۵) وکحدیث إنّه تعالی ینزل إلی سماء الدنیا کلّ لیلة، وفی روایة: فی کلّ لیلة جمعة، فیقول هل من تائب فأتوب علیه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ وکقوله للجاریة الخرساء: أین اللّه؟ فأشارت إلی السماء، حیث سأل بأین التی للمکان ولم ینکر علیها الإشارة إلی السماء، بل قال إنّها مؤمنة. ومثل هذه یجاب عنها بأنّها ظواهر ظنیة لا تعارض الأدلّة القطعیة الیقینیّة الدالّة علی انتفاء المکان والجهة، فیجب تأویلها وحملها علی محامل صحیحة لا تأباها الدلائل والنصوص الشرعیة، إمّا تأویلاً ـ إجمالیاً بلا ـ تعیین للمراد منها کما هو مذهب السلف، وإمّا تأویلاً تفصیلیاً بتعیین محاملها وما یراد منها کما هو رأی الخلف، کقولهم: «إنّ الاستواء بمعنی الاستیلاء» کما فی قول القائل: قد استوی بشر علی العراق * من غیر سیف ودم مهراق وصعود الکلم الطیب إلیه قبوله إیاه ورضاه به، لأنّ الکلم عرض یستحیل صعوده وقوله: «من فی السماء» أی أمره وسلطانه أو ملک من ملائکته موکل بالعذاب، وعروج الملائکة والروح إلیه صعودهم إلی مکان یتقرب إلیه فیه. وقوله:(فوق عباده) أی بالقدرة والغلبة، فإنّ کلّ من قهر غیره وغلبه فهو فوقه أی عال علیه بالقهر والغلبة، کما یقال: أمر فلان فوق أمر فلان، أی إنّه أقدر منه وأغلب. ونزوله إلی السماء محمول علی لطفه ورحمته ــــــــــــــــــــ

۱ . طه:۵.

۲ . فاطر: ۱۰.

۳ . المعارج : ۴.

۴ . الملك: ۱۶.

۵ . الأنعام: ۱۸. (۳۴۸)

وعدم المعاملة بما يستدعيه علو رتبته وعظم شأنه على سبيل التمثيل، وخصّ الليل لأنّه مظنّة الخلوة والخضوع وحضور القلب. وسؤاله للجارية «بأين» استكشاف لما يظن بها اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقده الوثنيون، فلمّا أشارت إلى السماء، فهم أنّها أرادت خالق السماء فاستبان أنّها ليس وثنية، وحكم بإيمانها. وقد بسط العلماء فى مطوّلاتهم تأويل كلّ ما ورد من أمثال ذلك، عملاً بالقطعى وحملاً للظنّى عليه، فجزاهم اللّه عن الدين وأهله خير الجزاء. ومن العجيب أن يدع مسلم قول جماعة المسلمين وأئمّتهم ويتمشدق بترّهات المبتدعين وضلالتهم. أما سمع قول اللّه تعالى (و[من] يَتَّبِع غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّه ما تَوَلّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصِيراً)(۱) فليتب إلى اللّه تعالى من تلطخ بشىء من هذه القاذورات ولا يتبع خطوات الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا يحملنه العناد على التمادى والإصرار عليه، فإنّ الرجوع إلى الصواب عين الصواب والتمادى على الباطل يفضى إلى أشدّ العذاب(مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِل فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرشِداً) .(۲) نسأل اللّه تعالى أن يهدينا جميعاً سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلّى اللّه تعالى وسلم على سيّدنا محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أملاه الفقير إليه سبحانه «سليم البشرى» خادم العلم والسادة المالكية بالأزهر عفا عنه آمين آمين.(۳) هذه هى قصة أهل الحديث والدعوة السلفية بأدوارها المختلفة. ________________

۱ . النساء: ۱۱۵.

۲ . الكهف: ۱۷.

۳ . الفرقان للعلاّمة القضاعى المصرى: ۷۲ـ ۷۶، و قد طبع مع كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقى، وتوفى المجيب عام ۱۳۳۵هـ وهو الذى قد جرت بينه و بين السيد شرف الدين مكاتبات طبعت باسم «المراجعات». (۳۴۹) (قُلْ هذِهِ سَبِيلى أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصيرة أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحانَ اللّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكين). (۱) بلغ الكلام إلى هنا فى اليوم الثالث من شعبان المعظّم ميلاد الإمام الطاهر سيد الشهداء ـ عليه السَّلام ـ من شهور عام ۱۴۰۸هـ .ق قم المشرّفة ________________

۱ . يوسف: ۱۰۸.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ یوم.

مركز "القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة)

تحتَ عنایـة سـماحة آیـة الله الحـاجّ السـیّد حسن الإمـامیّ – دامَ عِزّهُ – و مـع مساعَـدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحـوزات العلمیّـة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهـمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشـّباب و عموم النـاس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطـالب النّافعـة – مکـانَ البَلاتیثِ المبتذلـة أو الرّدیئـة – فی المحـامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِقِ و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جـهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفتَرَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹